

تنفرد «الوطن» بنشر الجزء الرابع من مذكرات العلامة د.يوسف القرضاوي: ملامح سيرة ومسيرة (ابن القرية والكتاب) ، وهو يشمل بضعة عشر عاما (حوالي ١٨) من هذه السيرة والمسيرة: وهي سنوات حافلة بالأحداث في على المستوى الشخصي في حياة الشيخ والمحلي والعربي والإسلامي والعالمي، على المستوى الشخصي يتحدث فضيلته عن تخرج كل أبنائه. وتزوج كل بناته. وبدأية قصة زواجه الثاني. وتعيينه عميدا لكلية الشريعة ومديرا لمركز بحوث السنة والسيرة. ونجاحه في الدعوة الى تأسيس الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية بالكويت. وعمله رئيسا لهيئة الرقابة الشرعية لعدد من المصارف الإسلامية. واختياره عضوا في المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي، وعضوا في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن (مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي) وعضو مجلس أمناء مركز اكسفورد للدراسات الإسلامية، وعضو مجلس أمناء منظمة الدعوة الإسلامية بالخرطوم، وغيرها. وحصوله في هذه الفترة على بعض الجوائز العالمية.

ومن خلال هذه المذكرات سيمر القارئ بمعظم أحداث العصر في منطقتنا العربية والإسلامية، بحكم أن صاحبها يعيش في قلب هذه المنطقة، وقلب هذه الأحداث، وقد قدر له في هذه المرحلة أن يتفاعل بها ومعها متأثرا ومؤثرا.

وتتميز هذه السنوات بأمرين لهما أهمية قصوى في حياة القرضاوي:

الأول: الانتشار الكبير له في أنحاء العالم في الشرق والغرب، وزيارة كل قارات العالم حتى أستراليا، وأمريكا الجنوبية، حتى سماه البعض «الشيخ الطائر».

والثاني: ظهور المد الإسلامي أو الصحوة الإسلامية بقوة في تلك المرحلة، والتي يعتبرها الشيخ جزءا منه، كأنما هي ولده وفلذة كبده.

وسنتابع نشر المذكرات يوميا بمافيها من تفاصيل يرويها القرضاوي لأول مرة.

رفضت منصب المرشد العام للإخوان وفضلت أن أكون للمسلمين جميعا

وفاة الشيخ مصباح محمد عبده

أبدأ هذا الجزء «من ملامح السيرة والمسيرة» بأمر كان ينبغي أن يكون في الجزء السابق (الثالث) ولكن الذاكرة التي أصابتها الشيخوخة خانتني، فحسبت الحادث متأخرا عن وقته. ولا غرو أن ينسى المرء بعض الأحداث، أو نسي ميقاتها، فقد نسى آدم أبو البشر، كما ذكر القرآن، ومن شابه أباه فما ظلم، وقال في ذلك الشاعر:

فان أولَ ناسٍ أولُ الناس!

وقال فتى موسى «إِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ» (الكهف:٦٣).

هذا الحدث هو: وفاة أخي وصديقي الشيخ مصباح محمد عبده رحمه الله رحمة واسعة. فقد عرفت بالسؤال وبالرجوع الى التواريخ: أنه توفي في صيف سنة ١٩٧٥م.

وهذا هو الصديق الثاني الذي أفقده من أصدقائي المقربين، أصدقاء الشباب، بعد أن فقدت صديقي الأول محمد الدرداشي مراد رحمه الله.

وأنا رجل عاطفي، أحزن وأفرح، وأضحك وأبكي، وان كانت عاطفة الحزن عندي أقوى، ومنها الحزن على الأصدقاء.

أجل، لقد ودعنا الأخ الحبيب والصديق الصدوق، الشيخ مصباح محمد عبده، المدرس بالمعهد الديني الثانوي في قطر، والذي وافته المنية فجأة في أوائل العام الدراسي في ٢٦/٩/١٩٧٦م، بعد أزمة قلبية، لم يسعفه فيها الدواء المعتاد الذي كان يتناوله عند ما تصيبه هذه الأزمة، يبدو أن الدواء قد فرغ من عنده، ولم يسارع باحضار البديل، لينفذ قضاء الله في وقته المقدر له، كما قال تعالى «إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاء لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ» (نوح:٤) «وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاء أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» (المنافقون:١١).

وقد اتصل بي أهله، وقد بلغ الكتاب أجله، فذهبت الى منزله، لأجد (المصباح) قد انطفأ، وقد فات أوان الاسعاف والانقاذ، ولم يبق الا التسليم لقدر الله الذي لا يرد، والا أن نقول «إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ» (البقرة:١٥٦).

كان مصباح كأنما يتهيأ للخروج، فقد كنا في اجازة العيد، ولذا وجدته بكامل لباسه، وكل شيء فيه كأنه لا يزال حيا. لولا هذا الكائن الداخلي الذي يجحده الماديون، ويؤمن به كل ذي دين، وهو ما نسميه (الروح). الذي به يكتسي هذا الغلاف الطيني (الحياة).

ودون هذه الروح – أو ما يسميه عامة الناس: السر الالهي – يتحول الانسان صاحب العلم والبيان، الى جثة هامدة، بمجرد أن يختطف الموت هذا الكائن الداخلي، ولا يستطيع أحد له مقاومة. وهكذا دخلنا الحياة بغير ارادتنا، وخرجنا منها بغير ارادتنا. «وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ» (المؤمنون:٨٠). وأصرت زوجته على أن يدفن في بلده محلة أبو علي، وأن ينقل جثمانه – كما هي العادة – على الطائرة الى القاهرة، ثم تحمله سيارة اسعاف الى حيث يقبر، وكنا نود لو ووري جثمانه في ثرى قطر، وهي أرض إسلامية، بدل السفر وما فيه من مشقة. ولكن أمام اصرار الزوجة، لم يكن بد من تسفيره على حساب حكومة قطر، وأن يسافر أحد الاخوة في رفقة أهله.

كان مصباح من أصدقائي القدامى، ومن رفقاء الدرب في الدراسة والسكن والدعوة والمحنة.

لقد تعارفنا حين كنا طلبة في المرحلة الثانوية في طنطا، وزرته في قريته، وزارني في قريتي، ولكني كنت الأكثر ترددا على قريته (محلة أبو علي: القنطرة) وهي تعتبر الجار ذا القربى للمحلة الكبرى. والآن تلاصقتا، وأصبحت كأنها جزء من المحلة الكبرى.

وكان مصباح قد توفي أبوه وهو صغير، وتربى يتيما مثلي، وتولت تربيته أمه، وكانت امرأة عاقلة ذات عزيمة قوية، ما زالت وراءه حتى دخل الأزهر وتخرج فيه.

وكان لي كثرة من الأصدقاء في محلة أبو علي، منهم من لحق بربه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا. منهم: السيد النفاض، ورمزي الدمنهوري، والسيد الغضبان، وعبد القادر عامر، حفظهم الله، ومنهم: حمدي شبند، وعلي خفاجة، وعبد المجيد بقلولة رحمهم الله. وكنت كثيرا ما أبيت في محلة أبو علي – أيام العزوبة – مع أحد الأصدقاء.

وفي كلية أصول الدين سكن معي مصباح في (شقة شارع راتب باشا) الشهيرة، في شبرا، ولكنه نجا من الاعتقال في حين معظم سكانها اعتقلوا.

لا يوجد في الإسلام «نص نص» يوجب على الأمة أن تبايع إمامها مدى الحياة ولا أي مدة محددة

قصة التنظيم العالمي للإخوان المسلمين ظهرت بعد الصدام مع عبد الناصر وكنت أحد مخططي انطلاقها دوليا

وعمل الشيخ مصباح مفتشا للمساجد في وزارة الأوقاف مع الشيخ الغزالي، الى أن جاء الى قطر.

وقد تحدثت عن مصباح من قبل في هذه المذكرات بمناسبات شتى، وخصوصا في الجزء الأول. وقد اعتقل معنا في محنة ١٩٤٩م، ودخل معي معتقل هايكستب ورحلنا معا الى الطور، وأصابه ما أصابه من مرض الروماتيزم. وذكرت من فكاهاته وطرائفه، ما أضحكنا وأدخل علينا البهجة في أتون الاعتقال.

كان مصباح رجلا طيب القلب، نقي السريرة، ظاهره كباطنه، محببا الى الناس، لم أر أحدا يكرهه أو يعاديه. فقد كان سهل التعامل، هينا لينا متواضعا خافض الجناح لاخوانه، يألف ويؤلف، بسيطا في مظهره وفي مخبره وفي حياته كلها، كما كان فكها خفيف الروح، له لطائف وفكاهات تصدر عنه بلا تكلف ولا تصنع.

كنا ونحن بالكلية اذا سئل: كم كان ترتيبك يا شيخ مصباح؟ فيقول: الشيخ يوسف هو الأول من ناحية، وأنا الأول من الناحية الأخرى! فنحن نحيط الكلية من جانبيها!!

وكان يعمد الى الألفاظ الغريبة والشائكة، اذا كانت صحيحة، مثل لفظة الدلالة، ينطقها بضم الدال (الدُّلالة) فاذا اعترض عليه معترض وسأله، قال: الدال يجوز فيها الفتح والكسر والضم، ثم يقول: أنا آتي بالغريب، ليستشكل عليّ فأجيب!

وله شعر مما يسميه بعضهم: الشعر الحلبنتيشي! لا أذكر منه الآن شيئا أرويه.

رحم الله مصباحا وغفر له وتقبله في عباده الصالحين الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، وجمعنا به في الفردوس الأعلى. آمين.

محنة الاخوان في مصر «١٩٦٥م»

كانت محنة الاخوان في مصر ١٩٦٥م، التي بدأت باعلان الرئيس عبد الناصر في شهر أغسطس من موسكو، بأنه اكتشف تنظيما للاخوان معاديا للثورة، وأنه سيضرب بيد من حديد، ولن يرحم ولن يلين!!

واقتيد عشرات الآلاف من الاخوان الى المعتقلات والسجون في أيام معدودات حتى ضاقت السجون والمعتقلات بالأعداد الهائلة الذين جيء بهم من كل مدينة وقرية.. كانت هذه المحنة -على ما فيها من شدة وقسوة ووحشية- تحمل منحة في طيها، والعرب يقولون: رب ضارة نافعة. والصوفية يقولون: كل قدر معه لطف. ومن ظن انفكاك لطفه عن قدره، فذلك لقصور نظره. «إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ» (يوسف:١٠٠)، والله عز وجل يقول «فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً» (النساء:١٩). وكان من الخير الكثير الذي جاءت به هذه الشدة: أن أكثر الاخوان الذين يعيشون خارج مصر لأسباب شتى: قد جمعتهم المحنة من تفرق، وأحيت فيهم روح الأخوّة بعد همود، وأيقظت فيهم الغيرة على العمل الإسلامي بعد رقود.

وقد قال جمال الدين الأفغاني: بالضغط والتضييق تلتحم الأجزاء المبعثرة!

الاخوان جماعة عالمية

كان أول ما جمع الاخوان : التفكير في معونة الأسر المنكوبة من اخوانهم، ثم انتقلوا من هذا الواجب المؤقت، الى التفكير في ايجاد لون من الترابط الدائم، يجمع بين أبناء الدعوة من المصريين أولا، ثم من اخوانهم في البلاد العربية المختلفة.

وبدأ التفكير في احياء المكتب التنفيذي القديم، الذي كان يمثل الدول العربية أو عددا منها. اذ أن حركة الاخوان ليست مجرد جماعة مصرية، بل هي حركة إسلامية عالمية، وان كانت مصرية النشأة.

وبدأت لقاءات كان في أول الأمر يغلب عليها الجانب العلمي والبحثي في شؤون الدعوة وقضاياها الفكرية، ومعوقاتها العملية، كما تحدثت عن ذلك في لقاء استنبول في صيف سنة ١٩٦٨م.

ثم بدأ الأمر يأخذ شكلا تنظيميا، كما كان قبل ذلك. يدعى من كل بلد واحد يمثل الدعوة فيها. وكنت أحضر ممثلا للاخوان في قطر، وكنا في أول الأمر مشغولين بوضع خطة للعمل المستقبلي، ليناقشها الأعضاء، فاذا أقروها، وضعت موضع التنفيذ.

خطة التنظيم العالمي



● جمال عبد الناصر

وكلفني الاخوة أن أقوم بتقديم تصور عام لهذه الخطة، ومحاورها الأساسية وخطوطها العريضة، وأذكر أني قد عكفت على هذا الأمر، ووضعت تصورا لهذه الخطة، في الداخل والخارج: في المجال العلمي، وفي المجال التربوي، وفي المجال الاجتماعي، وفي المجال الاقتصادي، وفي المجال السياسي.. وقسمتها الى مراحل كل مرحلة تسلم الى ما بعدها. ومن خصائص هذه الخطة:

١- أنها علمية تعتمد على الاحصاء والأرقام، لا على الاشاعات.

٢- وأنها واقعية، تتعامل مع الواقع كما هو، بلا تهوين ولا تهويل، ولا جريان مع الأحلام.

٣- وأنها مرنة، تستطيع أن تستبدل شيئا بشيء، ولا تقف جامدة عند تغير المواقف.

٤- وأنها متوازنة، تتبنى خط الوسطية والاعتدال في كل الأمور.

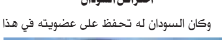
٥- وأنها استشرافية، تنظر الى المستقبل وتوقعاته، وتعد له ما يناسبه.

وقد عرضت هذه الخطة على المكتب أو المجلس، وأخذ يناقشها في جلسة من جلساته، أظنها كانت في المدينة المنورة، وأقرها المجتمعون بصفة عامة، بعد ادخال بعض التعديلات عليها، وطلب استكمال بعض أشياء، رئي أنها تتم البناء، ثم في الدورات التالية شغل المجتمعون بأمور ادارية أخرى، ونُسِيت الخطة، كما ينسى كثير من الأمور المهمة، التي يشرع فيها ثم لا تستكمل! ولا أدري ماذا حدث فيها بعد، ولم يكن عندي أي أصل غير المسودة التي قدمتها.

إعداد لائحة عالمية

كان من أهم ما شغل المكتب أو المجلس في ذلك الوقت، هو اعداد لائحة أساسية عالمية، فان لائحة الاخوان التي وضعت في عهد الامام الشهيد البنا، وأدخلت عليها بعض التعديلات في عهد خليفته الأستاذ الهضيبي، كانت موضوعة للاخوان في مصر.

والآن نريد لائحة تلائم هذا الوضع الجديد، الذي يمثل معظم الدول العربية، التي توجد فيها جماعة للاخوان، مثل: الأردن وسوريا والعراق والسودان واليمن، وغيرها.



اعتراض السودان

وكان السودان له تحفظ على عضويته في هذا المجلس أو المكتب، لأنه يرى أن هذا يقيد حركته وعمله السياسي، وذلك أن كل بلد له ظروفه الخاصة التي قد لا يشاركه الآخرون فيها، وتحتاج أحيانا الى حرية التصرف السريع. والارتباط التنظيمي بمثل هذا المكتب قد يكون قيدا أحيانا على الحركة.

كما أن السودان لا يريد أن يورط اخوانه فيما قد يراه من سياسات ربما تروق له، ولا تروق لهم.

ولم يكن عند السودان مانع أن يحضر الاجتماعات، ويشارك فيها، بوصفه مراقبا لا عضوا. بل طلب ذلك بالفعل، ووافق المكتب على ذلك، وشارك معنا الاخوة في كل الاجتماعات التي تمت في هذه الفترة، وكان ممثلهم باستمرار الأخ الحبيب، والصديق الكريم يس عمر الامام حفظه الله.

اختيار المرشد العام

وكان من أهم ما اتجه اليه الاخوان في اللائحة الجديدة، هو اختيار المرشد العام للجماعة، والذي يختاره هو مجلس الشورى العام المختار من جميع الأقطار، ويجب أن يختار لمدة محدودة، وليس لمدى الحياة، كما كان يرى بعض المشاركين معنا، وأن تحديد المدة ليس من الإسلام، وانما جاءنا من الغرب.

وهذا ليس بصحيح، فلم يجئ في الإسلام نص يوجب على الأمة أن تبايع امامها مدى الحياة، ولا أي مدة محددة. فهو متروك لاجتهاد الأمة، تتخذ فيه من الآراء ما ترى فيه مصلحتها. واختيار الخلفاء الراشدين لمدى الحياة: كان للظروف العسكرية التي تعيشها الدولة الإسلامية في ذلك الوقت.

وهو – على كل حال – من باب (الأفعال) التي ليست ملزمة، حتى ان أفعال الرسول نفسها ليست ملزمة بذاتها، انما تدل على مجرد المشروعية، ما لم يصاحبها دليل آخر.

وقد رأينا الخلفاء الراشدين خالفوا بعض (السنة الفعلية) للرسول صلى الله عليه وسلم، كما فعل عمر في عدم قسمة الأرض المفتوحة على المقاتلين، اقتداء بقسمة النبي لأرض خيبر، لأن الرسول -كما قال ابن قدامة- فعل ما هو الأصلح في زمنه، وعمر فعل ما هو الأصلح في زمنه، فقد اتبع سنة الرسول في فعل الأصلح.

اعترضت على «قسم الاخوان»

وكان من الأشياء التي اعترضت عليها وقبلها المشاركون (صيغة القسم) التي يقسم فيها العضو على الالتزام بمنهج الاخوان، والسمع والطاعة للقيادة في غير معصية. فاقترحت أن تكون (صيغة عهد) لا صيغة قسم، فالشخص يتعهد بدل أن يقسم.

وحتى من الناحية الفقهية: صيغة القسم اذا أخل بها المسلم وحنث فيها، فلها كفارة: اطعام عشرة مساكين أو صيام ثلاثة أيام لمن لم يجد الاطعام. أما صيغة العهد فهي ثابتة لا كفارة لها.

وبدل أن كانت صيغة البيعة للمرشد العام، جعلناها بيعة مطلقة، على العمل بكتاب الله وسنة رسول الله، ونصرة الدعوة الى الإسلام.

تنظيم «عالمي» أفضل من «دولي»

وما زال هذا المجلس يتقوى ويتوسع ويضم أعضاء جددا، حتى اقترح بعض الاخوة – ولا أذكر في أي سنة – أن يطلق عليه التنظيم الدولي أو العالمي للاخوان المسلمين، وأنا آثرت كلمة (العالمي) على كلمة (الدولي). لأن كلمة (الدولي) أشبه بالمؤسسات الرسمية، و(العالمي) أشبه بالمؤسسات الشعبية.

ظل المكتب يعقد جلساته كل سنة مرة، في أي مدينة يتيسر اجتماعه فيها من مدن العالم العربي والإسلامي، لا يلتزم ببلد معين. وهناك بلاد يستحيل أن يجتمع فيها، وهي البلاد التي تحكمها الديكتاتوريات، ويتسلط عليها أمن الدولة تسلطا مباشرا، فلا يسمح بمثل هذا اللقاء الا أن يكون وراء أسوار السجن! هذا اذا سمح لهم أصلا بدخول البلد، وهيهات هيهات.

من هذه البلاد: مصر وسورية والعراق وتونس وغيرها من البلاد المغلقة.

وكثيرا ما تم الاجتماع في مكة أو المدينة تحت مظلة العمرة. وقد التقينا مرة في استنبول: مدينة الجلال والجمال، والبحار والجبال، والماضي العريق، والحاضر الأنيق، والتي جمعت بين الشرق والغرب، حين جمعت بين آسيا وأوروبا.



● حسن البنا



● الشيخ الغزالي

استفدنا من حرب لبنان

وأكثر من مرة في بيروت، ولا سيما في أيام الحرب الداخلية، التي استمرت سنوات بين طوائفه المختلفة، وأهلكت الحرث والنسل، وجرت الخراب على لبنان، حتى انطفأت نيران هذه الفتنة المشؤومة، وعادت لبنان الى الهدوء والسلم بعد هذه السنوات العجاف، واجتمع اللبنانيون المختلفون في الطائف، واتفقوا على أن يعيشوا في سلام ووئام، ووضعوا النقاط على الحروف.

كان مطار بيروت مفتوحا في أكثر الأحيان، رغم ما يجري في الداخل من معارك وصدامات. وهذا ما أتاح لنا أن ندخل بسهولة الى لبنان، وأن نشاهد بأعيننا آثار الدمار الهائل الذي لحق بهذا البلد الجميل، الذي كان واحة ومنتجعا للعرب، يجدون فيه جمال الطبيعة، وجمال الحياة والانسان، وحرية الحركة، وحرية الفكر، وحرية النشر، لا قيود ولا أغلال.

والتقينا في عَمَّان، حيث ان للاخوان وجودا رسميا علنيا، وان كانت أجهزة المخابرات بالمرصاد، وكل أجهزة المخابرات في كل البلاد التي نتقابل فيها، لا ترحب بنا، ولا ترغب كثيرا في وجودنا، ونحن نجتمع، يقظين حذرين من أن يكون هناك من يراقبنا من بعيد، أو يتنصّت علينا من قريب، فقد بلغت تكنولوجيا التجسس والتلصص على الناس، بحيث لا يأمن الانسان أن يراقب، وهو في غرفة نومه. حتى في حديثه مع أهله، فالانسان في الحضارة الحالية (عريان) مكشوف أمام آليات الحضارة الجبارة التي لا تدع أحدا في حاله.

السودان تحفظ على عضوية التنظيم العالمي للإخوان خوفا من تقييد حركته وعمله السياسي

تفرغت للعمل الإسلامي

وبعد ذلك رأيت أن أستعفي من العمل التنظيمي في جماعة الاخوان، وأن أتحرر من الالتزام بأي عمل رسمي في تنظيم الاخوان، وأن أتفرغ للعمل الإسلامي العام، فوضعي اليوم يقتضي مني أن أكون للمسلمين جميعا، على اختلاف اتجاهاتهم، واختلاف أقطارهم، واختلاف مذاهبهم. هذا مع أني لا أنكر انتمائي لدعوة الاخوان نشأة وفكرا وولاء. وسأظل أعمل لترشيد مسيرة الاخوان، وتسديد خطاها، وتحذيرها من المزالق والمضايق.. وهذا لا ينافي أن أنقدها كما أنقد غيرها من الحركات والجماعات.

وقد رضي مني الاخوان هذا الموقف الذي يراه كل الراشدين أنفع للإسلام ولأمته، وان كان بعض رجال الأمن يعتبرون ذلك من باب توزيع الأدوار. وهؤلاء لو أقسمت لهم بالأيمان المغلظة، أو أتيتهم بكل آية وبينة، لم يصدقوك.

الظاهرية الجدد

لم يكن المجلس كله على خط فكري واحد تماما، فقد بدأت تدخل على الاخوان أفكار جديدة، بعضها من التيار السلفي الذي يغلب على كثير من المنتمين اليه: التشدد والحرفية، حتى أطلقت عليهم لقب «الظاهرية الجدد». على عكس منهج شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم.

وأكثر الذين تأثروا بالتيار السلفي: الذين يعيشون في السعودية والكويت، ويظهر ذلك في الموقف من قضايا المرأة والتعددية السياسية والأقليات ونحوها. وبعض الأفكار الأخرى رشحت من أفكار الشهيد سيد قطب رحمه الله، في كتبه: معالم في الطريق، والظلال في أجزائه الأخيرة، وفي الطبعة الثانية من أجزائه الأولى، وفي كتبه التي ظهرت في أواخر حياته رحمه الله.

وهذه الأفكار تحمل بذور تكفير المجتمع، والعزلة الشعورية، والاستعلاء على الآخرين، ورفض الاجتهاد وتطوير الفقه، الى آخر هذه الأفكار.

وكان المنهج التربوي الذي يوضع للاخوان يتضمن بعض هذه الأفكار وتلك، سلفية وقطبية، ولا سيما أن المكلفين بوضع المنهج كانوا في فترة من الفترات هم اخوان الأردن، وهم متعلقون تعلقا شديدا بالأفكار القطبية.

ولذلك لم تكن كتبي، أو كتب الشيخ الغزالي، أو محمد فتحي عثمان، وأمثال هؤلاء مما يحسن أن يوضع في صلب المنهج، لأنهم يعتبروننا عقلانيين ويسمينا بعضهم معتزلة العصر.

وان كانوا يدخلون في بعض الأحيان عددا قليلا من كتبي، بعضها في المنهج الأساسي، وبعضها في منهج القراءة.

ولكن الذي كان يطمئنني حقا: أن جمهور الاخوان يشترون كتبي، ويتلهفون عليها بمجرد ظهورها من المطبعة، فهم قرروها على أنفسهم، وان لم تقررها السلطة المختصة، وهذا فرق بين الشعبي والرسمي.

من عيوب منهج الاخوان

ومن عيوب هذا المنهج التربوي الرسمي الملزم للاخوان أنه يوقعهم في التناقض، المكشوف أحيانا، والمُقنّع أحيانا أخرى. فبعض الكتب المقررة عليهم مثل كتبي ترى أن الشورى واجبة، وأن الشورى ملزمة، وأن النزول على رأي أكثرية أهل الحل والعقد واجب.. على حين يرى كتاب آخر لبعض الدعاة أن العمل برأي الأكثرية من الأمراض التي دخلت على الحركة الإسلامية، وأن الواجب هو العمل برأي الامام، وان خالف الأكثرية، بعد أن يستشيرهم. وبهذا شرعنا للاستبداد، وأعطينا الحجة للحكام الذين يقهرون الأمة، ويضربون برأيها عرض الحائط. في بعض الجلسات دعي القيادي الاخواني القديم الأستاذ محمد فريد عبد الخالق، أحد قدامى الاخوان، ورئيس قسم الطلاب لسنين عديدة، وأحد المقربين من المرشد الأول والثاني: البنا والهضيبي، وكان له ملاحظات على منهج الاخوان في التربية والتثقيف، وكان متفقا معي تماما، وقد أوصينا بعمل مقترحات لتدخل على المنهج، الى أن يوضع منهج جديد، يتفادى ما ذكر من السلبيات ويتضمن الايجابيات المنشودة.

معنى استقلالي عن الاخوان

وأحب أن أعلن هنا بوضوح: انني حين انسحبت من التنظيم الرسمي للاخوان عالميا واقليميا، لا يعني هذا انسلاخي من الدعوة نفسها، أعني الدعوة الى الإسلام: عقيدة وشريعة، وعبادة ومعاملة، ودينا ودنيا، وحقا وقوة، ودعوة ودولة. فهذا ما أحيا له، وأموت عليه، وأنذر عمري له. فأنا ابن الدعوة وأبوها وأخوها، وهي مني وأنا منها.

وهذا ما يجعل الكثير من الاخوان يعتبرونني واحدا منهم، وان أعلنت استقلالي عنهم، بل ربما اعتبرني الكثيرون: مفتيهم الأول الذي يأخذون عنه الأحكام، ويفتون بفتواه، وربما اعتبرني آخرون: منظّر الدعوة، الذي يؤصل مفاهيمها، ويعمق أفكارها، ويرد فروعها الى أصولها، ويدلل عليها بالأدلة الشرعية الموثقة، كما يتجلى ذلك واضحا في سلسلة «نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام» وهي تدور حول «الأصول العشرين» للامام حسن البنا، وتشرحها شرحا أصوليا فقهيا يجمع بين محكمات الشرع ومقتضيات العصر. وقد كنت من قديم شرحت هذه الأصول شرحا شفهيا، مسجل على أشرطة «كاسيت» ونشرت ووزعت في أنحاء العالم، ولقيت قبولا عاما. وربما أيد هذا ما يفكر فيه كثيرون داخل الاخوان، وخصوصا الكبار والقدامى منهم، حين يلحق بربه أحد المرشدين العامين للاخوان، فيهرع اليّ من يهرع، يطلبون الي أن أقبل منصب المرشد العام للجماعة، ولا يسعني الا أن أشكر لهم، وأعتذر عن عدم قبولي لعرضهم، اقتناعا مني أن ما أقوم به من عمل إسلامي عام: أنفع لي وللأمة من تولي منصب المرشد العام. وقد قال لي رفيق العمر الأخ أحمد العسال فعلا في موقف من هذه المواقف: اني أوثر أن تكون مرشدا للأمة، بدل أن تكون مرشدا لجماعة بعينها، قلت: وأنا مستريح الى هذا، ومطمئن اليه.





مذكرات فضيلة العلامة د. يوسف القرضاوي كما كتبها لـ الوطن بخط يده (٢)

تنفرد «الوطن» بنشر الجزء الرابع من مذكرات العلامة د.يوسف القرضاوي: ملامح سيرة ومسيرة (ابن القرية والكتاب)، وهو يشمل بضعة عشر عاما (حوالي ١٨) من هذه السيرة والمسيرة: وهي سنوات حافلة بالأحداث في على المستوى الشخصي في حياة الشيخ والمحلي والعربي والإسلامي والعالمي، على المستوى الشخصي يتحدث فضيلته عن تخرج كل أبنائه. وتزوج كل بناته. وبدأية قصة زواجه الثاني. وتعيينه عميدا لكلية الشريعة ومديرا المركز بحوث السنة والسيرة. ونجاحه في الدعوة الى تأسيس الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية بالكويت. وعمله رئيسا لهيئة الرقابة الشرعية لعدد من المصارف الإسلامية. واختياره عضوا في المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي، وعضوا في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن (مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي) وعضو مجلس أمناء مركز اكسفورد للدراسات الإسلامية، وعضو مجلس أمناء منظمة الدعوة الإسلامية بالخرطوم، وغيرها. وحصوله في هذه الفترة على بعض الجوائز العالمية.

ومن خلال هذه المذكرات سيمر القارئ بمعظم أحداث العصر في منطقتنا العربية والإسلامية، بحكم أن صاحبها يعيش في قلب هذه المنطقة، وقلب هذه الأحداث، وقد قدر له في هذه المرحلة أن يتفاعل بها ومعها متأثرا ومؤثرا.

وتتميز هذه السنوات بأمرين لهما أهمية قصوى في حياة القرضاوي:

الأول: الانتشار الكبير له في أنحاء العالم في الشرق والغرب، وزيارة كل قارات العالم حتى أستراليا، وأمريكا الجنوبية، حتى سماه البعض «الشيخ الطائر».

والثاني: ظهور المد الإسلامي أو الصحوة الإسلامية بقوة في تلك المرحلة، والتى يعتبرها الشيخ جزءا منه، كأنما هي ولده وفلذة كبده.

وسنتابع نشر المذكرات يوميا بمافيها من تفاصيل يرويها القرضاوي لأول مرة.

ألقيت أول خطبة عيد في ميدان عابدين عندما كان السادات يلتقى بيغين في القدس

طلب مني الاخوان أن أقبل منصب المرشد العام للجماعة عند اشتداد مرض المرشد الثالث الأستاذ عمر التلمساني، وحدث ذلك مرة أخرى بعد أن تولى الأستاذ مأمون الهضيبي منصب المرشد، وقد أرسل الي من يكلمني ويقنعني بقبول المنصب، وهو مستعد أن يتنازل عن منصبه راضيا، وكان الذي حمل الرسالة مقتنعا تمام الاقتناع بذلك، وحاول جاهدا أن يزحزحني عن موقفي، وأن في هذا مصلحة الدعوة، ومصلحة الأمة، وهو من رجال الفكر والدعوة القادرين على الاقناع، ولا مانع أن أذكر اسمه الآن، وهو الأخ الصديق المفكر الإسلامي الكبير الدكتور محمد عمارة. وقد قلت له: ولماذا لا تتولى أنت هذا المنصب يا دكتور؟ قال: أنا لا أصلح له، أنا غريب عن الجماعة. أما أنت فابن الدعوة ورجلها، قضيت فيها شبابك وكهولتك وشيخوختك، وأنت الشخصية الأولى لدى الاخوان، لا يتمتع أحد بالاجماع على حبه وتقديره، غيرك، ومنزلتك العالمية اليوم ستساعد في نجاح الدعوة التي أصبح لها وجود عملي في أكثر من سبعين دولة في العالم. وقد رأيت الكثيرين من اخواني المقربين يشاركونني ا الرأي في أن بقائي مرشدا وموجها للأمة كلها: أكثر نفعا وبركة من تولي منصب المرشد العام للجماعة، منهم – بعد د.العسال – د.الديب، ود.العوا، وأ.فهمي هويدي، وكثيرون.

عيد الأضحى ١٣٩٧هـ

في سنة ١٣٩٧ هـ، ١٩٧٧م دعيت من الدوحة إلى القاهرة لأؤم الناس في صلاة عيد الأضحى في ميدان عابدين الشهير، حيث تتجمع عشرات الألوف من الشباب لأداء صلاة العيد حسب السنة في الخلاء لا في المساجد، ليتجمع المسلمون في هذه المناسبة السعيدة، في صورة مهرجان إسلامي بهيج، يحتشد فيه الرجال والنساء والصبيان، فرحين مستبشرين، لا يهتفون باسم مخلوق، ولا يرفعون لافتة بلد أو جنس أو حزب. بل يهتفون باسم الله وحده: الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، الله أكبر ولله الحمد!

وكان الداعي لي هم شباب الصحوة الإسلامية، الذين أثبتوا وجودهم على كل صعيد، ورأوا أن يحيوا هذه السنة، واستجاب الشباب لهم، وصلى بهم في العيد الماضي شيخنا الشيخ الغزالي، وفي هذا العيد يتوقعون حضورا أكثف، وعددا أكبر، فاتصلوا بي، وألحوا عليّ أن أحضر لهذا الغرض، لتُوَجِّه هذه الوجوه النيرة إلى ما فيه خيرهم، وخير دينهم وأمتهم، وحتى لا يترك الأمر لبعض الخطباء المهيجين الذين لا يضبطون أنفسهم، فينفلت الزمام، وينقلب الميدان إلى شعلة ملتهبة. ولا سيما أن الجو السياسي يساعد على الاشتعال.

فقد كان الرئيس السادات في ذلك الوقت في القدس للقاء مناحيم بيغين، وهو أول لقاء بين رئيس عربي ورئيس إسرائيلي، والعالم العربي كله ثائر، والجو مكهرب. لذا يلزم الخطيب في ظل هذا الحشد الكبير أن يدرك الموقف، وأن يتحكم في نفسه، وأن يستعمل الحكمة ولا يركض وراء العواطف الجياشة «وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا» (البقرة: ٢٦٩).

والواقع أني اعتدت أن أؤم الناس في صلاة العيد في أحد مصليات العيد المهيأة خارج المساجد، ولا أحب أن أغادر الدوحة في الأعياد. ولكن هذه المناسبة التي ذكرها لي الشباب، وحرصي على ألا أخيب أمل هذا الشباب المؤمن الواعد الصاعد، جعلتني ألبي دعوتهم بصدر منشرح، ونفس مطمئنة، محتسبا هذه الرحلة عند الله سبحانه، وقد قال في شأن أهل الجهاد «وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ» (التوبة: ٢١).

أجل، لم يكن يسعني أن أتخلف عن دعوة شباب الصحوة، وأنا أعتبرهم أفلاذ كبدي، كما أعتبر الصحوة جزءا مني، وأمانة في عنقي، وكأني المسؤول الأول عنها في العالم!

ولقد اتفقت مع الشباب المشرفين على هذا الموضوع: أن أبتعد عن السياسة، وأن أتحدث في القضايا العامة، حتى لا تحدث فتنة، ويخرج الأمر من أيدينا، ورحبوا بذلك.

وهكذا كان اتجاه خطبتي بعد أن صليت بالناس ركعتي العيد، وأذكر أني قلت في هذه الخطبة: من أراد أن يرى مصر على حقيقتها دون تزويق ولا تشويه، فليرها هنا، في هذا الشباب، الذي آثر آخرته على دنياه، وآثر الخالق على الخلق، شباب اختارهم الله لنصرة دينه، يحبهم ويحبونه، لا يخافون في الله لومة لائم، تائبون عادون حامدون، راكعون ساجدون، آمرون بالمعروف، ناهون عن المنكر، حافظون لحدود الله.. هذه هي مصر الحقيقية، من أراد أن يعرف حقيقة مصر وجوهرها، فلا يبحث عنها في شارع الهرم، ولا في ملاهي الليل، ولكن ليبحث عنها هنا. هذا الشباب هو أغلى ثروة لمصر. إنه أغلى من الذهب الأبيض «القطن» وأغلى من الذهب الأسود «البترول» وأغلى من الذهب الأصفر المعروف.

قلت هذا أو نحوه مما لا أذكر تفاصيله..

من أراد أن يعرف حقيقة مصر وجوهرها فلا يبحث عنها في شارع الهرم ولا في ملاهي الليل.. ولكن ليبحث عنها في المساجد

الشباب المؤمن أغلى ثروات الأمة.. أغلى من الذهب الأبيض «القطن» ومن الذهب الأسود «البترول» ومن الذهب الأصفر المعروف

غربيون يرصدون خطبي

والعجيب أني منذ نحو عشر سنوات أو أكثر، كنت أتغدى عند أحد الأصدقاء في مدينة أبو ظبي، وهو الأخ الدكتور محمد مرسي عبد الله مدير مركز الوثائق هناك، وقال لي بعد الغداء: تحب أن تعرف ماذا يقول الغربيون عنك؟ قلت: نعم، أحب من غير شك. فقال: هذا كتاب مؤلف بالفرنسية، حول الصحوة الإسلامية، وقد خصك فيه بالحديث، ونقل فقرة مطولة من خطبتك في صلاة العيد في ميدان عابدين، وقرأ علي الفقرة مترجمة إلى العربية، وقد نقل نصها حرفيا.

قلت له: هذه أول خطبة عيد لي في عابدين، ومعناها: أن القوم كانوا يرصدون كل شيء، ولا يدعون الأمور للمصادفات، أو للأمزجة.

وكنت بعد الخطبة، قدمت أحد قادة شباب الصحوة، ليتحدث إلى جموع المصلين، وأظنه كان الأخ الكريم حلمي الجزار، أمير الجماعة الإسلامية بجامعة القاهرة في ذلك الوقت.

وكان من السنن الحميدة التي أرساها هؤلاء الشباب: دعوة المرأة للمشاركة في صلاة العيد، كما كانت في العهد النبوي، وإنما النساء شقائق الرجال، والمؤمنون والمؤمنات بعض أولياء بعض. وقد خصصوا للنساء أماكن، تجمعن فيها بعضهن مع بعض، كما أغروا الصبيان والبنات بالهدايا الملائمة ليحرصوا ويحرصن على الحضور والمشاركة، وبعد الصلاة والخطبة والمصافحة: انصرف الجميع بسلام وهدوء.

عيد الأضحى «١٣٩٨ هـ»

وبعد عام دعاني الشباب إلى إلقاء خطبة عيد الأضحى في نفس المكان «عابدين»، وكان السادات في ذلك اليوم غائبا عن مصر، حيث ذهب إلى أميركا، لتوقيع اتفاقية «كامب ديفيد» وكان الجو مكهربا كذلك، وأكثر قابلية للاشتعال من العيد الماضي. والعرب كلهم قد أعلنوا معارضتهم للصلح المنفرد، والذي تقوم به مصر مع إسرائيل، والفلسطينيون أنفسهم ساخطون، والكثيرون من الشعب المصري نفسه غاضبون، وفي هذه الحال يصبح الخطيب في هذا الجمع الحاشد، كأنما يمشي على الشوك: وبخاصة أن العدد بدأ يزداد ويتضاعف عن السنة الماضية.


● الشيخ عبد المعز عبد الستار

● حسن الهضيبي

ولقد التزمت منذ أول خطبة: أن أهدئ ولا أثير، وأن أطفئ النار، ولا أضرمها، ومن الخير أن يستمر هذا التجمع الرباني الخير، ولا نتسبب في فقده بالحماقة والطيش.

وأحمد الله أن تمت الصلاة والخطبة بخير وسلام، ولم يحدث ما يعكر الصفو.

لا أحب أن أغادر الدوحة في الأعياد واعتدت أن أؤم الناس في صلاة العيد في أحد المصليات المهيأة خارج المساجد

الصلاة الحاشدة سنة «١٤٠٠ هـ»

واستمرت هذه الصلوات الحاشدة في هذا الميدان الكبير، يصلي الشيخ الغزالي عيد الفطر، وأصلي أنا عيد الأضحى، إلا في إحدى المرات، أذكر أني دعيت إلى عيد الفطر، وحضرت من الدوحة في أواخر رمضان، إلى أن جاءت سنة ١٤٠٠ هـ «١٩٨٠م».

وفي هذا العيد تجمعت حشود هائلة ملأت الميدان، كما ملأت كل الطرق المؤدية إليه من جهاته الأربع، حتى إني اضطررت أن أترك سيارتي بعيدا عن الميدان، وأتخطى الرقاب في مسيرة طويلة إلى المنصة. وقبل ذلك كنت أصل بالسيارة التي تحملني إلى قرب المنصة.

وكنت أمدّ بصري إلى الأمام وإلى اليمين وإلى اليسار، فلا أجد إلا بشرا متلاحمين، متزاحمين، ولا أسمع إلا التكبير المأثور: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، الله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد.

ولقد علق الرئيس السادات رحمه الله على هذا التجمع، فقال: إنهم يقدرونه بربع مليون، وأنا أقول: إنه لا يزيد على مائة ألف! ومن أين له هذا، وهو لم يحضر ولم يشاهد؟! والحق أنه يزيد في نظري على نصف مليون. وإن كان أحد لا يستطيع أن يقدره تقديرا صحيحا، لأن الذي يقدر ينظر غالبا إلى من في الميدان، ولكن الحشود زحمت كل الطرقات المؤدية إلى الميدان من مشرق ومغرب وشمال وجنوب. وكنت أنظر من حولي، فأجد كاميرات التصوير معلقة هنا وهناك، تصور الجموع وتصور الصلاة، والخطبة والخطيب، وتسجل كل شيء بدقة. وكنت أقول في نفسي: من هؤلاء المصورون؟ ولحساب من يصورون؟ لا يمكن أن يكونوا مصريين، لأن الإعلام المصري لا يهتم بهذه الصلاة، ولا يذكر عنها حرفا واحدا في الصحف أو في التليفزيون، ثم عرفت بعد ذلك أنهم أوروبيون وأميركيون.

وفاة الأستاذ البهي الخولي

في يوم ٢٧ / ١٢ / ١٩٧٧م ودعت مصر في هدوء: الداعية الإسلامي الكبير أستاذنا البهي الخولي رحمه الله وغفر له، وقد سبق لي الحديث عنه في الأجزاء الماضية من هذه السيرة، ولا سيما في الجزء الأول.

كان الأستاذ البهي الخولي زميلا للإمام حسن البنا في دار العلوم، وكان معجبا به كل الإعجاب، فلما قام البنا بدعوته كان البهي من المسارعين للإجابة.

وكان ممن تنبهوا مبكرا للكتابة في مفهوم الدعوة وغاياتها وأساليبها، وما يجب أن يكون عليه الداعية، فكتب كتابه الأول الذي لم يسبق أحد إلى مثله في التأصيل والتفصيل والتدليل. مع عمق الفكرة ووضوحها. كتبه بأسلوب أدبي رائع. ذلكم هو كتابه الشهير «تذكرة الدعاة» الذي كتب له الإمام الشهيد مقدمة موجزة مركزة، قال فيها: الله أكبر والحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله، أفضل الداعين إليه على بصيرة، والمجاهدين فيه بإحسان، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين.

وبعد: فقد طالعت هذه التوجيهات بل المحاضرات في أساليب الدعوة وتكوين الدعاة، فأعجبت بها وهششت لها، وشمت فيها بوارق الإخلاص والتوفيق إن شاء الله، ودعوت الله تبارك وتعالى أن يجعلها نافعة لعباده، موجهة لقلوب الناطقين بكلمته والهاتفين بدعوته. وليس ذلك غريبا على كاتبها وملقيها الأخ الداعية المجاهد الأستاذ البهي الخولي، فهو بحمد الله صافي الذهن، دقيق الفهم، مشرق النفس، قوي الإيمان، عميق اليقين، أحسن الله مثوبته، وأجزل مكافأته، وبوأنا وإياه منازل من أحب من عباده، فرضي عنهم ورضوا عنه، أولائك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون. آمين. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا. وهو الكتاب الوحيد – بعد رسائل الإمام الشهيد – الذي تفرد في تلك الفترة بأن يكتب عليه: من رسائل الإخوان المسلمين. أي إن قيادة الحركة تبنته ضمن مناهجها المعتمدة.

الذي يخطب في جمع حاشد من الناس مطالب بأن يستعمل الحكمة ولا يركض وراء العواطف

وكان الأستاذ البهي وثيق الصلة بالقرآن الكريم، له فيه تأملاته وتأويلاته الخاصة، وتفسيراته العميقة، بعضها ضمنه بعض كتبه المنشورة، وبعضها لعله لا يزال في أوراق منثورة في أضابيره، وكان مما أصدره من ذلك: كتابه «آدم عليه السلام».

وكان له اهتمام قديم بالجانب الاقتصادي في الإسلام، ونظرة الإسلام المتوازنة إليه، وقد تمثل ذلك في عدة كتب: «الثروة في ظل الإسلام»، و«الإسلام لا شيوعية ولا رأسمالية: العمل والعمال»، و«الاشتراكية بين النظرية والتطبيق».

وكان له اهتمام بالجانب الرباني أو الجانب الروحي – أو ما سماه في تذكرة الدعاة «الروحانية الاجتماعية» – وله في هذا باع أي باع. ومن أجله اهتم بسير الصالحين، وكان يحرر في مجلة «المسلمون» التي أصدرها تلميذه د. سعيد رمضان: باب «مع العارفين» كتب فيه عن «الإمام الممتحن أحمد بن حنبل» كتابة متميزة، وكتب عن بعض الشخصيات الأخرى من السلف، ثم توقف واستمر الباب.

ولم يكتب اسمه تحت هذا الباب، وقد نشر بعض ما كتبه ولم ينسب إليه. وهكذا كان منهج شيخنا البهي في الدعوة: منهجا متوازنا، يقوم على القرآن، ولكنه لا يغفل السنة، ويعنى بالجانب الروحي أو الإيماني، ولكنه لا يسرف فيه حتى يصير رهبانية، بل يريدها كما قال الشيخ الندوي: ربانية لا رهبانية.

وهي التي سماها «الروحانية الاجتماعية» ولا غرو أن انعقدت بينه وبين أبي الحسن الندوي مودة عميقة. وكان له نظرات في الفقه وفي الاقتصاد، تنبئ عن فهم متميز، وأصالة في النظر، وعن شخصية مستقلة لها رؤيتها واجتهادها.

ولم يكتف بالعمل العام في الدعوة، حتى كان رئيسا للمكتب الإداري للإخوان في مديرية «محافظة» الغربية، قبل أن ينقل إلى القاهرة، بل ضم إلى ذلك العمل في «النظام الخاص» أو ما سموه بعد ذلك «الجهاز السري» للإخوان، فكان هو المسؤول عن هذا النظام في الغربية: يبايعه من يبايع من أفراد الجماعة – الذين يقبلون الانضمام إلى هذا النظام – على المصحف والمسدس، كما ذكر في التحقيقات بعد ذلك. وإن كانت المحكمة قد حكمت له بالبراءة.

ولقد كنا تلاميذه المقربين في طنطا: أنا والعسال والدرمرداش والصفطاوي والديب والحشاش وعبد المنعم البدراوي، وغيرهم، ولكنه لم يعرض علينا يوما الالتحاق بهذا النظام، وكأنه اكتفى بـ«كتيبة الذبيح» التي نتربى فيها على البذل والتضحية في سبيل الله، ولو قدم المؤمن رقبته طاعة لله، كما فعل الذبيح إسماعيل عليه السلام، حين قال له أبوه «يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ» (الصافات: ١٠٢).

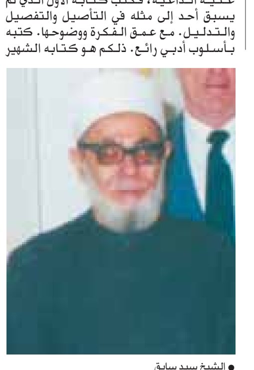
وحين حلت حكومة النقراشي: جماعة الإخوان، بدعاوى لا تبلغ أن تكون سببا لضرب هذه الجماعة وتمزيقها، والحكم عليها بالإعدام. وقد رد الأستاذ البنا بنفسه على دعاوى الحكومة، كما أشرنا إلى ذلك في الجزء الأول. وقد تبين أن هذا كان استجابة لطلبات سفراء انجلترا وأميركا وفرنسا، الذين اجتمعوا في «فايد» بمنطقة القناة، وقد تسبب هذا في اعتقال أعداد كبيرة من الإخوان تجمعوا في النهاية في معتقل الطور. وفي تربية الإخوان: أن يؤمروا في أي تجمع واحدا منهم عليهم، كما هو أمر الحديث النبوي «إذا كنتم ثلاثة في سفر فأمروا أحدكم». فوقع إجماعهم على اختيار الأستاذ البهي الخلولي أميرا عليهم في المعتقل، وذلك لما يرى الإخوان من علمه وفضله وسابقته في الدعوة، وقربه من الإمام الشهيد.

وظل هكذا، حتى طلب في قضية من قضايا التنظيم الخاص، حيث تردد اسمه في التحقيق، فاختار الإخوة من بعده الشيخ محمد الغزالي أميرا عليهم.وفي عهد المرشد الثاني الأستاذ حسن الهضيبي، كان موضع ثقته من الناحية العلمية، وكلفه كتابة كتاب عن «المرأة» يبين حقوقها وواجباتها، في ضوء الشريعة الإسلامية، ونهض بذلك، وكتب كتابه الموفق «المرأة بين البيت والمجتمع» الذي عكس نظرة وسطية بين الغلاة والمفرطين في قضية المرأة، ثم طوره بعد ذلك إلى كتاب «الإسلام وقضايا المرأة المعاصرة».

وظلت العلاقات بينه وبين الأستاذ الهضيبي طيبة، حتى قامت ثورة يوليو، وكان التعاون بينها وبين الإخوان ملحوظا، ثم حدث الخلاف، ودخل الباقوري الوزارة مع الثورة، على خلاف رأي الإخوان، فطلبوا إليه أن يستقيل من الجماعة، فاستقال، ليتحمل هو مسؤولية اختياره، واختار فريقا من الإخوان للعمل معه، كان منهم الأستاذ البهي الخولي، والشيخ الغزالي، والشيخ سيد سابق. رحمهم الله جميعا. وحين اشتد الخلاف، واحتدم النزاع: اختلف أعضاء الهيئة التأسيسية فيما بينهم، فكان منهم فريق على رأسهم الأستاذ البهي، يرون ضرورة الصلح مع عبد الناصر، وتفادي جر الجماعة إلى معركة غير متكافئة مع الثورة، تجر فيها للمهلكة بغير مبرر، وهؤلاء يحسنون الظن بعبد الناصر، ويرون أنهم إذا عقدوا عهدا معه نفذه.

وفريق آخر يمثل قيادة الإخوان، ويمثل الأكثرية منهم أيضا: لا يثقون بعبد الناصر، ولا بتعهداته، وأنه لا يضمر خيرا للجماعة، بل يتربص بها، ويريد أن يتخلص منها، ولهذا يريد ضرب بعضها ببعض فيكون بأسهم بينهم. ومن هنا يجب الوقوف ضد هذه الفتنة، ومساندة القيادة الشرعية فيما تؤمن به، وتحرص عليه. ويبدو أن الأحداث بعد ذلك صدقت ما قاله هؤلاء، وأن رؤية الأستاذ الهضيبي كانت أصدق، ولقد وقف الرجل – برغم كبر سنه – راسخ القدم، رافع الرأس، كأنه الطود الأشم. ولقد حوكم الأستاذ البهي وإخوانه من أعضاء مكتب الإرشاد، مثل الشيخ عبد المعز عبد الستار، وأرادوا بهذه المحاكمة أن تكون شهادة ضد المرشد وإخوانه.


● د. الديب


● الشيخ سيد سابق





ابن القرية والكُتّاب

ملامح سيرة ومسيرة (الجزء الرابع)

مذكرات فضيلة العلامة د. يوسف القرضاوي كما كتبها لـ الوطن بخط يده (٣)

تنفرد «الوطن» بنشر الجزء الرابع من مذكرات العلامة د. يوسف القرضاوي: ملامح سيرة ومسيرة (ابن القرية والكتاب)، وهو يشمل بضعة عشر عاما (حوالي ١٨) من هذه السيرة والمسيرة: وهي سنوات حافلة بالأحداث على المستوى الشخصي في حياة الشيخ والمحلي والعربي والإسلامي والعالمي، على المستوى الشخصي يتحدث فضيلته عن تخرج كل أبنائه. وتزوج كل بناته. وبداية قصة زواجه الثاني. وتعيينه عميدا لكلية الشريعة ومديرا لمركز بحوث السنة والسيرة. ونجاحه في الدعوة الى تأسيس الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية بالكويت. وعمله رئيسا لهيئة الرقابة الشرعية لعدد من المصارف الإسلامية. واختياره عضوا في المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي، وعضوا في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن (مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي) وعضو مجلس أمناء مركز اكسفورد للدراسات الإسلامية، وعضو مجلس أمناء منظمة الدعوة الإسلامية بالخرطوم، وغيرها. وحصوله في هذه الفترة على بعض الجوائز العالمية.

ومن خلال هذه المذكرات سيمر القارئ بمعظم أحداث العصر في منطقتنا العربية والإسلامية، بحكم أن صاحبها يعيش في قلب هذه المنطقة، وقلب هذه الأحداث، وقد قدر له في هذه المرحلة أن يتفاعل بها ومعها متأثرا ومؤثرا.

وتتميز هذه السنوات بأمرين لهما أهمية قصوى في حياة القرضاوي:

الأول: الانتشار الكبير له في أنحاء العالم في الشرق والغرب، وزيارة كل قارات العالم حتى أستراليا، وأميركا الجنوبية، حتى سماه البعض «الشيخ الطائر».

والثاني: ظهور المد الإسلامي أو الصحوة الإسلامية بقوة في تلك المرحلة، والتى يعتبرها الشيخ جزءا منه، كأنما هي ولده وفلذة كبده.

وسنتابع نشر المذكرات يوميا بما فيها من تفاصيل يرويها القرضاوي لأول مرة.

رحلة دعوية ثانية لبلاد الشرق الأقصى زرت فيها «٧» دول آسيوية.. ماليزيا وإندونيسيا وسنغافورة والفلبين وهونغ كونغ وكوريا واليابان

كتب مؤرخ الإخوان الأستاذ محمود عبد الحليم في كتابه: (الإخوان المسلمون: أحداث صنعت التاريخ) عن هذه الخلافات والصراعات داخل الجماعة، وهو شاهد عيان، ومرضي عند الطرفين فليراجع، وقد نقلنا بعض كلامه في الجزء الثاني.

هذا الموقف من الأستاذ البهي الخولي، جعل الكثيرين من الإخوان، يتخذون منه موقفا، وبخاصة الذين دخلوا السجن الحربي، ممن حوكموا، ومن لم يحاكموا، وهو موقف طبيعي بالنسبة للبشر، الذين لا يحبون من آذاهم، ولا من وقف مع من آذاهم.

ولكن من المفترض أن تهدأ النفوس بعد مدة من الزمن، ويعود الناس إلى جو التسامح وخلق العفو والصفح، كما قال يوسف لإخوته «لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» (يوسف: ٩٢). وقد قال الله تعالى في شأن من شاركوا في حديث الإفك، وقد حلف أبو بكر أن يحرم أحدهم مما كان يصله به من قبل «وَلا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (النور: ٢٢). وقال تعالى في شأن أهل الكتاب «وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» (المائدة: ١٣).

فأولى أن يكون الصفح والعفو بين المؤمنين بعضهم وبعض.

لقد ساءني أن مجلة (الدعوة) لسان حال الإخوان في مصر، حين انتقل الأستاذ البهي الخولي إلى رحمة الله، لم تعره أي التفات، ولم تتحدث عنه بوصفه أحد رجال الدعوة الذين عاشوا عمرهم لها، وتركوا آثارا فيها.

وكان يمكن أن تشير إلى الخلاف الذي وقع، وتقول رأيها في تخطئة الأستاذ البهي ومجموعته، ثم تقول: ولكنه الآن أفضى إلى ما قدم، وهو موكول إلى نيته، وإنما لكل امرئ ما نوى.

الخلاف داخل الإخوان

وهنا لا بد لي من كلمة منصفة عن الخلاف داخل الإخوان، وأعتقد أنه ينطبق على كل الجماعات. والإخوان شأنهم شأن الجماهير دائما، تسرف في الحب، وتسرف في البغض.. من أحبته ارتفعت به إلى أعلى عليين، ومن أبغضته نزلت به إلى أسفل سافلين. وفي هذا الحالة تنسى سوابقه، وتلغى مآثره، ولا يذكر عنه إلا الجانب المظلم. هذا مع أن القرآن يعلمنا أن نعدل مع من نكره، كما نعدل مع من نحب، لا يمنعنا شنآن قوم (شدة بغضهم لنا أو بغضنا لهم) أن نعطيهم حقهم، كما قال تعالى «وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى» (المائدة: ٨).

ومن العدل أن تذكر للخصم حسناته، كما تذكر سيئاته. كما يعلمنا الإسلام: أن نتعامل مع أهل الإيمان بحسن الظن، وأن يحمل حال المسلم على أحسن حال، ونلتمس له العذر ما استطعنا، فالمؤمن أبدا يلتمس المعاذير، والمنافق يتطلب العيوب والعثرات. وقد قال تعالى «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ» (الحجرات: ١٢)، وقال عليه الصلاة والسلام «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث». أضف إلى ذلك: أن من آداب الإسلام: ألا ينسى المسلمون لمن أخطأ في حقهم: سوابقه الخيرة، ومواقفه الطيبة، التي حفل بها سجله، فربما كانت السوابق شافعة له، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب، وقد قال عن حاطب بن أبي بلتعة: دعني يا رسول الله، أضرب عنق هذا المنافق! وقد حاول أن يفشي سر رسول الله إلى أهل مكة، ويخبرهم بقدوم جيشه عليهم، والرسول حريص على أن يفاجئهم، فيجبرهم على التسليم بلا قتال أو بأقل الخسائر الممكنة، فعمله مما يمكن أن يعد اليوم في أعمال الخيانة العظمى، ومع هذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم لعمر «ما يدريك يا عمر، لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فإني قد غفرت لكم»! كما أن من روائع هذا الدين: أنه يقدر ضعف الإنسان، وأن كل بني آدم خطاء، وأن من أخطاء الإنسان ما لا يعاقب عليه، بل يؤجر أجرا واحدا إذا صدر عن اجتهاد وتحرٍ للحق، فإن أصاب الحق فله أجران، وإن أخطأ فله أجر. هذه مبادئ مهمة في التربية الأخلاقية الإسلامية، ولكن الإخوة كثيرا ما يغفلونها، نتيجة لغلبة الغضب عليهم، أو إساءة الظن بمن يخاصمونه واتهامه في سريرته ونيته، ونحن لم نؤمر أن نشق عن قلوب الناس، بل لنا الظاهر، والله يتولى السرائر. «رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ» (الحشر: ١٠).

زيارتي الثانية للشرق الأقصى

تحدثت عن زيارتي الأولى للشرق الأقصى قبل ذلك، عندما زرتها في أواخر صيف سنة ١٩٧٤م، في رفقة طيبة، كانت تضم فضيلة الأخ الحبيب الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، والأخ العزيز الأستاذ سيد أبو يوسف مفتش اللغة الإنجليزية في وزارة التربية والتعليم، وقد استمرت نحو ثلاثة أسابيع.

وبعد أربع سنوات أراد صديقنا الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم كاظم مدير جامعة قطر: أن ينظم لي رحلة أخرى إلى بلاد الشرق الأقصى، ألتقي فيها برجالات الإسلام، وبالجمعيات الدينية، والحركات الإسلامية، والجامعات المعتبرة، في كل من: ماليزيا وإندونيسيا وسنغافورة والفلبين وهونغ كونغ وكوريا واليابان.

وقد كتبت الجامعة إلى هذه البلدان كلها، وإلى أهم الشخصيات التي سألقاها، محددة بتواريخها، فكانت رحلة منظمة غاية في التنظيم. وكان لسكرتيرة د. كاظم السيدة (إيفون) دور أساسي في حسن ترتيبها، بالبرقيات المتتابعة (لم تكن الفاكسات قد ظهرت بعد)، وبالاتصال الهاتفي عند اللزوم، حتى انتظمت الرحلة من بدايتها إلى نهايتها بحمد الله.

وكنت قد طلبت من وزارة التربية أن يرافقني صهري الأخ الأستاذ سامي عبد الجواد، الأمين المساعد لدار الكتب القطرية، لمعرفته باللغة الإنجليزية، ولئلا أكون وحدي في هذه الرحلة الطويلة، وقد قال العرب: الرفيق قبل الطريق. ووافقت الوزارة مشكورة على ذلك.

سألوني سؤالا محرجا في ماليزيا: لماذا ألقى الإسلام عبء الزكاة على الفقراء وأعفى منها الأغنياء؟

إلى ماليزيا:

كانت المحطة الأولى في هذه السفرة إلى ماليزيا، وقد مكثنا فيها عدة أيام، وألقيت فيها عدة محاضرات، وزرنا فيها بعض الولايات، واشترينا بعض المشغولات المصنوعة من الفضة من حلي النساء.

ومما أذكره في هذه الزيارة: المحاضرة التي ألقيتها في جامعة الملايو، وقد وجه إليّ عقبها سؤال محرج، والذي وجهه هو رئيس الجامعة (إنْكو عزيز) وخلاصة السؤال: إن الشيوعيين يفحمون المسلمين بسؤال لا يجدون له جوابا حول الزكاة. يقولون: إن الإسلام ألقى عبء الزكاة على الفقراء، وأعفى منها الأغنياء، وذلك أن المجلس الملي أو الشرعي في الولاية يأخذ الزكاة (العشر) من زراع الأرز أو القمح أو الشعير مثلا، وربما كان الزارع مستأجرا للأرض، وليس مالكا لها، ولكن المجلس لا يأخذ شيئا ممن يملك حدائق جوز الهند أو التفاح، أو مزارع الشاي أو المطاط أو غيرها مما يجلب على صاحبه الملايين، ومع هذا لا يطالب من الزكاة بقليل ولا كثير، حيث يقول الفقهاء: هذه الفواكه وأمثالها، وكذلك الشاي والمطاط لا يجب فيها شيء من الزكاة!! قلت لهم: إن المجالس التي تجمع الزكاة عندكم ملتزمون بمذهب الشافعي، الذي لا يوجب فيما أخرجت الأرض زكاة، إلا فيما يكال وييبس ويدخر، وما عدا ذلك لا زكاة فيه، ولكن الذي رجحته بالأدلة في كتابي (فقه الزكاة): أن الزكاة واجبة في كل ما خرج من الأرض، مأكولا كان أم غير مأكول، حتى القطن والكتان والمطاط ونحوها. وهو مذهب عمر بن عبد العزيز وأبي حنيفة وأصحابه، وداود الظاهري، وهو الذي تسنده الأدلة من القرآن والسنة.

حتى إن إمام المالكية في عصره، القاضي أبا بكر بن العربي: رجح مذهب أبي حنيفة في كتابه (أحكام القرآن) عند تفسير آية «وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ» (الأنعام: ١٤١) من سورة الأنعام وعند شرحه لحديث «فيما سقت السماء العشر» في شرحه لجامع الترمذي، وضعَّف مذهبه - وهو مذهب مالك - في هذه المسألة، قائلا في الأحكام: أما أبو حنيفة فجعل الآية مرآته فأبصر الحق، فأوجبها في كل ما أخرجت الأرض، وكذا قال في (عارضة الأحوذي في شرح الترمذي) مستندا إلى عموم الآية (ومما أخرجنا لكم من الأرض) وعموم الحديث «ما سقت السماء» مؤيدا بأن هذا القول، أليقها بشكر النعمة، وأحوطها للمساكين. وأحسب أن الإمام الشافعي لو كان حيا اليوم، ورأى هذه المفارقات، لغير رأيه، كما غيره في كثير من المسائل، والتي يقال فيها: قال الشافعي في (القديم)، وقال الشافعي في (الجديد) وقديمه ما كان يراه قبل مجيئه إلى مصر، وجديده ما غيره بعد إقامته في مصر، حيث رأى ما لم يكن قد رأى، وسمع ما لم يكن قد سمع، كما أنه قد ازداد نضجا وعمقا، واتسع علمه، فلا غرو أن يتغير اجتهاده في بعض المسائل.



● أنور إبراهيم

واستراح دكتور عزيز لجوابي، وقال: ليت المشايخ عندنا يفقهون مثل هذا الكلام، ويأخذون الزكاة من كل ذي مال نام. وبهذا يسوون بين المكلفين جميعا، كما هو الأصل الشرعي أن الناس سواء أمام التكاليف.

وقد لقيت في هذه الرحلة الأخ أنور إبراهيم الذي قويت جمعيته وصلب عودها، وهي (جمعية الشباب المسلم) المسماة بالماليزية (آبيم). وكان المترجم بيني وبينه أحد الإخوة الماليزيين الذين يجيدون العربية، وهم كثيرون بحمد الله، ومن الجمعية عدد منهم.

إلى إندونيسيا:

وبعد ذلك سافرنا إلى إندونيسيا، حيث نزلنا في مطار جاكرتا، ووجدنا من ينتظرنا في المطار، وكان هذا من ثمرات حسن تنظيم الرحلة: أننا نجد في كل مطار من ينتظرنا ومن حجز لنا في الفندق، وييسر لنا أمورنا، وهذا من فضل الله، ومن بركات الترتيب والإعداد الجيد.

رأيي أن الزكاة واجبة على كل ما خرج من الأرض مأكولا كان أم غير مأكول حتى القطن والكتان والمطاط ونحوها

وكان أهم من لقيناه: الدكتور محمد ناصر رئيس المجلس الإسلامي الأعلى، الذي تحدثت عنه فيما سبق، وقد أعد لي برنامجا حافلا لزيارة الجامعات والمدارس الإسلامية، ومراكز النشاط الإسلامي المختلفة، (فزرنا جامعة ابن خلدون) وزرنا (المدرسة الشافعية) والمدرسة الطاهرية، وزرنا مجلس العلماء.

وأذكر أني خطبت الجمعة في مسجد الجامعة بجاكرتا، وزرت مدينة بالقرت من جاكرتا نسيت اسمها، وبتنا فيها ليلة واحدة.

وبعد أيام حافلة بالمحاضرات العامة، واللقاءات الخاصة، والأنشطة المتنوعة: غادرنا إندونيسيا إلى سنغافورة.

إلى سنغافورة:

وفي سنغافورة بتنا ليلتين، وقد استقبلنا الإخوة من أعضاء الجمعية الإسلامية، التي تقوم على أمر المسلمين في سنغافورة، وهم يمثلون أقلية لها وزنها. ومن المعروف: أن سنغافورة كانت جزءا من ماليزيا (أو من بلاد الملايو) وكانت تعتبر من (المضايق البحرية) التي يملكها المسلمون، ثم كثر فيها العنصر الصيني في عهد الاحتلال البريطاني، الذي فتح الأبواب على مصاريعها للصينيين والهندوس، ولكن الصينيين ركزوا على سنغافورة لما يعرفون من أهميتها التجارية والاستراتيجية، وهم يسمون الصينيين: يهود الشرق الأقصى! ولذلك تكاثروا في سنغافورة، ونظموا أنفسهم، ثم طالبوا باستقلال هذه الجزيرة، وقد تمكنوا من تحقيق مطلبهم في عهد رئيس الوزراء الماليزي المعروف: تنكو عبد الرحمن، الذي صدر في عهده قراران في غاية الخطورة، وهما: استقلال سنغافورة عن ماليزيا.. والثاني: إعطاء الجنسية الماليزية للصينيين والهندوس بعد عشرين سنة، وسرعان ما انقضت السنون العشرون، وحصل الفريقان على الجنسية الماليزية، وأصبحا يزاحمان أهل البلاد الأصلية من العنصر الملاوي.



● د. محمد إبراهيم كاظم

والحق يقال: إن الصينيين قد ارتقوا بهذا البلد الصغير في مساحته وحجمه، وجعلوا منه مثالا يُحتذى في رعاية النظام والنظافة، بحيث لا يجوز لأحد أن يرمي في الطريق ورقة أو بقية سيجارة أو نحو ذلك، وحتى أنهم يستخدمون عقوبة الجلد لمن يتعمد ارتكاب مخالفة في هذا الاتجاه.

كما جعلوا منها مركزا عالميا للتجارة والتسوق وللسياحة والانتجاع، فضلا عن تفوقهم في مجال التصنيع الخفيف الذي عرفوا به.

بقينا يومين في سنغافورة مع المسلمين، تحدثت إليهم، وتعرفت على أنشطتهم، وزرت بعض مدارسهم، وصليت في جامعهم الكبير، وتعرفت على بعض الإخوة من علماء الأزهر، الذين كانوا مبعوثين إلى سنغافورة، نسيت اسمهما، وهما اثنان: أحدهما شعلة من النشاط في الدعوة والحركة. والثاني: ليس له هذه الهمة في العمل. الأول يعمل بروح صاحب الرسالة، والثاني: يعمل بروح الموظف. ومما أذكره: أن بعض الإخوة السنغافوريين زارونا في الفندق، وأحسب أنهم كانوا سببا في تأخرنا أن ندرك الطيارة التي كنا سنركبها إلى (مانيلا) عاصمة الفلبين، فتأخرنا يوما عن الوصول في موعدنا إلى جنوب الفلبين.

إلى الفلبين:

ومن سنغافورة ركبنا الطائرة التي أقلتنا إلى (مانيلا) عاصمة الفلبين، وفي مانيلا يوجد مسلمون في مناطق شتى، ولهم تجمعات ومناطق يسكنون فيها، ولهم مدارسهم ومساجدهم وأنشطتهم. وقد زرت - ومعي صهري الأخ سامي عبد الجواد - هذه المناطق، وعقدت معهم لقاءات مختلفة، وألقيت فيهم كلمات مناسبة، بعضها قصير، وبعضها طويل، حسب مقتضى الحال، وقد هيأوا لي مترجما أو أكثر، ولا سيما أن بعضهم يتكلم بلهجة لا يتكلم بها الآخرون.

وبعد بيات الليلة في مانيلا سافرنا بالطائرة إلى الجنوب، وكنا قد تأخرنا يوما عن موعد وصولنا المحدد، حين فاتتنا الطائرة قبل ذلك، وشاء الله أن يخرج أهل (مراوى ستي) أهم مدن المسلمين في الجنوب، وقد خرج منهم جمع غفير ليستقبلونا في المطار - وهو على بعد عشرات الكيلو مترات - حسب موعدنا القديم معهم، فلما لم يجدونا، عادوا متأسفين لتأخرنا، وأراد الله أن يحدث لواحد منهم حادث في الطريق، توفاه الله فيه، وغلب الحزن على مشاعر الناس بعد أن كانوا في المطار في شبه عرس!

وفي اليوم التالي وصلنا، ووجدنا عددا كبيرا في انتظارنا في المطار، ولكنه أقل من عدد الأمس، وأخبرونا بما حدث بالأمس، ولم يكن المتوفى قد دفن بعد، فعند حضورنا صليت عليه صلاة الجنازة، وشيعناه إلى قبره، وواسيناهم في فقيدهم، رحمه الله رحمة واسعة. وألقيت كلمة مناسبة في هذا المقام.

وبقيت ثلاثة أيام أو أربعة في (مراوي) زرت فيها جامعة مندناو، والجامعة الإسلامية التي يشرف عليها د. أحمد ألونتو، كما زرت عددا من المدارس العربية الإسلامية، المنتشرة هناك، وتضم البنين والبنات في صفوفها، وإن كان البنات في العادة أكثر من البنين.

في ثاني زيارة للفلبين صليت على متوفى مات في حادث ضمن جموع حاشدة كانت بانتظاري

وقد تحدثت في الزيارة الماضية، التي تمت منذ سنوات مع الشيخ الأنصاري، عن ضرورة تطوير هذه المدارس: مبانيها وأدواتها ومناهجها ومدرسيها ولغتها، فهي بعيدة كل البعد عن عصرها، وتدرس لأبنائها وبناتها بعض ما كان يدرسه الأزهر قديما من كتب يعجز العرب الخلص عن فهمها، فكيف بالأعاجم؟! ومن المؤسف: أني وجدت هذه المدارس، كما تركتها في المرة الماضية، لم تتقدم خطوة إلى الأمام لا في الشكل ولا في المضمون. والمشرفون عليها يعتذرون بأن تطويرها يحتاج إلى مال كثير، ومن أين لهم المال، وأكثرهم فقراء لا حول لهم ولا قوة؟ من أين لهم ما يبنون به مدرسة حديثة، أو مختبرا مجهزا بلوازمه، أو يوظفون به مدرسا للفيزياء أو الكيمياء، أو الرياضيات أو اللغة الإنجليزية؟! قاتل الله الفقر، فكم أعجز الناس أن يجدوا الضرورات لحياتهم، وكاد الفقر أن يكون كفرا. وقد قال علي رضي الله عنه: لو تمثل الفقر رجلا لقتلته! وقال الشاعر:

إن الدراهم في الأماكن كلها تكسو الرجال مهابة وجمالا
فهي اللسان لمن أراد فصاحة وهي السلاح لمن أراد قتالا

وجزى الله خيرا: اتحاد المدارس العربية الذي يرأسه الأمير محمد الفيصل آل سعود، ويتولى أمانته العامة: الأستاذ الدكتور توفيق الشاوي، الذي اهتم بهذه المدارس، واجتهد أن ينهض بها على قدر استطاعته، وأقام عندهم في إحدى الإجازات الصيفية دورة تدريبية، لرفع مستوى المدرسين تربويا ووظيفيا، وقد استعانوا ببعض الجامعات العربية، لتمدهم ببعض المتخصصين في إجازات الصيف، مساهمة في هذا العمل العلمي التربوي الخير، شارك فيها بعض الأساتذة من جامعة قطر، كان منهم في إحدى السنوات أخونا الحبيب الدكتور عبد العظيم الديب، وبعض رفقائه الذين أدوا بعض الواجب لهؤلاء الإخوة المعزولين عن العالم الإسلامي. ومما شاهدته في هذه البلاد: أثر الأزهر البيّن فيهم، فقد وجدت خريجي الأزهر يعملون بكل جد على كل صعيد، في التعليم في المدارس، وفي الدعوة في المساجد، وحتى في الجهاد الذي كانت تدور رحاه بين المسلمين وبين الحكومة المركزية في مانيلا، كان للأزهريين دور غير منكور مع القائد الأزهري المعروف سلامات هاشم رحمه الله.

زرت في هذه الأيام عددا كبيرا من المدارس، أتكلم في كل مدرسة منها، وانتقل من مدرسة إلى أخرى، من الصباح إلى المساء، وفي المساجد، وفي الحفلات التي أقامها الناس في أماكن شتى احتفالا بنا، وكان معي مترجمان يصحبانني، يتبادلان الترجمة، وقد تعبا في النهاية، وشكوا من كثرة الكلام، حتى بح صوتهما، وقالا لي: نحن اثنان، وقد شعرنا بالتعب، ونحن نترجم وأنت تنشئ! لا نقول إلا: ما شاء الله لا قوة إلا بالله!

وبعد أيامنا في الجنوب عدنا إلى مانيلا من حيث جئنا، وبتنا فيها ليلة، لنواصل مسيرتنا إلى اليابان، إلى طوكيو.

إلى طوكيو باليابان:

ومن مانيلا، انتقلنا إلى (طوكيو) العاصمة اليابانية، وكان الجو باردا شديد البرودة، وزاد إحساسنا بالبرودة: أن المناطق التي زرناها كلها: ماليزيا وإندونيسيا وسنغافورة، وحتى الفلبين، كلها ذات فصل واحد، لا تعرف الفصول الأربعة، فلا يختلف صيف عندها من شتاء، بل هي أقرب إلى الحرارة منها إلى البرودة، وإن كانت حرارتها ليست كحرارة بلاد الخليج ونحوها كما أنها تتميز بكثرة الأمطار التي تنشر الخضرة في كل مكان. ولكنا كنا نعرف طبيعة الجو في اليابان وكوريا، وقد أخذنا معنا من الملابس ما يدفئنا عند اللزوم، وقد قال الشاعر: البس لكل حال لَبوسها، فلا غرو أن لبسنا للبرد لبوسه المناسب. وقد زرنا المركز الإسلامي، وألقيت به محاضرة، ولم يكن الأخ الدكتور صالح السامرائي مدير المركز موجوداً في تلك الفترة، وهو الذي عايش المركز من قديم، ونهض به بمعونات أهل الخير من العرب، وزرنا المسجد (التركي) الذي بناه الأتراك، الذين هاجروا من تركيا قديما، واستوطنوا اليابان، وقد خطبت الجمعة فيه، وزرت إحدى الجزر اليابانية، نسيت اسمها.

كما زرت جامعتين يابانيتين في طوكيو، ورتبت لي محاضرة في كل منهما، وزرت مكتبة إحداهما، وكانت مكتبة متطورة، تعمل بأحدث النظم العصرية. وقد شكونا مر الشكوى من الغلاء في طوكيو، أحسب أنها أغلى بلاد العالم، كل ليلة في الفندق بمبلغ كبير يؤود الظهر، وكل أكلة في مطعم من المطاعم كذلك. وقد ذهبنا إلى أسواقها واشترينا بعض اللوازم منها، وكان مما زاد غلاءها: أن (الين) الياباني كان في القمة بالنسبة للدولار، وهذا زاد الطين بلة، كما يقولون. ولذا لم يطل المقام باليابان.

إلى كوريا:

ومن اليابان اتجهنا إلى (كوريا) والمقصود: كوريا الجنوبية، فبلاد الخليج كلها لا تتعامل إلا مع كوريا الجنوبية، وقد حططنا الرحال في عاصمتها (سوول) ونزلنا في فندق (حياه) أو (هياه) كما ينطقونه، ولما سألناهم عن معنى هذا الاسم، قالوا: إنهم لا يعرفون معناه، لأنه منقول إليهم من لغة أخرى، فقلت لهم: إن أصله عربي، ومعنى حياة بالإنجليزية (لايف).

وكان في العاصمة مركز إسلامي ساهمت بعض البلاد الإسلامية - ومنها قطر - في إقامته، ووجدنا بعض الشباب الذين أخلصوا للإسلام، هم الذين يقوم عليه النشاط كله، الدعوة والتعليم والنشاط الاجتماعي، وهم عدد محدود بارك الله فيهم، على حين قالوا لنا: إن المسلمين يبلغون عشرين ألفا أو يزيدون! فأين هم؟! سألناهم عن هؤلاء المسلمين: أيحضرون بعض الصلوات أم يحضرون يوم الجمعة؟ فقالوا: لا يحضرون إلا القليل، بعضهم يحضر في صلاة العيدين: الفطر والأضحى، والأكثرون لا نراهم، حتى في العيدين! فليت شعري: ما الذي يربطهم بالإسلام إذن؟ إن الإسلام دين اجتماعي، لا يمكن للمسلم أن يثبت وجوده فيه إلا داخل جماعة، لهذا شرعت صلاة الجماعة، وجعلت أفضل من صلاة الفرد وحده بسبع وعشرين درجة، وأنشئت المساجد لصلاة الجمع والجماعات، لتوحد المسلمين، وتصلهم بالجماعة المسلمة، فيد الله مع الجماعة، والشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية، والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا. وللمسلم على المسلم جملة حقوق: يسلم عليه إذا لقيه، ويشمته إذا عطس، ويسأل عنه إذا غاب، ويعينه إذا احتاج، ويعوده إذا مرض، ويهنئه إذا فرح، ويعزيه إذا حزن، ويصلي عليه إذا مات. لهذا لا يستطيع مسلم أن يحتفظ بإسلامه قويا مؤثرا إذا عاش وحده، بل بالتعاون مع إخوانه يحيا ويبقى ويقوى، وهذا ما نصحنا به الإخوة هناك: أن يعيشوا بالإسلام مترابطين متآخين، يتزاورون ويتضامنون فيما بينهم، وبذلك يشعرون بنعمة الأخوة تظلهم، كما قال تعالى «هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ. وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» (الأنفال: ٦٢-٦٣).



● مزارع شاي ومطاط



تنفرد «الوطن» بنشر الجزء الرابع من مذكرات العلامة د. يوسف القرضاوي: ملامح سيرة ومسيرة (ابن القرية والكتاب)، وهو يشمل بضعة عشر عاما (حوالي ١٨) من هذه السيرة والمسيرة: وهي سنوات حافلة بالأحداث على المستوى الشخصي في حياة الشيخ والمحلي والعربي والإسلامي والعالمي، على المستوى الشخصي يتحدث فضيلته عن تخرج كل أبنائه. وتزوج كل بناته. وبداية قصة زواجه الثاني. وتعيينه عميدا لكلية الشريعة ومديرا لمركز بحوث السنة والسيرة. ونجاحه في الدعوة الى تأسيس الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية بالكويت. وعمله رئيسا لهيئة الرقابة الشرعية لعدد من المصارف الإسلامية. واختياره عضوا في المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي، وعضوا في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن (مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي) وعضو مجلس أمناء مركز اكسفورد للدراسات الإسلامية، وعضو مجلس أمناء منظمة الدعوة الإسلامية بالخرطوم، وغيرها. وحصوله في هذه الفترة على بعض الجوائز العالمية.

ومن خلال هذه المذكرات سيمر القارئ بمعظم أحداث العصر في منطقتنا العربية والإسلامية، بحكم أن صاحبها يعيش في قلب هذه المنطقة، وقلب هذه الأحداث، وقد قدر له في هذه المرحلة أن يتفاعل بها ومعها متأثرا ومؤثرا.

وتتميز هذه السنوات بأمرين لهما أهمية قصوى في حياة القرضاوي:

الأول: الانتشار الكبير له في أنحاء العالم في الشرق والغرب، وزيارة كل قارات العالم حتى أستراليا، وأميركا الجنوبية، حتى سماه البعض «الشيخ الطائر».

والثاني: ظهور المد الإسلامي أو الصحوة الإسلامية بقوة في تلك المرحلة، والتى يعتبرها الشيخ جزءا منه، كأنما هي ولده وفلذة كبده.

وسنتابع نشر المذكرات يوميا بما فيها من تفاصيل يرويها القرضاوي لأول مرة.

سؤال محرج واجهني بعد الثورة الإيرانية: لماذا نجح علماء الشيعة وفشل علماء السنة؟

قرية صغيرة واحدة في كوريا زرناها مع الإخوة هي التي أثلجت صدورنا، فأهل هذه القرية قد أسلموا، وأسسوا مدرسة صغيرة لأبنائهم وبناتهم، أشبه بالكتاب، يتعلمون فيها ما يتعلمه التلاميذ في مدارس الرياض والابتدائية، فهم بهذا يحيون حياة إسلامية مشتركة، وهي حياة عملية لا جدلية ولا صورية.

إن إعلان المرء دخول الإسلام: أمر يفرح له كل مسلم، ويحمد الله عليه، أن زاد المسلمون واحدا، يعبد الله وحده لا شريك له، ويشهد أن محمدا عبده ورسوله، ويلتزم بالإسلام عقيدة وعملا، ولكن دون متابعة هؤلاء المسلمين الجدد، وتعليمهم الإسلام الميسر بالتدريج، ووصلهم بجماعة المسلمين، ومساجد المسلمين: يظل إسلامهم صورة لا حقيقة لها، وشكلا لا مضمون له، ويوشك أن يضيع هذا الإسلام الجديد إذا لم يجد له محضنا.

قد يهتم بعض دعاة الأديان بمجرد الإعلان عن الدخول في دينهم، للمباهاة بالأعداد، والمكاثرة في حرب الإحصاءات والتعداد، ولأن عندهم: إذا أمنت بالمُخَلِّص (يسوع المسيح) فقد نجوت وإن لم تعمل! أما نحن فالإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل، كما تدل على ذلك العشرات - بل المئات - من آيات القرآن، وأحاديث الرسول. وحسبنا قوله تعالى «لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا. وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا» (النساء: ١٢٥، ١٢٤). المدار إذن على العمل لا على الدعاوى والأماني.

إلى هونغ كونغ المحطة الأخيرة

ومن كوريا استقللنا الطائرة إلى (هونغ كونغ) تلك المدينة الصينية العجيبة، التي تحكمها بريطانيا، وفق اتفاقية معروفة، وهي في نظامها السياسي: ديمقراطية، وفي نظامها الاقتصادي: رأسمالية، وقد استطاعت في ظل الحرية أن تصبح قلعة صناعية وتجارية، وأن تغزو بمنتجاتها العالم، شرقا وغربا، وأن تكون فيها (بورصة) عالمية، رغم ضيق رقعتها، التي جعلت بعض أهلها لا يجدون لهم مكانا، إلا في شقق صغيرة في بحيراتها، فهي منازلهم التي يبيتون فيها، ويأوون إليها. برغم الأبراج العالية، التي يعتبر بعضها من ناطحات السحاب، ففيها أعلى عمارة في قارة آسيا كلها (بضعة وخمسون طابقا).

وكان في هونغ كونغ جامعان كبيران للمسلمين، وهم يحاولون أن يبنوا ثالثا في منطقة حية وعامرة من المدينة.

وقد زرت المسجدين، وألقيت فيهما بعض الدروس، بترتيب من الإخوة المعنيين هناك، كما زرت إحدى المدارس الخاصة بالمسلمين، مع الأخ الصيني المسلم المعروف (يوسف يو).

كما تجولنا في أسواقها على العادة، لنشتري منها بعض الهدايا للأولاد، ولا سيما أن الأسعار هناك معقولة جدا، إذا قورنت ببلاد الخليج، فهي في بلاد الخليج تأتينا محملة بأجور النقل والجمارك - وإن قلت - وربح تجار التجزئة، وكثيرا ما يبالغون فيه.

وأذكر مما اشتريته من (هونغ كونغ) مناظر طبيعية، وهي لوحات زيتية، يرسمها فنانون مبدعون بريشاتهم، تنطق بصنع الله الذي أتقن كل شيء، وقد كنت عرفت المنطقة التي تباع فيها هذه اللوحات، ويتنافس فيها الفنانون، والباعة، وكانت في منتهى الرخص، وأنا من المولعين بهذه اللوحات، وأنتقيها طبيعية محضة، ليس فيها صورة إنسان ولا حيوان، وإن كان رأيي أن صور الإنسان والحيوان لا تحرم إلا إذا كانت مجسمة، ولم تكن لعبا للأطفال.

ومن هونغ كونغ عدنا - على ما أذكر - إلى البحرين، على طائرة (كاتي باسفيك) ومن البحرين إلى قطر. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وكل مسافر سيعود يوما إذا رزق السلامة والإيابا

مؤتمر تنصير المسلمين في كلورادو «١٩٧٨م» من الأحداث المهمة المعتبرة التي وقعت خارج العالم الإسلامي، وكان لها صدى كبير، وأثر خطير لدى المسلمين، وخصوصا الدعاة والمهتمين بالشأن الإسلامي: المؤتمر الذي عقد في ولاية كلورادو بأميركا، وفي مدينة (جِلِنْ أَيْري) لتنصير المسلمين في العالم، والذي استمر لمدة أسبوع كامل، وقد اجتمع نحو ١٥٠ مبشرا أو منصّرا. وهو تتمة للمؤتمر الذي عقد في لوزان بسويسرا عام ١٩٧٤م لتنصير العالم.

وقد أعد للمؤتمر أربعون أو ثلاثة وأربعون بحثا، تعين على توضيح الرؤية، وتمهيد الطريق لتنصير المسلمين، الذين أحزن المنصرين إخفاقهم إلى اليوم في هدايتهم! وعدم استجابتهم لدعوتهم، وإيمانهم بالمسيح إلها ومخلّصا!!

لقد كانت أيام المؤتمر السبعة مشحونة بالعمل والإنجاز، جلسات متتالية في تسلسل صارم، وفيها قرروا إنشاء معهد متخصص في تنصير المسلمين أطلقوا عليه اسم أحد عتاة التبشير، وكبراء التنصير، وهو صمويل زويمر، الذي رأس عددا من المؤتمرات التبشيرية في القاهرة وفي غيرها، منشئ مجلة (العالم الإسلامي) التبشيرية، فأرادوا إحياء ذكراه بهذا المعهد.

جاء في التعريف بهذا المعهد الفقرة التالية:

«إن الهدف الرئيسي لمعهد صمويل زويمر، هو مساعدة الرجل المسلم، والمرأة المسلمة، والطفل المسلم، في كل مكان، لتوفير الظروف التي تجعلهم يقبلون المسيح إلها ومخلصا لهم، وأن نرى الكنيسة مزروعة بين كل جماعة مسلمة».

وللمعهد شعار مكتوب على لوحة كبيرة خضراء اللون، وباللغتين العربية والإنجليزية، ونص هذا الشعار:

(لأنه ليس شيء غير ممكن لدى الله، فاذهبوا وتلمِذوا (اجعلوهم تلاميذ) كل المسلمين، من كل قبيلة ولسان وشعب وأمة).

وقد رصدوا لهذه الغاية مليار دولار (ألف مليون دولار) جمعت بسهولة، ووضعت في أحد البنوك.

> **أزعجني انعقاد مؤتمر تنصير المسلمين في كلورادو خوفا على هوية الأمة وعقيدتها ورسالتها**

إن أخبار هذا المؤتمر تناقلتها وكالات الأنباء، ونقلت إلى العالم الإسلامي، وأقضت مضاجع الغيورين من المسلمين هنا وهناك، وأنا منهم، إن لم أكن في مقدمتهم، لما يبيت للإسلام من مكايد، وما يرصد من أموال، وما ينشأ من معاهد، وما يعد من رجال مدربين، لتحويل المسلمين عن دينهم إلى المسيحية التي لم تعد مسيحية عيسى ابن مريم، بل مسيحية (سانت بولس)، والتي لا يذهب أهلها إلى الكنائس في أيام الأحد إلا نحو ٥٪، كما قالت الإحصاءات في أوروبا.

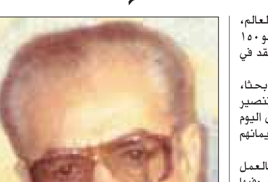
ومن سوء حظ دعاة التنصير أنهم بدؤوا حملتهم في الوقت الغلط، ففي هذا الوقت كانت (الصحوة الإسلامية) الجديدة قد بزغ فجرها، وأشرقت شمسها، وبدأت أنوارها تمتد شرقا وغربا، وشمالا وجنوبا، داخل العالم الإسلامي وخارجه، وهي صحوة انبثقت من ضمير الشعوب، وهي صحوة عميقة وشاملة، شملت إيقاظ العقول والمشاعر، وإحياء العزائم والضمائر، فهي صحوة علم وعمل، وفكر وحركة، وغيرة ودعوة، وكفاح وجهاد، ظهر أثرها في معارك التحرير من أعداء الأمة، وفي ميادين الاقتصاد، وميادين الثقافة والفكر، وفي ميادين الخلق والسلوك.

وقد جاءني صحفيون وصحفيات من أميركا وأوروبا، يسألونني - كما سألوا غيري - عن سر هذه الصحوة، التي جعلت الشباب يترددون إلى المساجد، ويرجعون إلى القرآن والسنة، ويتمسكون بأدب الإسلام، الفتى يلتحي، والفتاة تختمر (أو تتحجب)، والجميع يؤدون الفرائض، ويتجنبون المحرمات، بل يتقون الشبهات. في حين نرى الشباب الغربي أعرضوا عن الدين، وغرقوا في الشهوات، ولم يعد الدين من مطالب حياتهم؟

في هذا الوقت الذي بدأ فيه رجال التنصير ينشطون، كانت الصحوة تشق طريقها بقوة، بغير مبشرين، وبغير مليارات ولا ملايين، وبغير معهد زويمر ولا غيره. وحده الله العظيم إذ يقول «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ» (الأنفال: ٣٦).

على كل حال لقد أقلقتني أخبار مؤتمر كلورادو كما أقلقت غيري من العلماء والدعاة وأهل الغيرة على الإسلام وأمته، وكل الحراس الأيقاظ الذين اعتبروا أنفسهم مسؤولين عن هوية الأمة وعن الحفاظ على عقيدتها ورسالتها.

وهذا ما حركني لعمل شيء لمقاومة التيار التنصيري، الذي يستغل فقر المسلمين وجهلهم


● شاه إيران

ومرضهم ومشاكلهم، للتسلل منه إلى فتنتهم عن دينهم، بوسائل غير أخلاقية، وأساليب لا يرضاها الله ولا رسله، ومنهم المسيح عليه السلام.

وهو ما انتهى إلى تأسيس (الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية) بالكويت، وسأكمل بقية الحديث عن هذا الأمر عندما أتحدث عن إنشاء الهيئة الخيرية، في حينه من هذا الجزء من المذكرات إن شاء الله.

انتصار ثورة الخميني في إيران

في يناير ١٩٧٩م، انتصرت الثورة الإسلامية بقيادة الإمام الخميني في إيران، بعد أن وقف الجيش الامبراطوري عاجزا أمام الزحوف الشعبية التي تجمعت بالملايين، ورغم أن الشعب لم يكن يحمل سلاحا، والجيش يملك كل أنواع الأسلحة خفيفها وثقيلها، برها وجوها، ورغم أن معه أوامر بأن يضرب بقوة، ويقتل من يشاء، ولا يخشى عقابا ولا حسابا! إلا أن الجيش - مهما تكن قسوته وجبروته - هو جزء من الشعب، ولا يستطيع جيش ما: أن يظل يقتل أهله وإخوانه وأبناءه زمنا طويلا. فلا عجب أن توقف الجيش عن مقاتلة الشعب، ومقاومة الشعب.

> **الصحوة الإسلامية انبثقت من ضمير الشعوب وأيقظت العقول وظهر أثرها في ميادين الاقتصاد والثقافة والفكر والخُلق والسلوك**

أعلن عن سقوط نظام الشاة (رضا بهلوي) وعن انتصار الثورة الإسلامية بقيادة الإمام الخميني، التي سماها بعضهم (ثورة الكاسيت). فقد كان (الخميني) منفيا في الخارج، ومقيما في (باريس)، ومن هناك يرسل رسائله إلى الشعب الإيراني في الداخل عن طريق الأشرطة تعمل عملها في تهيئة الأفكار، وإيقاظ الضمائر، وتحريك المشاعر، وإلهاب العواطف، حتى تهيأت الثورة الشعبية العارمة، التي تمضي في طريق التغيير، ولا يقف دونها شيء.

سؤال محرج لعلماء السنة

بعد انتصار ثورة الخميني في إيران، توجه الناس هنا وهناك بسؤال محرج إلى العلماء والدعاء من أهل السنة: لماذا نجح علماء الشيعة في قيادة ثورة ناجحة على نظام جاهلي، ولم ينجح علماء السنة في إقامة ثورة مماثلة في بلاد السنة على


● أبو الأعلى المودودي

الأنظمة العلمانية الجاهلية؟ هل هذا عجز في طبيعة المذهب السني نفسه أو هو عجز في علماء السنة الذين ساروا في ركاب الحكام؟

وكنت ممن وجه إليهم هذا السؤال - أو قل هذا الاتهام - في كل مكان ذهبت إليه من بلاد المسلمين من أهل السنة.

عوامل نجاح الثورة

وكان الجواب: أن العيب والعجز ليس في مذهب أهل السنة بلا ريب، ولكن هناك ظروفا وعوامل داخلية وخارجية أدت إلى نجاح ثورة الخميني في ذلك الوقت لم تتوافر لأهل السنة.

فقد كان مذهب الشيعة هو: انتظار (الإمام المهدي) حتى يظهر، ويملأ الأرض قسطا وعدلا، بعد أن ملئت ظلما وجورا. ومعنى هذا: أن طبيعة المذهب هي: الصبر على جور الأئمة في الأرض، حتى يأتي الفرج من السماء!

ولكن الخميني رفض هذه الفكرة: فكرة الانتظار إلى ظهور الإمام، فقد انتظر الشيعة اثني عشر قرنا، ولم يظهر، فإلى متى ننتظر؟ وخرج الخميني بنظرية جديدة هي (ولاية الفقيه) نيابة عن الإمام. وقد وافقه كثير من (آيات الله) والمرجعيات الشيعية الدينية، وخالفه الأقلون. وكان الخميني هو الرجل المؤهل لقيادة القافلة الشيعية في هذه المرحلة بما أوتي من قوة العزيمة، وشجاعة المواجهة، والإصرار على المبدأ، والتأثير في الأتباع، وإن لم يكن أعلم المرجعيات المعروفة في ذلك الوقت، ولكن قيادة الثورات الشعبية لا تحتاج إلى العلم وحده، بل تحتاج إلى مجموعة من الصفات العقلية والنفسية والخلقية كانت متوافرة في الخميني الذي تصدى لمقاومة طغيان الشاه، وهو في أوج مجده وسلطانه.

وقد ساعد على نجاح الخميني في ثورته عدة أمور:

أولها: أن الشاه قد بلغ من الطغيان والفساد مبلغا عظيما، فمن الناحية الداخلية باتت إيران مظهرا للانحلال والتفسخ، من الناحية الأخلاقية، وللتمايز والتفاوت المستنكر من الناحية الاقتصادية ما بين ثراء فاحش وفقر مدقع، رغم ما يملك البلد من ثروات كبيرة: نفطية وزراعية وسياحية وغيرها، ومع هذا وجد فيها المعدمون الذين لا يجدون ما يأكلون. وفي الجانب السياسي غدا الشاه الدكتاتور الأعظم، وأمست الحريات العامة في إجازة، وجهاز السافاك (الاستخبارات) مطلق اليد، في انتهاك الحريات، واقتياد من شاء إلى السجون والمعتقلات بلا رقيب ولا حسيب. وباتت سيرة الشاه الشخصية وسيرة أسرته محلا للتندر والتعليق، وآية للبذخ والاستهتار.

ومن الناحية الخارجية: أصبح الشاه ودولته شرطي أميركا في الشرق الأوسط، وأصبحت لإيران علاقات مكشوفة بدولة الكيان الصهيوني، فضلا عما نسب إليه من الولاء للبهائية وغيرها، مما يعني: أن ولاءه لم يعد للمذهب الجعفري، مذهب الأكثرية في إيران.

وإذا بلغ بلد من الطغيان هذا المبلغ، فهذا مؤذن بنهايته، وفق سنة الله التي لا تتخلف مع «الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ. فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ. فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ. إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ» (الفجر: ١١-١٤).

وثانيها: أن الشعب قد غلا مرجله، واشتد حنقه وسخطه على نظام الشاه، فقد بلغ السيل الزبى، ولم يكن يحتاج إلا إلى القائد الذي يلتف حوله، ويمضي تحت رايته بقوة جسارة، وقد وجد ضالته في الخميني الذي استطاع بجدارة أن يجمع الشعب من ورائه، ويعبئه نفسيا وعاطفيا، لينطلق كالسيل العرم، لا يقف في سبيله شيء، ولو كان الجيش بكل أسلحته، والسافاك بكل جبروته. وصدق الشاعر التونسي أبو القاسم الشابّي حين قال:

إذا الشعب يوما أراد الحياة
فلا بد أن يستجيب القدر!
ولا بد لليل أن ينجلي
ولا بد للقيد أن ينكسر!

> **من أسباب نجاح ثورة الخميني: طغيان الشاه وسخط الشعب والظروف الدولية المواتية وتوافر القائد الذي يحوز ثقة الجمهور**

ومما أيد الشعب وأنجح إرادته: أنه وجد القائد المناسب للمرحلة، الذي أجمعت عليه كل القوى الشعبية. ومن النادر أن يتحقق مثل هذا.

وثالثها: أن الظروف الدولية كانت مهيأة لاستقبال الثورة في إيران، فقد أضحى الشاه (ورقة محترقة) كما يعبرون اليوم، ليس هناك من يتشبث ببقائه، ولا من يبكي عليه إذا ذهب، ومثل هذا المخلوق لا تحرص عليه القوى الكبرى، ولا تكلف نفسها الدفاع عنه. وقد عرف من سياسة هذه القوى - أو من فلسفتها السياسية - أنها ليس لها صديق دائم، ولا عدو دائم، فهي تصادق وتعادي، وتسالم وتحارب، تبعا لمصلحتها، فصديق الأمس قد يصبح عدو اليوم، وكذلك عدو اليوم قد يصبح صديق الأمس. والدنيا دول، والدهر قلب، وتلك الأيام نداولها بين الناس.

فلا غرو أن تتخلى أميركا صراحة عن الشاه صديقها القديم، وشرطيها القديم، فلم يعد ينفعها اليوم، وقد انتهى دوره، ولكل مقام مقال، ولكل زمان رجاله.

أثر المذهب الشيعي

ومما لا ينبغي أن ينازع فيه: أن طبيعة المذهب الجعفري الشيعي: أن يمنح علماء الدين - وبخاصة (آيات الله) - فيه قوة مادية ومعنوية، لا يتوافر مثلها لأهل السنة، لا سيما في هذا العصر.

فالشيعي المتدين يجب أن يرتبط بمرجع ديني، يفتيه ويرشده في الملمات، ويعطيه (الخمس) الواجب على كل شيعي، وهو بمثابة (ضريبة على صافي الدخل) بنسبة ٢٠٪ بعد اقتطاع النفقات اللازمة للشخص ولمن يعوله. وهذه الضريبة يفترض أن تؤدى للإمام المعصوم. أما وهو غائب، فإنها تعطى لمن ينوب عن الإمام من العلماء والمراجع الدينية. فهذه قوة مادية مالية تشد أزر مشايخ الشيعة، وتغنيهم عن وظائف الدولة التي قد تتحكم فيهم، وتقيد حركتهم بسبب وظيفتهم. وهو ما وقع فيه أهل السنة، حيث صاروا موظفين في الدولة، ورزقهم بيد السلطة، حتى أكبر مناصبهم مثل شيخ الأزهر والمفتي ورئيس القضاء الشرعي وأمثالهم، كلهم موظفون عند الحكومة، هي التي توليهم، وهي التي تعزلهم إن شاءت، وهي التي توسع لهم أو تقتر عليهم.

وقد سأل أحد ولاة بني أمية عن سر قوة الإمام الحسن البصري في نقد الأمراء والولاة، فقال: إنه رجل احتاج الناس إلى دينه، واستغنى هو عن دنياهم! إذ كان للحسن أملاك خاصة تدر عليه دخلا لا يحوجه إلى أحد.

والمشكلة الآن تتجلى وتتجسد، حين يكون العالم والفقيه الكبير محتاجا إلى دنيا الأمراء والحكام، على حين نجد الأمراء والحكام مستغنين عن دينه وعلمه، فلم يعد يعنيهم أمر الدين!

وقد كان أهل السنة يستعيضون عن خمس الشيعة بما لهم من أوقاف وفيرة، وقفها أهل الخير على العلماء والمؤسسات الدينية، ولكن حكومات أهل السنة في العصور الأخيرة استولت على الأوقاف كلها، ليبقى العلماء عالة على الدولة أوالحكومة.

فهذا هو الجانب المادي الذي يوفره المذهب الجعفري للملالي أو الآيات أوالمراجع الدينية. أما الجانب المعنوي فهو ما يتمتع به هؤلاء المراجع من سلطة روحية قوية على أتباعهم، وهي سلطة أساسها الالتزام الديني، ينصاع لها المرء طائعا مختارا، معتقدا أنه يتقرب بذلك إلى الله. فالمرجع الديني في نظره ممثل للإمام المعصوم الغائب، وطاعته طاعة لهذا الإمام، الذي تعد طاعته من طاعة الله ورسوله، فهي إذن طاعة مطلقة، فإذا أصدر إليه المرجع أمرا، فكأنما أمر به من السماء!

وهذا النوع من الطاعة لا يتوافر لأهل السنة وفق أصول مذهبهم الذي يرى: أن لا عصمة لأحد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعصمة الأمة في مجموعها، فهي لا تجتمع على ضلالة، ومن عدا ذلك، فكل أحد يؤخذ من كلامه ويرد عليه، سواء كان من آل البيت أم من الصحابة، رضي الله عن الجميع.

وعلى هذا يكون لعلماء المسلمين فضلهم ومكانتهم، وهم الذين يرجع إليهم في أمر الدين، وأحكام الشرع، وطاعتهم فيما يفتون به ويرشدون إليه واجبة إلا إذا اختلفوا، فيتخيرون من أقوالهم ما هو أرجح دليلا، وأهدى سبيلا.

وفاة الأستاذ المودودي للصلاة

في ١٩٧٩/٩/٢٢م، نشرت وكالات الأنباء العالمية والإقليمية، وعنها نقلت الصحف والإذاعات والتلفازات، نبأ وفاة الداعية الإسلامي المجدد الكبير: الشيخ أبي الأعلى المودودي، مؤسس الجماعة الإسلامية في الهند الكبرى، ثم في باكستان الغربية والشرقية، التي انفصلت فيما بعد، وسميت جمهورية (بنجلاديش)، وأحد المصلحين الإسلاميين، والمؤلفين الكبار في القضايا الفكرية الإسلامية، والذي تشكل كتبه ورسائله مدرسة متميزة في الفكر الإسلامي، والدعوة الإسلامية المعاصرة.

فلا عجب أن تلقى العلماء والدعاة والمفكرون، وأبناء الحركة الإسلامية في العالم الإسلامي وخارجه: نبأ وفاته بالحزن والألم والاسترجاع، لفقد هذا العالم الفذ، الذي انتفع بعلمه المسلمون عربهم وعجمهم، فقد ترجمت مؤلفاته إلى لغات إسلامية، وعالمية شتى وفي مقدمتها: اللغة العربية.

ولا ريب أن فقد العلماء الأعلام، يعدُّ من المصائب التي تنزل بالأمة، لا سيما أولئك الأفذاذ الذين يجود بهم القدر بين الحين والآخر، ويتركون آثارهم في الحياة والأحياء، وقلما يعوضون.

وقد جاء في الحديث المتفق عليه «إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من صدور الناس، وإنما يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالما: اتخذ الناس رؤوسا جهالا، فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا».

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: عليكم بالعلم قبل أن يرفع، ورفعه موت رجاله.

ولذا قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: إذا مات العالم ثلمت في الإسلام ثلمة لا يسدها إلا خلف منه.

وفي الأثر: لموت قبيلة أيسر من موت عالم، وقال عمر رضي الله عنه: موت ألف عابد قائم الليل، صائم النهار: أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه.

ومن هنا كان وقع وفاة المودودي على كل مَن يعرفه من أبناء الأمة شديدا، وقد تنادى كثير من الإخوة من العلماء والدعاة، من مصر وبلاد الشام، وبلاد الخليج وغيرها للسفر إلى مدينة لاهور - محل إقامة المودودي - للمشاركة في صلاة الجنازة عليه. لم يبق في ذاكرتي منهم إلا الدكتور أحمد الملط من مصر، والشيخ سعيد حوا من سوريا، والأستاذ عبد الله العقيل من السعودية.



● لحظة عودة الخميني لإيران



تنفرد «الوطن» بنشر الجزء الرابع من مذكرات العلامة د. يوسف القرضاوي: ملامح سيرة ومسيرة (ابن القرية والكتاب)، وهو يشمل بضعة عشر عاما (حوالي ١٨) من هذه السيرة والمسيرة: وهي سنوات حافلة بالأحداث على المستوى الشخصي في حياة الشيخ والمحلي والعربي والإسلامي والعالمي، على المستوى الشخصي يتحدث فضيلته عن تخرج كل أبنائه. وتزوج كل بناته. وبداية قصة زواجه الثاني. وتعيينه عميدا لكلية الشريعة ومديرا لمركز بحوث السنة والسيرة. ونجاحه في الدعوة الى تأسيس الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية بالكويت. وعمله رئيسا لهيئة الرقابة الشرعية لعدد من المصارف الإسلامية. واختياره عضوا في المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي، وعضوا في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن (مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي) وعضو مجلس أمناء مركز اكسفورد للدراسات الإسلامية، وعضو مجلس أمناء منظمة الدعوة الإسلامية بالخرطوم، وغيرها. وحصوله في هذه الفترة على بعض الجوائز العالمية.

ومن خلال هذه المذكرات سيمر القارئ بمعظم أحداث العصر في منطقتنا العربية والإسلامية، بحكم أن صاحبها يعيش في قلب هذه المنطقة، وقلب هذه الأحداث، وقد قدر له في هذه المرحلة أن يتفاعل بها ومعها متأثرا ومؤثرا.

وتتميز هذه السنوات بأمرين لهما أهمية قصوى في حياة القرضاوي:

الأول: الانتشار الكبير له في أنحاء العالم في الشرق والغرب، وزيارة كل قارات العالم حتى أستراليا، وأميركا الجنوبية، حتى سماه البعض «الشيخ الطائر».

والثاني: ظهور المد الإسلامي أو الصحوة الإسلامية بقوة في تلك المرحلة، والتى يعتبرها الشيخ جزءا منه، كأنما هي ولده وفلذة كبده.

وسنتابع نشر المذكرات يوميا بما فيها من تفاصيل يرويها القرضاوي لأول مرة.



المهدي المنتظر سبب استيلاء جماعة جهيمان العتيبي على المسجد الحرام

توفي الشيخ أبي الأعلى المودودي في أميركا، حيث كان يعالج هناك منذ مدة، وقد قدر لي أن أزوره هناك في مدينة (يفلو) حيث يقيم ابنه هناك، وذلك قبل وفاته بزمن غير بعيد.

وقد صُلّي على جثمان المودودي في أكثر من بلد: صلي عليه حيث توفي في (يفلو)، وصلي عليه في مطار نيويورك، وفي مطار لندن، وفي مطار كراتشي، وهي المحطات التي مرّ عليها جثمان الأستاذ.

وكانت الصلاة الأخيرة والأساسية عليه في مدينة لاهور، التي سافرت إليها مع مَن سافر من بلاد العرب، وقد تجمع جمّ غفير، قُدروا بأكثر من مليون في أكبر نادٍ رياضي (استاد) في لاهور.

وقد سُرّ الإخوة من قادة (الجماعة الإسلامية) بحضوري، وقدّموني لأقول كلمة في جموع الحاضرين، قبل الصلاة، ثم شرفوني بإمامة المصلين على الأستاذ، ولم أر في حياتي تجمعا لصلاة أو لغيرها، مثل هذا التجمع، الذي كان على رأسه رئيس جمهورية باكستان الرئيس ضياء الحق رحمه الله.

وكان هذا التجمع الإسلامي الكبير دليلا على مكانة هذا الرجل في قومه، وإن كان هناك مَن يخالفونه في بعض المسائل، ولكن جمهور علماء باكستان ودعاتها ومثقفيها، يعرفون منزلة الرجل، ويقدرون فكره وفقهه وجهاده، ووقوفه في وجه الحضارة الغربية الغازية.

وقد قال بعض علمائنا السابقين لأهل البدع والمنحرفين: بيننا وبينكم الجنائز.

فالجنازة هي التي تعبر عن مكانة الفقيد عند الأمة. إذ لا يمكن أن يكون حرص الناس على الصلاة على الميت، ببواعث دنيوية من الخوف أو الطمع، وقد انتقل العالم إلى رحمة الله، وغادر الدنيا إلى الآخرة. ولذا كان حرص أبناء المجتمع على تشييع جنازة العالم، والصلاة عليه: نوعا من الوفاء له، والتعبير عن مدى حبهم له، وحرصهم على المشاركة في الدعاء له مع الداعين.

ومن الجنائز التي يتحدث عنها المؤرخون: جنازة الإمام أحمد في بغداد سنة (٢٤١هـ).

ومنها: جنازة ابن الجوزي سنة (٥٩٧هـ) في بغداد.

ومنها: جنازة شيخ الإسلام ابن تيمية في دمشق سنة (٧٢٨هـ).

ومما أذكره في حفل الصلاة على الإمام المودودي: أن بعض الباكستانيين الحاضرين، طلبا مني أن أوقع لهم على مفكرة معهم، كما يفعل الناس عادة مع المشاهير، وأنا في العادة لا أستجيب لرغبات الجمهور في هذا الأمر، لما يدخله من اعتبارات لا أستريح إليها، مثل اعتقاد الناس التبرك بهذا التوقيع، وما قد يدخل على نفس الموقّع من حب الجاه والشهرة عند الناس، وهو آفة من آفات النفوس، ومرض من أمراض القلوب.

ولكن بعض الإخوة آثر أن أجبر خاطر بعضهم، إكراما للأستاذ المودودي، وللذين حضروا من كل حدب وصوب ليصلوا عليه.

وما إن وقعت لاثنين أو ثلاثة، حتى تزاحم عليّ العشرات والمئات، بل قل: الآلاف، وحاصروني لأوقع لهم على ما تيسر لهم من مجلة أو صحيفة، أو أوقع لهم على أوراق البنكنوت (الروبيات)، وكل الناس معهم هذه الروبيات من فئات مختلفة، ومطلوب مني أن أوقع أوراق كل هؤلاء المتجمعين حولي، وقد بدأوا يتكاثرون ويتزايدون بشكل مخيف، وبدأت أحس كأني أختنق. حتى رآني بعض الإخوة الباكستانيين على هذه الحالة، فأحاطوا بي إحاطة السوار بالمعصم، وباعدوا الناس عني بشيء من الشدة، وانتزعوني من بينهم انتزاعا، والحمد لله أني خرجت سليما.

دعاء «ذا النون» سهل دخولي للهند وبضعة دولارات يسرت خروجي من مطار نيودلهي

وقد دفن الأستاذ المودودي في بيته حسب وصيته، وكنت أوثر أن يدفن في المقابر العامة كسائر المسلمين. وبقيت مع بعض الإخوة بعد صلاة الجنازة، للقاء رجال الجماعة الإسلامية: أمير الجماعة الشيخ العالم الفاضل القاضي حسين، ونائب أمير الجماعة المفكر الإسلامي المعروف الأستاذ خورشيد أحمد، وعدد من قيادات الجماعة، فهمومنا واحدة، وأهدافنا واحدة، ومصالحنا واحدة، وأعداؤنا مشتركون، والواجب أن نتبادل المعلومات والخبرات والمشورة فيما بيننا، ونتدارس الوسائل المختلفة للتغلب على مشكلاتنا، والانتصار على واقعنا. والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضا، ولا يجوز أن يكون اختلاف الأقاليم بيننا حائلا دون التفاهم والتعاون المشترك، والاتفاق على الحد الأدنى في العمل الإسلامي.

وقد قلت للإخوة من أعضاء الجماعة الإسلامية منذ حوالي عشر سنوات حين زرتهم في لاهور في حياة الإمام المودودي: أنتم الإخوان المسلمون في شبه القارة الهندية، ونحن الجماعة الإسلامية في بلاد العرب. أردت بهذا: أن الجماعتين متوافقتان في الأصول الكلية، وفي الوجهة العامة، وإن كان بينهما اختلافات جزئية في بعض الأمور، بدأت تتلاشى شيئا فشيئا.

وقد اقترح المجتمعون أن يوسع هذا التنسيق بين الجماعة الإسلامية والإخوان، فيشمل كل الجماعات والمنظمات الإسلامية الأخرى التي تشترك في الأهداف والوجهة العامة، مثل جماعة نجم الدين أربكان في تركيا، وغيرها. وأن يتم ذلك في هدوء، فإن أي تجمع -أو حتى تقارب- بين الجماعات الإسلامية الصادقة في العمل للإسلام، يثير القوى المعادية والكائدة لأمة الإسلام، ويؤلبها ضدها، لهذا وجب العمل في صمت شأن الأتقياء الأخفياء، الذين جاء الثناء عليهم في الحديث النبوي.



● الشيخ الغزالي

● أبو الحسن الندوي

● إنديرا غاندي

المسلمون في الهند أقلية بالنسبة للأكثرية الهندوسية ولكن هذه الأقلية تمثل التجمع الثاني للمسلمين في العالم

زيارة مهمة إلى لكنهو وديوبند

في سنة ١٩٨٠م دعيت إلى زيارة الهند من جهتين: الأولى: من العلامة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي رئيس ندوة العلماء بالهند لزيارة (دار العلوم) التابعة للندوة، وما يتبعها من كليات ومعاهد، وإلقاء عدد من المحاضرات العامة على الأساتذة والطلبة جميعا. وقد أرسل بذلك رسالة إلى أمير قطر السابق الشيخ خليفة بن حمد حفظه الله، فوافق عليها مشكورا.

والثانية: من جامعة الهند العريقة، أزهر الهند: جامعة (ديوبند) الشهيرة التي خرجت ألوف العلماء في شبه القارة الهندية: الهند وباكستان وبنجلاديش وأفغانستان وغيرها من بلاد الأقليات الإسلامية حولها. وذلك بمناسبة الاحتفال بالعيد المئوي للجامعة، وقد دعوا لهذه المناسبة علماء الدين من أنحاء العالم العربي والإسلامي.

وجاءت رسالة الجامعة إلى الشيخ خليفة أيضا، فلم يتردد في الموافقة عليها.

ولكني أحرص دائما: أن أجمع رحلاتي المتعددة ما أمكن، وأختصرها في سفرة واحدة، وهو ما فعلته هنا، فقد اتفقت مع أحبتي في ندوة العلماء: أن أربط زيارتهم باحتفال جامعة (ديوبند)، إما قبلها وإما بعدها، فرأوا الأنسب أن يكون قبلها.

فتأهبت للسفر إلى نيودلهي، ومنها آخذ الطائرة إلى لكنهو، ولكني في المطار فوجئت بشيء لم يكن في حسباني، وهو: أني لم آخذ تأشيرة لزيارة الهند، ففي زحمة المشاغل والأعباء المتراكمة نسيت هذا الأمر البديهي، لأن جوازي القطري أدخل به إلى بلاد كثيرة في العالم العربي دون الحاجة إلى تأشيرة، بل أظن أن بريطانيا في ذلك الوقت لم تكن تحتاج إلى تأشيرة، كنت أدخل لندن بدون شيء، كما يدخلون هم قطر بدون شيء، ولم يكن لدي أي سكرتارية تعنى بهذه الأمور الإدارية وتكفيني إياها، فلما سألوني في المطار: أين الفيزا؟ أسقط في يدي، وتحيرت ماذا أقول؟ وماذا أفعل؟ ورأيت نفسي في كربة دعوت فيها بدعاء ذي النون عليه السلام في بطن الحوت «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» (الانبياء: ٨٧).

وقد لاحظ الموظفون حيرتي وارتباكي، فرقق الله قلوبهم لي، وأشفقوا علي، وكان جوازي جوازا خاصا، فنظر بعضهم إلى بعض، أن يمشوا الأمر، ويمنحوني تأشيرة من المطار، وأشار بعضهم: أليس معي (مَنِي)؟ وكان معي بعض الدولارات، فأعطيتهم إياها. وأعتقد أنه لا مانع شرعا من مثل ذلك، للخروج من هذا المأزق، للضرورة أو للحاجة التي تنزل منزلة الضرورة. وقد قال الله تعالى «فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (البقرة: ١٧٣).

وقد تنفست الصعداء حين خرجت من دائرة الجوازات، وحمدت الله تعالى أن كشف هذه الغمة، وسهل هذه المهمة، وأنا أهوى الدعاء بتيسير كل عسير، وأحب دعاء سيدنا موسى «رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي. وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي» (طه: ٢٥، ٢٦)، وعلى لساني دائما: رب يسر وأعن. فالحمد لله الذي يسر أمري، وسهل طريقي.

إلى لكهنو

وحين خرجت من مطار نيو دلهي، وجدت أحد الإخوة الندْويين ينتظرني، ليصحبني إلى مدينة (لكهنو) عاصمة الولاية الشمالية، والتي هي مقر ندوة العلماء.

وفي مطار لكهنو وجدت عددا كبيرا منهم ينتظرونني، وقد تجمعوا لاستقبالي، وعلى عادتهم معهم عقود الورود والأزهار، يطوقونني بها. وذهبت معهم إلى الفندق الذي أقيم فيه، قبل أن يصحبوني إلى مقر الندوة.

وفي دار العلوم: التقيت بعلمائها الذين تميزوا على غيرهم بأنهم يجمعون بين العلم والعمل، وأن الجانب الرباني حي في نفوسهم، ورثوه من آباء الندوة ومؤسسيها الكبار: الشيخ شِبلي النعماني، والسيد سليمان الندوي، والسيد عبد الحي الحسني، وعلامة الهند اليوم السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي، فكلهم نجوم هادية، ومنارات إيمانية، يعلمون العلم يملأون به الرؤوس، ويعلمون الإيمان يزكون به النفوس، ولذا نرى طلاب الندوة طرازا فريدا من المؤمنين الصادقين، الذين يتعلمون فيعلمون، ويعلمون فيعملون، ويعملون فيخلصون، ويخلصون فيقبلون، إن شاء الله.

ظللت نحو عشرة أيام في رحاب ندوة العلماء، ألقيت فيها عددا من المحاضرات في مختلف مجالات العلوم الإسلامية: في التفسير والحديث والعقيدة وأصول الفقه والفقه، والدعوة والفكر الإسلامي، وفي التصوف الإسلامي. وخطبت الجمعة في مسجد الندوة، كما زرت بعض المؤسسات الإسلامية في المدينة، وحاضرت فيها، وفي بعض المدارس التابعة للندوة.

وأذكر أني ألقيت محاضرة عن الجانب الرباني في حياة المسلم، وقد حفلت المحاضرة بآيات القرآن وأحاديث الرسول، وآثار السلف، وأقوال الصوفية، وقد دهش الإخوة في الندوة لهذه المحاضرة وتأثروا بها غاية التأثر، وقالوا: إننا اكتشفنا فيك ما كنا نجهله، وقد كنا نحسبك مجرد رجل علم وفكر، وليس رجل قلب وروح، ولكن ما سمعناه ولمسناه لم يكن مجرد كلمات يقولها اللسان، بل كانت من القلب إلى القلب.

وكان الشيخ أبو الحسن غائبا عن الهند، فلم أحظ بوجوده، واستمد منه روح القوة، وقوة الروح، لم ألقه إلا في نيودلهي بعد أن أمضيت المدة المقررة لي في لكنهو. وعندما ودعت الإخوة في الندوة، وسافرت إلى نيودلهي متجها إلى ديوبند، لقيت الشيخ فيها، وقد تعانقنا بحرارة، وقال: أخبرني الإخوان: أنك أسرت القلوب، وسحرت العقول! قلت: إنما أستمد القوة بعد الله منكم! وما أنا إلا كبائع التمر إلى هجر!

وكان الطلاب يحيطون بي ويسألونني أسئلة مختلفة، بعضها في الفقه وأصوله، وبعضها في القرآن وتفسيره، وبعضها في الحديث وعلومه، وبعضها حول العقيدة بين السلف والخلف، وبعضها حول الفلسفة الإسلامية، وبعضها حول التربية وأصولها، وبعضها في اللغة العربية (النحو والصرف)، وكانوا بحمد الله يجدون عندي الجواب، وهو ما جعل بعض أساتذة دار العلوم ينوه بهذه الثقافة (الموسوعية) كما سماها. والحمد لله على ما أعطى وأجزل.

إلى الاحتفال بالعيد المئوي لديوبند

من نيودلهي، انتقلنا بالسيارة مع بعض العلماء المدعوين إلى (ديوبند) للاحتفال بالعيد المئوي لهذه الجامعة العريقة، التي تخرج فيها ألوف العلماء في شبه القارة الهندية، فمعظم علماء الهند وباكستان وبنغلاديش وأفغانستان وسري لانكا ونيبال، والأقليات المختلفة حول الهند الكبرى من خريجي هذه الجامعة. كانت هذه الجامعة في الهند أشبه شيء بالأزهر في مصر: كانت على مذهب الأشاعرة في العقيدة، وعلى مذهب أبي حنيفة في الفقه، ويشوبها نزعة صوفية سنية أقرب إلى الاعتدال، وأبعد عن الشركيات والمبتدعات التي عرفت بها بعض الفصائل في الهند.

وسميت الجامعة باسم التي نشأت فيها (ديوبند) على بعد ١٥٠ كيلو مترا من نيودلهي. وكانت الجامعة قد أسست منذ ١١٥ مائة وخمسة عشر عاما، ووجد علماؤها الكبار: أن الجامعات تحتفل بمرور مائة سنة، للتعريف بإنجازاتها، وجذب الاهتمام إليها، فقرروا أن يحتفلوا بهذه المناسبة، وإن كان العيد المئوي قد مر منذ خمس عشرة سنة، فدعوا علماءها وخريجيها خلال السنوات الماضية، كما دعوا علماء من أنحاء العالم ليشاركوهم هذه المناسبة، كما دعوا أبناء الهند الذين استفادوا من علمائها: أن يشهدوا هذا التجمع الإسلامي العالمي الكبير. ولقد شهدت بعيني هذا الزحف الكبير على ديوبند من نيودلهي: فهناك من يركبون الحافلات (الباصات)، ومن يركبون سيارات الأجرة الصغيرة (التاكسي)، ومن يركبون سيارات النقل يكدسون فيها تكديسا، ومن يذهبون بالقطارات إلى أقرب مسافة من (ديوبند) ومن يركبون الدراجات، ومن يركبون أرجلهم، أعني: يمشون على أقدامهم هذه المسافة. الطرقات كلها مشغولة ومزحومة: بالمواصلات وبالناس من كل حدب وصوب.

ولكن كيف تسع هذه القرية الصغيرة الناس؟ وهي وسط المزارع والحقول؟

الواقع أن المسؤولين في الجامعة أحسنوا اختيار الوقت، حيث كان وقت حصاد، والأرض خالية من الزرع، وقد استأذنوا الأهالي أصحاب الأراضي من حولهم: أن يستخدموا أرضهم في الاحتفال، فأذنوا لهم، فنصبوا خيمة كبرى تسع نصف مليون أو أكثر، وخياما من حولها، وجاء الكثيرون بخيام معهم فنصبوها في المنطقة، وظل كثيرون بغير خيام، وإنما يفترشون ما تيسر لهم وينامون عليه.

ورأيت بعيني رأسي أكبر تجمع بشري في حياتي بعد الحج: حوالي مليونين من البشر، فإن أكبر تجمع رأيته قبل ذلك: تجمع المصلين على جنازة الإمام المودودي في لاهور، في أكبر ناد رياضي (استاد) بها. وكان حوالي مليون شخص. وهذا التجمع حوالي الضعف من ذاك. وقد تجمع فيه من العرب والعجم، والشرق والغرب، ومن إفريقية وأوربا وأمريكا واستراليا، ومن كل مكان في العالم.

وافتتحت هذا الحفل الكبير رئيسة وزراء الهند أنديرا غاندي، بكلمة قوية، تحدثت فيها عن الإسلام والمسلمين بما يناسب المقام.

وتحدث رئيس الجامعة سماحة العلامة الشيخ الطيب القاسمي رحمة الله عليه.

كما تحدث الداعية الكبير الشيخ أبو الحسن الندوي.

وتحدث كثيرون عن بلدانهم وأقطارهم.

وتحدثت كذلك بكلمة ذكرت فيها المسلمين في الهند بواجبهم نحو إسلامهم، ونحو جماعتهم. وأذكر مما قلت في هذه الكلمة التي ارتجلتها:

إن المسلمين في الهند أقلية بالنسبة للأكثرية الهندوسية، ولكن هذه الأقلية تمثل التجمع الثاني للمسلمين في العالم. بعد انقسام باكستان إلى دولتين: أصبح المسلمون في الهند التجمع الثاني للمسلمين بعد اندونيسيا.

ولكن هذه الأقلية الكبيرة للأسف الشديد غير متلاحمة ولا متماسكة، على عكس الأقليات في أنحاء العالم. كل الأقليات تتضام وتتلاحم وتتساند فيما بين بعضها وبعض، إلا الأقليات المسلمة كما نرى في الهند.

لماذا يجافي بعضنا بعضا؟ بل لماذا يعادي بعضنا بعضا؟

كن ديوبنديا، أو كن ندويا، أو كن إصلاحيا، أو كن من أهل الحديث، أو من الجماعة الإسلامية، أو من البريلويين، كن سلفيا أو صوفيا، كن مذهبيا أو لا مذهبيا. ألست مسلما؟ ألسنا نلتقي في المسجد على الصلاة؟ ألسنا نلتقي في الحج والعمرة عند الكعبة؟ ألسنا نصلي إلى قبلة واحدة؟ ألسنا نقرأ مصحفا واحدا؟ ألسنا نؤمن بنبي واحد؟ ألسنا نجتمع على الحد الأدنى مما يصير به المسلم مسلما؟ ألسنا نشهد جميعا: أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله؟!

فلماذا نتفرق شيعا وأحزابا وفرقا؟ وكتاب ربنا ينادينا «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا» (آل عمران: ١٠٣)، «وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ» (الأنفال: ٤٦).

وأحاديث نبينا تنادينا «لا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا»، «لا ترجعوا بعدي كفارا، يضرب بعضكم رقاب بعض»، «يد الله مع الجماعة»، «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا».

قلت هذا أو ما يشبهه، وأنصت الجميع لكلمتي، وقال الكثيرون: صدقت ونصحت، ما أضاعنا وأضعفنا إلا التخاذل والتفرق.

■ رأيت بعيني أكبر تجمع بشري في حياتي بعد الحج: حوالي مليونين من البشر احتشدوا لسماعي في الهند

احتلال المسجد الحرام

من أعظم الأحداث خطرا، وأبعدها أثرا، التي وقعت في فجر يوم ١ محرم ١٤٠٠ الموافق ٢٠ نوفمبر ١٩٧٩، وكان لها أثرها علينا وعلى المسلمين عامة: احتلال المسجد الحرام، أول مسجد وضع لعبادة الله في الأرض، وفيه الكعبة البيت الحرام، قبلة المسلمين في أنحاء الأرض، إليه يتجهون في صلواتهم كل يوم خمس مرات «وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ» (البقرة: ١٤٤). وإليه يحج المسلمون في العمر مرة فريضة عليهم، ويحجون متطوعين ويعتمرون ما يسر الله لهم. والصلاة في هذا المسجد بمائة ألف صلاة فيما عداه من المساجد، غير المسجد النبوي والمسجد الأقصى. يقول تعالى «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ. فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً» (آل عمران: ٩٦-٩٧).

لهذا كان احتلال هذا الحرم المكي بما فيه من مقدسات، وما يحوط به من اعتبارات: حدثا هائلا، هز العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه، وتساءل الناس هنا وهناك: ما الذي حدث؟ وماذا وراءه؟ ومن هم هؤلاء الذين احتلوا الحرم؟ ما أفكارهم؟ وما أهدافهم؟ وما وسائلهم؟ وماذا يقصدون من وراء هذا الاحتلال؟ وهل هناك جهة داخلية أو خارجية تساندهم؟ أسئلة كنا نسألها، ويسألها معنا المسلمون والمهتمون في كل مكان، ليعرفوا حقيقة ما جرى، ويا لهول ما جرى!

ولقد وقع هذا الحدث الجلل، ونحن نستعد لاستقبال العلماء والدعاة والمفكرين الوافدين من أنحاء العالم الإسلامي إلى الدوحة بمناسبة انعقاد المؤتمر العالمي للسيرة والسنة النبوية، الذي كان بداية الاحتفالات بمقدم القرن الخامس عشر الهجري.

وأذكر أنا استقبلنا شيخنا الداعية الكبير الشيخ محمد الغزالي، وقد قدم من مكة المكرمة، حزينا أشد الحزن على ما حدث في المسجد الحرام، وكان يقول: هذا ثمرة زرع ظل يغذى وينمى لعدة عقود من المشايخ الغائبين عن العالم، حتى ظهرت نتائجه اليوم.

أما هؤلاء، فقد عُرفوا أنهم جماعة سلفية سعودية خالصة، من أقحاح السلفيين، وممن أخذوا سلفية ابن عبد الوهاب، كما هي، بدوية لفظية ظاهرية واضحة، بلا تزويق، ولا تجميل، إنها جماعة (جهيمان) العتيبي. وانظر اسم الزعيم. إنه اسم بدوي قح، يشير إلى طبيعة الجماعة، وإن كانت الأسماء لا حرج فيها، ولكن لها دلالتها وإيحاءها.

في الليلة الأولى من غرة محرم سنة ١٤٠٠هـ قررت هذه المجموعة السلفية بقيادة زعيمها (جهيمان) احتلال المسجد الحرام. وكانت رتبت أمرها قبل ذلك، وأعدت العدة لهذا الأمر، وجندت جنودها، وأدخلت كميات من الغذاء، وخصوصا من التمر، لتخزنه في أماكن معينة من الحرم. وقد احتالوا على ذلك بوسيلة وأخرى. فقد يطول زمن الحصار، ولن يجدوا من يمدهم بالغذاء من الخارج.

وقد أعدوا مجموعات بعدد أبواب المسجد الكبيرة والصغيرة، لتقوم بإغلاقها في الوقت المحدد. وفي هذا الوقت غلقت الأبواب على كل من في المسجد، فلا يستطيع أحد الخروج ولا الدخول. وكان كثير من الحجاج لا يزالون في مكة لم يعودوا إلى أوطانهم، ومن هؤلاء من كان في المسجد لصلاة أو طواف أو اعتكاف، فبقوا في المسجد مع المجموعة التي احتلته، وهؤلاء ناس لا لهم في الثور ولا في الطحين كما يقول المثل العامي المصري، أو كما يقول المثل العربي: لا هم في العير ولا في النفير. وبعض هؤلاء قد أفرجوا عنه فيما بعد. وبعضهم بقي إلى ما شاء الله.

الحرم المخطوف

لقد (اختطف) هؤلاء المسجد، حيث لا يظن أحد أن المسجد يمكن أن يختطف، إنما تختطف الطائرات في الجو، بإجبار طياريها أن يغيروا مسارهم، وأن يكونوا رهن إشارة الخاطفين، أما أن يختطف مكان كبير كالحرم المكي، له مداخل وأبواب بالعشرات، ويسع عشرات الألوف، ومئات الألوف، فلم يعهد أن يخطف مثله!

ولكن المستبعد حدث، واختطف الحرم بالفعل، وأصبح كل من كان بداخله ساعة الإغلاق: تحت سلطان الخاطفين، ورهن إرادتهم.

إن المسجد الذي ظل مفتوحا مئات السنين لكل من يريد الصلاة أو الطواف أو الاعتكاف، من كل آت من أنحاء الأرض: قد أغلق الآن فلا يملك أحد أن يدخله طائفا أو عاكفا، أو مصليا.

هؤلاء الشبان المتحمسون الذين أصابهم ما سماه الكاتب الإسلامي محمد عبد الله السمان قديما: (الهوس الديني) اعتمدوا على أحاديث قرأوها في بعض الكتب، واعتقدوا صحتها، وبنوا عليها مواقف، وفرعوا عليها أحكاما وفروعا. وأسسوا عليها (استراتيجيتهم) أو رؤيتهم الأصلية، وموقفهم الأساسي في المواجهة وتحقيق الأهداف. ١. آمنوا بأن قضية المهدي وظهوره: قضية مسلمة، بل هي - كما أدخلها بعضهم - من ضمن لواحق العقيدة التي يجب أن يؤمن المسلم بمفرداتها!

٢. آمنوا بما جاء في بعض الأحاديث أنه من نسل النبي، وأن اسمه كاسمه واسم أبيه كاسم أبي النبي أي هو محمد بن عبد الله. وهو هاشمي حسيني. فبحثوا فيمن معهم ومن حولهم من الأتباع عن شخص تتوافر فيه هذه السمات: هاشمي حسيني اسمه محمد بن عبد الله. فوجدوا ذلك في أحد أتباعهم، واسمه محمد عبد الله القحطاني.

٣. صدقوا بما جاء في بعض الأحاديث أن ظهوره سيكون في غرة محرم في أول القرن، فوجدوها فرصة ذهبية لا تعوض: أنهم على أبواب القرن الهجري، فليعدوا العدة لذلك وليقوموا بحركتهم.

٤. قرأوا فيما قرأوا: أنه سيبايع بين الركن والمقام. فقالوا: من غيرنا يستطيع أن يحقق هذه النبوءة، ويبايع إمامه بين الركن والمقام، ونحن أهل المسجد الحرام، والبيت الحرام؟

٥. قرأوا فيما قرأوا: أن الجيش الذي سيهاجمهم سيخسف به، فباتوا مطمئنين، أنه لا خوف عليهم من هجوم من الأرض ولا من الجو، وأن كل من غزاهم أو هاجمهم سيردهم جند من السماء.



تنفرد «الوطن» بنشر الجزء الرابع من مذكرات العلامة د.يوسف القرضاوي: ملامح سيرة ومسيرة (ابن القرية والكتاب)، وهو يشمل بضعة عشر عاما (حوالي ١٨) من هذه السيرة والمسيرة: وهي سنوات حافلة بالأحداث على المستوى الشخصي في حياة الشيخ والمحلي والعربي والإسلامي والعالمي، على المستوى الشخصي يتحدث فضيلته عن تخرج كل أبنائه. وتزوج كل بناته. وبداية قصة زواجه الثاني. وتعيينه عميدا لكلية الشريعة ومديرا لمركز بحوث السنة والسيرة. ونجاحه في الدعوة الى تأسيس الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية بالكويت. وعمله رئيسا لهيئة الرقابة الشرعية لعدد من المصارف الإسلامية. واختياره عضوا في المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي، وعضوا في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن (مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي) وعضو مجلس أمناء مركز اكسفورد للدراسات الإسلامية، وعضو مجلس أمناء منظمة الدعوة الإسلامية بالخرطوم، وغيرها. وحصوله في هذه الفترة على بعض الجوائز العالمية.

ومن خلال هذه المذكرات سيمر القارئ بمعظم أحداث العصر في منطقتنا العربية والإسلامية، بحكم أن صاحبها يعيش في قلب هذه المنطقة، وقلب هذه الأحداث، وقد قدر له في هذه المرحلة أن يتفاعل بها ومعها متأثرا ومؤثرا.

وتتميز هذه السنوات بأمرين لهما أهمية قصوى في حياة القرضاوي:

الأول: الانتشار الكبير له في أنحاء العالم في الشرق والغرب، وزيارة كل قارات العالم حتى أستراليا، وأميركا الجنوبية، حتى سماه البعض «الشيخ الطائر».

والثاني: ظهور المد الإسلامي أو الصحوة الإسلامية بقوة في تلك المرحلة، والتى يعتبرها الشيخ جزءا منه، كأنما هي ولده وفلذة كبده.

وسنتابع نشر المذكرات يوميا بما فيها من تفاصيل يرويها القرضاوي لأول مرة.

أحلامي بإنشاء مركز عالمي لبحوث السنة والسيرة تحطمت على صخرة الروتين

نظرة تقييم وتحليل

كانت جماعة جهيمان تعيش في الماضي والتراث، غير ملتفتة كثيرا إلى الحاضر، ناهيك باستشراف المستقبل، ولا تعيش في الماضي كله، ولا في التراث كله، ولكنها تعيش في إطار مدرسة معينة، غير معنية بما سواها من المدارس. إنها تعيش ظواهر النصوص، وليتها تعيش مع نصوص القرآن، وتتخذه إمامها ومصدرها الأول، بل هي تعوّل ـ أكثر ما تعول ـ على نصوص السنة. ومع هذا لا تدقق في ثبوت السنة، وتعتمد الصحيح الذي لا شبهة في سنده ولا متنه. بل كثيرا ما تعتمد الضعيف ـ أو على الأقل المختلف في تصحيحه وتضعيفه ـ في أحكامها ومواقفها، ولا سيما في الأمور الكبيرة، والقضايا الخطيرة.

وهي في مواقفها وأحكامها هذه تعول على الظاهر أكثر مما تعول على المقصد، وعلى الحرفية أكثر مما تعول على الفحوى، مغفلة فقه المقاصد، وفقه المآلات، وفقه الموازنات، وفقه الأولويات، ناهيك بفقه السـ ، وفقه الحضارة.

إن الموضوع الذي حرك هذه القضية كلها، ودفع إلى هذه الحركة الغريبة في مظهرها وفي جوهرها، هو: قضية (المهدي المنتظر) وهي قضية أخذت مساحة كبيرة من تفكير المسلمين، ولاسيما المتأخرين، ومن مجادلاتهم، سواء في علم الحديث أم في علم الكلام: هل هناك مهدي ينتظر أو لا؟ وإذا كان فمن هو؟ ومتى يظهر؟ وما علامته؟ وما اسمه ونسبه؟ وما وظيفته؟ وهل الأمة في حاجة إلى مثله بعد أن أكمل الله الدين وأتم النعمة، وختم النبوة، وترك في الأمة ما إن تمسكت به لم تضل أبدا؟

قضية المهدي كلها، لا أصل لها في القرآن، ولم يتحدث عنها بالعبارة ولا بالإشارة، بل الذي أكده القرآن ما جاء في قوله تعالى «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً» (المائدة: ٣) وهي من أواخر ما نزل من القرآن.

وقال تعالى «مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ» (الأحزاب: ٤٠).

وقد أودع الله في هذا الدين ـ عقيدته وشريعته وقيمه ـ من عناصر الخلود والتجدد: ما يضمن بقاءه محفوظا متجددا، قادرا على مواجهة كل تطور، وكل جديد.

وقد تكفل الله بحفظ مصادر هذا الدين، فقال في حفظ القرآن «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» (الحجر: ٩) وقال «لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ» (فصلت: ٤٢).

وقرر الإمام الشاطبي: أن حفظ القرآن يستلزم حفظ السنة، لأنها مبينة للقرآن، وحفظ المبين يستلزم حفظ بيانه.

كما تكفل الله بحفظ هذه الأمة ـ أمة الإسلام ـ ماديا: بحفظها من الاستئصال، ومعنويا: بإبقاء طائفة منها تحافظ على وجودها الأدبي، وتحرس حدودها أن تستباح، وهم الذين يسميهم العلماء: (الطائفة المنصورة) التي صحت بها الأحاديث عن عدد من الصحابة: أنها لا تزال قائمة بالحق داعية إليه، حتى يأتي أمر الله، وهي ظاهرة على ذلك.

ويدخل في هذه الطائفة (المجددون) الذين يبعثهم الله على رأس كل مائة سنة لهذه الأمة ليجددوا لها دينها، كما روى ذلك أبو داود والحاكم وغيرهما، وصححه عدد من الأئمة.

وقد يكون هذا المجدد فردا، وقد يكون جماعة أو مدرسة، المهم هو تجديد الدين من داخله، وبآلياته الذاتية، وهذا هو التجديد الحقيقي.

وإذا كان القرآن لم يذكر المهدي المنتظر لا بالعبارة ولا بالإشارة، فكذلك الصحيحان (صحيح البخاري وصحيح مسلم): لم يذكرا المهدي هذا كذلك، إلا ما قيل في حديث «يأتي في آخر الزمان خليفة يحثي المال حثيا، ولا يعده عدا».

وهذا ليس فيه ما يدل على دعوى المهدي، كل ما فيه: أن خليفة سيأتي يتحقق في زمنه الرخاء والغنى، بحيث يدفع المال إلى الناس بغير عد.

وربما يقول بعض الناس: إن صاحبي الصحيحين: (البخاري ومسلم) لم يقصدا أن يستوعبا كل الصحيح في كتابيهما، كما هو معلوم لعلماء هذا الشأن.

ولكن يجب أن يضاف هنا: أنهما حرصا على ألا يدعا بابا مهما من أبواب العلم إلا وذكرا فيه حديثا، ولو واحدا. فكيف بموضوع مثل هذا قامت على أساسه معتقدات، وحدثت مجادلات، كيف يكون عندهما حديث أو أكثر على شرطهما أو شرط أحدهما ولا يخرجاه أو واحد منهما؟!

ثم إن البحث في الأحاديث المروية في هذا الشأن ـ في ضوء موازين الجرح والتعديل، والتوثيق والتضعيف ـ يبين لنا أن هذه الأحاديث كلها لا تبلغ درجة الصحة التي يجب أن تتوافر ليحتج بها في قضية مهمة كهذه.

وقد تعرض العلامة ابن خلدون في مقدمته، لقضية المهدي، وما ورد فيها من أحاديث ضعفها كلها، ولم يجد دليلا معتبرا يستند إليه في الاعتقاد بظهور المهدي.

وقد رد العلامة الشيخ أحمد شاكر ـ رحمه الله ـ على ابن خلدون ـ في تخريجه لمسند أحمد ـ وقال: إنه ليس من أهل هذا الشأن.

وأقول: إن شيخنا أحمد شاكر لم ينصف ابن خلدون، فإنه حين نقد أحاديث المهدي: نقدها على طريقة المحدثين، مستخدما موازين الجرح والتعديل التي وضعها الأئمة، ولم يعتمد على مجرد المنطق العقلي.

وفي المؤتمر العالمي الثالث الذي انعقد في قطر للسنة والسيرة: ألقى العلامة الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود، قاضي قضاة قطر، بحثا قويا، عنوانه: (لا مهدي ينتظر بعد محمد خير البشر)، رد فيها كل ما استند إليه القائلون بوجوب ظهور المهدي. وكان له ضجة في المؤتمر. وقد ذكرنا ذلك من قبل. وكان الشيخ رحمه الله ببحثه هذا، يرد على الذين احتلوا الحرم، بناء على هذه الفكرة عندهم.

وأذكر أن المحدّث المعروف الشيخ ناصر الدين الألباني، زار بعده دولة قطر، وطلب أن يلقى الشيخ ابن محمود، ليناقشه في قضية المهدي، كما طلب أن أحضر معه والشيخ الغزالي والشيخ الأنصاري رحمهم الله، وكان الألباني مقتنعا في قرارة نفسه، أنه قادر على أن يرد ابن محمود عن مقالته. وقد حضرنا وسمعنا ما قاله الألباني، وما رد به ابن محمود، وانصرفنا، وظل يتمسك برأيه. ولم نر فيما ذكره الألباني أدلة قاطعة تجبر ابن محمود على التسليم، بل كلها يتطرق إليها الاحتمال. وقد قال علماؤنا: إن الدليل إذا تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال.

ومن المعلوم: أن عقيدة (المهدي) من العقائد الأساسية عند الشيعة الإمامية. ولكن المهدي عندهم موجود بالفعل، وهو الإمام الثاني عشر من أئمتهم المعصومين، ولكنه محجوز، لم يؤذن له بالظهور، ولهذا يدعون له أن يعجل الله فرجه.

> **الخروج المسلح على الحكام له شروطه وحدوده، وإلا كان فتنة، وحلت على الأمة شرور كثيرة**

كتاب (الفريضة الغائبة)

وفي أواخر السبعينيات من القرن الماضي نشأت جماعة الجهاد، والجماعة الإسلامية، وكانت بداية النشأة في الصعيد، حيث تساعد البيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية على تقبل فكرة العنف.

وكثيرا ما نشب الخلاف، بل احتدم الصراع بين شباب الإخوان وشباب الجهاد، وكان مسرح الاعتراك الجامعات والمعاهد. فهم يتهمون الإخوان بأنهم خانوا مبدأهم الأول، وهو الجهاد، الذي كان أحد شعاراتهم الرئيسية: الجهاد سبيلنا، والموت في سبيل الله أسمى أمانينا!

فهم الآن يهادنون الحكومات، ولا يرفعون راية الجهاد لمقاومة الحكام الظلمة، ولا لقتال الكفار من اليهود والنصارى والوثنيين في العالم.

والإخوان يحاولون أن يبينوا لهم فكرتهم عن الجهاد، وأننا لا نقاتل إلا من قاتلنا، ولا ينهانا الله عن الذين لم يقاتلونا في الدين، ولم يخرجونا من ديارنا أن نبرهم ونقسط إليهم. وأن الله تعالى يقول: «فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً» (النساء: ٩٠).

وأن الخروج المسلح على الحكام له شروطه وحدوده، وإلا كان فتنة، وحلت على الأمة شرور كثيرة. وأن الإخوان قبلكم جربوا شيئا من ذلك، فلم يحققوا هدفا، ولم يغيروا منكرا، ولا أسقطوا حكومة، وإنما أصابهم من المحن ما أصابهم. ويجب أن تستفيدوا من تجربة الإخوان قبلكم، ولا تبدأوا من الصفر، والسعيد من اتعظ بغيره.

ولكن شباب الجهاد وقادتهم قبلهم قد ركبوا رؤوسهم، وزيّن لهم هذا السلوك، فاستمرأوه، وسافروا في طريقهم إلى نهايته المعروفة.

وفي هذه الفترة (سنة ١٩٨٠م) ظهر كتاب (الفريضة الغائبة) لكاتبه محمد عبد السلام فرج، أحد رجال الجهاد، ويعنون بهذه الفريضة: الجهاد، وأن المسلمين عطلوا (الجهاد) من ناحيتين: من ناحية قتال الأعداء، وغزو بلاد الكفار كل سنة على الأقل، وهو الذي يسميه الفقهاء: فرض كفاية، ومن ناحية قتال الحكام الكفرة، الذين عطلوا الشريعة وأحكامها، وحكموا بغير ما أنزل الله، وهو تعالى يقول: «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ» المائدة: ٤٤.



الشيخ عبدالله بن زيد آل محمود

محمد عبده يماني

> **الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود ظهر على التليفزيون لأول مرة وهو يلقي بحثا عن المهدي المنتظر في مؤتمر السيرة والسنة**

وبهذا حولوا دار الإسلام إلى دار حرب، حيث لم تعد تعلو فيها أحكام الإسلام، بل قوانين وضعها الكفار.

وهذا الكتاب – أو الكتيب – مبني على فتوى ابن تيمية في مقاتلة التتار، وقتال كل فئة عطلت جهارا فريضة متواترة ظاهرة من فرائض الإسلام، كالصلاة والزكاة.

وقد تصدى للرد على (الفريضة الغائبة) مفتي جمهورية مصر في ذلك الوقت الشيخ جاد الحق علي جاد الحق رحمه الله.

كما رد عليه صديقنا المفكر الإسلامي المعروف الدكتور محمد عمارة في كتابه «الفريضة الغائبة دراسة ونقد وتحليل».

المؤتمر العالمي للسنة والسيرة في قطر

كان من أهم وأبرز الأحداث التي ظهرت في تلك الآونة: استضافة دولة قطر للمؤتمر العالمي للسيرة النبوية، بفضل جهود صديقنا العالم الجليل الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري رحمه الله، وتجاوب المسؤولين في دولة قطر، وكان هذا المؤتمر قد عقد مرتين قبل ذلك: مرة في باكستان، ومرة في تركية.

وأرادت قطر باستضافة هذا المؤتمر: أن تكون بداية احتفالات الأمة الإسلامية بمقدم القرن الخامس عشر الهجري.

وقد جرى نقاش طويل امتد واتسع بين عدد من الإخوة حول سؤال بالغ الأهمية: متى يبدأ القرن الخامس عشر الهجري: أيبدأ بسنة ١٤٠٠هـ أم بسنة ١٤٠١هـ؟

وكان كثيرون يميلون إلى أن القرن يبدأ بسنة ١٤٠٠ التي يتغير فيها الرقم من ٣ إلى ٤ أي من ١٣٩٩ إلى ١٤٠٠.

وكان رأيي الذي تمسكت به، ورأيت أنه وحده الصواب، هو: أن القرن يبدأ بسنة ١٤٠١، لأن سنة ١٤٠٠ محسوبة من القرن الرابع عشر، وهذا لأن كل قرن مائة سنة: يبدأ بـ ١ وينتهي بـ ١٠٠، فالقرن الأول ينتهي بـ (١٠٠) ويبدأ القرن الثاني بـ ١٠١، وهكذا كل القرون، ينتهي القرن فيها بالمائة، ويبدأ ما بعد برقم (١) بعد المائة.

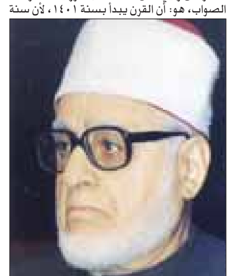
والعجيب أن هذه المناقشة تكررت بحذافيرها عند نهاية القرن العشرين، وبداية القرن الحادي والعشرين، أو الألفية الثالثة في التاريخ الميلادي، فقد ظن الكثيرون ـ ومنهم بعض أبنائي ـ أن القرن العشرين ينتهي بسنة ١٩٩٩، ويبدأ القرن عندما تتغير الأرقام، ويبدأ رقم ٢٠٠٠، مع أننا لو قسمنا الألفين (٢٠٠٠) على مائة (١٠٠) لكان الناتج عشرين. فالألفان: عشرون قرنا بالتمام والكمال، وبعدها يبدأ القرن الجديد.

المهم أننا اتفقنا على أن نحتفل بالقرن بعقد المؤتمر في أوائل شهر محرم سنة ١٤٠٠هـ. وكونت لجنة تحضيرية للإعداد للمؤتمر برئاسة الشيخ عبد الله الأنصاري، وعضوية الفقير إليه تعالى، والأخ أبي عمر محمد عبد الله الأنصاري، والشيخ علي جمّاز، والأستاذ محمد الشافعي صادق، وبعض العلماء والموظفين لا أذكرهم.

واقترحنا أن نستعين ببعض الشخصيات البارزة، منهم: الدكتور عبد العزيز كامل في الكويت، والشيخ أبو الحسن الندوي في الهند، والدكتور عز الدين إبراهيم في الإمارات، وغيرهم.

وفعلا دُعُوا إلى قطر، وشاركوا في الإعداد، واختيار الموضوعات، واختيار أسماء المدعوين، واعترض الشيخ الندوي على أسماء المدعوين من الهند وباكستان، وقال: إنهم كلهم تقريبا من الجماعة الإسلامية، وهناك علماء آخرون لهم وزنهم وشهرتهم يجب دعوتهم، واستجابت اللجنة لاقتراحه في الحال.

وكان من أهم المقترحات: ما رآه الدكتور عبد العزيز كامل من إضافة كلمة في غاية الأهمية إلى عنوان المؤتمر، وهي كلمة (السنة) فبدل أن كان اسمه (المؤتمر العالمي للسيرة النبوية) يجب أن يكون اسمه (المؤتمر العالمي للسنة والسيرة النبوية) فالسنة أعم وأشمل من السيرة، وهي في حاجة إلى خدمة وعناية كبرى، والسيرة جزء منها. وينبغي على هذا المؤتمر أن يكون تركيزه على النهوض بالواجب نحو السنة وعلومها، نهوضا يليق بإمكانات العصر. واستجابت اللجنة لاقتراحه فورا، وغيرت عنوان المؤتمر.



الشيخ جاد الحق علي جاد الحق

د. محمد عمارة

كوتب الأعضاء المدعوون من أنحاء العالم، وكلفوا بالكتابة في الموضوعات المقترحة عليهم، وتفرعت من اللجنة التحضيرية لجان عدة تعمل لخدمة المؤتمر، وأبلى الأخ أبو عمر محمد الأنصاري بلاء حسنا في ذلك.

ولم يبخل أمير دولة قطر السابق الشيخ خليفة بن حمد بمال يطلب منه لإنجاح المؤتمر، واتصل بي الدكتور حسن كامل مستشار الأمير، وطلب مني أن أعد كلمة مناسبة ليلقيها الأمير في هذا الحفل، وقال: إن الأمير نفسه وقع اختياره عليك خاصة، لما يعلم أنك أدرى بما يقال في مثل هذه المناسبة.

وفعلا أعددت كلمة، وسلمتها للدكتور حسن، فقرأها وسرّ بها جدا، وقال لي: كنت أظنك رجل دين ممتازا، والآن علمت أنك تفهم في السياسة أيضا! وإني قرأتها على الأمير فأعجب بها.

وعندما انعقد المؤتمر كان الذي ألقى الكلمة نيابة عن الأمير، وهو ولي عهده «آنذاك» الشيخ حمد بن خليفة حفظه الله.

كما ألقى الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود قاضي القضاة، ورئيس المحاكم الشرعية في قطر: كملة في حفل الافتتاح، كان موضوعها مثيرا، وأحدث جدلا، عنوانها: (لا مهدي منتظر بعد محمد خير البشر). وهو هنا متفق مع حكيم المؤرخين ابن خلدون الذي رد في مقدمته على مقولة ظهور المهدي، وضعف الأحاديث الواردة في الموضوع.

وظهر الشيخ ابن محمود على شاشة التليفزيون لأول مرة، وكان يتحرج من الظهور فيه قبل ذلك.

كما ألقى الشيخ الأنصاري كلمة المؤتمر، وألقى الشيخ الندوي كلمة الضيوف.

ثم انفضت جلسة الافتتاح، وانصرف الشيخ حمد بن خليفة ورفقاؤه، وبعد استراحة قصيرة، عقد المؤتمر جلسة لاختيار رئيس المؤتمر ونوابه ومقرره. واختار أعضاء المؤتمر فضيلة الشيخ عبد الله الأنصاري الداعي إلى المؤتمر رئيسا للمؤتمر، كما اختاروا له نائبين: أولهما: الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي، والثاني: هو الفقير إليه تعالى يوسف القرضاوي. ولا ريب أنها ثقة من الأعضاء أعتز بها، وقد أجمعوا عليها.

كما اختار المؤتمر الدكتور عز الدين إبراهيم مقررا عاما للمؤتمر، وكان اختيارا موفقا.

وقسم المؤتمر إلى لجان، حسب الموضوعات. تقدم إلى كل لجنة البحوث المعدة في موضوعها، ولتناقش وتقترح التوصيات بشأنها، لتحال إلى لجنة الصياغة التي كنت أحد أعضائها.

وقد كنت أعددت بحثا في أحد الموضوعات المطلوبة للمؤتمر، وهو موضوع (الرسول والعلم). وقد عرضته في المؤتمر، واستفدت بما أثير من مناقشات في إغناء البحث وتطويره، وقد نشر في كتاب بعد ذلك، وطبع مرات ومرات.

وقد نشرت (إدارة إحياء التراث الإسلامي) التي يشرف عليها الشيخ الأنصاري: مجموعة البحوث المقدمة للمؤتمر في سبعة مجلدات.

وصدر عن المؤتمر جملة توصيات جيدة، مما يتعلق بالسنة والسيرة، ومما يتعلق بالأمة عامة في مطلع قرنها الهجري الجديد. وكان من أهم التوصيات: إنشاء موسوعة للسنة النبوية تضم صحاح الحديث وحسانها محققة ومبوبة ومفهرسة فهرسة عصرية، ومعلقا عليها بما يوضح المفاهيم، ويدرأ الشبهات.

وكذلك تأسيس مركز للسنة والسيرة يخدم علومها في ضوء معارف العصر وإمكاناته.

ومما يذكر هنا: أنه بعد عدة أشهر أصدر أمير دولة قطر: مرسوما بإنشاء مركز بحوث السنة والسيرة، الذي أوصى به المؤتمر، والذي تشرفت برئاسته.

مركز بحوث السنة والسيرة بجامعة قطر

وكان من ثمرات المؤتمر العالمي الثالث للسنة والسيرة الذي تبنته قطر: أن تبنت دولة قطر وأميرها السابق الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني: تأسيس (مركز بحوث السنة والسيرة) الذي أوصى المؤتمر بضرورة إنشائه لخدمة السنة وعلومها بمنطق العصر وآلياته. والقيام على عمل الموسوعة الحديثية التي أشرنا إليها من قبل.

وكان ممن ساعد في تسهيل ذلك: الدكتور حسن كامل الذي تعرف علي في أثناء التحضير للمؤتمر، وفهم مني ما يمكن أن يقدمه هذا المركز، وما يمكن أن تؤديه الموسوعة ـ لو تمت ـ من خدمة دينية ولغوية ودعوية وتربوية واجتماعية وثقافية للمسلمين.

وفي ١٣-٧-١٩٨٠م صدر القرار الأميري رقم (١٢).

ومما يؤسف له: أن هذا المركز الذي كنت قد رسمت له صورة في ذهني: تقوم على فريق عمل متكامل متفاهم من الشرعيين المتخصصين في علوم الحديث والدراسات الإسلامية، ومن الفنيين المتخصصين في علوم الحاسوب، والتصنيفات الفنية، وأن تكون تحت أيديهم مكتبة متكاملة، وأجهزة على أحدث طراز، وموظفون علميون وفنيون مساعدون، يكونون (ورشة عمل) متميزة، لأن أفرادها يؤمنون بأن عملهم عبادة وجهاد في سبيل الله: لم يسرني واقع الأمر على ما كنت أتمنى.

وقد بدأت هذا العمل بكتابة بحث علمي عنوانه (نحو مشروع موسوعة للحديث النبوي) حددت فيها معالم هذا المشروع، وكيف نبدأ السير فيه، ونشرت هذا البحث على أوسع نطاق ممكن، وكتبت في آخره: أسئلة لكل قارئ حول المشروع: ماذا يضيف إليه؟ وماذا يحذف منه؟ وماذا ينتقده فيه؟ وأسئلة عدة: يجيب عنها بـ (نعم) أو (لا).

وبدأنا إصدار (مجلة المركز) وهي مجلة علمية سنوية متخصصة، يكتب فيها كبار المتخصصين، وقد نشرت فيه هذا البحث مع كراسة الأسئلة الأخيرة.

وكتب أخي الدكتور عبد العظيم الديب بحثه القيم (حافظ عصرنا.. الكمبيوتر).

ولكن الأماني شيء والواقع شيء آخر. فهناك روتين صارم يقف حائلا دون ما أريد. كان هناك أشخاص مناسبون تماما من المتخصصين في الحديث وعلومه، الموصولين بالعصر وتياراته وإمكاناته، حاولت أن أوظفهم في المركز، فلم أستطع، وسارعت جهات نظيرة فالتقطتهم، وكان هناك أناس من الفنيين الحاسوبيين الذين اشتغلوا بخدمة الحديث في مواقع أخرى، وكانوا يرغبون في الانضمام إلينا والعمل معنا. ولكن الروتين لم يمكنا من ضمهم إلينا، واختطفتهم جهات أخرى.

> **فكرة إنشاء اتحاد عام للعاملين في خدمة السنة ولدت في الدوحة وماتت وتم دفنها بالقاهرة؟**

كل ما أعطي للمركز ـ بعد مديره غير المتفرغ ـ سكرتير وطابع. وكنت في ذلك الوقت عميدا لكلية الشريعة. كما كنت أدرّس بعض المحاضرات للطلبة أو الطالبات، إلى جوار إدارة المركز.

كما انتدب إلى المركز واحد من أساتذة الكلية المتخصصين في الحديث ـ غير متفرغ ـ وهو الأستاذ الدكتور موسى شاهين لاشين.

وبهذه الإمكانات المحدودة لم نستطع أن ننجز عملنا الكبير: الموسوعة المنشودة، وقمنا ببعض الأعمال التي تناسب قدراتنا، وهو إخراج المجلة التي تحتوي عددا من البحوث العلمية المخدومة في موضوعها، والتي لقيت قبولا لدى الدارسين والمهتمين في العالم الإسلامي.

كما نشرنا عددا من الكتب حول السنة والسيرة، مثل: المنتقى من الترغيب والترهيب للحافظ المنذري، في جزءين لمدير المركز.

السيرة النبوية الصحيحة للأستاذ الدكتور أكرم ضياء العمري.

السنة مصدرا للمعرفة والحضارة لمدير المركز.

كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ لمدير المركز.

التربية الروحية والاجتماعية للدكتور أكرم ضياء العمري. كما قام المركز بتدريب بعض الخريجين القطريين والخريجات القطريات في كلية الشريعة على فن التخريج والتعامل مع المصادر، وقد استطاع الشباب الباحثون تحقيق مخطوطة قديمة، وقد انتدبت لهم في بعض الفصول: صديقنا العلامة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، وهو علامة في الحديث، عالم بالفقه، عالم باللغة والنحو. فأفاد الباحثين والباحثات في المركز في هذه العلوم كلها، في فصلين دراسيين.

كما استطاع الأخوات الباحثات: تجميع الأحاديث المتعلقة بشؤون المرأة في مختلف الجوانب: إنسانا وأنثى وبنتا وزوجة وأما وعضوا في المجتمع.





تنفرد «الوطن» بنشر الجزء الرابع من مذكرات العلامة د. يوسف القرضاوي: ملامح سيرة ومسيرة (ابن القرية والكتاب)، وهو يشمل بضعة عشر عاما (حوالي ١٨) من هذه السيرة والمسيرة: وهي سنوات حافلة بالأحداث على المستوى الشخصي في حياة الشيخ والمحلي والعربي والإسلامي والعالمي، على المستوى الشخصي يتحدث فضيلته عن تخرج كل أبنائه. وتزوج كل بناته. وبداية قصة زواجه الثاني. وتعيينه عميدا لكلية الشريعة ومديرا لمركز بحوث السنة والسيرة. ونجاحه في الدعوة الى تأسيس الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية بالكويت. وعمله رئيسا لهيئة الرقابة الشرعية لعدد من المصارف الإسلامية. واختياره عضوا في المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي، وعضوا في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن (مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي) وعضو مجلس أمناء مركز اكسفورد للدراسات الإسلامية، وعضو مجلس أمناء منظمة الدعوة الإسلامية بالخرطوم، وغيرها. وحصوله في هذه الفترة على بعض الجوائز العالمية.

ومن خلال هذه المذكرات سيمر القارئ بمعظم أحداث العصر في منطقتنا العربية والإسلامية، بحكم أن صاحبها يعيش في قلب هذه المنطقة، وقلب هذه الأحداث، وقد قدر له في هذه المرحلة أن يتفاعل بها ومعها متأثرا ومؤثرا.

وتتميز هذه السنوات بأمرين لهما أهمية قصوى في حياة القرضاوي:

الأول: الانتشار الكبير له في أنحاء العالم في الشرق والغرب، وزيارة كل قارات العالم حتى أستراليا، وأميركا الجنوبية، حتى سماه البعض «الشيخ الطائر».

والثاني: ظهور المد الإسلامي أو الصحوة الإسلامية بقوة في تلك المرحلة، والتي يعتبرها الشيخ جزءا منه، كأنما هي ولده وفلذة كبده.

وسنتابع نشر المذكرات يوميا بما فيها من تفاصيل يرويها القرضاوي لأول مرة.

أتمنى عودة مجلة «الأمة» للصدور لتكون سفيرا قطريا شعبيا متجولا في العالم

بعد إنشاء المركز بعدة سنوات: رأيت أن مراكز عدة أنشئت في داخل العالم الإسلامي وخارجه لخدمة السنة، بعضها تقوم عليه دول وجامعات أو مؤسسات رسمية، وبعضها يقوم على جهود أفراد نذروا أنفسهم لخدمة الحديث، مثل أخينا العلامة الدكتور محمد مصطفى الأعظمي.

وقد دعونا: ثلاثة أصناف من الناس:

أولا: علماء الحديث المشغولين بمثل ما نحن مشغولون به، سواء كانوا يمثلون دولا أم مؤسسات، أم يعملون فرادى لحساب أنفسهم.

ثانيا: العلماء الفنيين من رجال الحاسوب، المهتمين باستخدامه في خدمة السنة والعلوم الإسلامية.

ثالثا: المشرفين على إدارة هذه المؤسسات من مديري المراكز، أو من المولين والمسؤولين عنها، مثل الشيخ صالح كامل، مؤسس مركز صالح كامل لخدمة الحديث في جامعة الأزهر، والدكتور محمد عبده يماني المشرف على مؤسسة «اقرأ».

وشارك في هذه الندوة نحو ٣٥ شخصا، وكان مقررها الأخ الأستاذ الدكتور عبد العظيم الديب. وقد افتتحها مدير الجامعة د. عبد الله جمعة الكبيسي، كما سعد المدعوون بلقاء أمير البلاد السابق والرئيس الأعلى للجامعة، الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني، الذي شجع كل ما يخدم السنة ويقربها للمسلمين، ويفهمها لهم بلغة العصر.

وقدم إلى هذه الندوة عدد من البحوث المتنوعة، نوقشت مناقشة مستفيضة، وصدرت قرارات وتوصيات مهمة، أعتقد أن أهمها كان: ضرورة إنشاء اتحاد عام للعاملين في خدمة السنة، من مراكز أو مؤسسات أو أفراد. وكلف أخونا الدكتور جمال عطية - المشارك في الندوة - بوضع الخطوط العريضة للنظام الأساسي لهذا الاتحاد، وبلورة أهدافه ووسائله، وجهازه الإداري، وقد تم ذلك ونوقش وهذب وأقر.

ثم تباحث المجتمعون حول مقر هذا الاتحاد، وبعد نقاش حر: اتفق الجميع على أن أليق مكان لهذا الاتحاد هو القاهرة، لما لها من مكانة ثقافية ولوجود الأزهر فيها، ولوجود مركز صالح كامل بها، ولسهولة الوصول إليها من كل الجهات... إلخ.

ولكن بقيت مشكلة، وهي تسجيل هذا الاتحاد بمصر، وما قد يعتريه من عقبات، وتعهد الشيخ صالح كامل - بما له من ود وقرب لدى المسؤولين في القاهرة - أن يذلل العقبات، ويستصدر التصريح في أقرب وقت ممكن.

مخاطبة العقل المسلم المعاصر تحتاج لربط العلم بالعمل وربط الفكر بالحركة مع الواقع المعيش

وانصرف الجميع، وهم يؤملون في قيام هذا الاتحاد الذي ينسق العمل في هذا الميدان المهم، ويتفادى تكرار العمل الواحد، ويقسم العمل المطلوب، ويكلف كل مركز أو جماعة بالجزء الواجب عليه، كما ألفت لجنة أو لجان علمية لمراجعة ما يتم أولا بأول، ثم هناك لجنة عليا تشرف على العمل كله، ومن أخص مهماتها: أن تحكم في الأمور المختلف فيها، ولا سيما في التوثيق والتضعيف.

كان الجميع مستبشرين بهذا العمل الجماعي، مؤمنين ببركته وضرورته، ويد الله مع الجماعة، والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا.

وذهب أخونا صالح كامل، ليقوم بدوره في القاهرة في الاتصال بالمسؤولين، وقد تبين له أن الأمر ليس بالسهل، فرغم معرفته بكبار القوم، ظلوا يحيلونه من جهة إلى جهة، ومن وزارة إلى وزارة، فهل هذا الأمر يتبع وزارة الأوقاف أم وزارة الثقافة أم وزارة الشؤون الاجتماعية، أم رئاسة الوزراء أم جهة أخرى؟

وظل في هذا الركض نحو سنتين، ثم انتهى به المطاف إلى إحدى هذه الجهات - أظنها وزارة الشؤون الاجتماعية بوصفنا جمعية أهلية - ووعدوه خيرا، وبدأوا في إجراءات التسجيل والتصريح. وبشرنا الشيخ صالح أخيرا بأن التسجيل أوشك أن يتم.. ثم.. ثم تراجعوا وسحبوه بعد ذلك!!

وأنا أعجب من مثل هذا التصرف، كيف يرفض مثل هذا الاتحاد، وهو إضافة إلى مصر، وليس «خصما» عليها. إنه يقر لمصر بالزعامة الثقافية، ويتيح لها امتيازا في أكثر من جهة، وفيها: الناحية الاقتصادية، فهذا سيكون له مركز، وسيحتاج إلى موظفين، وسيعقد اجتماعات، وكل هذا فيه مصلحة مصر.

ولكن هذه الاعتبارات كلها غائبة عن وعي الذين يمسكون بزمام الأمور، وهم لا يعقلون. وقد قال العرب: إن من البلية أن يكون الرأي في يد من يملكه لا في يد من يبصره!

وكان من نتائج هذا الموقف: أن ضاعت فكرة الاتحاد. ولم يتح لها العودة مرة أخرى.

مجلة الأمة

كان من البشائر التي صاحبت مطلع فجر القرن الخامس عشر الهجري: مولد مجلة «الأمة» القطرية، التي صدرت عن رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية في دولة قطر. بإشراف ابننا النابه: الشيخ عبد الرحمن المحمود وكيل رئاسة المحاكم والشؤون الدينية، ورئاسة تحرير ابننا الإعلامي: الشيخ يوسف المظفر، وإدارة تحرير أخينا وصديقنا الأستاذ عمر عبيد حسنة، وهو العنصر الفعال في تحرير المجلة.

ولقد وفق الإخوة المسؤولون في تسمية المجلة «الأمة» فهي تسمية موفقة، فنحن في حاجة إلى تجاوز الأوطان الضيقة، والقوميات المحلية، لنوسع دائرة اهتمامنا إلى «الأمة».

ولكن ما المراد بـ «الأمة»؟

إن بعض المغالين في الوطنية كانوا يرون «الأمة» ممثلة في شعبهم ووطنهم وحده، كما كان لطفي السيد في مصر، لا يرى مفهوما لكلمة الأمة إلا الأمة المصرية، ولا يرنو ببصره إلى أمة عربية، ناهيك بأمة إسلامية، بل كان يقاوم فكرة «الجامعة الإسلامية» ودعاتها من جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وعبد الرحمن الكواكبي، وغيرهم.

وبعضهم قصروا مفهوم «الأمة» على الأمة العربية من المحيط إلى الخليج، وقد تبنّى هذا المفهوم دعاة القومية العربية: ساطع الحصري الداعية الأشهر للقومية العربية، وصاحب المؤلفات المتعددة في ذلك. وقد رد على دعاة الوطنية المصرية الضيقة، الذين كانوا يقولون: مصر أولا، أي مصالح مصر المحلية مقدمة على مصالح العرب إذا تعارضت، فرد عليهم بمقالات قوية، ومنطق قوي، جمعت في كتاب، بعنوان «العروبة أولا».

ونحن وفق هذا المنطق نفسه نقول: الإسلام أولا. وخصوصا أننا في عالم يتكلم بلغة التكتل والتلاحم، إذ لم يعد هناك مكان للكيانات الصغيرة، التي لا تستطيع أن تعيش وحدها، إلا في حماية كيان كبير، تعيش في كنفه، ويدافع عنها إذا هددت، وكثيرا ما يكون هذا الكيان أجنبيا، وهذا هو الخطر الحقيقي: أن تظل أمتنا كيانات صغيرة تطلب الحماية - علنا أو سرا - بالالتجاء إلى قوى من خارج الأمة، لا تتفق معها في الأهداف ولا في القيم ولا في المصالح. لهذا كان المفهوم من كلمة «الأمة» بلا ريب ولا نزاع: هو الأمة المسلمة التي عناها القرآن بقوله تعالى «وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس» «البقرة: ١٤٣».

وقوله تعالى «كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ» «آل عمران: ١١٠».

وقوله سبحانه «إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ» «الأنبياء: ٩٢» «وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ» «المؤمنون: ٥٢».

وقد بقيت هذه الأمة أمة واحدة في مرجعيتها الواحدة، وهي: الشريعة، وفي دارها الواحدة: وهي: دار الإسلام. وفي قيادتها الواحدة: وهي الخلافة، التي ظللتها ١٣ قرنا، حتى ألغاها كمال أتاتورك في سنة ١٩٢٤م. صدرت مجلة «الأمة» من قطر، فسدت فراغا فكريا قائما، وشعر الناس أن المجلة تحوي فكرا جديدا غير الفكر التقليدي، الذي عرفت به المجلات الدينية أو الإسلامية، هو «الحركية».

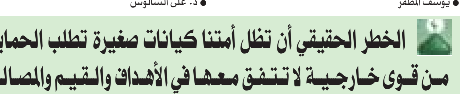
إذ من المهم في مخاطبة العقل المسلم المعاصر: أن يربط العلم بالعمل، ويربط الفكر بالحركة، فليس الفكر شيئا معلقا في الهواء، بل هو شيء يتعامل مع الواقع المعيش، ويتعامل معه بصورة إيجابية، يتأثر به ويؤثر فيه.

وكان من المقالات المبكرة التي كتبتها فيها: أمة لن تموت. صحوة الشباب الإسلامي: ظاهرة صحية يجب ترشيدها لا مقاومتها - نشرت في عددين -. وقد تلقفها شباب الجماعات الإسلامية في مصر، فطبعوا منها عشرات الآلاف.

كما أن المجلة كانت تثير قضايا مهمة، توقظ الحاسة النقدية عند المتدينين عامة، ودعاة الإسلام خاصة. مثل سؤال «أين الخلل؟» الذي عرضته على عدد من العلماء والمفكرين، ليجيبوا عنه إجابات متنوعة، كل حسب منظوره ورؤيته.


● يوسف المظفر

● د. علي السالوس



الخطر الحقيقي أن تظل أمتنا كيانات صغيرة تطلب الحماية من قوى خارجية لا تتفق معها في الأهداف والقيم والمصالح

وقد وجهت إلي هذا السؤال فأجبت عنه في أربع مقالات، نشرت في أربعة أعداد، ثم جمعت في رسالة بعد ذلك تحمل نفس العنوان: أين الخلل؟

وقد تجاوب المسلمون معها في المشارق والمغارب، وكان الناس يترقبونها بحرارة ولهفة.

وكانت تحتوي لقاءات وحوارات مهمة، وتحقيقات صحفية حية، إلى جوار المقالات لكبار الكتاب الإسلاميين المعروفين في ساحة الدعوة والفكر.

وظلت المجلة تصدر تباعا لمدة ست سنوات كاملة، ثم صدر قرار بتوقيفها مع مجلتين أخريين كان لهما في محيطهما نفس التأثير، ونفس الصدى، وهما مجلة «الدوحة» وهي مجلة ثقافية، وقد انتشرت وذاع صيتها في العالم العربي كله، ومجلة «الصقر» وهي مجلة رياضية، كان لها رواجها وقراؤها بين الرياضيين.

كتاب الأمة

وقد سنت المجلة سنة حسنة: أن يصدر عنها كتاب لعالم أو مفكر إسلامي، كل ثلاثة أشهر، يعالج قضية من قضايا الفكر الإسلامي، تتسم بالحيوية والمعاصرة، وتكتب بأسلوب علمي موضوعي، بعيد عن الإثارة والتهييج. وقد أحسنت الأمة حين جعلت كتابها الأول للداعية الأول: الشيخ محمد الغزالي، الذي كان عنوانه «مشكلات في طريق الحياة الإسلامية» وهو يعالج الخلل الذي أصاب الذهنية الإسلامية، وخصوصا لدى بعض فصائل الصحوة الإسلامية، الذين حصروا أنفسهم في وجهة واحدة، فلا يؤمنون إلا برأي واحد، يأخذونه عن شيخ واحد، ينتمي إلى مدرسة واحدة، ولا يقبلون أي تعدد في المدارس أو الآراء، فرأيهم صواب لا يحتمل الخطأ، ورأي غيرهم خطأ لا يحتمل الصواب. وقد ظل الشيخ في سنينه الأخيرة معنيا بتعقب هؤلاء، والرد على مبالغاتهم، ويراهم خطرا على الدعوة الإسلامية، والأمة الإسلامية، إذا لم تطهر عقولهم من هذه الأفكار. ويبدو أن الزمن قد صدق ما كان يخشاه الشيخ.

وكان الكتاب الثاني من كتب الأمة، هو: كتابي «الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف» وهذا العنوان هو من اقتراح الشيخ الغزالي نفسه، فقد كنت سميت الكتاب «ظاهرة التطرف الديني: نظرات في الأسباب والعلاج». ورأى الشيخ هذا العنوان عنوانا علميا هادئا، لا يلفت النظر إلى قيمة الكتاب، فاقترح عنوانه الذي نشر به، ووافقته، كما وافقه الأخ عمر عبيد حسنة المشرف على كتاب الأمة. فقد ذكر الأمير شكيب أرسلان في كتابه «لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟» كلمات مضيئة قال فيها: إنما ضاع الإسلام بين جاحد وجامد. فالجامد يفتن الناس عن حقائق الإسلام بجموده، والجاحد يضلهم عنها بجحوده. وكلمة «التطرف» هي التي تقوم مقام «الجمود» في كلام الأمير رحمه الله.

وكان الكتاب الثالث للواء الركن محمود شيت خطاب رحمه الله،

والرابع لعماد الدين خليل. وهكذا استمر كتاب الأمة إلى يومنا هذا. حتى بعد توقف المجلة.

مجلة الدوحة

كانت المجلات التي تصدر من الدوحة في قطر، ويستقبلها أبناء الوطن العربي كله من الخليج إلى المحيط: مجلة «الدوحة». وهي مجلة أدبية ثقافية عامة. تسد ثغرة هامة في هذا المجال، بعد أن اختفت المجلات الأدبية الكبرى، التي كانت لها سوقها ونفاقها في بلاد العرب، وربما خارج بلاد العرب، وأشهرها مجلة «الرسالة» التي كان يرأس تحريرها الأديب الكبير أحمد حسن الزيات، و«الثقافة» التي كان يرأسها العالم الأديب الكبير أحمد أمين. والتي تتلمذ عليهما كل الأدباء والمثقفين وأصحاب الأقلام. فقد كان يكتب فيها عمالقة الفكر والأدب والنقد، العقاد والرافعي والمازني وطه حسين والحكيم وزكي مبارك وأبو حديد والمعداوي، وخضر، وغيرهم.

ومجلة «الدوحة» مجلة ثقافية فكرية عامة، لا تلتزم بما تلتزم به مجلة الأمة، بل ربما غلب عليها الطابع العلماني، وهي على كل حال مفتوحة لكل الاتجاهات المعاصرة والحداثية، ومن كتابها علمانيون، وتغريبيون، وقوميون، ولا مانع أن يكون فيهم إسلاميون، إن وجدوا.

وقد كان رئيس تحرير مجلة الدوحة الأديب السوداني الدكتور محمد إبراهيم الشوش الذي دعاني أكثر من مرة إلى الانضمام إلى أسرة كتاب المجلة، وكنت في أول الأمر مترددا، لأن المجلة قد تنشر أشياء لا أرضاها، ولا تتفق مع الخط الإسلامي، ولكني فكرت في الأمر جيدا، واستخرت الله تعالى، وقررت أن أشارك بالكتابة في هذه المجلة؛ لأني فيها أستطيع أن أخاطب جمهورا غير جمهور مجلة «الأمة» وهم الجمهور الأعرض في الأمة، وتبليغ هؤلاء كلمة الإسلام الوسطية المستنيرة: فرض كفاية على علماء الأمة ومفكريها ودعاتها. وهذه المجلة منبر قوي لإبلاغ هؤلاء دعوتنا. ولا ينبغي لنا أن نظل منغلقين على أنفسنا، يخاطب بعضنا بعضا، ولا نصل إلى الآخرين.

هذا ما اقتنعت به، وأقنعت به كثيرا من إخواني الذين كانوا ولا يزالون يرون أن تقاطع هذه المجلات والمؤسسات المشتبهة. فالمبدأ عندهم: إما كل شيء أو لا شيء.

وقد وجدت صدى ذلك وأثره من أول مقال كتبته في المجلة، وكان عن الاجتهاد أو التجديد، وقد ختمته بهذه الكلمة: إن جمودنا ووقوفنا في مكاننا لا يمنع الفلك من السير، ولا الأرض عن الدوران! وقد جاءتني اتصالات شتى تثني على المقال، وتلح على أن أستمر في هذا الاتجاه، فوجود هذا اللون من الكتابة الإسلامية التي تراعي الأصول، وتخاطب العقول، ولا تناقض النقول: أمر مطلوب في مثل هذه المجلات المقروءة. وأعتقد أن هذا هو الاتجاه السليم، والمنطق الحكيم في الموقف من مثل هذه المنابر والأجهزة والمؤسسات المختلفة، محاولة الاستفادة منها، والتأثير فيها، بدل العزلة عنها.

وقد تبين لي بالممارسة أني كسبت أرضا جديدة بالكتابة في هذه المجلة، وأني أوصلت أفكاري عن الوسطية الإسلامية التي أتبناها إلى جمهور جديد من القراء، لم يكن بإمكاني الوصول إليه عن طريق مجلة الأمة، وأمثالها من المجلات الإسلامية.

الكتابة الإسلامية التي تراعي الأصول وتخاطب العقول ولا تناقض النقول أمر مطلوب في المجلات الشهيرة

مجلة الصقر الرياضية

ومن المجلات التي كانت تصدر من قطر، هي مجلة «الصقر» وهي مجلة «رياضية» كانت توزع على مستوى العالم العربي، ولها شهرة في عالم الرياضة والرياضيين. في عصر أصبح للرياضة فيه شأن أي شأن، فالصحافة اليومية تفرد لها كل يوم صفحات، والقنوات التليفزيونية تفرد لأخبارها مساحات ومساحات. بل هناك قنوات خاصة للرياضة وأخبارها وكل ما يتعلق بها.

احتجاب المجلات الثلاث

ظلت مجلة الأمة تصدر من قطر لمدة ست سنوات، ثم فجأة صدر قرار بإيقافها عن الظهور، هي وشقيقتاها القطريتان الأخريان: مجلة الدوحة، ومجلة الصقر. قيل: إن الأسباب كانت مالية، وإن قطر في ذلك الوقت أرادت مراجعة نفقاتها، وتقليل مصاريفها، والاقتصاد في ميزانيتها. ولكن ألم يكن هناك بند يمكن التقليل منه والتضييق فيه غير البند الثقافي؟ كم في الميزانية من أمور يمكن الاستغناء عنها، أو التقتير فيها، ولا يتضرر أحد ولا يشكو من وراء ذلك. أكانت الثقافة هي الجانب الضعيف الذي لا يجد محاميا عنه إذا جير عليه أو انتقص من أطرافه؟ كما قال أبو العلاء للديك الذي ذبحوه وقدموه له: استضعفوك فذبحوك، هلا ذبحوا شبل الأسد؟! لقد خسرت قطر باحتجاب هذه المجلة: سفيرا شعبيا متجولا، يشيد بذكرها، وينشر فضلها في أنحاء العالم، ولن تعوضه بعشرات السفراء، التي يكلفونها عشرات ومئات الملايين.

وكم أتمنى أن يراجع المسؤولون أمير البلاد في هذه القضية، وهو رجل متفتح في فكره، وينظر في الأمور نظرة متوازنة، ولا سيما في عصر أصبح لها صوت مسموع ممثل في قناة الجزيرة، التي أمست غصة في حلوق كثير ممن لا يحبون أن يشاهدوا الحقيقة عارية، ولا أن يروا الرأي والرأي الآخر، بل يريدون الإعلان عما في صالحهم، والسكوت عما يكشف عوارهم، أو إلباسه لباسا آخر يغير صورته، أو يغير حقيقته، ولعنة الله على الظالمين والمزورين.

إن قطر اليوم التي أصبح لها وزن عالمي - رغم صغر مساحتها وقلة سكانها - والتي أصبحت تستضيف المؤتمرات العالمية على كل المستويات، الفكرية والتربوية والاجتماعية والدينية والاقتصادية والسياسية وغيرها: جديرة أن تعيد النظر في وضعية مجلة «الأمة» إلى الظهور من جديد.

د. علي السالوس في قطر

في سنة ١٩٨٠ وصل الأخ الكريم، والصديق العزيز الدكتور علي السالوس، إلى قطر متعاقدا مع الجامعة، ليعمل مدرسا في كلية الشريعة.

وكنت قد أوصيت اللجنة المسؤولة في الجامعة بالتعاقد معه، بعد أن رشحه لي اثنان أثق بهما، وأعتز بشهادتهما:

أولهما: الأخ الدكتور عبد العظيم الديب، الذي كان زميلا له في كلية دار العلوم، وقال: عرفناه مجتهدا وجيد التحصيل، حريصا على طلب العلم، رغم أنه لم يكن أزهريا في الأصل مثل عبد العظيم ونظرائه من حملة الثانوية الأزهرية، الذين حفظوا القرآن، وتكوّنوا في معاهد الأزهر الابتدائية والثانوية، ثم دخلوا دار العلوم، وهي تنتقي المتميزين منهم.

ولكن السالوس كان من حملة الثانوية العامة، الذين لم يدرسوا ما درس الأزهريون، من القرآن وعلوم النحو والصرف والبلاغة والفقه التفسير والحديث والمنطق والتوحيد وغيرها.. ولكن «دار العلوم» كانت تنتقي من هؤلاء من تراه أصلح لدراسة علومها العربية والإسلامية. وكان السالوس من هؤلاء الذين تميزوا بجدهم وحرصهم ومثابرتهم. حسبما زكاه زميله الديب. وثانيهما: الأخ العزيز، والمربي الكبير الدكتور يوسف عبد المعطي، الذي كان مديرا لمعهد المعلمين في الكويت، الذي يعمل السالوس مدرسا فيه. فقد ذكر لي: أنه لمس فيه عقلية فقهية واعدة، وخصوصا في فقه المعاملات، فلديه استعداد طيب في هذه الناحية، كما أنه من الناحية السلوكية رجل ملتزم بدينه غير مفرط فيه، بل ربما كان أميل إلى التشدد. فهذه شهادة من رئيس لمرؤوسه، والأولى شهادة زميل لزميله، وكلتاهما مؤسسة على معرفة وخبرة ومعايشة، ومن أناس لا يتهمون، فهي جديرة أن تحوز القبول.

ووصل الشيخ علي إلى الدوحة واستقبلته بحفاوة وتكريم، ونظرا لأن تخصصه في الفقه، فقد طلبت منه أن يركز على «فقه المعاملات المعاصرة». وهذا ما نصت عليه مناهج كلية الشريعة. فقد كان عيب الفقه الذي درسناه في معاهد الأزهر تسع سنوات، وما درسه إخوان لنا في كلية الشريعة أربع سنوات، لا علاقة له بالواقع الذي يعيشه الناس، فهو يدرس «البيوع» ولكن لا يعرف أحكام البيوع المعاصرة، ويدرس أنواع الشركات القديمة وأحكامها: من شركة المفاوضة، وشركة العنان، وشركة الوجوه.. إلخ. ولكنه لا يعرف شيئا عن الشركات المعاصرة وأنواعها وأحكامها.. لا يعرف شيئا عن الشركات المساهمة، وشركات التأمين، ولا عن البنوك وأعمال البنوك. ونحن نريد أن نربط طالب كلية الشريعة بما يدور في الحياة من حوله، بحيث يفهمه، ويعرف حكمه، ويفتي فيه إذا سئل.

وقد لاحظت أن الأخ الدكتور علي قد صار له نحو سبع سنوات، منذ حصل على الدكتوراه، وهو في درجة مدرس، ولا سيما أنه لم يأت إلينا من جامعة. وكنت حريصا على أن يرتقى إلى درجة أستاذ مساعد، ولكن المشكلة أنه لم يكن لديه من البحوث ما يسنده في ذلك، فقد كان في أول الطريق، ومع هذا اتفقت معه أن يقدم مقالة أو مقالتين له كتبهما في مجلة «الوعي الإسلامي» ردا على فضيلة الداعية المعروف: الشيخ حسن أيوب، كما قد شارك بكتابة فصل عن الجانب الاقتصادي في الإسلام في كتاب كان مقررا في مادة الثقافة الإسلامية، ولو طبقت المعايير الحرفية لقبول البحوث للترقية لم يقبل البحثان. ولكن كانت الكلية في أوائل سنيها، والجامعة متساهلة في الشروط، وقد تكونت لجنة التحكيم من الشيخ الغزالي، ومني، ومن ثالث نسيته، وحكمنا بترقية د. السالوس إلى درجة أستاذ مساعد. وأصبح للدكتور السالوس مكان ومكانة في قطر جامعيا وشعبيا، كما أن اشتهاره في فقه المعاملات جعل المصارف الإسلامية تحرص عليه في رقابتها الشرعية، والحق أنه كان له دور ملموس في تسديدها ووضع الضوابط لسيرها، ولا سيما في التدقيق الداخلي لها. كما غدا خبيرا في مجمع الفقه الإسلامي الدولي، ويدعى إلى مؤتمرات البنوك الإسلامية، والندوات التي تتعلق بالاقتصاد الإسلامي.

● رجاء النقاش


● عمر عبيد حسنة



تنفرد «الوطن» بنشر الجزء الرابع من مذكرات العلامة د.يوسف القرضاوي: ملامح سيرة ومسيرة (ابن القرية والكتاب)، وهو يشمل بضعة عشر عاما (حوالي ١٨) من هذه السيرة والمسيرة: وهي سنوات حافلة بالأحداث على المستوى الشخصي في حياة الشيخ والمحلي والعربي والإسلامي والعالمي، على المستوى الشخصي يتحدث فضيلته عن تخرج كل أبنائه. وتزوج كل بناته. وبداية قصة زواجه الثاني. وتعيينه عميدا لكلية الشريعة ومديرا لمركز بحوث السنة والسيرة. ونجاحه في الدعوة الى تأسيس الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية بالكويت. وعمله رئيسا لهيئة الرقابة الشرعية لعدد من المصارف الإسلامية. واختياره عضوا في المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي، وعضوا في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن (مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي) وعضو مجلس أمناء مركز اكسفورد للدراسات الإسلامية، وعضو مجلس أمناء منظمة الدعوة الإسلامية بالخرطوم، وغيرها. وحصوله في هذه الفترة على بعض الجوائز العالمية.

ومن خلال هذه المذكرات سيمر القارئ بمعظم أحداث العصر في منطقتنا العربية والإسلامية، بحكم أن صاحبها يعيش في قلب هذه المنطقة، وقلب هذه الأحداث، وقد قدر له في هذه المرحلة أن يتفاعل بها ومعها متأثرا ومؤثرا.

وتتميز هذه السنوات بأمرين لهما أهمية قصوى في حياة القرضاوي:

الأول: الانتشار الكبير له في أنحاء العالم في الشرق والغرب، وزيارة كل قارات العالم حتى أستراليا، وأميركا الجنوبية، حتى سماه البعض «الشيخ الطائر».

والثاني: ظهور المد الإسلامي أو الصحوة الإسلامية بقوة في تلك المرحلة، والتى يعتبرها الشيخ جزءا منه، كأنما هي ولده وفلذة كبده.

وسنتابع نشر المذكرات يوميا بما فيها من تفاصيل يرويها القرضاوي لأول مرة.

أول زيارة لـ «جنة الله في الأرض».. ثالث أكبر بلد إسلامي في عدد السكان

أمنية لم تتحقق لزيارة باكستان الشرقية

لم يقدر لي أن أزور (بنغلاديش) حينما كانت تمثل جزءا من جمهورية باكستان الإسلامية الكبرى، وكان اسمها في ذلك الوقت (باكستان الشرقية). وباكستان القائمة اليوم، كان اسمها باكستان الغربية.

ويوم زرت باكستان لأول مرة سنة ١٩٦٩م، وأقمت نحو ثلاثة أسابيع في مدينة لاهور، التي يعدونها العاصمة الثقافية لباكستان، كما أن كراتشي العاصمة التجارية.

وكان الإمام المودودي لا يزال حيا - وإن كان قد ترك إمارة الجماعة الإسلامية لرفيقه الأستاذ طفيل محمد- يود لو زرت في ذلك الوقت مدينة (داكا) عاصمة باكستان الشرقية، فقد بدت بوادر الانشقاق، ونذر التذمر والرغبة في الانفصال لدى كثيرين من أبناء البنغال أهل باكستان الشرقية، واستغل ذلك الزعماء الطامعون في الرياسة، مثل مجيب الرحمن رئيس حزب الشعب وغيره.

وكانت حجة الانفصاليين: أن الذي يحكم باكستان هم أهل باكستان الغربية، وخصوا العنصر البنجابي، وأن باكستان الشرقية مهمشة.

وكان بعض ما يقولونه حقا، ولا يمكن أن تستمر وحدة بين بلدين أو إقليمين، يشعر أحدهما أنه مظلوم، وأن شريكه ظالمه، وأن للظالم التمر، وله النوى! إن إقامة العدل هي الكفيلة بمقاومة النِّزعات الإقليمية والانفصالية، التي عانت منها الدول الإسلامية الكبرى ما عانت وكانت سبب ضعفها، واستيلاء الآخرين من الصليبيين والتتار عليها.

كان بعض البنغاليين يقولون: إنه ليس بيننا وبين باكستان الغربية إلا أمران: شهادة أن لا إله إلا الله، وخطوط الطيران الباكستاني!

وكان بعض الظلم الذي وقع على أهل البنغال قديما من زمن الاستعمار البريطاني، وورثته باكستان في عهد الاستقلال، ولكن كان عليها أن تبذل جهدا أكبر في النهوض بالإقليم الشرقي من البلاد، وأن تتعهد بالتنمية والتطوير، حتى يتساوى مع الإقليم الآخر، أو على الأقل يقترب منه، ولا يظل في غاية التخلف.

على كل حال، لم تتحقق أمنية الأستاذ المودودي في زيارتي لباكستان الشرقية، ولكنه شوقني إليها حينما قال لي: إنها جنة الله في أرضه، وإن أنهارها كأنها بحار.

دعوة من الشيخ محمد يونس

ثم شاء الله أن يعقد المؤتمر العالمي الثالث للسنة والسيرة في قطر، ويحضره وفود وممثلون من العلماء من أقطار شتى، وكان من هؤلاء: الشيخ الفاضل محمد يونس عبد الجبار رئيس جامعة (فتيا) الإسلامية، في شيتا غونغ بجمهورية بنغلاديش.

وقد تعرف الشيخ عليّ، وتعرفت عليه في المؤتمر، ورجاني أن أزور جامعتهم، وألتقي بشيوخها وطلابها، ففيها أكثر من ألفي طالب، وهي جامعة دينية تدرس العلوم الشرعية، واللغة العربية، على طريقة علماء ديوبند، وستسر بزيارتها، كما ستسر أسرة الجامعة شيوخا وتلاميذ بزيارتك.

قلت للشيخ يونس: إني ليسرني زيارتكم في بنغلاديش، فهذا حقكم علي، وقد زرت بلادا كثيرة، ولكن لم يقدر لي أن أزور بلدكم العزيز الشقيق، وعسى أن يتحقق ذلك في أقرب فرصة بتوفيق الله.

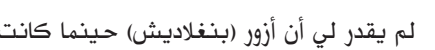
قال الشيخ: سنوجه لك دعوة، لتحضر احتفالنا السنوي بتخريج بعض الطلاب.

قلت: على بركة الله.

وبعد فترة قليلة من عودة الشيخ يونس إلى وطنه: جاءتني دعوة لزيارة جامعة فتيا، في موعد الاحتفال السنوي بتخريج فوج جديد من أبناء الجامعة.

أذكر أن سفري كان عن طريق الهند، ومنها إلى (داكا) عاصمة بنغلاديش وقد بقيت في داكا يومين، زرت فيهما بعض المعاهد الإسلامية، وبعض المدارس الدينية التي تشبه الكتاتيب في بلادنا، وإن وجدتهم يجلسون على الحصير، وقد كنا في الكتاب نجلس على (دكك) خشبية، وقد قدموا إلي صبيا صغيرا لم يكد يتم التاسعة من عمرة يحفظ القرآن كله حفظا جيدا، وقد امتحنته في عدد من المواضع في القرآن الكريم، فوجدته لا يسقط منه حرفا، وإن كان لا يعرف العربية، وهذا من معجزات هذا الكتاب.

وكان ممن عرف بزيارتي وهرع للقائي: الدكتور فؤاد عبد الحميد الخطيب سفير المملكة العربية السعودية، والحق أنه كان سفير الإسلام في تلك الدولة، وكان في خدمة كل عالم أو داعية يزور بنغلاديش، وقد ظل معي في زياراتي المختلفة،









● الإمام محمد عبده

● أبو الأعلى المودودي

● سيد قطب

سألت طلاب أكبر جامعة إسلامية في بنغلاديش عن الإمام المودودي.. فقالوا: منحرف؟!

وصحبني بعد ذلك إلى شيتا غونغ، ليسهم في تنظيم محاضرة عامة دعي إليها المثقفون ورجال الصحافة وكل الشخصيات المهمة في الدولة، ثم أقام حفلا كبيرا بعد عودتي إلى (داكا) في طريق رجوعي إلى الدوحة: دعا فيه عددا كبيرا من الشخصيات البنغالية، ومن السفراء العرب والمسلمين، ومن أساتذة الجامعات، وكبار العلماء، رحمه الله وجزاه خيرا.

المهم أني بعد إقامتي السريعة في (داكا) حجز الاخوة مندوبو جامعة فتيا لي للسفر إلى شيتا غونغ على الطيران الداخلي، وفي المطار كان الشيخ يونس وإخوانه مفتي عبد الرحمن وغيره في انتظاري.

كلمة عن بنغلاديش

كانت هذه أول زيارة لهذا البلد الإسلامي الذي يعد ثالث بلد من ناحية كثرة السكان، بعد اندونيسيا وباكستان، والذي يتميز بكثافة سكانية تعد من أعلى الكثافات السكانية في العالم.

فالذي ينظر إلى الخريطة يجد رقعة بنغلاديش، رقعة صغيرة ضيقة المساحة، ولكن فيها نحو مائة وعشرين مليونا وأكثر في ذلك الوقت.

كما أن البلد يعيش أهله - أساسا- على الزراعة، وكثيرا ما تصيبهم الفيضانات الهائلة والمتكررة فتتلف محاصيلهم، وكثيرا ما تهدم عليهم مساكنهم الضعيفة، وهم في حاجة إلى إقامة سدود كبيرة تحجز المياه، وهذه تحتاج إلى مئات الملايين، وهم لا يملكونها، فالفقر يؤدي إلى مزيد من الفقر.

ولا يكاد يوجد فيها مصانع إلا مصانع (الجوت) التي زرتها، وهذا الإهمال للصناعة فيها من عهد الإنجليز.

وأهل البلد يبدو عليهم الفقر والأمية، وإن كانت بلادا جميلة جدا، كما قال الأستاذ المودودي، فهي بساط من الخضرة نسجته يد القدرة الإلهية، وفيها أشجار جوز الهند (النرجيلة) وأشجار الباباي، وغيرها.

ولا تزال هذه البلاد في حاجة إلى مساندة من هيئة الأمم المتحدة، ومن مؤسساتها المتفرعة عنها، ومن الدول الغنية: دول الشمال، والدول الصناعية الكبرى، ومن منظمة المؤتمر الإسلامي والدول الإسلامية، وخصوصا دول الخليج حتى تلتحق - بالتدريج - بركب العالم المتطور.

وقد استغل دعاة التنصير ما يعانيه أهل البلاد من فقر وجهل ومرض، فأنشأوا مؤسساتهم التي تستغل وضعهم المأساوي، لتفتنهم عن دينهم، كما هو شأنهم أبدا. لذا كان من الواجب على الجمعيات والهيئات الخيرية والدعوية الإسلامية أن يهبوا ليقوموا بمهمتهم في الأخذ بيد إخوانهم في بنغلاديش، وإنقاذهم من براثن المنصرين.

جامعة فتيا

وجامعة فتيا تقع في قرية من قرى شناغونغ، تقع بين المزارع والأرض الخضراء، ولكن لا يوجد فيها فنادق، ولا أماكن صالحة لراحة الضيوف، ولذلك أنزلني الاخوة في فندق بعيد نسبيا عن مكان الجامعة، وهو فندق متواضع، ولكنه صالح لأن ينام الإنسان فيه في الليل، فأنا طوال النهار في الجامعة، وأنا في هذه الأسفار لا أطلب الرفاهية، بل أطلب الحد

إقامة العدل كفيلة بمقاومة النزاعات الإقليمية والانفصالية التي عانت منها الدول الإسلامية الكبرى

الجمعيات والهيئات الخيرية والدعوية الإسلامية مطالبة بالأخذ بيد إخوانها في بنغلاديش وإنقاذهم من براثن المنصرين

نشأت في الكرب وعرفت الحياة الخشنة وتعودت في الأسفار للخارج ألا أطلب الرفاهية في إقامتي وتنقلاتي

● بنغاليات في صلاة الجمعة

الأدنى من مطالب الحياة الأساسية، وهذا يكفيني. وأنا بحمد الله لست من الذين نشأوا وفي فمهم ملعقة من ذهب، بل نشأت في الكرب وتعودت على حياتها الخشنة نسبيا، كما دربت على حياة المعتقلات والسجون، فلا غرو أن أرضى بالفندق الذي أنزلوني فيه.

وجدت هذه الجامعة تعج بالطلاب الذين يعيش جلهم في مساكنها الداخلية، وهي توفر لهم الطعام والشراب والمسكن والكتب، ومواردها من تبرعات المسلمين، وأحسب أن ثمت أوقافا وقفت عليها.

التقيت بشيوخ الجامعة وحدثتهم عن واجبهم العلمي والتربوي، ولا سيما في هذا العصر، الذي وجدتهم في عزلة تامة عنه، فهم يعيشون في الكتب القديمة وحدها، لم تهب عليهم نسمة من نسمات زماننا هذا وما فيه من عجائب، وما أثار من مشاكل.

وكذلك حين التقيت بالطلاب وجدتهم غائبين تماما عن دنيا الناس، لا يعرفون شيئا عن علوم العصر، وثقافة العصر، وتيارات العصر، ومشكلات العصر.

ولذلك هم في عزلة كاملة عن المثقفين في أمتهم من خريجي المدارس والجامعات العصرية، وإنما يتعاملون مع العوام والأميين فحسب.

سألت بعض الطلاب: هل تعرفون شيئا عن جمال الدين الأفغاني؟ فهز رأسه بأنه لم يسمع عن هذا الاسم، ولم يقرأه في أي كتاب من كتب الفقه أوالحديث أوالتفسير.

ومثله الإمام محمد عبده، والعلامة رشيد رضا، والشيخ حسن البنا، والشهيد سيد قطب، والشيخ محمد الغزالي.

ولكن حين سألتهم عن المودودي، هاج هائجهم، وقالوا: منحرف محرف!!

هذا هو المناخ الذي يعيش فيه طلاب الجامعة، إنهم لا يعرفون كثيرا ولا قليلا عما سمي في الأزهر: العلوم الحديثة: الفيزياء والكيمياء والحيوان والنبات والرياضيات، والجغرافيا والتاريخ، ناهيك عن علم النفس، أو علوم التربية أو الاجتماع والفلسفة.

وجدت نفسي أمام ظاهرة تحتاج إلى التعامل بالرفق والحكمة والتدرج، ولم أرد أن أصدمهم، فيرفضوا نصيحتي بالكلية، ويسدوا آذانهم عني.

حضرت بعض دروسهم، وشاركت بالأسئلة أوجهها إلى الطلاب في العلوم الشرعية والعربية.

وطلبوا مني أن ألقي درسا في الحديث، فألقيت درسا في الحديث الأول في صحيح البخاري «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى...».

رويته لهم بسنده من حفظي، وقلت لهم: إنه من أحاديث الآحاد، وإنه تواتر بعد ذلك من بعد يحيى بن سعيد الأنصاري، وشرط التواتر يبدأ من الصحابة.

وبينت لهم أهمية الحديث عند العلماء، وأهمية النية في الإسلام، وما ورد فيها من أحاديث ذكرها الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب، كما بينت المواطن التي تؤثر فيها النية والتي لا تؤثر فيها، وهذا الحديث قد قرأت شرحه في فتح الباري وغيره من شروح البخاري، كما قرأت شرحه في (جامع العلوم والحكم في شرح خميس حديثا من جوامع الكلم) لابن رجب الحنبلي.

وكان المشايخ والطلاب مبهورين - وأنا أشرح الحديث- من غزارة المادة عندي، ومزجي الحديث بالتفسير والفقه والعقيدة واللغة.

وطلبوا أيضا درسا في التفسير، فاستجبت لهم، وأظن أنه كان في تفسير سورة الفاتحة.

وحضرت بعض دروس الفقه وسألتهم في الدرس، وقلت لهم: أنا درست المذهب الحنفي في الأزهر، وهو مذهبي الرسمي، درست (نور الإيضاح) وشرحه (مراقي الفلاح)، ودرست كتاب (القدوري) وشرحه (اللباب على الكتاب) الشهير بشرح الميداني على القدوري. ودرست (الاختيار) في شرح المختار لابن مودود الحنفي، هذه الكتب درستها في المرحلتين الابتدائية والثانوية من معاهد الأزهر.

ثم قرأت كثيرا - في اطلاعاتي الخاصة- في (الهداية) وشرحها للعلامة ابن الهمام، كما قرأت في (البدائع) للكاساني، و(البحر الرائق) لابن نجيم، و(رد المحتار على الدر المختار) المعروف بحاشية ابن عابدين.

ودخلت في بعض دروس النحو، وسألتهم أسئلة عرفوا بها تمكني في علوم العربية. كما قرأت عليهم بعض الأبيات في درسهم من ألفية ابن مالك الشهيرة.

وقال الشيخ محمد يونس رئيس الجامعة لإخوانه من شيوخ الجامعة: هذا الرجل آية من آيات الله، كنا نظنه داعية عصريا قليل البضاعة من العلوم الأصلية، فإذا هو بحر ثجاج جمع بين القديم والحديث، وما رأيت مثله!

ولم يكن هذا إلا فضلا من الله تعالى علي: أن زينني في أعينهم، وستر عيوبي عنهم، وقد قال ابن عطاء الله في حكمه: إذا أثنى عليك أحد فذلك من فضل الله عليك، فالفضل لمن أكرمك وسترك، لا لمن مدحك وشكرك.

ولقد أنس بي الشيوخ والطلاب في الجامعة، وكانوا يجلسون إليّ طويلا يستمعون عن الإسلام ودعوته وأمته وقضاياه: ما لم يكن يوما مما يفكرون فيه أو يدخل في دائرة اهتمامهم.

ولعل أهم ما استفادوا من زيارتي: أن علموا أن العلم ليس في الكتب وحدها، وأن هناك كتبا غير الكتب التي يدرسونها، وهناك علماء ملأوا الدنيا علما وفكرا غير الشيوخ الذين درسوا عليهم، وأن العلم بحر لا ساحل له، وأن علينا أن نطلب من علم الدنيا ما يساعدنا على فهم الدين.

وقد طلبت منهم أن يدخلوا بعض الكتب إلى مكتبة الجامعة مثل تفسير المنار، وتفسير الشيخ جمال الدين القاسمي، وبعض الكتب التي تيسر تعليم النحو والبلاغة، مثل كتاب (النحو الواضح) بأجزائه لعلي الجارم ومصطفى أمين، ومثله (البلاغة الواضحة).

وأن يسمحوا بدخول بعض المجلات الإسلامية، مثل مجلة (الأمة) القطرية، ومجلة (الوعي الإسلامي) الكويتية، ومجلة (منار الإسلام) الإماراتية.

وكان مجرد سماعهم مثل هذا الكلام في الجو المغلق: فتحا مبينا، ولعلهم لم ينفذوا منه حرفا، ولكن كان من المهم أن يطرق هذا سمع طلابهم، وأن يدركوا أن هناك عالما غير جامعتهم، وأن هناك خصوما يكيدون للإسلام كيدا، على المستوى الديني من المنصّرين، الذين يرون بعضهم في بلدهم، وعلى المستوى الفكري من المستشرقين المغرضين، وأخطر منهم تلاميذهم من العلمانيين والمتغربين، ولا بد أن يعدوا أنفسهم لمواجهة هذا الكيد بالعلم النافع، والفكر الثاقب، والثقافة المتفتحة.

ولم يكن هذا الانغلاق من طابع جامعة (فتيا) وحدها، بل هو طابع الجامعات والمدارس الدينية بصفة عامة.

وقد زرت عددا منها، مثل جامعة (حضاري) أو الحضارة، وغيرها، ووجدت الطابع نفسه، وأن اختلفت الدرجة بين جامعة وأخرى.

وقد كان الأزهر قديما يشبه هذه الجامعات إلى حد كبير، ولكنه استجاب لدعوة الإصلاح، وأدخل العلوم الحديثة إلى مناهجه، من العلوم الطبيعية والرياضية والاجتماعية، وهي في حقيقة الأمر ليست حديثة، بل هي علومنا كنا أساتذة العالم فيها لعدة قرون، وقد اقتبسها الغرب منا، ثم عدنا نأخذها منه، فهي بضاعتنا ترد إلينا.

وقد انتهز الإخوة في (فتيا) وجودي، فافتتحوا أكثر من مشروع، وضعت الحجر الأساسي فيها بيدي، ووضع اسمي عليها، وأتمنى أن يكون قد قامت وأدت رسالتها فيه.

وفي فترة وجودي في شيتا غونغ زرت عددا من المدارس الدينية الصغيرة الفقيرة، التي تحتاج إلى معونة مادية، لتقف على قدميها، وكان بعض الإخوة الخيرون من أهل قطر، قد حملوني بعض المبالغ من زكواتهم أو صدقاتهم، وفوضوا إلي أن أدفعها حيث أرى، فرأيت أولى الناس بها أصحاب هذه المدارس، وكانوا يفرحون بأي مبلغ يعطى لهم، فهم بقناعتهم يكفيهم القليل، ويبارك الله في القليل، فينتج كثيرا.

ثم ختمت أيامي في هذه المدينة الكبيرة التي تعد المدينة الثانية في بنغلاديش بمحاضرة: عامة، كما أشرت من قبل، ثم بمؤتمر صحفي أجبت فيه عن أسئلة الصحفيين حول الإسلام ورسالته وحضارته، ومشكلات أمته.

ثم ودعت الإخوة في (فُتيا) أو (في شيتا غونغ) عموما مستقلا الطائرة إلى (داكا)، ومعي بعض الرفقاء من الجامعة.

وقد هيأ الإخوة في داكا لي أن أخطب الجمعة في الجامع الكبير في وسط داكا، وقام بعض علمائهم بترجمة الخطبة بعد الصلاة. كما أتيح لي أن أزور دار (الجماعة الإسلامية) وألقيت فيها محاضرة، ثم التقيت بهم لقاء خاصا، لأجيب عن استفساراتهم، وأطلعتهم على أهم أحوال إخوانهم في البلاد العربية.

وكان البروفيسور غلام أعظم: الرجل الأول في الجماعة، لم يؤذن له بعد بدخول البلاد، لأنه كان ضد انفصال باكستان الشرقية عن باكستان الغربية، فأسقطوا جنسيته وهو ابن البلد الأصيل!

وبعد هذه الإقامة الحافلة، كان لا بد من العودة إلى الدوحة عن طريق الطائرة البنغالية التي تصل من داكا إلى الدوحة مباشرة في نحو خمس ساعات. والحمد لله رب العالمين.



ابن القرية والكُتّاب

ملامح سيرة ومسيرة (الجزء الرابع)

مذكرات فضيلة العلامة د. يوسف القرضاوي كما كتبها لـ الوطن بخط يده (٩)

تنفرد «الوطن» بنشر الجزء الرابع من مذكرات العلامة د.يوسف القرضاوي: ملامح سيرة ومسيرة (ابن القرية والكتاب)، وهو يشمل بضعة عشر عاما (حوالي ١٨) من هذه السيرة والمسيرة: وهي سنوات حافلة بالأحداث على المستوى الشخصي في حياة الشيخ والمحلي والعربي والإسلامي والعالمي، على المستوى الشخصي يتحدث فضيلته عن تخرج كل أبنائه. وتزوج كل بناته. وبداية قصة زواجه الثاني. وتعيينه عميدا لكلية الشريعة ومديرا لمركز بحوث السنة والسيرة. ونجاحه في الدعوة الى تأسيس الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية بالكويت. وعمله رئيسا لهيئة الرقابة الشرعية لعدد من المصارف الإسلامية. واختياره عضوا في المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي، وعضوا في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن (مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي) وعضو مجلس أمناء مركز اكسفورد للدراسات الإسلامية، وعضو مجلس أمناء منظمة الدعوة الإسلامية بالخرطوم، وغيرها. وحصوله في هذه الفترة على بعض الجوائز العالمية.

ومن خلال هذه المذكرات سيمر القارئ بمعظم أحداث العصر في منطقتنا العربية والإسلامية، بحكم أن صاحبها يعيش في قلب هذه المنطقة، وقلب هذه الأحداث، وقد قدر له في هذه المرحلة أن يتفاعل بها ومعها متأثرا ومؤثرا.

وتتميز هذه السنوات بأمرين لهما أهمية قصوى في حياة القرضاوي:

الأول: الانتشار الكبير له في أنحاء العالم في الشرق والغرب، وزيارة كل قارات العالم حتى أستراليا، وأميركا الجنوبية، حتى سماه البعض «الشيخ الطائر».

والثاني: ظهور المد الإسلامي أو الصحوة الإسلامية بقوة في تلك المرحلة، والتى يعتبرها الشيخ جزءا منه، كأنما هي ولده وفلذة كبده.

وسنتابع نشر المذكرات يوميا بما فيها من تفاصيل يرويها القرضاوي لأول مرة.

سرقوا حقيبتي وحقيبة زوجتي في لندن خلال رحلة للعلاج

في منتصف شهر نوفمبر سنة ١٩٨٠م، قررت أن أسافر إلى مدينة لندن طلبا للعلاج مما أعانيه من مرض (الدوخة) الذي أعاني منه منذ بضعة عشر عاما ولم أجد له علاجا.

فمنذ سنة ١٩٦٨ تقريبا، وأنا أشكو من هذا الداء، وأول ما أصبت به، كان بعد رمضان في إجازة العيد، حيث نهضت من فراشي في صباح يوم، فإذا بي أسقط، ثم نهضت مرة أخرى إذا بي أسقط. وكان ذلك أمام أهلي الذين فوجئوا بهذا السقوط لأول مرة.

وكلمنا صديقنا الدكتور عادل القوصي طبيب الصحة المدرسية - رحمه الله - وكنا على مودة وتعارف من قديم، وقد حضر بسرعة، فلما رآني وسألني عرف أنها (الدوخة) ولكن ما سببها؟ وصحتي العامة جيدة؟ وهنا قال: لا بد أن نعرض الأمر على الطبيب الباطني المختص، وهو الدكتور أحمد حقي، وهو استشاري بارع معروف في تخصصه.

وجاء الدكتور حقي إلى منزلي، وهو في إجازة العيد، وسألني جملة أسئلة تتعلق بالناحية الباطنية، فلم يجد عندي سببا معروفا للدوخة من إمساك أو غير ذلك. فقال: أنصح أن تعرض نفسك على الدكتور شوقي الصيرفي طبيب الأنف والأذن والحنجرة. فأني لا أرى سببا باطنيا لهذه الدوخة.

وبعد فحص د. الصيرفي لي، قرر أن هناك شيئا يتعلق بالأذن، وليس له علاج، إلا الراحة، ويمكن الاستعانة ببعض الفيتامينات ونحو ذلك، وظللت أتردد عليه بضع سنوات.

ثم قال لي: أنصحك إذا نزلت إلى مصر أن تكشف عند أستاذنا الدكتور علي المفتي الأستاذ الكبير، وعميد طب عين شمس، وكتب لي رسالة إليه.

وفي الصيف ذهبت إلى د. المفتي، وقد اعتنى بي، وأجرى لي فحوصات على أجهزة متعددة، وانتهى إلى ما انتهى إليه تلميذه د. الصيرفي، النصيحة بالرفق والراحة عند الشعور بالإجهاد، وكتب لي نوعا من الفيتامين، لا أظنه علاجا، ولكن لمجرد التقوية، ولإشعار المريض بأن الطبيب كتب له دواء.

وظللت هكذا حتى سنة ١٩٨٠ كلما غرقت في العمل، وأجهدت ذهني بالكتابة، واضطرب عندي النوم: شعرت بهذه الدوخة، فرأى بعض المحبين: أن أذهب في رحلة علاجية إلى لندن، أفحص فيها كل ما له صلة أو قرابة بالدوخة. ووافق الديوان الأميري على السفر للعلاج على نفقة الدولة، وكانت ترافقني زوجتي.

ذهبت إلى لندن، واستقبلني مندوب السفارة، وحجزوا لي في فندق في وسط البلد يسمى (فندق بورتمان) هادئ إلى حد ما، ليس كالفنادق المطروقة من العرب مثل الهيلتون والشيراتون ونحوهما.

وخصصت السفارة سيارة وسائقها في خدمتنا، وهو أخ مصري يجيد الإنجليزية، اسمه محمد عبد الرحمن، كما خصصت لي مترجما في بعض الأحيان، التي تحتاج إلى ترجمة متخصصة في لقاء الأطباء. سلمت نفسي للقسم الطبي التابع للسفارة القطرية، فقاموا بالحجز اللازم مع الأطباء الذين يجب أن يروني. طبيب الباطني العام. وطبيب الأعصاب والدماغ. وطبيب العيون. وطبيب الأذن.

وكل هؤلاء، قرروا: أن لا شيء يسبب هذه الدوخة، لا في الباطني ولا في الدماغ، ولا في العين، إلا طبيب الأذن، فهو الذي قرر أن الخلل فيها، وهو ما قاله د. شوقي الصيرفي، وأكده د. علي المفتي من قبل. ورفض طبيب الأذن المختص أن يعطيني أي دواء، ولو كان شيئا كالفيتامين ونحوه. وقال: أنت طبيب نفسك. انظر متى تأتيك هذه الدوخة، وما السبب وراءها؟ واجتهد أن تتجنب الأشياء التي تثيرها أو تحركها.

قلت له: الذي عرفته بالممارسة والتجربة: أنها تأتي بعد الإجهاد الذهني واضطراب النوم عندي. وأنا نومي غير سهل، وعندي مشكلة مزمنة معه.

قال: عندما تشعر بذلك حاول أن تتوقف قليلا، وتريح نفسك، والإنسان. مهما تكن قوته وحيويته. في حاجة إلى محطات للاستراحة. وحتى الأجهزة الميكانيكية في حاجة إلى أن تستريح وتتوقف بعض الوقت للتنظيف والصيانة وغيرها.

وعرض عليّ القسم الطبي أن أستكمل فحص بقية الجسم، من باب الاطمئنان، ما دمت قد جئت للعلاج، وكان قد بقي فحص الأسنان، والمسالك البولية، وقد فوجئت في كشف المسالك: أن عندي بداية التهاب أو تضخم في (البروستاتا) وهو في أوله، وينبغي متابعته بعد ذلك.

العلاج عند الخواجات

داعبني أحد الإخوة قائلا: حتى المشايخ يطلبون العلاج عند الخواجات الأوروبيين؟!

قلت له: وهل في ذلك من حرج؟ والله تعالى الذي خلق الداء، خلق الدواء، وأجرى سننه بنفع التداوي إذا أصاب محله. وقال رسوله «ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء، علمه من علمه، وجهله من جهله» ولم يستثن داء من ذلك إلا الموت والهرم.. فعلم أنه لا يوجد مرض عضال لا دواء له. وفي هذا فتح لباب الأمل لدى الأطباء والمرضى جميعا: أن لا يأس من الشفاء أبدا.

وقد حل الإسلام معضلة دينية وفكرية قديمة، وهي تعارض التداوي مع القدر السماوي، وذلك حين سئل النبي صلى الله عليه وسلم: أرأيت أدوية نتداوى بها، وتقاة نتقيها؟ هل ترد من قدر الله شيئا؟! قال «هي من قدر الله».

ومعنى هذا: أن المرض من قدر الله، والدواء من قدر الله، والمؤمن يدفع قدر الله بقدر الله، كما يدفع قدر الجوع بقدر الغذاء، وقدر العطش بقدر شرب الماء: يدفع قدر وقوع الداء بقدر تناول الدواء، كلها بقدر الله.

ولقد روى أبو داود: أن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يشكو إليه: أنه مفؤود (أي مصاب في فؤاده أي كبده) فأمره أن يذهب إلى الحارث بن كلدة (الطبيب الثقفي) يطلب العلاج عنده. قالوا: ولم يكن الحارث أسلم بعد، فاستنبط الفقهاء منه مشروعية العلاج عند غير المسلم ما دام ثقة ومأمونا.

قال صاحبي: وما قولك في الاستشفاء بالرقى والأدعية والعلاج بالقرآن وغير ذلك من الأدوية الروحية؟

قلت: إن كان المقصود بهذه الأدوية الروحية: أنها مكملة للأدوية المادية العضوية، فلا بأس باستعمالها، بل إن الرسول رغب فيها، وحث عليها. ولا ريب أنها تمد المريض بمدد روحي، وقوة معنوية يحتاج إليها في رفع معنوياته التي لا غنى عنها في محاربة المرض وتحدياته، وهي سبب من الأسباب الروحانية في الشفاء.

وأما إن كان القصد: الاستغناء بها عن الطب القائم على الملاحظة والتجربة، والمبني على شبكة الأسباب والمسببات، فهذا مرفوض شرعا. فإن الرسول صلى الله عليه وسلم قد تداوى في نفسه، وأمر غيره بالتداوي، ووصف أشياء من البيئة للتداوي وفق خبرته، وكذلك أصحابه من بعده.

وما جاء في القرآن الكريم أنه «شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ» (الإسراء: ٨٢) لا يعني: أنه شفاء من كل الأمراض العضوية والمادية، بل هو «شِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ» (يونس: ٥٧) شفاء لها من الشك والشرك والجهل والكبر وأمراض القلوب.

ولو أن المسلمين اكتفوا بالاستشفاء أو العلاج بالقرآن. كما يزعم بعض الناس في عصرنا. ما قامت للمسلمين قائمة في علم الطب، ولكنهم سبقوا الأمم في إقامة صرح طبي علمي عملي شامخ البنيان، قام عليه أطباء نوابغ لمعت أسماؤهم في سماء العالم، وتعلمت منهم أمم شتى.

والعجيب أن نجد من هؤلاء الأطباء العباقرة كثيرا من النوابغ في علوم الدين، كما وجدنا العلامة ابن رشد (ت ٥٩٥هـ): يؤلف (الكليات) وغيرها في علم الطب، كما يؤلف (بداية المجتهد ونهاية المقتصد) في علم الفقه المقارن. ورأينا الإمام المفسر المتكلم الأصولي: الفخر الرازي (ت٦٠٦هـ) يقول الذين ترجموا لسيرته: كانت شهرته في الطب لا تقل عن شهرته في علوم الدين.

ورأينا النابغة ابن النفيس (ت٦٨٧) مكتشف الدورة الدموية الصغرى: يترجم له العلامة تاج الدين السبكي في (طبقات الشافعية الكبرى) بوصفه أحد فقهاء الشافعية.

الخطبة في المسجد المركزي

وبعد أن انتهينا من جولة الفحص الطبي، زرت بعض المؤسسات الإسلامية، ومنها (دار الرعاية الإسلامية) وقد دعوني لإلقاء محاضرة فيها.

وكذلك زرت المسجد المركزي، وكنت قد زرته من قبل يوم كان يديره صديقنا الدكتور محمد الجيوشي رحمه الله.

ولا أذكر من كان مديره في ذلك الوقت، ولكنهم دعوني لإلقاء خطبة الجمعة في المسجد، على أن يترجمها واحد منهم، قبل الخطبة الثانية، كما هو المعتاد في مثل ذلك.

اختطاف حقيبة زوجتي

ومن الأحداث الغريبة التي وقعت لنا في تلك الفترة: اختطاف حقيبة زوجتي أم محمد حفظها الله، ثم عودتها إليها.

أذكر أنا كنا نشاهد التليفزيون البريطاني، وكان يعرض فيلما، وفيه: رأينا فتاة تمسك حقيبتها بيدها وتحركها يمنة ويسرة، من باب اللعب واللهو، فإذا شاب يثب إليها في خفة وسرعة، ويختطفها من يدها. ويركض سابقا الريح!

هنا قلت لزوجتي مازحا: إياك أن يخطف أحد هؤلاء حقيبتك من يدك ويطير!

قالت: وماذا فيها؟!



● أنور السادات

● الشيخ عبد الحميد كشك

رحلة علاجي تكلفت ثلاثة آلاف جنيه إسترليني فقط واستغرقت شهرا

قلت: صحيح إنها ليس فيها نقود كثيرة، ولكن فيها ما هو أهم من النقود: فيها جوازات السفر، وتذاكر السفر، وشيكات سياحية، وكذا وكذا.

ولم يكد يمر يومان أو ثلاثة على هذا المشهد والتعليق عليه، حتى وقعت هذه الواقعة.

كانت زوجتي، وقد أوشكنا أن نعود إلى قطر، تريد أن تمر على بعض المحلات التجارية الشهيرة، تتسوق منها ما تحتاج إليه، مستفيدة من التنزيلات التي عمت سائر المحلات في تلك الأيام بمناسبة أعياد الميلاد (الكريسماس). وكان الأخ المرافق لي محمد عبد الرحمن يعرف هذه المحلات جيدا، وكان يأتي بزوجته المصرية لترافق زوجتي، وهو يرافقني. وفي إحدى الليالي ذهبنا إلى متجر كبير ـ نسيت اسمه ـ لنتفرج على ما فيه، وأظن أننا لم نشتر منه شيئا، وخرجنا من المحل، لنذهب إلى السيارة التي ركنها السائق في بعض الشوارع الخلفية، وهي قليلة الإضاءة، وغير مزدحمة بالناس. سبقنا الأخ محمد ليأتي بالسيارة، ومشت زوجتي وزوجته معا، ومشيت أمامهما، وسرعان ما سمعت صرخة من زوجتي، فالتفت إليها، فوجدتها كادت تقع، ولم أجد الحقيبة في يدها، ووجدت رجلا أسود يمسك بالحقيبة في يده، ويركض في سرعة الحصان، وهنا استجمعت قوتي وركضت وراءه بكل قوة، وكانت ركبتي لا تزال سليمة والحمد لله، ودائما صاحب المتاع أقوى من اللص، وقد كنت منذ صباي أحسن العَدْو. ورغم أن اللص أشب وأخف مني قطعا، إلا أني كنت ملاحقا له، ولما أوشك أن ينتهي الشارع الخلفي هذا ويدخل اللص في الشارع الكبير المضاء الحافل بالناس: أدركه الخوف، فرمى بالحقيبة، والتقطتها. ورجعت إلينا سالمة والحمد لله.

وقد عدنا إلى الفندق: فرأينا أن نضع الأشياء التي فيها في صندوق الأمانات، حفاظا عليها من مثل هذه المفاجآت، ولم يبق فيها إلا قليل من النقود، التي تحتاج للاستهلاك السريع. كان طبيب المسالك قد طلب مني أن أراجعه، ولكن بعد إجازة الكريسماس، وهي عنده أسبوعان، ولم أجد ضرورة لذلك: فأبلغت السفارة بقرار سفري، وضرورة الحجز لي. وجاء مندوب السفارة ليحاسب الفندق، ففوجئ بالنفقات التي يطلبها الفندق. إنه رقم لا يصدق. الإقامة والأكل والتليفونات لا تبلغ ثلاثة آلاف جنيه!! فقال المندوب: ما هذا يا أستاذ؟ هل كنتم صائمين طوال هذه المدة؟ إن الرجل من الإخوة القطريين يأتي لمدة أسبوع، فيكلفنا أضعاف هذا المبلغ! إنكم لم تتكلموا في الهاتف طوال هذا الشهر إلا خمس مرات، كل مرة نحو ثلاث دقائق. وإخوانكم يحسب عليهم التليفون بالساعات كل يوم!

قلت له: إن الفقهاء اعتبروا المال العام ـ مال الدولة ـ كمال اليتيم، وشددوا في الأخذ منه. ولذلك آثرنا ألا نأخذ منه إلا بقدر الحاجة. كنا نأكل وجبتين في اليوم: الإفطار، وأظنه تبع الحجرة، والعشاء. وكنا نختار أرخص الأشياء لطعامنا: دجاج مع البطاطس (اتشكن إن ذا باسْكت) وكنا نكلم الأولاد مرة واحدة كل أسبوع للاطمئنان عليهم. وهذا يكفينا.

وظل مندوب السفارة كلما لقي واحدا، يقول له:

لا يأس من الشفاء ولا يوجد مرض عضال لا دواء له إلا الموت والهرم ولا حرج من التداوي عند أطباء «خواجات»

مصر رائدة في الخير ورائدة في الشر وكل تغيير يحدث فيها ينتقل للدول العربية والإسلامية



● فؤاد سراج الدين



● عمر التلمساني

أتدري كم كلف الشيخ وأهله السفارة إقامة ومعيشة لمدة شهر كامل؟ إنه لم يكمل ثلاث آلاف باوند!

سرقت حقيبة يدي

وفي يوم السفر من لندن إلى قطر، حدث لي حادث غريب، فقد كنت أقف في طابور أمام موظف الفندق الذي أوقع له التوقيع الأخير قبل المغادرة، وإعطائي مايسمح بترك الفندق، ونظراً لزحام المغادرين في ذلك الوقت، ظللت في الطابور عدة دقائق كنت أحمل في يدي حقيبة اليد (الهند باك) في يدي، فلما طال الوقوف بعض الوقت، وضعتها على الأرض بجواري، وما هي إلا ثوان، حتى نظرت فلم أجد الحقيبة. لقد أخذت في لمح البصر. كانت زوجتي هي وزوجة السائق المرافق لي في انتظار فراغي من مهمتي. سألتهما: ألم تريا الحقيبة؟ قالتا: لقد كانت بجوارك منذ لحظات، وذهبت يمنة ويسرة، لأبحث عن أي أثر للحقيبة، فلم أجد. أين ذهبت وآخذها؟ لا جواب. كما يقول المصريون: (فص ملح وذاب).

يبدو أن هذا اللص كان يراقبني، وعرف من خبرته أني سأتعب بعد فترة، وأضع الحقيبة من يدي، وكان بالمرصاد، بمجرد أن وضعتها اختطفها وولى الفرار، أو لعله يجلس في المكان بعد أخذها وقد أخفاها بطريقة أو خرى. وقلت: الحمد لله، فلم يكن فيها شيء ذو بال، فقد كانت التذاكر وما بقي من نقود في حقيبة زوجتي، أما حقيبتي فلم يكن فيها إلا نقود قليلة، ونظارة قراءتي، وكشكول صغير، فيه بعض الكتابات القليلة، وهي أثمن ما ضاع مني. فلم يظفر اللص بصيد سمين كما كان يتوقع، من حقيبة رجل قادم من الخليج!

وهذا هو الأمن في لندن، اختطفت حقيبة زوجتي، ثم استردت بفضل الله، وسرقت حقيبتي ولم تعد.

فالحمد لله على نعمة الأمان في بلادنا

رحلة إلى أميركا وأحداث سبتمبر ١٩٨١م

في شهر سبتمبر سنة ١٩٨١م كنت في رحلة إلى أميركا، بدعوة من اتحاد الطلبة المسلمين WSA لحضور مؤتمرهم السنوي. وكان مؤتمرهم من قبل يعقد في أواخر مايو من كل عام أي في أواخر العام الدراسي بالنسبة لي، فكان توقيته أنسب لأستاذ جامعي مثلي. ولكن الإخوة في أميركا غيروا الموعد تبعا لتغير مواعيد الإجازات التي كانت تمكنهم من إقامة هذا اللقاء، حيث توجد عدة أيام إجازة متصلة.

وكنت على العادة أحضر المؤتمر ثم أقوم بجولة في بعض الولايات في طريق عودتي إلى المشرق. وفي أحد الأيام كنت مدعوا مع عدد من الإخوة للغداء عند أحد الإخوة من طلاب السعودية. لا أذكر اسمه الآن، وفوجئنا بأحد الإخوة يبلغنا بخبر شد انتباهنا، وأفزع قلوبنا، قال: إنه سمع من الإذاعة أن الرئيس السادات أمر باعتقال عدد كبير من القيادات الإسلامية والوطنية من رجال الأحزاب والمعارضة السياسية، مثل فؤاد سراج الدين، وعمر التلمساني وكثيرين، في بداية مواجهة مع القوى المصرية المعارضة، وأن عهد الحرية والانفتاح قد ولى، وأن الجو أصبح مكهربا، ولا يعلم إلا الله ماذا تكون العواقب.

أصبنا جميعا بالوجوم، ووقع النبأ علينا كالصاعقة، ولقد كنا نعلم أن الجو متوتر في مصر، ولكن لم نكن نتوقع أن السادات سيقدم على هذه الخطوة، ويعود بمصر إلى عهد المعتقلات المفتوحة لكل معارض، والتي كان يفاخر بأنه أغلقها إلى الأبد!

كنا في حاجة إلى معرفة المزيد من الأخبار والتفصيلات، حتى تتضح لنا الصورة، ونعرف ما يجري في ديارنا، وقال أحد الإخوة: بعد أقل من ساعة ستأتي نشرة الأخبار في التليفزيون الأميركي، وأعتقد أنها ستبث علينا تفصيلا أكثر مما جاء في إذاعة الخبر لأول مرة. وظللنا نتحدث إلى أن جاء وقت الغداء، ودعينا إلى المائدة، وأثناء تناولنا لطعامنا، تذكر أحد الإخوة، وقال: نسينا موعد النشرة التي بدأت من دقائق، افتحوا التليفزيون. ودهش الجميع عندما فوجئوا بصورة شيخ في التليفزيون يخطب في جمع كبير، وجم غفير. وقالوا: انظروا! هذه صورة الشيخ (يوسف) يخطب في ميدان عابدين بالقاهرة. وفعلا عرض التلفاز عدة لقطات لهذا المشهد: مشهد صلاة العيد الشهيرة في ميدان عابدين. لقطة للمصلين وهم سجود. ولقطة أخرى لي وأنا أخطب الجمعة. ولقطة ثالثة للأخ الشاب الدكتور حلمي الجزار أمير طلاب الجماعة الإسلامية بجامعة القاهرة، وقد قدمته ليلقي كلمة الشباب. ثم صورة أخرى للشيخ عبد الحميد كشك. رحمه الله. الخطيب المصري الأزهري الكفيف، الذي انتشرت أشرطة خطبه في مصر خاصة، وفي أنحاء العالم الإسلامي عامة، وكانت له طريقته الخاصة في التحريك والإثارة، كما له عشاقه الكثيرون. كان التلفاز الأميركي يتحدث عن الصحوة الإسلامية في مصر، والعناصر المؤثرة فيها. وكانوا يرصدون كل شيء عنها، ويعلمون علم اليقين أنها لو مضت في طريقها، وهيئت لها السبل، ووجدت من الحكماء من يرشد مسيرتها، لأمكن لها أن تغير المنطقة تغييرا جذريا، تغييرا ينبع من الداخل، ولا يفرض من الخارج، تغييرا يبدأ بإصلاح الأنفس أو إصلاح ما بالأنفس، وهو الأساس الحقيقي لكل تغيير، وفق السنة الثابتة التي قررها القرآن «إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ» (الرعد: ١١).

مصر رائدة في الخير والشر

يمكن أن يبدأ التغيير في مصر، لتكون النموذج المحتذى، ثم يصدر إلى البلاد العربية الأخرى، ومنها إلى البلاد الإسلامية.

ومن المعروف أن مصر رائدة في الخير، كما أنها رائدة في الشر، والقوم فيما وراء البحار يعلمون ذلك، ويدركون قدرة مصر على التأثير فيما حولها، وقدرة الإسلام على التغيير إذا أحسن فهمه، وأحسن تطبيقه. لهذا عُنُوا عناية بالغة ومكثفة بالصحوة الإسلامية التي فاجأتهم بظهورها وامتدادها وحيويتها، وتأثيرها في الشباب المثقف خاصة، في الجامعات المدنية والدينية، بل المدنية قبل الدينية، ولم يقتصر تأثيرها على الذكور، حتى أثرت في الفتيات، فبدأن يخلعن ـ باختيارهن ـ الثياب والأزياء التي استوردنها من الحضارة الغربية، التي سرن وراءها عقودا من الزمن، شبرا بشبر، وذراعا بذراع، ويرتدين «الخمار» أو الطرحة أو «الإيشارب» وهو الذي أطلقوا عليه اسم «الحجاب». إنها حركة نسائية طوعية اختيارية للمرأة المسلمة، بدأت في مصر، ثم انتقلت إلى غيرها، نتيجة طبيعية لتغير وعي الفتاة المسلمة بدينها، وشعورها بذاتها، وواجبها نحو ربها ونفسها.

وكان القوم في أميركا يدركون خطورة ما يجري في مصر، ويرصدونه ويدرسونه، وكم عقدوا عشرات الندوات، بل مئاتها، وكلفوا مراكز الأبحاث المختلفة بدراسة هذه الظاهرة اللافتة والمثيرة ـ وربما المفزعة لديهم ـ ظاهرة الصحوة الإسلامية، ومعرفة أسبابها ودوافعها ومؤثراتها، ونقاط القوة، ونقاط الضعف فيها، وحاضرها ومستقبلها. لهذا لم يكن عجبا أن أرى صورتي في تليفزيون أميركا، ضمن تقرير عن الصحوة في مصر، وأنشطتها المتميزة، ومنها: صلاة العيد في عابدين، التي كان ينظمها شباب الصحوة ويظهرون بها قوتهم، وقدرتهم على التجميع والتنظيم، وقد كان مئات الألوف يجتمعون وينصرفون في هدوء وسلام دون أن يحدث ما يعكر الصفو. وقال لي الإخوة: الحمد لله، حيث لم تكن في القاهرة، وإلا فربما كنت الآن بين هؤلاء المعتقلين.

فقلت لهم: أحمد الله، لقد نجاني سبحانه من محنة ١٩٦٥م بفضل من عنده، حيث لم أنزل في ذلك الصيف إلى القاهرة، وقد نجاني هذه المرة أيضا، ونحن لا نتمنى البلاء، ونسأل الله العافية، فإذا وقع البلاء سألنا الله تعالى الصبر عليه. وفي الحديث المتفق عليه «لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، ولكن إذا لقيتم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف».

عودة إلى الدوحة

أحسب أني لم أطل المكث كثيرا في أميركا بعد هذه الأحداث، إذ كان لا بد أن أعود إلى قطر، لأكون قريبا من الأحداث، التي قد تتسع وتتطور، وقد تفرض علينا أعباء وواجبات. وإن كنت أدعو الله تعالى ألا يتورط السادات فيما تورط فيه عبد الناصر، وينتقل إلى «جلاد» للشعب وللأحرار والشرفاء فيه. وبهذا يخسر رصيده الذي كان له عند المصريين، الذين ساندوه في تصفية مراكز القوى، وحين وجدوه متجها إلى إطلاق الحرية، وإنهاء الاعتقال، والمناداة بسيادة القانون.

هل كان تغيير السادات اتجاهه من نصير للحرية إلى سجان كبير أو مضيق على الحريات انبثاقا من ذاته، وبدوافع من داخله، أو كان بتأثير من الوسواس الخناس، الذي يوسوس في صدور الناس، أعني: الشيطان الأميركي؟!

هل خوّفه من الشيطان الوسواس الأميركي من خطر المد الإسلامي وتزايد بروزه وقوته، والأولى مفاجأته بضربة عاجلة قبل أن يستفحل ويتطاير شرره، ويتضاعف خطره، ويصعب تداركه؟!

ليس هذا بمستبعد، بل هو المتوقع، وخصوصا بعد توقيع اتفاقية «كامب ديفيد» والمصالحة المنفردة مع إسرائيل، وكان القوم أرادوا أن يعزلوه عن الشعب المصري، بعد أن عزلوه عن الشعب العربي كله!

على أن السادات في السنوات الأخيرة من حكمه قد بدا عليه تغير كثير في حديثه وفي سلوكه وفي علاقاته، نتيجة الغرور والانتفاخ الذي أصابه بعد حرب العاشر من رمضان ١٣٩٣هـ، أو السادس من أكتوبر ١٩٧٣م. وسنعود إلى الحديث عن هذا، عند تقييمنا لعهد السادات بعد مقتله.





ابن القرية والكُتّاب

ملامح سيرة ومسيرة (الجزء الرابع)

مذكرات فضيلة العلامة د. يوسف القرضاوي كما كتبها لـ الوطن بخط يده (١٠)

تنفرد **الوطن** بنشر الجزء الرابع من مذكرات العلامة د.يوسف القرضاوي: ملامح سيرة ومسيرة (ابن القرية والكتاب)، وهو يشمل بضعة عشر عاما (حوالي ١٨) من هذه السيرة والمسيرة: وهي سنوات حافلة بالأحداث على المستوى الشخصي في حياة الشيخ المحلي والعربي والإسلامي والعالمي، على المستوى الشخصي يفصح فضيلته لأول مرة عن قصة زواجه الثاني وكيف تطور من عاطفة صادقة إلى زواج على سنة الله ورسوله . كما يتحدث عن تخرج كل أبنائه وتزوج كل بناته . وتعيينه عميدا لكلية الشريعة ومديرا المركز بحوث السنة والسيرة. ونجاحه في الدعوة إلى تأسيس الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية بالكويت. وعمله رئيسا لهيئة الرقابة الشرعية لعدد من المصارف الإسلامية. واختياره عضوا في المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي، وعضوا في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن (مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي) وعضو مجلس أمناء مركز اكسفورد للدراسات الإسلامية، وعضو مجلس أمناء منظمة الدعوة الإسلامية بالخرطوم، وغيرها. وحصوله في هذه الفترة على بعض الجوائز العالمية.

ومن خلال هذه المذكرات سيمر القارئ بمعظم أحداث العصر في منطقتنا العربية والإسلامية، بحكم أن صاحبها يعيش في قلب هذه المنطقة، وقلب هذه الأحداث، وقد قدر له في هذه المرحلة أن يتفاعل بها ومعها متأثرا ومؤثرا.

وتتميز هذه السنوات بأمرين لهما أهمية قصوى في حياة القرضاوي :

الأول: الانتشار الكبير له في أنحاء العالم في الشرق والغرب، وزيارة كل قارات العالم حتى أستراليا، وأميركا الجنوبية، حتى سماه البعض «الشيخ الطائر».

والثاني: ظهور المد الإسلامي أو الصحوة الإسلامية بقوة في تلك المرحلة، والتى يعتبرها الشيخ جزءا منه، كأنما هي ولده وفلذة كبده . وسنتابع نشر المذكرات يوميا بما فيها من تفاصيل يرويها القرضاوي لأول مرة.

استضفنا الشيخ الغزالي ثلاث سنوات في قطر حتى ينجو من اعتقالات السادات

الشيخ الغزالي في قطر

عدت إلى الدوحة، لأمارس عملي في عمادة كلية الشريعة، وكان من أهم ما شغلني في تلك الفترة هو: مصير شيخنا الشيخ محمد الغزالي، فقد كنت أعلم أن العلاقة بينه وبين السادات كانت رديئة، وقد اتهمه على الملأ بأنه مثير فتنة، وداعية طائفية، وهي تهمة كاذبة تنادي على نفسها بالبطلان، فكل من يعرف الشيخ الغزالي قارئا أو مستمعا أو معايشا، يوقن أنها عارية عن الصحة تماما.

وقد علمت أن الشيخ عندما وقعت الاعتقالات على عدد من رموز الدعوة والفكر والسياسة والمعارضة في مصر عام ١٩٨١ لم يكن في القاهرة، أظنه كان في الجزائر وقتها، وقد أرسلت إليه من قطر: إن كلية الشريعة ترحب بك، وإن مكانك محفوظ بين إخوانك وتلاميذك، ولا ضرورة لأن تعود إلى مصر.

واتفقت مع أ. د. إبراهيم كاظم مدير الجامعة أن نتعامل معه باعتباره أستاذا زائرا، ليظل في الفندق مقضي الحاجات، بخلاف ما لو كان متعاقدا وأعطي له سكن كبقية الأساتذة، فهو في حاجة إلى من يطهو له طعامه، ويغسل له ثيابه، وينظف له فراشه... إلخ.

والشيخ بعد أن توفيت زوجته أم أولاده، أصبح وحيدا، ولم يتح له أن يجد رفيقة أخرى لحياته. فالأليق به أن يعامل معاملة الأساتذة الزائرين، الذين يعيشون في الفنادق على حساب الجامعة طوال مدة زيارتهم، كل ما في الأمر: أن هذه زيارة قد تطول، على خلاف العادة، ولا بأس بذلك، فهو داعية عصره، ووحيد دهره، الشيخ الغزالي.

وفعلا قَدِم الشيخ الغزالي إلى قطر وكان ذلك في بداية السنة الدراسية ١٩٨٠م - ١٩٨١م. واستقبله الجميع بفرح وترحاب، كما يستقبل الغيث المبارك بعد جدب، فرح به أساتذة الجامعة، وفرح به الطلاب، وفرح به أهل قطر، وفرحت به شخصيا، فقد كنت أحب الغزالي من قديم، وأعتبره من ألسنة الصدق، وأقلام الحق، وسيوف الدعوة، التي يذود الله بها عن دينه، في مواجهة الكائدين للإسلام، والمفترين عليه، والمحرفين له، والمشوهين لوجهه الجميل، بسوء الفهم له، وسوء العرض له، كان هو الداعية الأول للإسلام الحق في ذلك الوقت، فوجوده بيننا مغنم كبير، ومكسب عظيم.

نزل الشيخ الغزالي في فندق الواحة، وخصص له فيه جناح فسيح، ليستقبل فيه زواره ومحبيه، وهم كثر. والغزالي رجل محبب لكل من لقيه وعايشه، فهو رجل هين لين متواضع، موطأ الأكناف، حلو اللسان، طيب العشرة، باسم الثغر، طلق المحيا، فكه الحديث «ابن نكتة» على طريقة المصريين الظرفاء بالفطرة، لا تجده يوما مقطب الجبين، أو عابس الوجه، إلا إذا كان ذلك لبلاء وقع بالمسلمين في أي مكان، أو شكا إليه مسلم من المشكلات والنوازل ما لا يملك له حلا، فهو يألم لألم الناس، ويفرح لفرح الناس.

وكان صاحب فندق الواحة صديقنا وصديقه «الشيخ قاسم درويش فخرو رحمه الله» يوصي موظفي الفندق، بالحرص على خدمة الشيخ، والإسراع بتلبية كل ما يطلبه، وعدم التلكؤ أو التباطؤ في إجابة طلباته. وكان الموظفون والعمال يتنافسون في خدمة الشيخ، ويتقربون إلى الله بذلك. وإذا طلب شيئا تسابقوا ليفوز أحدهم بذلك، وبذل جهده وهو قرير العين. إنها نعمة من الله تعالى: أن يحبك الناس لله وحده، لا لمال، ولا لجاه، ولا لدنيا، وما كان لله دام واتصل.

ظل الشيخ الغزالي في قطر ثلاث سنوات دراسية كاملة: يدرّس في الجامعة، ويخطب في الجامع، ويحاضر في الأندية، ويلقى الناس في مجلسه اليومي، بعد العصر، فيجيب السائل، ويعلم الجاهل، ويردع المتعالم، ويثبت المتحير.

الغزالي والظاهرية الجدد

وكان يزوره بعض الشباب من المتعالمين الذين قرأوا بعض الكتب في الحديث أو التفسير، ثم خيل إليهم أنه أمسوا أعلم الناس بالسنة، أو أعرف الناس بالإسلام، وبات كل منهم يرى نفسه وكأنه «شيخ الإسلام»! والحقيقة أنهم لم يدرسوا العلم على شيوخه، ولم يعرفوه من جذوره، لم يدرسوا الفقه وأصوله، لم يدرسوا النحو والصرف والبلاغة، لم يتعمقوا في فهم تراث الأمة بمدارسه المختلفة، إنما هم أسرى الرأي الواحد، والمذهب الواحد، والشيخ الواحد. هم أسرى الألفاظ والظواهر، أو الحرْفية النصية، لم يلتفتوا يوما إلى فقه «المقاصد» أو فقه «المآلات» أو فقه «الموازنات» أو فقه «الأولويات» وقد سميتهم في بعض ما كتبت «الظاهرية الجدد» أخذوا من الظاهرية حرفيتهم وجمودهم، ولم يأخذوا منهم سعة علمهم.

هؤلاء كثيرا ما أتعبوا الشيخ الغزالي بمجادلاتهم العقيمة، ومقولاتهم السطحية، وكثيرا ما ضاق بهم ذرعا، وأوسعهم نقدا، وسلط عليهم قلمه البليغ، يسخر من غبائهم، وفقههم الأعرج، الذي عبر عنه في بعض كتبه بأنه فقه بدوي!!

أتعب هؤلاء الشيخ عندما كان في قطر، وأتعبوه قبل ذلك عندما كان في مكة المكرمة بجامعة أم القرى، وأتعبوه بعد ذلك عندما ذهب إلى الجزائر، ليرأس المجلس العلمي لجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بمدينة قسنطينة.

ولا عجب أن وجه الشيخ جل جهده في سنينه الأخيرة لمطاردة هؤلاء، وكشف عوارهم، والتحذير من تدينهم المغلوط، ابتداء من شرح الأصول العشرين، ومرورا بكتاب «مشكلات في طريق الحياة الإسلامية» و«هموم داعية» و«علل وأدوية» و«الطريق من هنا» و«الحق المر» وغيرها.

كان الذي يقلق الشيخ، ويؤثر في نفسه، وإن لم يصرح بذلك: وحدته بعد وفاة زوجته وأم أبنائه وبناته. وكان يتمنى أن يوفق إلى امرأة مناسبة له، تؤنس وحشته، وتملأ عليه حياته، وتكون سندا له في أواخر عمره. ولكن القدر لم يحقق له ما يريد.

ومن المعروف: أن المرأة - بعد وفاة زوجها - يمكن أن تعيش وحدها بلا رجل. ولكن من الصعب على الرجل بعد وفاة زوجته أن يعيش وحده، فحاجة الرجل إلى المرأة أكثر من حاجة المرأة إلى الرجل، ولا سيما في حالة الكبر.

زيارة الأردن في شتاء سنة «١٩٨٢م»

وفي شتاء سنة ١٩٨٢م جاءتني دعوة من صديقنا الأستاذ كامل الشريف وزير الأوقاف الأردني، لإلقاء بعض المحاضرات بمناسبة المولد النبوي.

وكنت قد انقطعت عن الأردن بعد آخر زيارة لها في صيف سنة ١٩٦٦م، حين كان مصيفي في مدينة «الخليل» العريقة ذات العبق الإسلامي، والنفس الإسلامي، وقد تحدثت عنها في الجزء الثالث من هذه المذكرات، وكانت النية أن أعود إليها في السنوات القادمة لولا ما قدره الله عليها وعلى فلسطين وعلى الأمة من انتصار إسرائيل السريع في سنة ١٩٦٧، واستيلائها على الضفة والقدس والقطاع وسيناء والجولان، وكانت الهزيمة المخزية التي سموها «النكسة»!

كامل الشريف

لم أعد إلى الأردن من يومها، فكانت فرصة لتجديد الصلة بإخواننا هناك، وتجديد الصلة بأبي إسماعيل الأستاذ كامل الشريف، الذي بعد العهد به، فقد كان من الإخوان البارزين في مصر، الذين كان لهم دور في حرب فلسطين سنة ١٩٤٨م، وقيادة كتائب المتطوعين من الإخوان، وقد سجل ذلك في كتابه «الإخوان المسلمون في حرب فلسطين» وهو من أهم الكتب التي سجلت هذه المرحلة من خلال المعايشة في الميدان والوقائع اليومية، فهو شاهد عيان، وليس مجرد راو يحكي عن غيره، فهو وإخوانه ممن يصنعون التاريخ، وليسوا مجرد رواة لأحداثه.

كما كتب كتابا آخر «عن المقاومة السرية للإنجليز في قناة السويس» سجل فيه نضال الحركة الإسلامية والحركة الوطنية في مقاومتها للاحتلال البريطاني، وسقوط شهداء الجامعة من أمثال عمر شاهين والمنيسي وغانم والأعسر. رحمهم الله.

وقد أسقط عبد الناصر جنسية كامل الشريف المصرية مع أربعة آخرين من الإخوان «سعيد رمضان وعبد الحكيم عابدين وسعد الوليلي ونجيب جويفل» مع أحمد أبو الفتح، وكانوا وقتها في مهمة في سورية الشقيقة.

وكامل الشريف من عائلة «عريشية» تسكن مدينة العريش عاصمة شمال سيناء، ومدخل مصر من الشمال الشرقي، وقد زرتها في شهر رمضان لسنتين متتاليتين في سنة ١٩٥٧م، ١٩٥٨م مبعوثاً من وزارة الأوقاف، وعاشرت أهلها، فأحببتهم وأحبوني، وقد وجدت فيهم كرم العرب وشهامتهم، ولمست فيهم دماثة الخلق، وحب الخير، وعرفت عددا من آل الشريف وآل الرفاعي فيها، وأهل العريش يتميزون بأنهم همزة وصل بين أهل الوادي في مصر وأهل فلسطين والشام، فلهجتهم أشبه بلهجة رفح وخان يونس وغزة القريبة منهم.

لذلك لم يكن غريبا: أن يلجأ الأستاذ كامل الشريف - وقد سحبت منه الجنسية المصرية- إلى الأردن، وأن يجد عند الملك حسين والمسؤولين فيها ترحيبا وتكريما، وأن يعطوه الجنسية الأردنية بكل سهولة، دون تلكؤ، وأن يصبح مواطنا أردنياً تفتح أمامه كل الأبواب دون عائق.

إسقاط الجنسية جريمة

ورأيي أن إسقاط جنسية أي مواطن: جريمة منكرة، غير مبررة بحال، فالجنسية أمر يحمله الإنسان بمولده، كونك مصريا أو سوريا أو مغربيا، لا يحتاج إلى إثبات، كونك مولودا من آباء مصريين وأنك تعيش في مصر من عشرات أو مئات، وربما آلاف السنين، كيف يسحب هذا منك، لمجرد اختلافك مع الحاكم؟

ثم إني أرى أن البلاد الإسلامية -فضلا عن العربية- وطن واحد للمسلم، فإذا ضاق به بلد، ينبغي أن يتسع له آخر، كما قال تعالى «أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا» «النساء: ٩٧».



● الملك حسين

● الأمير محمد الفيصل آل سعود

كنت أحب الغزالي وأعتبره من ألسنة الصدق وأقلام الحق وسيوف الدعوة التي يذود الله بها عن دينه في مواجهة الكائدين للإسلام

كامل الشريف شخصية إسلامية واعية نشيطة متحركة، عمل سفيرا للأردن في عدد من البلاد الإسلامية، ولم يكن مجرد سفير للأردن، بل كان سفيرا للإسلام.

وهو لذلك قاسم مشترك في أكثر المنظمات الإسلامية العاملة في ساحة الدعوة والخير والإغاثة، فهو عضو في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي منذ تأسيس الرابطة، وعضو مجلس إدارة الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية، وهو الأمين العام للمجلس العالمي للدعوة والإغاثة، وعندما دعوت لتأسيس جمعية عالمية للإشراف على موقع إسلام أون لاين: كان هو من أبرز المدعوين، وكل عمل إسلامي عام لا يستغني عن الاستعانة بخبرة كامل الشريف وجهده.

استجبت لدعوة كامل الشريف لزيارة الأردن، وألقيت محاضرة في الاحتفال بالمولد النبوي عن واجبنا نحو محمد صلى الله عليه وسلم ونحو سيرته، كما ألقيت محاضرة في الكلية العلمية، وأجريت أكثر من حوار مع الصحف اليومية تحدثت فيها عن فكرة إنشاء صندوق عالمي للإغاثة والدعوة الإسلامية، ردا على دعاة التنصير الذين جمعوا ألف مليون دولار لتنصير مسلمي العالم.

حصار الثلج في طريق الجامعة

ثم دعيت إلى محاضرة في الجامعة الأردنية تحت إشراف كلية الشريعة بعنوان «الجيل الذي ننشده».

وقد صلينا الظهر، واتجهنا إلى القاعة التي تجمع فيها جم غفير من الطلاب والطالبات، وكان الجو ينذر بأن الثلج قد بدأ ينزل خفيفا في أول الأمر، ولكن بعض الاخوة - من خلال تجاربهم- توقع أن يتفاقم ويسد الطرق ويحدث مشكلة، ويحبسنا في الجامعة أو في الطريق، وقال هؤلاء الاخوة: لا بأس بإلغاء المحاضرة، أو تأجيلها ليوم آخر لهذه الضرورة، وقال آخرون: إن آلاف الطلاب والطالبات ينتظرون في القاعة منذ أكثر من ساعتين، فإذا فاجأناهم بإلغاء المحاضرة كانت صدمة!

ثم قالوا: نترك الأمر للشيخ! فقلت لهم: ماذا تصنعون أنتم في مثل هذه الطوارئ؟ قالوا: نؤدي واجباتنا الجامعية، حتى تنكشف الغمة؟

قلت: إذن يجري عليّ ما يجري عليكم.

وذهبت إلى المحاضرة، وانتهيت منها، وقد بدأ الثلج يشتد، وأسرعنا بركوب سياراتنا، وقد عبأها السائق بالبترول، وبادرنا بالخروج من الجامعة، وكان الطريق قد بدأ يتراكم عليه الثلج، ولا تستطيع السيارات أن تمشي فيه إلا ببطء شديد، وعلى مد البصر نرى السيارات، وقد صف بعضها وراء بعض، ولا تكاد تتحرك، ثم بعد مدة توقفت تماماً، وزاد الطين بلة: أن بعض السيارات التي تتوقف تعطل الطريق، ولا تجد وسيلة لتحريكها من الطريق، فمن الذي يمكن الوصول إليها؟

والجو يزداد برودة، والليل يقترب، والسيارات لا بد أن تستخدم التدفئة، لأن الجو الطبيعي لا يحتمل، وطول استخدام التدفئة يعني أن تظل السيارة شغالة، وهذا ما يستهلك بترولها، فيوشك أن ينفد بعد حين.

دخل الليل علينا، ونحن محبوسون في الطريق داخل السيارة، وليس من حولنا منازل أو مساكن يمكننا أن نلجأ إليها إذا نفد البترول، نحن مهددون بالخطر، كما أن غيرنا مهدد. من فضل الله علينا أن سائقنا ملأ خزان سيارته بالبترول، وهو يستخدمه بحكمة، يشغل السيارة حينا، ويطفئها حينا، تحسبا لكل احتمال.

والإذاعة تذيع باستمرار، تقول: الطريق الفلاني قد أغلق، فلا داعي للسيارات أن تبدأ السير فيه، فتنقطع في الطريق.

والأهالي يريدون أن يطمئنوا على أبنائهم وبناتهم في الجامعات، والجهات المسؤولة تطمئن الأهالي: أنهم بخير.

ووزارة الداخلية، وإدارة الدفاع المدني، وقيادة القوات المسلحة: تذيع على الناس أنها ستعمل اللازم لإنقاذ الموقف.

ولم ينقذ الموقف بالفعل إلا دخول الجيش بإمكاناته وقواته المادية والفنية، ومعها قوات الشرطة والدفاع المدني، وبدأ العمل بإزاحة الثلج من الطريق، وفسح المجال للسيارات المتوقفة منذ ساعات، وتنفسنا الصعداء، وقلنا: الحمد لله الذي أخرجنا من هذا المأزق.

وكنا مدعوين على الغداء عند وزير الأوقاف، وقد ظل القوم ينتظروننا على الغداء حتى يئسوا، فتناولوا غداءهم، وقد فاتنا الغداء، ثم قلنا سنعوضه في العشاء، لكن لم نصل إلا قرب الساعة العاشرة مساء. ففاتنا الغداء والعشاء معا.

كنت أحسب أن نزول الثلج، وكأنه بلاء أنزله الله بالناس يستعاذ بالله منه، ولكني في صباح اليوم التالي رأيت الناس يحدثوننا عن نعمة الله عليهم بنزول الثلج، وأنه مطهر للأرض من الحشرات، وزيادة مخزون المياه، وأن من فوائده كذا وكذا.. ورأيت الأطفال يصنعون من الثلج عرائس وأشكالا يلعبون بها، ويتخذون منه كرات صغيرة يقذف بها بعضهم بعضا، والفرحة على وجوه الجميع، وهنا قلت: مصائب قوم عند قوم فوائد، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم.

رحلة إلى نيجيريا

في ٢٩ ربيع الثاني ١٤٠٣ هـ الموافق ١٩٨٢/٢/١٢م دعانا الأمير محمد الفيصل آل سعود، رئيس مجلس إدارة بنك فيصل الإسلامي المصري والسوداني، ورئيس مجلس مشرفي دار المال الإسلامي، إلى أن نصحبه في رحلة بطائرة خاصة إلى نيجيريا في إفريقيا السوداء، وكان بصحبته عدد غير قليل من أعضاء مجالس الإدارات والمشرفين، وأعضاء هيئة الرقابة الشرعية.

وقد أوصى الأمير بوجوب الاتصال بي، وإقناعي بضرورة الحضور والمشاركة في هذه الرحلة، والتغلب على كل المعوقات.

والحقيقة أنني كنت حريصا على المشاركة في هذه الرحلة، فرغم أسفاري المتواصلة إلى أنحاء العالم لم تأخذ إفريقيا السوداء حقها مني، كما ينبغي، وليس ذلك عن قصد أو تعمد مني، لذلك حين وجدت هذه الفرصة لم يسعني أن أغيب عنها.

وكان تجمعنا في مدينة جدة، لنأخذ منها الطائرة الخاصة، وهي طائرة كبيرة، لا أدري أكانت معارة أم مستأجرة. وكان معنا الأخ الإعلامي الكبير الأستاذ أحمد فراج، الأمين العام لاتحاد الإذاعات الإسلامية، والدكتور عمر عبد الرحمن عزام، والأستاذ محفوظ عزام، والشيخ محمد خاطر، والأخ نبيل عبد الإله نصيف، وكثيرون لم أعد أذكرهم.

المبيت في أديس أبابا

وبعد عدة ساعات وصلت الطائرة إلى مطار أديس أبابا عاصمة اثيوبيا، أو كما نسميها نحن: الحبشة، وحطت بنا الطائرة لنبيت بها، وهي أول مرة أزور فيها اثيوبيا، وكان يحكمها النظام الماركسي، ولذا كانت تماثيل لينين وماركس وغيرهما منصوبة في الشوارع.

وقد وجدنا في أديس أبابا مناطق يبدو عليها أنها تعيش إلى حد ما في هذا العصر، ومناطق أخرى لا ترى فيها غير الفقر والمرض والجهل والأمية وكل مظاهر التخلف. وكأنما هي من بقايا القرون القديمة. وقلت للإخوة: نريد أن نذهب إلى أحد المساجد الجامعة هنا لنصلي معهم العشاء، فدلونا على الجامع الكبير في اثيوبيا، وهو من أقدم الجوامع، وحين دخلنا، وجدنا الناس يقرأون القرآن في حلقات، عاكفين عليها. حتى جاء وقت العشاء، وأذن المؤذن، واصطف الناس للصلاة، ولما رآني الناس أقبلوا علي، وطلبوا مني أن ألقي عليهم كلمة بعد الصلاة، وهم لا يعرفون عني إلا أني من علماء الأزهر، وأني ضيف على المدينة. وبعضهم عرفني، فبدأ يقول لزملائه: هذا فلان، مؤلف كتاب «الحلال والحرام» و«فقه الزكاة» وكذا وكذا.

وبعد الصلاة ألقيت فيهم كلمة توجيهية عامة، أذكر منها: أني قلت لهم: إن بلدكم هو أول بلد دخله الإسلام في إفريقيا، قبل مصر وغيرها، وهو المهجر الأول للمسلمين قبل الهجرة إلى المدينة، وهو بلد النجاشي الذي شرفه الله بالإسلام، ومات عليه، وصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو بالمدينة، وأخذ منه مشروعية الصلاة على الغائب، وبعد كلمتي جاءني بعض الشباب، وقالوا: إن هنا جيلا من الشباب تتلمذ على كتبك، ونحن منهم، وليت عندك فرصة للبقاء بعد هذه الليلة فنجمع عددا منهم ليلتقوا بك غدا. قلت: إني أتمنى ذلك ويسعدني، ولكني مرتبط بمجموعة ولا أستطيع التأخر عنهم.

وبعد أن تناولنا الغداء في اليوم التالي في أديس أبابا، استقللنا طائرتنا لنكمل المشوار إلى جمهورية نيجيريا.

وكنا في فصل الشتاء، ولما رآني الإخوة في جدة متدرعا بالصوف، قالوا: هل أحضرت معك بعض الملابس البيضاء؟ قلت: لا. قالوا: إن الجو في نيجيريا حار، ولا بد أن تصحب معك بعض الملابس الصيفية، وإلا فلن تطيق لبس شيء من ملابس الشتاء هناك. وأذكر أن بعض الإخوة أهداني جلبابين من عنده، إذ لم يكن هناك وقت لشراء القماش وتفصيله. وهاتان الدشداشتان هما اللتان نفعتاني طوال المدة التي أقمناها في نيجيريا.

نزلنا في مدينة «كانو» وهي عاصمة ولاية إسلامية معروفة، وكان نزولنا في فندق هو من أحسن فنادقها، ولكنه على قدر حاله: متواضع في كل شيء: في فراشه، في مأكله، في مشربه، في خدماته.

وكانوا يحذروننا من أكل أي شيء دون غسله تماما، أو الاطمئنان إلى طهيه، حتى لا نصاب بالأمراض المنتشرة في تلك البلاد، والواقع أني عشت تلك الأيام متقشفا، أقنع بالقليل، وآخذ بالمثل القائل: القناعة كنز لا يفنى.

وما كنا نشبع إلا إذا عزمنا بعضهم يوما على طعام في بيته، ونادرا ما حدث هذا مثل دعوة السيد إبراهيم الطيب الريح، وهو سوداني الأصل من التجار الكبار، الذين يقيمون في نيجيريا من مدة طويلة، وله فيها أعمال كثيرة وشبكة من العلاقات.

حاولت أن أتعرف على نيجيريا من خلال لقائي ببعض الشباب الذي درس في الأزهر وغيره من البلاد العربية، أو الذي درس في المدارس العربية المحلية، ومنهم من وصلتهم كتبي وقرأها، على الرغم من أن الصلة تكاد تكون منقطعة بين بلاد العرب وبين هذه البلاد، وهذه مشكلة تحتاج إلى حل. فحدثوني عن كثير من أوضاعهم الداخلية، وخصوصا ما يتعلق بالدين.

ونيجيريا تعتبر أكبر دولة في إفريقيا، وأغلبية سكانها مسلمون، ولذا ركزت الصليبية الغربية عليها، وتداعت عليها حملات التنصير المدعومة بالمال الغربي، والعلم الغربي، والمكر الغربي، وقد كان الاستعمار والتنصير على تفاهم تام وتعاون مطلق في الغزو الديني لبلاد المسلمين. حتى سماه بعضهم: الاستعمار التنصيري، كما سمى التنصير: التنصير الاستعماري.

وقد رأيت التنصير في نيجيريا -كما وجدته في إندونيسيا من قبل- ينجح بالفعل في تنصير بعض المسلمين، فينتقل من محمد وأحمد وعلي وحسن، إلى جورج وجون وشارل، ونحوها. وهو ما لا يطمع فيه التنصير في البلاد العربية. ولهذا يكتفي فيها بزعزعة ثقة المسلم بالإسلام، وإن لم يدخل في النصرانية.

رأينا بعض المحلات تحمل أسماء أولها نصراني وآخرها مسلم، حتى إن أحد الجنرالات النصارى الذين حكموا نيجيريا عسكريا في بعض الأوقات، كان من قبيلة مسلمة.

وقد وجدت إندونيسيا ونيجيريا تتشابهان في أمور كثيرة.

١- فكل منهما أكبر بلد في قارته بلا منازع: إندونيسيا في آسيا، ونيجيريا في إفريقيا.

٢- وكل منهما أغلبيته مسلمة، فهو جزء من العالم الإسلامي.

٣- وكلاهما بلد بترولي، فيه ثروات مذخورة لم تستغل تماما.

٤- وسكان البلدين يعانون الفقر والمرض والتخلف، مع وجود الثروة.

٥- وكلا البلدين يركز عليه التنصير، ويكثف جهوده لتغيير هويته، حتى يفقد طابعه الإسلامي، حتى إن المنصرين كانوا في وقت ما، وضعوا خطة لتنصير إندونيسيا في خمسين عاما!

٦- وكلاهما نجح التنصير فيه إلى حد ما، حتى إن بعض الناس ليكون اسمه شارل جون محمد أو أحمد، على معنى أن جده مسلم.

٧- وكلا البلدين، شجعت الصليبية فيه: انتشار الشيوعية، وهي معادية للغرب، ولكن إذا خير الغرب بين الشيوعية والإسلام، سيقف في صف الشيوعية. ولذا كان في إندونيسيا أكبر حزب شيوعي في آسيا، وكان في نيجيريا حزب شيوعي من أكبر الأحزاب في إفريقيا.

وقد حاولت القوى الصليبية فصل شرق نيجيريا عن بقيتها، في وقت من الأوقات، لتجزئة هذا البلد الكبير، كما هي سياسة الاستعمار الصليبي دائما: التجزئة والتفريق.



السادات اتهم الشيخ الغزالي على الملأ بأنه مثير فتنة وداعية طائفية وهي تهمة كاذبة تنادي على نفسها بالبطلان

إسقاط جنسية أي مواطن جريمة منكرة غير مبررة بحال..

فالجنسية أمر يحمله الإنسان بمولده لا يحتاج إلى إثبات





● الشيخ الغزالي

● كامل الشريف



ابن القرية والكُتّاب

ملامح سيرة ومسيرة (الجزء الرابع)

مذكرات فضيلة العلامة د. يوسف القرضاوي كما كتبها لـ الوطن بخط يده (١١)

تنفرد الوطن بنشر الجزء الرابع من مذكرات العلامة د.يوسف القرضاوي: ملامح سيرة ومسيرة (ابن القرية والكتاب)، وهو يشمل بضعة عشر عاما (حوالي ١٨) من هذه السيرة والمسيرة: وهي سنوات حافلة بالأحداث على المستوى الشخصي في حياة الشيخ المحلي والعربي والإسلامي والعالمي، على المستوى الشخصي يفصح فضيلته لأول مرة عن قصة زواجه الثاني وكيف تطور من عاطفة صادقة إلى زواج على سنة الله ورسوله. كما يتحدث عن تخرج كل أبنائه وتزوج كل بناته. وتعيينه عميدا لكلية الشريعة ومديرا لمركز بحوث السنة والسيرة. ونجاحه في الدعوة إلى تأسيس الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية بالكويت. وعمله رئيسا لهيئة الرقابة الشرعية لعدد من المصارف الإسلامية. واختياره عضوا في المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي، وعضوا في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن (مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي) وعضو مجلس أمناء مركز اكسفورد للدراسات الإسلامية، وعضو مجلس أمناء منظمة الدعوة الإسلامية بالخرطوم، وغيرها. وحصوله في هذه الفترة على بعض الجوائز العالمية.

ومن خلال هذه المذكرات سيمر القارئ بمعظم أحداث العصر في منطقتنا العربية والإسلامية، بحكم أن صاحبها يعيش في قلب هذه المنطقة، وقلب هذه الأحداث، وقد قدر له في هذه المرحلة أن يتفاعل بها ومعها متأثرا ومؤثرا.

وتتميز هذه السنوات بأمرين لهما أهمية قصوى في حياة القرضاوي:

الأول: الانتشار الكبير له في أنحاء العالم في الشرق والغرب، وزيارة كل قارات العالم حتى أستراليا، وأميركا الجنوبية، حتى سماه البعض «الشيخ الطائر».

والثاني: ظهور المد الإسلامي أو الصحوة الإسلامية بقوة في تلك المرحلة، والتى يعتبرها الشيخ جزءا منه، كأنما هي ولده وفلذة كبده. وسنتابع نشر المذكرات يوميا بما فيها من تفاصيل يرويها القرضاوي لأول مرة.

علمت بمقتل السادات في الحج يومها انقلب العرس إلى مأتم وتحولت ذكرى الانتصار إلى حداد

وفي أيامنا القليلة التي بقيناها في «كانو» في نيجيريا قمنا ببعض الأنشطة على قدر ما سمح به الوقت والظرف الذي يحيط بنا.

فقد ألقيت محاضرة في جامعة «أحمدوبللو» وهي تحمل اسم الزعيم المسلم الشهير، الذي ربط نيجيريا بالعالم العربي والإسلامي، وكان رمزا للإسلام الحي المتحرك، ولذلك قتلوه، كما قتلوا كل زعيم يتحرك باسم الإسلام: مثل حسن البنا، وعبد القادر عودة وسيد قطب ومالكولم إكس وعدنان مندريس وفيصل بن عبد العزيز وغيرهم.

كما ألقيت خطبة الجمعة في أحد مساجدهم، وترجم أحدهم خلاصتها، ولا أدري: أسجلت هذه الخطبة أم لا؟ أكبر ظني أنها سجلت، ولكن أين ذهب هذا التسجيل؟

وبعد الخطبة دعانا منشئ هذا المسجد إلى الغداء في منزله، واسمه على ما أذكر: محمد الخامس، فقد كان أبوه -واسمه إسحاق على ما أذكر- يسمي كل أبنائه محمدا: محمد الأول، ومحمد الثاني، إلى هذا «محمد الخامس».

وقد كان أمير المنطقة وسلطانها -وهو غير المحافظ والوالي الرسمي- قد أقام احتفالا شعبيا كبيرا - على الطريقة الإفريقية - طاف بالمدينة، ابتهاجا بالأمير محمد الفيصل ورفاقه من العلماء والدعاة والاقتصاديين.

وفي هذه الفترة، ذهب الأمير محمد، ومعه وفد من رفاقه للقاء رئيس الجمهورية، وذلك في مدينة لاجوس وكانت لا تزال هي العاصمة، قبل أن تنتقل إلى أبوجا. وكنت ضمن الوفد، وكان لقاء وديا، رحب الرئيس النيجيري فيه بالأمير ورفاقه، وقدر له مسيرته في قيادة العمل المصرفي الإسلامي، وقد أهدى له الأمير محمد سيفا من السيوف العربية. وأهداه الرئيس رأسا ذا قرنين كبيرين، من حيوانات إفريقيا الشهيرة.

وأراد الأمير أن يكون لنا إسهام في عمل خيري، يستفيد به أبناء نيجيريا، ففتح الباب للمتبرعين، وكان معنا بعض رجال البر الذين تبرعوا بمبالغ كبيرة، وقد قالوا لي: نعفيك أنت والشيخ خاطر من المساهمة في هذا المشروع. وقلت لهم: لا والله، أشارك فيه بما أستطيع. وشاركت فيه بألفي دولار، سلمتها لهم بعد عودتي. ولا أعلم بعد ذلك: أنجح المشروع أم لا.

الحج سنة ١٤٠١ «١٩٨١» ومقتل السادات

وفي موسم حج سنة ١٤٠١هـ «١٩٨١م» دعيت لموسم الحج من رابطة العالم الإسلامي، فلبيت الدعوة شاكرا، واصطحبت معي زوجتي أم محمد، وبنتيّ إلهاما وسهاما، بعد أن حصلتا على البكالوريوس بامتياز، وعينتا معيدتين في كلية العلوم بجامعة قطر، رأيت أن أكافئهما على تفوقهما، بأن أتيح لهما أداء فريضة الحج هذا العام، فتنعما بالتيسيرات التي تقدمها لنا الرابطة بما لديها من إمكانات.

وهيأت لنا الرابطة: حجرتين في مبناها المعروف بمنى: حجرة لي ولزوجتي، وحجرة لابنتيّ.

وقد كنا نوينا العمرة، ونحن في الطائرة، وإن كنت أجيز أن نؤخر لبس ملابس الإحرام بعد نزول جدة، كما هو رأي العلامة الشيخ عبد الله بن زيد المحمود رئيس المحاكم الشرعية في قطر، الذي كتب رسالة بديعة في ذلك، أيدته فيها برسالة تقريظ بعثت بها إليه، ولكني لم أجد مشقة في الإحرام من الطائرة، كما أن زوجتي وابنتيّ لم يجدن أي مشقة في ذلك، كما هو شأن النساء في الإحرام، فليس عليهن أن يغيرن ثيابهن. فإحرامهن في الطائرة لا مشقة فيه.

كانت نيتنا: التمتع بالعمرة إلى الحج، فبعد أن أدينا مناسك العمرة تحللنا، وقصرنا، والسنة لمن تمتع أن يقصّر بعد العمرة، وإذا أراد حلق الرأس فليؤخره إلى الحج، أما المرأة فليس لها إلا التقصير، إذ الحلق ليس من شأنها، وهو يكره لها، وربما حرم.

بقينا بعد العمرة عدة أيام في مبنى الرابطة بمنى، نصلي فيها الصلوات الخمس، وهم يؤدونها جماعة في الرابطة، ومعلوم أن منى من الحرم، فالصلاة فيها كالصلاة في الحرم، ومع هذا قد هيأوا لنا السيارات لمن يريد أن يصلي في الحرم.

وفي يوم التروية - الثامن من ذي الحجة - أحرمنا بالحج من حيث نقيم في منى، كما علمتنا السنة النبوية، وحين يحرم الإنسان للحج يشعر أنه قد انتقل من حالة إلى حالة. إن مجرد النية والتلبية «لبيك اللهم حجا» يدخل الإنسان في حالة روحانية، تجعله يحلق في أجواء عالية من الربانية، ذاكرا الله بقلبه ولسانه، مستحضرا الآخرة بين عينيه، مستغفرا لربه من كل ذنب وقع فيه، مرطبا لسانه بالدعاء إلى الله تعالى لنفسه ولأهله ولمن يحب وللمؤمنين والمؤمنات، بل هو يسأل الله الهداية والنور والسلام للناس جميعا.

مقتل السادات

وفي يوم التروية، وبعد صلاة العصر على ما أذكر، نزلت مع العائلة، نمشي في طرقات منى، لا أذكر: إلى أي مكان كنا ذاهبين؟ وفي أثناء سيرنا أحسسنا بهرج ومرج وحركة غير عادية، وكلام بين الناس بعضهم وبعض، مما يوحي بأن حدثا غير عادي قد وقع، فسألنا: ماذا حدث؟! فقالوا: أطلق الرصاص على السادات وهو على المنصة، وقد نقل إلى المستشفى، ولا نعرف تفاصيل حتى الآن.

أسرعنا بالعودة إلى مبنى الرابطة، لنتابع الأمر من خلال التلفاز والمذياع. فالحدث خطير، ولا بد من تتبعه والإحاطة بتفاصيله، وما يجد فيه أولا بأول.

ثم بدأت بعد ذلك إذاعة القاهرة، وصوت العرب، ومحطة تليفزيون القاهرة: تذيع النبأ على الناس، وخصوصا بعد أن نقل السادات إلى المستشفى وعرف أنه فارق الحياة.

وعرف من التفاصيل ما حدث في العرض العسكري، وتوقف بعض السيارات المشاركة في العرض أمام المنصة، وقد نزل منها ضباط وجنود يحملون الرشاشات ويتجهون إلى المنصة، قاصدين الرئيس السادات بالذات، حتى قيل: إنهم وجدوا نائب الرئيس في ذلك الوقت حسني مبارك، فلم يمسوه بسوء، وقالوا: لا حاجة لنا فيك! وأنهوا مهمتهم بسرعة، ولم يغن الحراس شيئا: لا حراس الجيش، ولا حراس المخابرات، ولا حراس الداخلية، ولا الحرس الخاص. كل هؤلاء ارتبكوا وعجزوا. ونفذ الشاب المكلف بالمهمة - وقد عرف فيما بعد أن اسمه: «خالد الاسلامبولي» - ما هدف إليه. وكان يمكنه ومن معه أن يقتلوا عددا أكبر ممن على المنصة، لو أرادوا، ولكنهم كانوا مكلفين بمهمة محددة، هي التخلص من الرئيس السادات، فقاموا بها، واقتصروا عليها.

في هذا اليوم الذي تلهج فيه ألسنة المحرمين بالحج بالإكثار من التلبية والتهليل والتكبير والتحميد والتسبيح والاستغفار: أمسى شغل الناس الشاغل: الحديث عن المقتل المروع وما جرى فيه، وكيف انقلب العرس إلى مأتم، وتحولت ذكرى الانتصار إلى حداد؟!

بين الحياة والموت

يا الله! كم بين الحياة والموت؟ إن الناس يتخيلون بينهم وبين الموت مسافات ومسافات، تبعد وتقرب، وتطول وتقصر، بمقدار طول أملهم في الحياة وقصره. وكلما غرق الإنسان في لجج الحياة الدنيا وزخرفها، أو كلما غرته الأماني أو غره بالله الغرور، أو أطغاه المال أو السلطان: رأى الموت بعيدا عنه، ونظر إلى نفسه كأنه مخلد في الدنيا، حتى تفاجئه الحقيقة المذهلة: أن الموت أصدق غائب ينتظر، وأنه أقرب إلى الإنسان من لمح البصر، كما قال الشاعر:

كل امرئ مصبح في أهله
والموت أدنى من شراك نعله!

وكما قال تعالى «وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ» (النحل: ٧٧).

روى البخاري عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل، وعد نفسك من أهل القبور». وكان ابن عمر يقول: إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وخذ من دنياك لآخرتك، ومن حياتك لموتك.

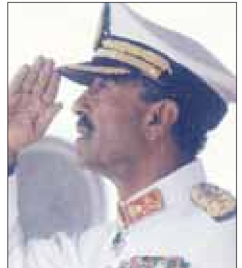
كلمة حول فقه العنف

لقد أثار مقتل الرئيس السادات على يد واحد من رجال إحدى «جماعات العنف» الإسلامية ورفقائه: جدلا ونقاشا واسعا حول فكر هذه الجماعات الديني، وفقهها الذي تستند إليها في عملياتها ضد الحكومات، وضد السياح وغيرهم.

ومن الناس من رفض مناقشتهم، على اعتبار أنهم ليس لهم منطق إلا القوة، وليس لهم منطلق شرعي أو أخلاقي أو قانوني يعتمدون عليه.

والواقع أن هذا تبسيط مخل بحقيقة القضية، فالقوم - أيا كان انتماؤهم - لهم فقه مزعوم، يستندون إليه، ويدعمونه بالآيات من القرآن الكريم، وبالأحاديث من السنة النبوية، ومن أقوال العلماء من المذاهب المتبوعة ومن خراجها.

ولا بد لكل من يريد إقناعهم، أو ردهم عن أفكارهم: أن يناقشهم في مفاهيمهم التي تبنوها، ومبادئهم التي آمنوا بها، وأدلتهم التي يسوقونها حجة لهم في تبرير ما صنعوا.



● أنور السادات

● الشيخ عبد الله بن زيد المحمود

أجيز تأخير لبس ملابس الإحرام بعد النزول في جدة كما هو رأي العلامة الشيخ عبد الله بن زيد المحمود رئيس المحاكم الشرعية

وهم ليسوا جماعة واحدة، بل هم أكثر من جماعة، يختلفون في طرائقهم، وبعض أفكارهم، ولكنهم جميعا يتخذون من العنف «أي القوة العسكرية» طريقا لتحقيق الأهداف.

فهناك «جماعة المسلمين» وهي التي عرفت عند الناس بـ «جماعة التكفير والهجرة» وهي تكفّر الناس بالجملة، تكفّر الأفراد، وتكفر المجتمعات، تكفر الحكام، لأنهم لم يحكموا بما أنزل الله، وتكفر المحكومين، لأنهم رضوا بهؤلاء الحكام ولم يكفروهم، وتكفّر العلماء، لأنهم لم يكفروا الفريقين.

وهم يبدؤون بالتكفير، وينتهون بالقتل والتفجير، فما دام الشخص كافرا، فهو يستحق القتل ودمه مباح، إذ الكفر وحده يبيح الدم.

وهؤلاء هم الذين استباحوا دم الشيخ الذهبي رحمه الله، سواء كانوا هم الذين قتلوه، كما تقول الحكومة أم غيرهم هو الذي قتله، فهم أعلنوا سعادتهم بقتله!

وهناك الجماعات التي أطلقت على نفسها: اسم «جماعة الجهاد». وقد بدأت - على ما أعلم - في «مصر» وانتقلت إلى غيرها من البلدان مثل «الجزائر» وغيرها.

وصنوهم «الجماعة الإسلامية» التي نشأت في مصر، بزعامة العالم الأزهري الضرير الشيخ عمر عبد الرحمن المسجون في أميركا، فرج الله عنه.

وهناك «السلفية الجهادية» التي ظهرت في عدد من الأقطار العربية والإسلامية، مثل: المغرب والجزائر، والسعودية، وغيرها.

ومن المعلوم: أن السلفية توصف بالتشدد في مجال العقيدة، ولاسيما ما يتعلق بالتوحيد والشرك، في مواجهة القبوريين ومقدسي الأولياء، وكذلك ما يتعلق بآيات الصفات وأحاديث الصفات، وموقفهم ضد الأشاعرة والماتريدية وغيرهم، وكثيرا ما يغلب عليهم الحرفية والجمود في مجال الفقه والاستنباط.

فإذا أضيف إلى هذا التشدد والحرفية والجمود: الجانب العسكري، أو جانب القوة والعنف، أصبحت هذه السلفية تمثل خطرا مزدوجا. خطرا فكريا، وخطرا عمليا.

فكر الخوارج

وإذا أردنا أن نعيد الأمور إلى جذورها في شأن هذه الجماعات كلها: رددناها جميعا إلى فكر «الخوارج الغلاة» الذين عُرفوا بطول عبادتهم لله، وكثرة صيامهم وقيامهم وتلاوتهم، فهم صوّام قوام عبّاد قرّاء للقرآن. ولكنهم يستحلون دماء من سواهم من المسلمين، اعتمادا على متشابهات من النصوص، تاركين المحكمات من كتاب الله وسنة رسوله. فآفتهم ليست في ضمائرهم أو قلوبهم، ولكن آفتهم في رؤوسهم وأفهامهم.

ومن هنا وصفتهم الأحاديث النبوية الصحاح بقولها «يحقر أحدكم صلاته إلى صلاتهم، وقراءته إلى قراءتهم، وصيامه إلى صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية». حتى رأيناهم استباحوا دم ابن الإسلام البكر، زوج فاطمة البتول، وابن عم الرسول، وسيف الإسلام المسلول: علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وتقربوا إلى الله بقتله، ومدح شاعرهم قاتله بقوله:

يا ضربة من تقي ما أراد بها
إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا
إني لأذكره يوما فأحسبه
أوفى البرية عند الله ميزانا!

وأخيرا هناك «تنظيم القاعدة» وهو يضم عناصر متنوعة الجذور، مستمدة من تلك الجماعات كلها، وانصهرت في بوتقة القاعدة، والتزمت بخطها، وبالعمل تحت قيادتها.

إن فقه جماعات العنف، يقوم على أن الحكومات المعاصرة: حكومات كافرة، لأنها لم تحكم بما أنزل الله، واستبدلت بشريعته المنزلة من الخالق: القوانين التي وضعها المخلوق، «وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ» (المائدة: ٤٤)، وبهذا: وجب الحكم عليهم بالكفر والردة، والخروج من الملة، ووجب قتاله حتى يدعون السلطة لغيرهم. إذ كفروا كفراً بواحاً عندنا فيه من الله برهان.

ويؤكد فقه هذه الجماعات: كفر هذه الأنظمة الحاكمة بأمر آخر، وهو: أنها توالي أعداء الله من الكفار، الذين يكيدون للمسلمين، وتعادي أولياء الله من دعاة الإسلام، الذين ينادون بتحكيم شرع الله تعالى، وتضطهدهم وتؤذيهم. والله تعالى يقول «وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» (المائدة: ٥١).

والحكومات المعاصرة: تعارض هذه التهم بدعاوى مختلفة، منها: أنها تعلن أن دينها الرسمي هو الإسلام، وأنهم ينشئون المساجد لإقامة الصلاة، ويعينون الأئمة والخطباء والمؤذنين، ويؤسسون المعاهد الدينية، والكليات الشرعية، ويوظفون الوعاظ ومدرسي الدين في المدارس وغيرها، ويحتفلون برمضان وعيدي الفطر والأضحى، ويذيعون تلاوة القرآن في الإذاعات والتلفازات، إلى غير ذلك: من المظاهر الدينية، التي تثبت إسلامية الدولة بوجه من الوجوه.

كما أن بعض دساتير هذه البلاد يعلن: أن الشريعة مصدر أو المصدر الرئيسي للتقنين. وبعضها: يعتذر بضعفه أمام قوى الضغط الغربي، وبعضها وبعضها.

فتوى الإمام ابن تيمية

تعتمد جماعات العنف: على فتوى الإمام ابن تيمية - في قتال كل فئة تمتنع عن أداء شريعة ظاهرة متواترة من شرائع الإسلام - كالصلاة أو الزكاة، أو الحكم بما أنزل الله: في الدماء والأموال والأعراض، أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى آخره. وهو ما اعتمد عليه كتاب «الفريضة الغائبة» لجماعة الجهاد، وجعل هذه الفتوى: الأساس النظري لقيام جماعته، وتسويغ أعمالها كلها.

ويستدلون هنا: بقتال أبي بكر ومن معه من الصحابة - رضي الله عنهم - لمانعي الزكاة.

فكيف بمن يمتنعون عن تطبيق أكثر أحكام الشريعة، برغم مطالبة جماهير الناس بها، وخصوصاً العلماء والدعاة، بل هم أشد الناس خصومة لهؤلاء، وتضييقاً عليهم، ومعاداة لهم؟!

ونسي هؤلاء أن الذي يقاتل هذه الفئة المتنعة ولي الأمر، وليس عموم الناس، وإلا أصبح الأمر فوضى!

وتعتمد جماعات العنف أيضاً: على أن هذه الأنظمة غير شرعية، لأنها لم تقم على أساس شرعي من اختيار جماهير الناس لها، أو اختيار أهل الحل والعقد، وبيعة عموم الناس، فهي تفتقد الرضا العام، الذي هو أساس الشرعية، وإنما قامت على أسنة الرماح بالتغلب والسيف والعنف، وما قام بقوة السيف: يجب أن يقاوم بسيف القوة، ولا يمكن أن يقاوم السيف بالقلم!

ونسي هؤلاء ما قاله فقهاؤنا من قديم: أن التغلب هو إحدى طرائق الوصول إلى السلطة، إذا استقرّ له الوضع، ودان له الناس.

وهذا ما فعله عبد الملك بن مروان، بعد انتصاره على ابن الزبير - رضي الله عنهما - وقد أقره الناس، ومنهم بعض الصحابة: مثل ابن عمر وأنس وغيرهما، حقناً للدماء، ومنعاً للفتنة، وقد قيل: سلطان غشوم، خير من فتنة تدوم. وهذا من واقعية الفقه الإسلامي، ورعايته لتغير الظروف.

وترى جماعات العنف كذلك: أن هذه المنكرات الظاهرة السافرة - التي تبيحها هذه الحكومات -: من الخمر، والميسر، والزنا، والربا والخلاعة والمجون، في وسائل الإعلام، وسائر المحظورات الشرعية: يجب أن تغير بالقوة لمن يملك القوة، وهي ترى أنها تملكها، فلا يسقط الوجوب عنها إلى التغيير باللسان بدل اليد، كما في الحديث الشهير «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه».

ويغفل هؤلاء: الضوابط والشروط اللازمة لتغيير المنكر بالقوة، التي قررها العلماء. ومنها: ألا يترتب على تغيير المنكر منكر أشد منه.

وبعض هذه الجماعات تنظر إلى المجتمع كله: أنه يأخذ حكم هذه الأنظمة التي والاها ورضى بها، وسكت عنها، ولم يحكم بكفرها، والقاعدة التي يزعمونها: أن من لم يكفر الكافر فهو كافر!

وبهذا توسعوا وغلوا في «التكفير»، وكفروا الناس بالجملة.

وعلى هذا: لا يبالون من يُقتل من هؤلاء المدنيين، الذين لا ناقة لهم في الحكومة ولا جمل: لأنهم كفروا فحلت دماؤهم وأموالهم.

كما يرون بالنظر إلى الأقليات غير المسلمة: أنهم نقضوا العهد، بعدم أدائهم للجزية، وبتأييدهم لأولئك الحكام المرتدين، وأنظمتهم الوضعية، ولرفضهم للشريعة الإسلامية. وبهذا لم يعد لهم في أعناق المسلمين عهد ولا ذمة، وحل دمهم ومالهم. وبهذا استحلوا سرقة محلات الذهب: من الأقباط في مصر، كما استحلوا سرقة بعض المسلمين أيضاً. وغفل هؤلاء عن اجتهادات فقهاء المسلمين في عصرنا، وأنهم أصبحوا «مواطنين» لهم حقوق المواطنة، لأنهم من أهل دار الإسلام بإجماع الفقهاء. وكلمة «من أهل الدار» تقابل كلمة «مواطن».

وهم يرون أن السياح وأمثالهم، الذين يدخلون بلاد المسلمين بتأشيرات رسمية، وترخيصات قانونية، والذين يعدّهم الفقهاء «مستأمنين» ولو كانت دولهم محاربة للمسلمين، يرون هؤلاء مستباحي الدم، لأنهم لم يأخذوا الإذن من دولة شرعية، ولأن بلادهم نفسها: محاربة للإسلام، فلا عهد بينهم وبين المسلمين. والواجب: أن يقاتل هؤلاء ويقتلوا، فلا عصمة لدمائهم وأموالهم!! وجهل هؤلاء أن أي مسلم - ولو كان امرأة - يعطيهم الأمان، فإن أمانه نافذ، والمدار على ما يعتبرونه هم أمانا.

وكذلك يقول هؤلاء عن الدول الغربية - التي يقيم بعض هؤلاء فيها- وقد أعطتهم: حق الأمان، أو حق اللجوء السياسي: لمن طردوا من بلادهم الأصلية، فآوتهم هذه الدول من تشرد، وأطعمتهم من جوع، وآمنتهم من خوف.

يقول هؤلاء بكل جرأة وتبجح: إن هذه الدول كلها كافرة، محاربة للإسلام وأمته، ويجب أن نقاتلهم جميعاً حتى يُسلموا فَيَسْلَموا، أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون. ولما سئل بعضهم عن إقامته في هذه البلاد، قال: إنها كدورة المياه، نستخدمها للضرورة رغم نجاستها.

وهؤلاء الكفار: دماؤهم حلال للمسلمين، بنصوص الدين.

ويذكرون هنا آيات وأحاديث: يضعونها في غير موضعها، فإذا واجهتهم بغيرها: من الآيات والأحاديث، التي هي أكثر منها وأظهر وأصرح، قالوا لك: هذه نسختها آية السيف!

هذا هو فقه جماعات العنف باختصار، الذي على أساسه ارتكبوا ما ارتكبوا من مجازر تشيب لهولها الولدان، وتقشعر من بشاعتها الأبدان: ضد مواطنيهم من مسلمين وغير مسلمين، وضد السياح وغيرهم من الأجانب المسالمين.

وهو بلا ريب: فقه أعوج، وفهم أعرج، يعتوره الخلل والخطل، من كل جانب:

أ: خلل في فقه التكفير.

ب: وخلل في فقه الجهاد.

جـ: وخلل في فقه الخروج على الحكام.

د: وخلل في فقه تغيير المنكر بالقوة.

ويحتاج من فقهاء الأمة إلى وقفة علمية متأنية، لمناقشتهم في أفكارهم هذه، والرد عليهم فيما أخطأوا فيه، في ضوء الأدلة الشرعية من القرآن والسنة وإجماع الأمة، في إطار مقاصد الشريعة الكلية، ومبادئ الإسلام العامة.

وقد ناقشنا هذه الجماعات وفقهها في أكثر من كتاب لنا، وخصوصا كتاب «الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد» فصل «من العنف والنقمة إلى الرفق والرحمة».

كما أصلنا القضية وفصلناها وأعطيناها حقها من المناقشة والمقارنة في كتابنا الكبير - تحت الطبع - «فقه الجهاد».

الموت أصدق غائب ينتظر وأنه أقرب إلى الإنسان من لمح البصر

ومشكلة الناس أنهم يتخيلون أن بينهم وبين الموت مسافات ومسافات

السلفية توصف بالتشدد في مجال العقيدة والعنف

وأصبحت تمثل خطرا مزدوجا فكريا وعمليا



● الشيخ عمر عبد الرحمن

● الشيخ محمد حسين الذهبي





ابن القرية والكُتّاب

ملامح سيرة ومسيرة (الجزء الرابع)

مذكرات فضيلة العلامة د. يوسف القرضاوي كما كتبها لـ الوطن بخط يده (١٢)



تنفرد **الوطن** بنشر الجزء الرابع من مذكرات العلامة د.يوسف القرضاوي: ملامح سيرة ومسيرة (ابن القرية والكتاب)، وهو يشمل بضعة عشر عاما (حوالي ١٨) من هذه السيرة والمسيرة: وهي سنوات حافلة بالأحداث على المستوى الشخصي في حياة الشيخ المحلي والعربي والإسلامي والعالمي، على المستوى الشخصي يفصح فضيلته لأول مرة عن قصة زواجه الثاني وكيف تطور من عاطفة صادقة إلى زواج على سنة الله ورسوله . كما يتحدث عن تخرج كل أبنائه وتزوج كل بناته . وتعيينه عميدا لكلية الشريعة ومديرا المركز بحوث السنة والسيرة. ونجاحه في الدعوة إلى تأسيس الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية بالكويت. وعمله رئيسا لهيئة الرقابة الشرعية لعدد من المصارف الإسلامية. واختياره عضوا في المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي، وعضوا في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن (مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي) وعضو مجلس أمناء مركز اكسفورد للدراسات الإسلامية، وعضو مجلس أمناء منظمة الدعوة الإسلامية بالخرطوم، وغيرها. وحصوله في هذه الفترة على بعض الجوائز العالمية.

ومن خلال هذه المذكرات سيمر القارئ بمعظم أحداث العصر في منطقتنا العربية والإسلامية، بحكم أن صاحبها يعيش في قلب هذه المنطقة، وقلب هذه الأحداث، وقد قدر له في هذه المرحلة أن يتفاعل بها ومعها متأثرا ومؤثرا.

وتتميز هذه السنوات بأمرين لهما أهمية قصوى في حياة القرضاوي :

الأول: الانتشار الكبير له في أنحاء العالم في الشرق والغرب، وزيارة كل قارات العالم حتى أستراليا، وأميركا الجنوبية، حتى سماه البعض «الشيخ الطائر».

والثاني: ظهور المد الإسلامي أو الصحوة الإسلامية بقوة في تلك المرحلة، والتى يعتبرها الشيخ جزءا منه، كأنما هي ولده وفلذة كبده . وسنتابع نشر المذكرات يوميا بما فيها من تفاصيل يرويها القرضاوي لأول مرة.

عبد الناصر والسادات يتفقان في أنهما من ثمرات ثورة يوليو المتحكمة في رقاب الشعب المصري

هل العنف إسلامي؟

ونريد أن نسأل هنا سؤالا، وهو: هل العنف ظاهرة إسلامية؟

ونقول: إن الإعلام الغربي عامة، والأمريكي خاصة، يوهم العالم أن العنف يحمل الجنسية الإسلامية، وأن الإسلام بعقيدته وشريعته يفرز (العنف)! وأن المسلمين بطبيعتهم الدينية أهل عنف.

وهذا ولا شك تحامل على الإسلام وأمته وقرآنه ونبيه وشريعته.

فالإسلام دين الرقة، وليس دين العنف، ودين الرحمة وليس دين النقمة، ودين اللين والرفق، وليس دين الغلظة والقسوة.

وأشهر أسماء الله عند المسلمين: الرحمن الرحيم، وليس المنتقم الجبار، كما يروج أعداء الإسلام.

واسم (الجبار) ذكر في القرآن مرة واحدة، واسم الرحمن الرحيم افتتحت به - كما نرى في المصحف - ١١٣ مائة وثلاث عشرة سورة، غير ما ذكر داخل السورة.

والمسلمون يبدؤون أكلهم وشربهم وسائر أعمالهم ب (بسم الله الرحمن الرحيم) والمسلمون يرحمون الناس ليرحمهم الرحمن، وبعبارة أخرى: يرحمون من في الأرض ليرحمهم من في السماء.

والعنف الذي وقع من بعض المسلمين، يرجع في كثير منه إلى الغرب ومظالمه المستمرة على أمة الإسلام. ويكفي خلقه إسرائيل من العدم، ومساندته لها منذ قيامها إلى اليوم، وتشجيعها على الظلم والعدوان الدائم على جيرانها.

ومع هذا وجدنا العنف والإرهاب في كل بلاد الدنيا: في الشرق والغرب، في الشمال والجنوب، في اليابان وفي أمريكا، وفي إسرائيل نفسها، وفي بريطانيا، وفي الهند، وفي غيرها من أقطار العالم.

ولم تتهم البروتستانية بأنها صانعة الإرهاب في أمريكا، ولا الكاثوليكية بأنها صانعة الإرهاب في بريطانيا، ولا اليهودية بأنها صانعة الإرهاب في إسرائيل، ولا الهندوسية أو السيخية بأنها صانعة الإرهاب في الهند، فلماذا يتهم الإسلام وحده بأنه صانع العنف والإرهاب فيما قام به بعض المسلمين من حوادث؟

ربما يكون ذلك صحيحا لو أقرهم المسلمون على ما فعلوه، ولكن العكس هو الصحيح، فالمسلمون عامة، وعلماؤهم خاصة، أنكروا عليهم، ونددوا بما صنعوا وحمّلوهم وزر ما عملوا. ولا تزر وازرة وزر أخرى.

هل العنف يحقق هدفا؟

على أننا لو ناقشنا العنف من غير ناحية شرعيّتة، بل من ناحية فائدته وجدواه، اعتمادا على مذهب (المنفعة) أو (البراغماتية) هل نجد العنف أفاد أصحابه؟ هل حققوا به أهدافهم النهائية أو المرحلية؟ هل جُنيت من ورائه ثمرة للصحوة الإسلامية، أو للدعوة الإسلامية، أو للأمة الإسلامية؟ والجواب بالنفي قطعا.

فالواقع الذي عايشناه يقول: إن العنف لم يغير حكومة، ولم يسقط نظاما، كما أراد أصحابه. ولم نر الاغتيال السياسي، أو القتل العشوائي، أوالعمل التخريبي: غير شيئا في الأنظمة القائمة، التي أراد دعاة العنف ومستخدموه أن يغيروها، بل زادت الأنظمة تجبرا وتفرعُنا وعتوّا.

والاغتيال السياسي الذي نجحوا في بعض محاولاته، لم يغير شيئافي واقع الأمر، كل ما حدث أن ذهب حاكم، وجاء حاكم آخر، والوضع كما هو، بل ربما كان أشد وأقسى مما قبله، حتى أصبح البيت الذي يتغنى به الكثيرون قول الشاعر:

رب يوم بكيت منه، فلما
صرت في غيره بكيت عليه!

أو كما قال الشاعر الآخر:

دعوت على عمرو، فمات، فسرّني
فلما بلوت الغير نُحت على عمرو!

ثم إن الذي يمارس العنف، لا يستطيع أن يستمر فيه أبدا الدهر. إنه يمارسه مدة تقصر أو تطول، ثم يتعب وييئس ويلقي سلاحه، ولم يجن من عنفه إلا ما سفك من دماء، وما دمر من ممتلكات، وما أضاع من جهود وأوقات، كلها جزء من العمر النفيس.

ولذا رأينا جماعات العنف في العالم بعد مدة من الزمن تحيل نفسها على (التقاعد).

> **عهد عبد الناصر اشتهر بالشكوى من التأميم والمصادرات والتضييق وتحويل جمهور الناس إلى فقراء**

فقه التغيير

وأريد لهؤلاء المتسرعين السطحيين من هواة العنف - الذين يريدون تغيير المجتمعات بالقنبلة والرشاش - أن يعرفوا أن للتغيير (فقها) يجب أن يطلعوا عليه. وأن التغيير المنشود الذي تنتقل به الأمم من الفساد إلى الصلاح، ومن الانحراف إلى الاستقامة، ومن الضعف إلى القوة، لا يتم بالانقلاب ولا بالسلاح. إن له سننا ثابتة لا بد أت ترعى، فهو لا يتم إلا بتغيير الإنسان من داخله، أي من عقله وضميره، وهذا يحتاج إلى منهج بعيد المدى، طويل النفس، واضح الأهداف، محدد المراحل، بيّن الطريق. ومحوره تغيير الأنفس أو - على حد تعبير القرآن - تغيير ما بالأنفس، كما قال تعالى (إنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ» (الرعد:).

وهذا ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم مع العرب: غير ما بأنفسهم، فغيّر الله ما بهم. غيّر معتقداتهم ومفاهيمهم وأفكارهم وقيمهم، واهتماماتهم، وأهداف حياتهم، فأنشأهم خلقا آخر، وأصبح عربيّ الإسلام غير عربيّ الجاهلية، في أهدافه وأخلاقه وسلوكه وعلاقاته. وبهذا انتقلوا من رعاة للغنم إلى رعاة للأمم، وأخرجوا الناس من عبادة الأشياء والأشخاص، إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان والفلسفات إلى عدل الإسلام، ووسطية الإسلام «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا» (البقرة:١٤٣). وأخرج الله بهم الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، الصراط الذي هدى إليه رسول الله، كما قال تعالى «وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» (الشورى:٥٢-٥٣).

مقارنة بين عهدي عبد الناصر والسادات

يحلو لكثير من الناس أن يسألوا: هل يختلف عهد السادات عن عهد عبد الناصر؟ وما الفرق بينهما؟

ونقول هنا: اشترك العهدان في أن كليهما من ثمرات ثورة ٢٣ يوليو، المتحكمة في رقاب الشعب المصري، وإن اختلفا بعد ذلك في بعض الأمور المهمة.

عبد الناصر و المصادرات والتضييق

كان عهد عبد الناصر: عهد التأميم والمصادرات، وتحويل جمهور الناس إلى فقراء. فقد أمسى الناس في عهده يشكون: أصحاب الأملاك يشكون، لأن أرضهم صودرت وأخذت منهم، والفلاحون يشكون، لأن إنتاجهم يباع ـ أو يشترى منهم ـ بأرخص الأثمان.

والرأسماليون يشكون، لأنهم حوربوا بدعوى أنهم مستغلون، وصودرت مصانعهم وممتلكاتهم، وتسلمتها أيد عاجزة في إدارتها، متهمة في امانتها.

والعمال يشكون، لأنهم لا يأخذون الأجر الكافي، الذي يلبون به حاجاتهم التي تكاثرت، ومطالب أولادهم التي لا تتوقف.

والتجار يشكون، لأن القوة الشرائية ضعفت عند الناس، ولأن الحكومة تفرض عليهم من الضرائب ما يرهقهم عسرا.

والموظفون يشكون، لأن الرواتب التي يتقاضونها لا تكفي للوفاء باحتياجاتهم، واحتياجات أسرهم، مع غلاء الأشياء باستمرار. لهذا يضطرون أبدا إلى الاستدانة، والدين هم بالليل، ومذلة بالنهار!

لا تكاد تجد أحدا راضيا عن معيشته وعن عمله، فهناك سخط عام، وغضب مكنون في الصدور، ولا يستطيع الناس أن ينفسوا عنه، لا بقلم ولا بلسان، ومن حاول ذلك اختطفته كلاب الصيد، فذهبت به إلى حيث لا يحس به أحد.

إنها الشكوى العامة التي تسمعها من كل لسان، وتلمسها في كل إنسان، وتحس بأثرها وصداها في كل مكان. الشكوى من الضيق الاقتصادي، والضيق السياسي.

وفي هذا الجو الخانق يسرّي الناس عن أنفسهم بالنكت، وينفسون بها عن مكنون صدورهم، وهناك أناس ينشئون النكتة، وآخرون يروجونها. وقد أجاد المصريون فنّ النكت السياسية، التي تعتبر نوعا من الدفاع عن الذات في مقابل ما يؤخذ من الناس من حقوق.

ويقولون: إن عبد الناصر كان يسأل باستمرار عن النكت الجديدة التي تؤلف في حقه، وكان أحيانا يضحك منها، وأحيانا يتألم.

السادات و الانفتاح بلا ضوابط

ولما جاء السادات تغير الحال عما كان في عهد عبد الناصر.

فقد انتقلت مصر من المصادرات والتأميم والتضييق إلى (الانفتاح). ولكنه كان انفتاحا بلا قيود ولا ضوابط، فظهر رأسماليون جدد أو (باشوات) جدد، الذين سموهم (القطط السمان). هؤلاء الباشوات الجدد الذين أصبح لهم ثروات الباشوات القدامى، وربما أضعافها، ولكن لم يكن لهم أصالة (الباشوات) ولا أخلاقهم ولا أعرافهم.

كان الباشوات لهم بيوت مفتوحة، وأيد مبسوطة، وفضائل مرعية، وتقاليد متوارثة، ينتفع من ورائهم كثيرون، وهؤلاء لأنفسهم فقط، لا ينتفع من ورائهم أحد، ولا سيما أنهم أثروا بسرعة البرق، لم يرثوا الثروة أبا عن جد، ولم يكسبوها بكد اليمين وعرق الجبين، بل بطرق مليئة بالكذب والغش والخداع، واستغلال النفوذ، واستغفال القانون، واستخدام الرشى، حتى أصبح هؤلاء (حيتانا) في بحر التجارة، تلتهم كل الأسماك الصغيرة، ولا يجرؤ أحد أن يسائلها، فضلا عن أن يعاقبها. وكل (حوت) من هؤلاء كوّن له مملكة أو إقطاعية مالية يرتع فيها كيف يشاء، بلا رقيب ولا حسيب، حتى الضرائب التي يجب دفعها للدولة، له طرائقه في التخلص منها! وكل واحد من هؤلاء مسنود بصورة وأخرى من السلطة الحاكمة، فهو قريب أو نسيب أو شريك لفلان أو فلانة، ممن يملك أن يحمي الظهر، ويشد الأزر! والمصريون يقولون: من له (ظهر) لا يضرب على بطنه!

فهذا مما عيب على عصر السادات، والدول لا تصلح بالانفتاح المطلق، ولا بالتضييق المطلق، ولكن بنهج وسط، يثير الحوافز، ويدفع إلى الإبداع، ويحرك عجلات التنمية والإنتاج الحقيقي، ولكن مع القيود التي تمنع من السرقة والنهب والاستغلال، ومع العدل الذي يمنح الفرص المتكافئة، ويعطي كل ذي حق حقه، ولا يوجد فيه أحد يعلو على القانون، أو يستغفل القانون.

وأمر آخر ظهر في عهد السادات، وهو: أنه وقع في شَرك (الديون) الأجنبية، وهذا كان أيضا من آثار الانفتاح وسلبياته، ويبدو مما كتبه صديقنا الأستاذ عادل حسين رحمه الله عن ديون مصر في ذلك العهد: أن هذا أمر خططت له جهات معينة، وشبكة جهنمية، بيتت أمرها بليل، ورسمت خطتها بإحكام، لتوقع الدولة في هذا الفخ، فتخرج من دين إلى دين، وكل دين له تبعاته مما يسمى خدمة الدَّيْن، فهو يحتاج في كل سنة إلى دفع الأقساط المطلوبة، ودفع الفوائد الربوية عليه. وهنا تعجز الميزانية، فتحتاج أن تعالج هذا العجز بدين آخر، وهكذا، فتعالج داء بداء. وقد أدرك هذا شاعرنا العربي من قديم، فقال:

إذا ما قضيت الدين بالدين لم يكن
قضاء، ولكن كان غرما على غرم!

على أن الشعب في عهد السادات - ولا سيما في السنوات الأولى - أحس الناس بأن القبضة الحديدية التي كانت تمسك بخناقهم، خفت عنهم، وأن الحرية بدأت تجد طريقها قليلا قليلا إلى الناس، وأن العمل الإسلامي بدأ يتحرك، وخصوصا بين الشباب في الجامعات. وبهذا طفقت الصحوة الإسلامية تولد من رحم الحرية. ولا شيء ينعش الدعوة الإسلامية مثل جو الحرية.

> **السادات نقل مصر من المصادرات والتأميم والتضييق إلى «الانفتاح» بلا قيود ولا ضوابط**

زيارة الهند مع د. الديب والمحمدي

كان من أهم أهداف مركز بحوث السنة والسيرة الذي تبنته جامعة قطر: أن ننشئ مكتبة جامعة لمصادر السنة والسيرة، وأن تحتوي على ما يمكن من المخطوطات أو مصوراتها.

وقد قررت الجامعة: أن يذهب وفد يمثل المركز لزيارة مكتبات الهند الشهيرة، ويتعرف على ما فيها من كنوز علمية تفيد المركز في أداء رسالته.

وكان الوفد يتكون مني ومن الأخ الدكتور عبد العظيم الديب الأستاذ بكلية الشريعة، وعضو مجلس إدارة المركز، والابن الحبيب علي يوسف المحمدي، المدرس المساعد بالكلية، والذي يحضر رسالة الدكتوراه بكلية الشريعة بالأزهر، وكان السفر في أواخر شهر فبراير من سنة ١٩٨٢م.

كانت محطتنا الأولى هي لكهنو، وفيها ندوة العلماء ورئيسها الداعية الإسلامي الكبير الشيخ أبو الحسن الندوي، ودار علومها، وكلياتها المختلفة، وقد وصلنا إلى دلهي أولا، ومنها استقللنا الطائرة الداخلية إلى لكنهو، ولكن عندما وصلنا إلى لكنهو، لم نجد فيها أحدا نلقاه، لا السيد أبا الحسن، ولا الشيخ محمد الرابع ابن أخته، ولا الشيخ سعيد الأعظمي رئيس تحرير مجلة البعث الإسلامي، فكلهم قد ذهبوا إلى (أعظم كَرَه) التي فيها (دار المصنفين) الشهيرة، وهي منشأة علمية أسسها العلامة شبلي النعماني رحمه الله.

و(أعظم كره) هذه هي التي ينسب إليها كثير من علماء الهند، مثل المحدث الكبير المحقق الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي، والصديق الجليل الدكتور محمد مصطفى الأعظمي، الحاصل على جائزة الملك فيصل في خدمة السنة.

وهذه غير أعظمية بغداد، التي ينسب لها بعض من نعرفهم من العلماء والأدباء مثل الشاعر وليد الأعظمي.

فأعظمية بغداد نسبة إلى حي (الأعظمية) التي فيها مسجد وقبر الإمام الأعظم أبي حنيفة، وهي منطقة سنية.

وفي مقابلها (الكاظمية) وفيها قبر الإمام موسى الكاظم، وهي منطقة شيعية.

وفي أعظم كره أقام الشيخ أبو الحسن مؤتمر (الإسلام والمستشرقون) رغم بعد هذه البلدة عن المطار ووعورة الوصول إليها، لكنه أراد أن يجعل منها فرصة للتنويه بدار المصنفين، ويحيي ذكرى العالم الكبير أحد مؤسسي ندوة العلماء: الشيخ شبلي النعماني عليه رحمة الله.

وقال الإخوة في لكنهو: إن الشيخ علم بزيارتكم، وفرح بها جدا، وهو يدعوكم ويلح في الدعوة إلى المشاركة في المؤتمر الخاص بالاستشراق والمستشرقين، وقطعنا تذاكر الطائرة إلى مدينة (بنارس) وفيها (الجامعة السلفية) الشهيرة، ومن بنارس أخذنا السيارات إلى أعظم كره، وهي مسافة طويلة تستغرق عددا من الساعات، والطرق في هذه الأماكن ليست على ما يرام، مع ما تتميز به من الزحام، إضافة إلى العجلات التي تجرها الثيران، إلى الدواب من الحمير وغيرها.

دع عنك (الأبقار المقدسة) التي تمشي متبخترة في الشوارع، ولا يستطيع أحد أن يمد يده إ ليها، أو يحوّل سيرها، كيف وهي معبودة القوم؟ فليكن لها ما تريد أو ما تشتهي، وهل يجرؤ عابد أن يعترض طريق معبوده؟!! والعجيب أن أختها أو بنت عمها (الجاموسة) وهي أغزر منها لبنا، وأكثر منها نفعا: ليس لها أي لون من القداسة، بل هي تجر الأثقال، وتعمل في خدمة الزراعة. وكذلك ذكَر البقر (الثور) فهو شقيق البقرة أو أبوها، أو ابنها، ولكنه لم تشمله بركة القداسة التي تختص بها الأنثى، فهو مثل الجاموسة يخصص للأشغال، وحمل الأثقال! المهم أننا وصلنا بعد جهد ولأي إلى أعظم كره، وكانت فرحة الشيخ أبي الحسن بنا لا توصف، وقال: كنا في حاجة إلى من يرأس المؤتمر، ووجودك قد حل لنا هذه المشكلة، وشرفني الشيخ بذلك، وهو في الحقيقة أولى برئاسته. وانعقد المؤتمر، وألقيت كلمة ضافية مرتجلة في افتتاحه عن الاستشراق والمستشرقين، وأن منهم المحرفين، ومنهم المخلصين في طلب الحقيقة. ولكن حتى المنصفين منهم لا يستطيعون التحرر من جملة عقد تحكمهم، منها:

نظرتهم إلى الإسلام أنه دين مصنوع، وأن قرآنه مختلق مفترى على الله، وأن نبيه محمدا كاذب في دعواه النبوة، وهذه النظرة السوداء لا شك أن لها تأثيرها فيما يكتبه صاحبها عن هذا الدين.

ومنها: نظرتهم إلى الغرب أنه السيد، وأن الجنس الأبيض هو سيد الأجناس، وأن أوروبا هي أم الدنيا، وأن تاريخها هو تاريخ العالم، فالقرون الوسطى هي قرون الظلام والتخلف والانقطاع، وإن كانت هي قرون الحضارة والنور وازدهار العلم في تاريخ الإسلام. ومنها: عدم تذوقهم للغة العربية وضعف معرفتهم بخصائصها، وإن بلغوا من العلم بها مبلغا كبيرا، ولكن العلم شيء والتذوق شيء آخر.

لهذه الأسباب ولغيرها لم يكن حكم غالب المستشرقين على الإسلام وتراثه وعلومه ورجاله وتاريخه حكما منصفا. وكان في المستشرقين من هو من ذوي الغرض والهوى والتحيز، الذي يخدم ببحوثه جهات معادية للإسلام، أو كان هو نفسه معاديا للإسلام وأهله. وقد لقيت هذه الكلمة المرتجلة استحسان الحاضرين، وإن لم يقدر لي أن أكتبها بعد ذلك. وألقى العلامة أبو الحسن كلمة رائعة في شأن المستشرقين، وخصوصا المتحاملين منهم على الإسلام والمسلمين، وشبههم بـ «مفتشي القمامة» الذين لا يهتمون بكل ما هو حسن وجميل، إنما يبحثون عن الفضلات والقاذورات، ولا تقع أعينهم إلا على هذه الأشياء، التي تنبو عنها أعين جماهير الناس، ولا تلتفت إليها، وهي وحدها موضع اهتمامهم.

وأعد أخونا الدكتور عبد العظيم الديب بحثا عن المستشرقين والتاريخ، عكف على إعداده، ونحن هناك دون مراجع لديه، بل من المخزون الذي في ذاكرته عن المستشرقين وموقفهم من التاريخ، وقد ألقاه في المؤتمر، ولقي القبول والثناء من المشاركين، وأحسب أنه هو الذي طوره بعد ذلك ونشره في كتاب الأمة (المنهج في كتابة التاريخ الإسلامي عند المستشرقين).

وبقينا يومين في أعظم كره، ثم عقدنا العزم لنواصل رحلتنا إلى مكتبات الهند العامرة في بتنا وفي حيدر أباد، وغيرهما.

> **الدين يجب أن يكون هو المخدوم لا الخادم.. والعلماء يجب أن يكونوا ألسنة للحق وهداة للخلق ونصحة للحكام**

زيارة العلامة حبيب الرحمن الأعظمي

وفي طريق عودتنا: خططنا لزيارة علامة الهند المحدث الكبير الشيخ محمد حبيب الرحمن الأعظمي، محقق الكتب الحديثية الشهيرة: المصنف لعبد الرزاق في ١١ مجلدا كبيرا، والذي نشره المكتب الإسلامي في بيروت، والمطالب العالية في زوائد المسانيد الثمانية لابن حجر، وقد نشرته وزارة الأوقاف الكويتية، كما حقق مسند الحميدي، وغيرها.

وكان للشيخ تعقيباته ومناقشاته العلمية والحديثية العميقة لمحدث مصر العلامة الشيخ أحمد محمد شاكر، في تخريج مسند أحمد، وإقرار الشيخ شاكر له على كثير من ملاحظاته.

كما عقب على الشيخ الألباني مستدركا عليه، وإن لم ينشره باسمه الصريح.

وكنا قد كاتبنا العلامة الأعظمي، لنستضيفه أستاذا زائرا لمركز بحوث السنة والسيرة في قطر، لمدة سنة دراسية قابلة للتجديد، حسب ظروفه، وبعد أن أوشك أن يستجيب لنا اعتذر لظروفه الصحية.

ولهذا انتهزنا فرصة لنزور الشيخ في بلده ومسقط رأسه، وهي قرية صديقنا الدكتور مصطفى الأعظمي أيضا.

وقد احتفى الشيخ بمقدمنا، وأحسن استقبالنا، وأرانا بعض مناشطه والمدارس التي يشرف عليها، وأجلسنا مع بعض تلاميذه، وطلب مني أن ألقي كلمة عليهم، وكان الليل قد دخل علينا، والطريق طويل أمامنا، وهو مظلم، وفيه قدر من الخطورة وعدم الأمن، وقد طلبوا منا أن نبيت عندهم ونسافر في الصباح، ولكن وقتنا كان ضيقا ولا يحتمل المبيت، فاستأذنا من الشيخ أن يسمح لنا بالمغادرة، وودعناه بكل حب وتقدير، طالبين منه أن يدعو لنا بظهر الغيب، وأن يعدنا بزيارة لمركزنا إذا تيسرت الأسباب.

ومما أسفت له: أني لم آخذ منه (إجازة) علمية برواية كل مروياته وما أجازه به شيوخه، وكانت فرصة لا تعوض، إلا أن وقتنا المحدود لم يتح لنا فرصة التفكير في ذلك.

تعطل السيارة

ودعنا الشيخ وتلاميذه وقريته المتواضعة، وامتطينا سيارتنا الهندية الصنع، فقلما يعرف الهنود ما نعرفه في بلاد الخليج من السيارات الألمانية والإنجليزية والفرنسية واليابانية والأميركية وغيرها، بل نرى الجميع يركبون سيارتهم الهندية.

والواقع أن الهنود قد سبقونا في ذلك، وصمموا على أن يصنعوا سيارة بأيديهم، وموتورها من صنعهم، ولم يكن عملهم مجرد تجميع، كما عملنا نحن في مصر مع (سيارة نصر) التي استوردنا موتورها من شركة (فيات) الإيطالية، ولا نكاد نجد هنديا مهما بلغ مركزه لا يركب هذه السيارة الهندية، ونحن نحيي الهند على هذه العزيمة القوية والهمة العالية، ونعزي أنفسنا أننا في بلاد العرب جميعا لم نصنع سيارة كاملة، ولا حتى موتورسيكلا حتى اليوم! كانت سيارتنا الهندية التي استأجرناها قديمة نسبيا، وكنا نخاف أن تتعطل في الطريق، ونمسك قلوبنا بأيدينا، ورغم أننا قرأنا عليها المعوذات، وآية الكرسيّ، ودعونا بأدعية السفر المأثورة «اللهم هون علينا سفرنا، واطو عنا بعده» : توقفت السيارة في مكان بين بلدين، وفي ظلام الليل الدامس، فلم تكن ليلتنا مقمرة، وكانوا يخوفوننا من قطاع الطريق، الذي قد يطمعون فينا، ومظهرنا يوحي بأننا عرب من بلاد الخليج التي تفيض أرضها بالذهب، ولكن لا بد للسائق أن يدعنا ويركب مع أحد السائقين ليأتي بميكانيكي من أقرب بلدة إلينا، وهو ما فعل، وجاء الميكانيكي، وأصلح الله على يده السيارة المتعطلة، فتنفسنا الصعداء، وحمدنا الله على أن عدنا سالمين، وفهمنا معنى قول الناس للعائد من السفر: الحمد لله على السلامة، فيبدو أن السلامة كانت هي أول ما يطلبه الأهل والأحبة من المسافر، أما الغنيمة والأرباح وما إلى ذلك، فتأتي في المراتب التالية.

● جمال عبد الناصر



● أنور السادات



● د. عبد العظيم الديب



ابن القرية والكُتّاب

ملامح سيرة ومسيرة (الجزء الرابع)

مذكرات فضيلة العلامة د. يوسف القرضاوي كما كتبها لـ الوطن بخط يده (١٤)

تنفرد الوطن بنشر الجزء الرابع من مذكرات العلامة د.يوسف القرضاوي: ملامح سيرة ومسيرة (ابن القرية والكتاب)، وهو يشمل بضعة عشر عاما (حوالي ١٨) من هذه السيرة والمسيرة: وهي سنوات حافلة بالأحداث على المستوى الشخصي في حياة الشيخ المحلي والعربي والإسلامي والعالمي، على المستوى الشخصي يفصح فضيلته لأول مرة عن قصة زواجه الثاني وكيف تطور من عاطفة صادقة إلى زواج على سنة الله ورسوله . كما يتحدث عن تخرج كل أبنائه وتزوج كل بناته . وتعيينه عميدا لكلية الشريعة ومديرا المركز بحوث السنة والسيرة. ونجاحه في الدعوة إلى تأسيس الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية بالكويت. وعمله رئيسا لهيئة الرقابة الشرعية لعدد من المصارف الإسلامية. واختياره عضوا في المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي، وعضوا في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن (مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي) وعضو مجلس أمناء مركز اكسفورد للدراسات الإسلامية، وعضو مجلس أمناء منظمة الدعوة الإسلامية بالخرطوم، وغيرها. وحصوله في هذه الفترة على بعض الجوائز العالمية.

ومن خلال هذه المذكرات سيمر القارئ بمعظم أحداث العصر في منطقتنا العربية والإسلامية، بحكم أن صاحبها يعيش في قلب هذه المنطقة، وقلب هذه الأحداث، وقد قدر له في هذه المرحلة أن يتفاعل بها ومعها متأثرا ومؤثرا.

وتتميز هذه السنوات بأمرين لهما أهمية قصوى في حياة القرضاوي :

الأول: الانتشار الكبير له في أنحاء العالم في الشرق والغرب، وزيارة كل قارات العالم حتى أستراليا، وأميركا الجنوبية، حتى سماه البعض «الشيخ الطائر».

والثاني: ظهور المد الإسلامي أو الصحوة الإسلامية بقوة في تلك المرحلة، والتى يعتبرها الشيخ جزءا منه، كأنما هي ولده وفلذة كبده . وسنتابع نشر المذكرات يوميا بما فيها من تفاصيل يرويها القرضاوي لأول مرة.

زجاجة «ويسكي» سببت لي حرجا ماديا وشرعيا خلال رحلة ترانزيت في باريس

إلقاء كلمة الضيوف

وفي اليوم التالي بدأ المؤتمر «ملتقى الفكر الإسلامي » وتفضل الوزير رئيس المؤتمر، فأسند إلي أن أقول كلمة الضيوف، فألقيت كلمة ضافية مرتجلة عن الجزائر وأصالتها وجهادها، ودور جمعية العلماء فيها وابن باديس والبشير الإبراهيمي، والعربي التَّبِسِّي، الذين حفظوا على الجزائر هويتها: المتمثلة في الدين واللغة، وعبر عن ذلك نشيد الجمعية الذي ألفه الشيخ ابن باديس:

شعب الجزائر مسلم
وإلى العروبة ينتسب
من قال: حاد عن اصله
أو قال: مات فقد كذب

نشاط مكثف في الملتقى

والحقيقة أنني قمت في هذا الملتقى بنشاط وافر مكثف، في لقاءات مسائية بالطلاب في مدارسهم أو جامعاتهم، والطالبات في مدارسهن أو جامعاتهن اللاتي ينزلن بها.

وقد جرت سنة الملتقيات أن تدعو عددا كبيرا من الطلاب والطالبات من الجامعات المختلفة، يشاركون في أنشطتها، ويتوجهون بأسئلتهم المباشرة إلى العلماء المشاركين، ليتلقوا الإجابات عنها.

وزرت بعض القرى القريبة من تلمسان، وألقيت فيها محاضرات.

وفي الاستراحات المعتادة بين الجلسات، يلتف حولي الطلاب والطالبات، ويمطرونني بأسئلتهم، ولا أضنّ عليهم بالإجابة ما استطعت.

كما أن ولعهم بالتصوير وحرصهم على التقاط الصور التذكارية أفرادا وجماعات معي، قد فاق الحد، ومع إرهاق هذا لي، عاملتهم برفق ومودة، مقدرا بواعثه الطيبة.

> **إذا لم نصل إلى وحدة المسلمين في شعائرهم الدينية في أقطار الأرض كلها فلا أقل من أن يصوموا معا ويُعيِّدوا معا**

وقد نوّه الوزير بما قمت به من نشاط مكثف على كل المستويات، وشكرني على ذلك. وفي الملتقى تعرفت على عدد من الجزائريين، منهم الأستاذ مولود قاسم وزير الشؤون الدينية السابق، وقد وجدته رجلا لطيفا، أحسن استقبالي، ولم أجد فيه الخشونة التي قيل: إنه يعامل بها الناس.

والمهم أنه بعد انقضاء مدة المؤتمر الذي يستمر نحو ثمانية أيام، زارني الشباب الذين زاروني في أول وصولي إلى تلمسان، فقلت لهم: ماذا ترون اليوم على ضوء النتائج؟ القرار قراركم، فإن رأيتم أن لا فائدة من وجودي إلا تأييد الحكومة، فلن أشارك في هذا الملتقى بعد اليوم، وإن رأيتم غير ذلك فأخبروني.

قالوا: بل نصر على حضورك، وضرورة مشاركتك في كل ملتقى، ونرجوك، ونلح عليك في الرجاء: ألا تتخلف عن هذه الملتقيات أبدا، فقد رأينا بأعيننا ولمسنا بأيدينا آثار مشاركتك، ولا سيما في جيل الشباب والشابات، الذين أحبوك وتعلقوا بك، وأعجبوا بأفكارك. وهذه نعمة كبيرة يجب أن تقابل بالشكر والعرفان.

قلت لهم: الحمد لله، وما توفيقي إلا بالله، وأدعو الله تعالى أن يجعلني عند حسن ظنكم وظن أبناء الجزائر بي، وأن يغفر لي ما لا تعلمون، ولا يعلمون.

ورتبت عودتنا بالطائرة الخاصة إلى الجزائر العاصمة، وبقيت يومين أو ثلاثة في فندق الأوراسي، وفيها نظم الإخوة في وزارة الشؤون الدينية: محاضرة عامة لي في أحد المساجد، وعرضوا علي الأمر، فرحبت بذلك، وكان منطقهم: أن أهل العاصمة يجب أن ينالهم نصيب من حضوركم إلى الجزائر. ولا يستأثر أهل تلمسان ومن حولها بكل الغنيمة.

قلت: منذ وصلت إلى الجزائر غدوت جنديا في كتيبتكم، فحيثما وجهتموني توجهت، سائلا الله أن يرزقنا التوفيق والإخلاص.

وبعد ذلك عزمت على السفر والعودة إلى القاهرة، وجاء الشيخ عبد الرحمن شيبان، ليودعني، ويؤكد عليّ أن أحرص على الحضور في الملتقى القادم، الذي سيكون في مدينة (قسنطينة) مدينة الشيخ ابن باديس، ومنطلق نشاطه، وقال لي: لقد رأيت كيف تعلق الشباب الجزائري بك، وهذا يوجب عليك ألا تتخلى عنهم.

قلت: وأنا أيضا تعلقت بهم، ورأيت فيهم بشائر الخير، وبواكير البعث المنشود، وقد قال أبو تمام:

وإذا رأيت من الهلال نموه
أيقنت أن سيصير بدرا كاملا

وافترقنا على نية اللقاء في العام القادم في بلد ابن باديس. وعلى الله التيسير.

زيارة المغرب والمشاركة بالدروس الحسنية

في شهر رمضان سنة ١٤٠٣هـ الموافق ١٩٨٣م، دعيت من قِبل وزير الأوقاف المغربي الدكتور عبد الكبير العلوي عن طريق سفير المملكة المغربية بالدوحة، للمشاركة في الدروس الحسنية الشهيرة، التي اعتاد ملك المغرب الحسن الثاني أن يقيمها كل رمضان، ويدعو إليها عددا من العلماء من خارج المغرب، بالإضافة إلى علماء المغرب.

زيارة سابقة سنة ١٩٧٨م

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي أدعى فيها لهذه الدروس، فقد دعيت إليها من قبل عدة مرات، ولكني كنت أعتذر عن عدم تلبية الدعوة بأعذار شتى، فقد حذرني كثيرون: أن هذه الدروس تلزم العلماء بطقوس معينة لا تتفق مع طبيعتي، مثل الانحناء، والمبالغة في الثناء والتعظيم للملك الذي يدعونه عادة بأمير المؤمنين. وقلت: أنا في غنى أن أكلف نفسي ما لا تحبه ولا تحتمله، فالاعتذار أسلم طريق.

ولكن سفراء المملكة في قطر الذين خالطوني وعرفوني ظلوا يلحون علي أن أستجيب، وقالوا لي: إن أحدا لا يلزمك بشيء من هذه الطقوس، وكل عالم حر في تصرفه، وأخيرا استجبت للدعوة في رمضان الموافق ١٩٧٨م، وسافرت إلى المغرب فعلا، للمشاركة في هذه الدروس، ولكن قدر الله سبحانه وتعالى: أن يدخل الملك المستشفى لإجراء عملية جراحية، فلم تعقد هذه الدروس في ذلك الموسم. ومن هنا رتبوا لنا زيارة بعض المدن المغربية، وإلقاء بعض الدروس والمحاضرات في بعض المدن، منها مدينة الرباط نفسها، ومنها الدار البيضاء، ومنها مدينة فاس، التي زرت فيها جامع القرويين الشهير، وألقيت محاضرة في جامعة محمد بن عبدالله، قدمني فيها صديقنا العالم الداعية الثبت المعروف: الدكتور عبد السلام الهراس.

كما زرت مدينة تازة، وألقيت فيها محاضرة في ذكرى غزوة بدر.

كما شاركت في ندوة عقدها التليفزيون المغربي حول (غزوة بدر) والدروس المستفادة منها، وكان معي فيها مؤرخ الفتوحات الإسلامية اللواء الركن محمود شيت خطاب، المعروف بمؤلفاته ودراساته في السيرة والتاريخ، والأخ العالم المعروف الدكتور عبد السلام الهراس.

ومن اللطائف: أن الأخ المذيع الذي كان يدير الندوة، ارتبك عند تقديمنا، فقال: يشترك في هذه الندوة: اللواء الركن يوسف القرضاوي وفضيلة الدكتور محمود شيت خطاب! وضحكنا من ذلك، وألغيت هذه المقدمة.

وقد علق عليها اللواء شيت خطاب قائلا: إنه ليشرفني أن يطلق علي الشيخ محمود خطاب، لا فضيلة الدكتور، فلقب (شيخ) عندي أفضل من دكتور، ومن لواء، ومن أي لقب دنيوي يحرص عليه الناس. وأحب أن يخاطب الشيخ القرضاوي بلفظ الشيخ لا بلفظ الدكتور. وانتهى تسجيل الحلقة على ما يرام.

وبعد ذلك عدت إلى قطر، عن طريق باريس، بعد أن تعرفت على المغرب في أول زيارة لي إليه. وتعرفت على الأخ الكريم الداعية: عبد الإله بن كيران، الذي صحبني إلى الأسواق، لأشتري بعض الملبوسات المغربية للأولاد. وقلت في نفسي: الخير ما اختاره الله لي، فقد كنت متخوفا من هذه الدروس وما قد يكون فيها من إحراجات لا تناسبني. وكل شيء مرهون بوقته على ما قدر الله سبحانه. هذا ما كان في زيارة سنة ١٩٧٨م.

أما الزيارة الثانية للمغرب، فقد كانت سنة ١٩٨٣م، وفي شهر رمضان ١٤٠٣هـ. وقد سافرت من قطر على طائرة الخليج التي أقلتني من الدوحة إلى باريس، والتي تقوم عادة من الدوحة بعد منتصف الليل، وتصل إلى باريس في الصباح. ثم أخذ الطائرة المغربية بعدها من مطار (أورلي) على مسافة غير قليلة من مطار (شارل ديغول)، وقد رتب الإخوة من ينقلني ويصحبني.

إفطار في السفر

وأنا عادة إذا سافرت في رمضان إلى القاهرة أو السعودية أو نحوهما، لا أفطر، وأظل صائما، لا لأن الفطر ممنوع أو مكروه، ولكن المسافر أمير نفسه، إن شاء أفطر، وعليه عدة من أيام أخر، بعدد الأيام التي أفطرها، وإن شاء صام ولا حرج عليه. خلافا للظاهرية الذين أوجبوا على المسافر في رمضان أن يفطر. وهو مروي عن أبي هريرة. وفي السفر إلى هذه البلاد العربية، لا أجد مشقة تدعوني إلى الفطر.

والذي دعاني إلى الأخذ برخصة الفطر في هذه المرة: أني وجدت أني لن أصل إلى الرباط إلا الساعة الثانية عشرة بتوقيت قطر، وكان الوقت صيفا، مع التنقل من مطار إلى آخر، فرأيت أن الفطر أحب إلي، وطالما ذكرت للناس الحديث النبوي «إن الله يحب أن تؤتى رخصه، كما يكره أن تؤتى معصيته».

وفعلا عندما وصلت إلى مدينة الرباط، ونزلت الفندق – فندق حسان – وهو الذي نزلت فيه المرة الماضية، كنا في منتصف الليل تماما، بتوقيت قطر، إذ الفرق بين قطر والمغرب ثلاث ساعات.

وبقيت أياما أنتظر دوري في إلقاء درسي، وقد عزمنا بعض وجهاء الرباط على الإفطار، على الطريقة المغربية، حيث نتناول شُربة (الحريرة) ثم نصلي المغرب: فريضته وسنته، ثم نعود لاستكمال الإفطار.

مشادة مع د. علي عبد الواحد وافي

ومما أذكره أني وقعت في مشادة مع أستاذنا الدكتور علي عبد الواحد وافي رحمه الله، الذي عرفته منذ أن كنت في وزارة الأوقاف بالقاهرة، وكنت أشرف على معهد تثقيف الأئمة، وكان هو أحد المحاضرين المرموقين فيه، وكان بيني وبينه مودة، ثم انقطعت الصلة المادية بيني وبينه، بسبب سفري إلى قطر، إلى أن التقينا في الرباط.

كان سبب المشادة، هو استخدام اليد اليمنى في الأكل والشرب، وهل هي سنة تتبع أو عادة يفعلها مَن شاء ويتركها مَن شاء؟

وكان رأي الدكتور علي رحمه الله: أن الأكل باليمين والشرب باليمين ليس أكثر من عادة، مثل الأكل باليد أو بالملعقة والشوكة، والأكل على الأرض أو على المائدة.

وهنا قلت له بكل أدب: اسمح لي يا فضيلة الأستاذ أن أخالفك في بعض ما قلت، وأوافقك في بعضه. فأما الذي أوافقك فيه: فهو الأكل باليد أو بالملعقة، والأكل على الأرض أو على المائدة (الطاولة)، فهذه من الأفعال التي ليس فيها أمر ولا نهي من النبي صلى الله عليه وسلم.

وهذا بخلاف ما جاء في شأن الأكل باليمين والشرب باليمين، فقد جاءت فيهما أحاديث صحيحة صريحة، مثل حديث «لا يأكل أحدكم بشماله، ولا يشرب بشماله، فإن الشيطان يأكل بشماله، ويشرب بشماله»، فجعل الأكل بالشمال من عمل الشيطان، وهو يؤذن بحرمة هذا العمل.

ولو كان الوارد هنا مجرد الأمر كقوله: «سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك»، لقلنا: الأمر هنا يفيد الاستحباب، ولكن النهي في الحديث المقترن بالتشبيه بالشيطان، دلّ على شيء آخر.

ثم قلت: إن الإسلام يريد بمثل هذا الأدب: أن يغرس في الأمة عادات مشتركة تميزها بين الأمم، فإذا كان الأوروبيون يأكلون بالشمال، فإن الأميركيين يأكلون باليمين.

وهنا قال الدكتور وافي: الأميركيون لا يأكلون باليمين، بل بالشمال. قلت: يا سيادة الأستاذ، أنا كنت في أميركا من قريب، وقد زرتها أكثر من مرة، ورأيتهم يأكلون باليمين. قال: أنا أعلم بالغربيين منك.

قلت: هذا صحيح ومُسلَّم، ولا أدعي أني أعلم منك في هذا، ولكن سيادتك عشت في فرنسا، ولم تعش في أميركا، وحاول بعض الحاضرين أن يفض اشتباكنا. وكنت حريصا على ألا أستمر في هذا الجدل، بل أسفت له، ولكني سمعت خطأ، فلم يسعني إلا أن أصوِّبه، وليس في العلم كبير، وفوق كل ذي علم عليم. برغم أني أعترف أن الدكتور وافي كان من العلماء الموسوعيين، الذي جمع بين الثقافة الشرعية العربية، التي استقاها من الأزهر، والثقافة الغربية، التي استقاها من فرنسا، فكان من كبار أساتذة علم الاجتماع، وأساتذة علم التربية، وأساتذة اللغة، وأساتذة الدراسات الإسلامية. ومع ذلك، فلكل عالم هفوة، ولكل جواد كبوة، وهذا لا يسقط اعتباره، ولا ينزل من قيمته.

كان علماء المغرب أحفياء بي، في شهر رمضان سنة ١٤٠٣هـ الموافق ١٩٨٣م خلال مشاركتي في الدروس الحسنية الشهيرة ، التي اعتاد ملك المغرب الحسن الثاني أن يقيمها كل رمضان، ويدعو إليها عددا من العلماء من خارج المغرب، بالإضافة إلى علماء المغرب. وقد أحاطوني بتقديرهم وعناياتهم وترحيبهم، طوال الأيام التي أقمتها في الفندق، منتظرا ليلة درسي، حتى أعلموني بالموعد المرسوم.

درس عن حديث تجديد الدين

وكانت الدروس عادة تنطلق من آية كريمة، أو من حديث شريف، وقد سألوني عن منطلق الدرس، وهل هو مكتوب أو مرتجل، فأخبرتهم أنه مرتجل، وأنه ينطلق من الحديث النبوي الذي رواه أبو داود والحاكم وغيرهما عن أبي هريرة: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة لهذه الأمة: مَن يجدد لها دينها».

والذي رجَّح اختياري لهذا الحديث: أننا في أوائل القرن الخامس عشر الهجري، فلم يمض منه إلا سنتان وبعض الثالثة.

وفي الليلة المعهودة، ذهبت إلى قصر الملك، وحييته وسلمت عليه من وقوف، ولم أضطر إلى أن أنحني، أو أخرج عن طبيعتي قيد أنملة، كما قد قيل لي من قبل. بل كان الرجل ودودا بشوشا مُرحبا بي أكثر من غيري، ممن ألقوا دروسا قبلي.

وقد استمعت إلى بعضهم، فوجدت منهم مَن يسرف في الثناء والإطراء نثرا وشعرا، ولكن لم يلزمهم أحد بذلك، وإنما هم الذين التزموا به طوعا.

جلست كما جلس الجميع – ومنهم الملك نفسه– على الأرض، وقد حضر ولي العهد – وهو الآن الملك محمد السادس– وحضر الوزير الأول والوزراء وكبار رجال الدولة، وقادة الجيش، وسفراء الدول الإسلامية، وكبار العلماء ووجهاء البلد. وكان سفير قطر في ذلك الوقت هو عميد السلك الدبلوماسي، لعراقته في وظيفته هناك، وهو الأستاذ عبد الله الجيدة حفظه الله.

وابتدأت درسي بقولي: مولانا الملك المُعظم.. ثم استرسلت في درسي. وجدت الخطاب بهذا الوصف هو أكثر ما يكون ملاءمة لموقفي، وهو تعبير صادق عن الواقع، وليس فيه ما يؤخذ عليَّ.

فأما كلمة (مولانا) فكل المسلمين موالي بعضهم لبعض، «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ» (التوبة: ٧١)، وأما كلمة (الملك) فهذه حقيقة، فهو ملك مبايع من شعبه، وأما كلمة (المُعظم) فهي حقيقة كذلك، بل هو معظم جدا، ولا سيما من ناحية نسبه الشريف، إذ هو يفخر بأنه ينتمي إلى الحسن السبط أحد سيدي شباب أهل الجنة. فلم أكذب ولم أنافق فيما قلت.

ثم أوردت الحديث كما هو في سنن أبي داود، وأخذت أشرحه وأربطه بالواقع، مُبيِّنا معنى التجديد وجوانبه المختلفة، وهل المجدد فرد أو جماعة أو مدرسة؟ واخترت الاتجاه الثاني، وكلمة (من) في الحديث، تصلح للجَمْع، كما تصلح للمفرد ، وعرجت على قضايا واقعية حية، في الخمسين دقيقة التي استغرقها حديثي، وقد كان الملك يصغي إليَّ باهتمام: بوجهه وعينيه وأذنيه، وكذلك الحاضرون جميعا، وكان حديثي يحمل نقدا للواقع، الذي نعيشه في ديار العرب والإسلام، وهو حديث عالم مشغول بالدعوة والإصلاح والتجديد، فلا يُتصور أن ينفصل عن واقع الأمة وأدواتها وآمالها.

مناقشة مع الملك

وفي آخر الدرس، أو قل: بعد أن ختمته، سألني الملك سؤالا مهما على عادته في مناقشة العلماء، وذلك حين قال: إن الذي نحفظه في رواية هذا الحديث: أنه بلفظ «يجدد لها أمر دينها». قلت: هذا هو المشهور على الألسنة، ولكن الذي رواه أبو داود في كتاب الملاحم من سننه، ورواه الحاكم في مستدركه، ورواه البيهقي في معرفة السنن والآثار، كلهم متفقون على هذه الصيغة «يجدد لها دينها»، والتجديد بالمعنى الذي شرحته لا حرج فيه.

وقد كان هذا السؤال من الملك والرد عليه مني بصراحة، موضع حديث المغرب كله: أني رددت على الملك، ولم أسلِّم له، كما يفعل الكثيرون، ولا أرى في ذلك بطولة ولا فضلا، فقد سأل الملك سؤالا، وبيَّنت له الإجابة حسب علمي. ولن أحرِّف العلم من أجل الملك، ولا أحسبه هو يرضى ذلك مني، ويبدو أن الذي تعوده الناس من العلماء: ألا يعقبوا على ما يقوله الملك.

ولانشغالي بالدرس أكثر من انشغالي بالملك، لم أفكر في الدعاء له في ختام حديثي. فقد تركت نفسي على سجيتها، وكأنما أنا في درس في أحد جوامع الدوحة.

وفي ختام المجلس: صافحني الملك بحرارة، وقال لي: نريدك أن تكون معنا في الموسم القادم. وطلب مني أن أبلغ سلامه إلى سمو أمير قطر الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني، وقد فعلت. كما سلم عليَّ وليّ العهد وكبار رجال الدولة، وسفير قطر، الأستاذ عبد الله الجيدة، عميد السلك الدبلوماسي في المغرب، وسفير عمان، وقد كان ممن يحضرون دروسي في الدوحة، وقد حصل على الثانوية من قطر، وهو من آل الحارثي.

> **رفضت أن أنحني للملك المغرب ولم أكذب ولم أنافق في أول مشاركاتي بالدروس الحسنية**

كان لهذا الدرس – الذي اعتبره عاديا بالنسبة لي– صدى واسع عند الناس كافة في المغرب، حتى قابلت بعض أساتذة الجامعات بعد ذلك، ووجدتهم مسرورين من حديثي، معجبين به، ولا سيما أني لم أراع فيه إلا وجه الله تعالى، ولم ألو فيه عنق الحقائق، ولم أحرف الكلم عن مواضعه، ولم أنحن ولم أنثن. ونوهت مجلة العدل والإحسان، على لسان مؤسس الجماعة الشيخ عبد السلام ياسين بموقفي في هذا الدرس.

وكان عندي لقاء مع الشباب الإسلامي في تلك الليلة، التي سأسافر إن شاء الله في صباحها.

والتقيت الشباب، أظن ذلك في منزل الأخ الفاضل عبد الإله بنكيران، وعدد كبير من إخوانه، وكانوا في غاية السرور والانشراح من الدرس وصداه في المجتمع المغربي، الذي لمسه الجميع بمجرد إلقائه.

وكان مما قالوه لي: إنك لا تعرف أثر هذا الدرس في هذه المملكة كلها، إن الناس في المغرب كله – على اختلاف مستوياتهم واتجاهاتهم الفكرية والسياسية والدينية– كانوا ينتظرون ماذا سيقول القرضاوي في درسه أمام الملك: الإسلاميون، والليبراليون، والماركسيون، والقوميون، وكل الأحزاب والفئات.

قلت لهم: حتى الإسلاميون كانوا ينتظرون هذا الدرس؟

قالوا: نعم، كان الإسلاميون وربما نحن منهم، يقولون: إما أن نمزق كتبه بعد هذا الدرس، إذا لم يوف بحقها، ولم يحترم ما قاله فيها، وإما أن نزداد احتراما واحتضانا لها!

قلت لهم: لعل كتبي سلمت من التمزيق!

قالوا: الحمد لله، بل ازددنا لها حبا، وبصاحبها تعلقا، وهذا هو الموقف في المغرب من أقصاه إلى أقصاه.

قلت: الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

وألقيت فيهم كلمة دعوية توجيهية، وأجبت عن عدد من أسئلتهم التي أعدوها لتطرح علي قبل أن نتناول السحور، ونصلي الفجر، وننصرف.

وأذكر من هذه الأسئلة سؤالا مهما يتعلق بإثبات بداية الصيام ونهايته، قال الإخوة: إن عندنا مشكلة تظهر في بداية كل رمضان ونهايته، فلدَيْنا فئات ثلاث من أهل المغرب:

١– فئة تصوم وتفطر مع (المملكة العربية السعودية)، وهم عادة من الإخوة السلفيين أو ممن يسميهم الناس: الوهابيين.

٢– وفئة ثانية تصوم وتفطر مع (تونس) التي تعتمد الحساب الفلكي في صيامها وفطرها. وغالبا ما يتفق هذا مع مصر والجزائر وغيرهما.

٣– وفئة ثالثة، تصوم وتفطر مع ما تقرره السلطات الشرعية المسؤولة في المغرب. وهي في العادة تتأخر عن هؤلاء وأولئك. فما رأيك في هذه الفئات الثلاث، وأيها ترجح لنا أن نتبعه؟

قلت: الكلام في هذا يطول، ورأيي الذي أفتي به من سنين طويلة: أن نعتمد الحساب الفلكي في النفي لا في الإثبات، بمعنى: أن الحساب إذا نفى إمكانية الرؤية من الناحية العلمية القطعية، فلا نقبل شهادة الشهود، لأن شهادة الشهود ظنية، والحساب الفلكي العلمي قطعي، والظني لا يقاوم القطعي، فضلا أن يقدم عليه. كما قال الإمام تقي الدين السبكي في رسالة له. وإذا قال الحساب بإمكان الرؤية، فإن وجود الرؤية في أي مكان يمكن أن يثبت به الهلال في البلاد الأخرى، وخصوصا ما كان قريبا منه، بناء على عدم اعتبار اختلاف المطالع.

ولكن ما أراه شيء، وما هو واقع شيء آخر. فأحيانا يثبت الهلال في السعودية، مع أن الحساب القطعي يقول: إن الهلال لم يولد بعد. فالمشكلة هنا في وجود الخطأ في إثبات الرؤية، إذا كان الهلال لم يولد: كان الشاهد مخطئا أو واهما أو كاذبا.

على أن الذي أقره هنا باطمئنان: أننا إذا لم نصل إلى وحدة المسلمين في شعائرهم الدينية في أقطار الأرض كلها، كما يحلم كثيرون، فلا أقل من أن نحرص على وحدتهم في كل قطر، بحيث يصومون معا، ويُعيِّدون معا. إذ ليس مقبولا بحال أن يصوم جماعة منهم وسائر أهل البلد مفطرون، أو تعلن العيد فئة منهم فيصلون ويكبرون وسائر أهل البلد صائمون.

ولذا أرى أن أسلم المواقف في المغرب هو موقف الفئة الثالثة التي تصوم وتفطر مع أهل المغرب، بناء على تعليمات السلطات الشرعية المخوَّلة بإثبات الهلال، كالمحاكم الشرعية، أو الإفتاء، أو وزارة الأوقاف، أو غيرها.

قلت للأخوة: إن الملك قال: نريد أن نراك معنا في رمضان القادم.

قالوا: ثق أنهم لن يدعوك مرة أخرى. ستعرِّفه المخابرات: من أنت؟ وما أفكارك؟ وما دعوتك؟ وما تاريخك؟

قلت لهم: لست حريصا على الحضور، حسبي أني قلت كلمتي، وأديت واجبي.

وتسحرنا، وصلينا الفجر، وذهبت إلى الفندق، لأستعد للسفر في أول طائرة إلى باريس. وفي المطار أقبل عليّ الناس يعانقونني ويقبلون يدي، ويمطرونني بعبارات الثناء والشكر والدعاء.

وحين ركبت الطائرة أقبل عليّ قائدها، والمضيفون والمضيفات، كلهم قد شاهدوا درسي وتأثروا به. فأتوا يصافحونني أو يعانقونني.

وفي مطار باريس، وجدت الكثيرين ممن شاهدوا الدرس في التلفاز يحيطون بي، وفي أعينهم بريق الفرح، وعلى ثغورهم ابتسامة الرضا، وعلى ألسنتهم الدعوات الخالصة لشخصي.

وهذا من فضل الله علي، فما قدمت شيئا، غير أني قلت ما أؤمن به، وأرجو أن يكون في ميزاني في الآخرة ثوابا وجزاء، كما كان لي في الدنيا ثناء وإطراء.

أمسكت بزجاجة ويسكي

ولقد بقيت يوما في باريس، وصليت المغرب في أحد المصليات، وأفطرت سريعا مع الإخوة، وبت في الفندق، لآخذ طائرة الخليج في اليوم التالي إلى الدوحة. وأذكر حادثة طريفة وقعت لي في تلك الليلة، فقد كان في حجرتي ثلاجة فيها مشروبات تعمل الكترونيا، وأنا أمّيّ في استخدام الالكترونيات، فقد ضغطت على زر في الثلاجة، لأحصل على مشروب، فإذا بالزر الذي لمسته، ينزل لي (زجاجة ويسكي)!! قلت في نفسي: يا للهول! وماذا أفعل بهذه المصيبة؟! المهم أني لا أستطيع أن أردها إلى موضعها من الثلاجة. وقد سجلت عليّ في حسابي: ثمن زجاجة ويسكي معتّق! وحين نزلت في الصباح لأغادر الفندق، أخذت الزجاجة معي مضطرا لحملها، مع ما ورد في لعن حامل الخمر، ولكني أريد أن تحذف من سجلي في الفندق. واستعنت بأحد الإخوة من الجزائريين، الذين يعرفون الفرنسية، ليُفهم رجال الفندق بالقضية، أني مصر على حذفها من سجلي، وبعد أخذ ورد، وجذب وشد، استجابوا لي، ولله الحمد.

● الملك الحسن الثاني

● عبد السلام ياسين

ابن القرية والكُتّاب

ملامح سيرة ومسيرة (الجزء الرابع)

مذكرات فضيلة العلامة د. يوسف القرضاوي كما كتبها لـ الوطن بخط يده (١٥)

تنفرد **الوطن** بنشر الجزء الرابع من مذكرات العلامة د. يوسف القرضاوي: ملامح سيرة ومسيرة (ابن القرية والكتاب)، وهو يشمل بضعة عشر عاما (حوالي ١٨) من هذه السيرة والمسيرة: وهي سنوات حافلة بالأحداث على المستوى الشخصي في حياة الشيخ المحلي والعربي والإسلامي والعالمي، على المستوى الشخصي يفصح فضيلته لأول مرة عن قصة زواجه الثاني وكيف تطور من عاطفة صادقة إلى زواج على سنة الله ورسوله. كما يتحدث عن تخرج كل أبنائه وتزوج كل بناته. وتعيينه عميدا لكلية الشريعة ومديرا المركز بحوث السنة والسيرة. ونجاحه في الدعوة إلى تأسيس الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية بالكويت. وعمله رئيسا لهيئة الرقابة الشرعية لعدد من المصارف الإسلامية. واختياره عضوا في المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي، وعضوا في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن (مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي) وعضو مجلس أمناء مركز اكسفورد للدراسات الإسلامية، وعضو مجلس أمناء منظمة الدعوة الإسلامية بالخرطوم، وغيرها. وحصوله في هذه الفترة على بعض الجوائز العالمية.

ومن خلال هذه المذكرات سيمر القارئ بمعظم أحداث العصر في منطقتنا العربية والإسلامية، بحكم أن صاحبها يعيش في قلب هذه المنطقة، وقلب هذه الأحداث، وقد قدر له في هذه المرحلة أن يتفاعل بها ومعها متأثرا ومؤثرا.

وتتميز هذه السنوات بأمرين لهما أهمية قصوى في حياة القرضاوي:

الأول: الانتشار الكبير له في أنحاء العالم في الشرق والغرب، وزيارة كل قارات العالم حتى أستراليا، وأميركا الجنوبية، حتى سماه البعض «الشيخ الطائر».

والثاني: ظهور المد الإسلامي أو الصحوة الإسلامية بقوة في تلك المرحلة، والتى يعتبرها الشيخ جزءا منه، كأنما هي ولده وفلذة كبده. وسنتابع نشر المذكرات يوميا بما فيها من تفاصيل يرويها القرضاوي لأول مرة.

بكيت فرحا وأنا أتابع المسيرة المليونية المؤيدة لتطبيق الشريعة في السودان

ولقد تركت المغرب، وليس للناس حديث إلا درس القرضاوي أمام الملك، ورد القرضاوي الشجاع على سؤال الملك، وليس في الأمر شجاعة إلا بيان الحق بصراحة دون التواء.

ولقد قال لي ابننا الحبيب وتلميذنا النجيب فريد شكري، الذي يلقبه إخوانه بالمغرب: القرضاوي الصغير، قال لي: لقد سجلت الدرس على شريط كاسيت، وأعدته مرارا حتى حفظته، ولقد كنت أكره لنفسي، وأكره لمن يطلب سماعه، حتى أزعم أني سمعته حوالي ثلاثمائة مرة!!

إلى جنيف

وفي الصيف سافرت إلى مدينة جنيف في سويسرا، لأشارك في اجتماع هيئة الرقابة الشرعية لدار المال الإسلامي، وكنت عضوا فيها، وقد اصطحبت معي ابني الأكبر (محمدا)، وأردت أن أتيح له فرصة ليتفرج على جنيف. وأهم ما في جنيف هو (البحيرة) التي تطل عليها المدينة، والتي يتمتع المصيفون بالجلوس على مقاعدها، أو التجول حولها، أو ركوب إحدى البواخر التي تطوف بها مُشرِّقة ومُغرِّبة. وقد وجدت هذه أمثل الطرق للاستمتاع بالبحيرة الجميلة، التي لا أكاد أستمتع بها رغم حضوري إلى جنيف مرات ومرات. وقطعت تذكرتين لي ولابني. وكان من المصادفات الطيبة: أن وجدت الأخ الداعية الكبير الأديب الشاعر الأستاذ عصام العطار، الذي لم أره منذ سنوات. وبعد أن تصافحنا وتعانقنا، ذكر لي أبو أيمن قائلا: إن درسك أمام الملك الحسن، قد طبع منه الإخوة المغاربة الألوف المؤلفة من الأشرطة، ونشروه على نطاق واسع في أوروبا، وكان له أثر بالغ في أنفس الكثيرين، فجزاك الله خيرا.

وفي ملتقى الفكر الإسلامي في الجزائر التقيت الأستاذ الدكتور محمد عزيز الحبابي أستاذ الفلسفة في المغرب، وزوجته الدكتورة عائشة، فكان أول ما قاله لي: كان درسك أمام الملك بالغ الروعة، وقد أثر في أبناء المغرب، وشاهده الناس جميعا. قلت لهما: مثل هذه الدروس يهتم بها الناس، فيرونها في التليفزيون، أو يسمعونها في الإذاعة.

قالا: مثل هذه الدروس تلقى باستمرار، ولا يهتم الناس بها، ولا يلتفتون إليها، وخصوصا المثقفين. ولكن لأن هذا درس القرضاوي كان موضع اهتمام الجميع.

قلت في نفسي: ما أعظم ما يملك أصحاب الرسالات الربانية من قوى لا يقدر الخصوم قدرها! كلمة حق قلتها في درس كان لها هذا الصدى الهائل، وهذا التأثير الكبير، وصدق الله العظيم إذ يقول «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» (إبراهيم: ٢٤، ٢٥).

ملتقى الفكر الإسلامي السابع عشر عن الاجتهاد في قسنطينة

صيف ١٩٨٣م

كانت مشاركتي الأولى في ملتقى الفكر الإسلامي السادس عشر في تلمسان: مشاركة مثمرة، وكان إقبال الناس علي كبيرا، مما أخجلني وحمّلني بمشاعر أعجز عن التعبير عنها، وبنعم أحمد الله عليها، وأسأله أن يزيدني منها ويثبتها.

وكان الجميع، وعلى رأسهم الشيخ عبد الرحمن شيبان: يؤكدون على ضرورة وجودي في الملتقيات القادمة، وألا أغيب عنها، ما لم يقهرني قاهر لا أقدر عليه.

ولذلك رتبت أموري على حضور ملتقى قسنطينة، وقد أعلن عن موضوعه، وهو (الاجتهاد) وأعددت بحثا في الموضوع.

وشيء آخر ألزمني بحضور ملتقيات الجزائر، وهو: ما لمسته من أثر غير عادي، وتجاوب غير عادي من شباب الجزائر، ومن إقبالهم عليّ إقبالا أخجلني وسرني في الوقت نفسه. وليس هناك شعور بالسعادة يحسه المرء مثل أن تشعر بحب الناس لك، وأنهم لا يحبونك لمصلحة خاصة، فهذه نعمة جليلة من الله على عبده. ومن شكر هذه النعمة أن نقابل الحب بمثله. والمصريون يرددون في ذلك زجلا لشاعر شعبي معروف، اسمه ابن عروس، يقول فيه:

من حبنا حبناه
وصار متاعُنا متاعُه
ومن كرهنا كرهناه
يحرمْ علينا اجتماعُه

فلا غرو أن أعددت العدة للسفر إلى الجزائر، ولا سيما أن الدعوة قد بلغتني مجددا، والتذكرة قد وصلت، وقد أعددت البحث المطلوب للملتقى بحمد الله وتوفيقه.

وفي الموعد المحدد سافرت من القاهرة إلى الجزائر، حيث كنت مع الأسرة نقضي الأجازة -كالعادة- في مصر.

وصلت إلى مطار الجزائر، فوجدت الإخوة كالعادة في استقبالي، وقد أوصلوني إلى فندق الأوراسي، وفي الجناح المجاور للشيخ الغزالي، كما في المرة السابقة، وأنعم به من جوار، والمثل يقول: من جاور السعيد يسعد. وأنا أحب الغزالي من قديم، وأسعد بالقرب منه دائما، فالقرب منه قربة من الله تعالى.

وصلت إلى الجزائر العاصمة قبل موعد الملتقى بيوم أو يومين، وقبل يوم الافتتاح أقلتنا طائرة خاصة -نحن المدعوين إلى الملتقى- مع وزير الشؤون الدينية ورجاله إلى مقر الملتقى في قسنطينة.

وقسنطينة نسبة إلى قسطنطين إمبراطور الروم الشهير الذي انتقل من الوثنية إلى النصرانية، وإن لم يتنازل عن كل وثنيته، التي طعّم بها النصرانية. ولذا علق بعض علمائنا قديما فقال: إن روما لم تتنصر، ولكن النصرانية ترومت!

وإلى هذا الملك تنسب أيضا مدينة القسطنطينية الشهيرة، عاصمة الدولة الرومانية البيزنطية، لعدة قرون، والتي افتتحها العثمانيون ١٤٥٣م، وسميت إسلامبول أو استنبول.

هذه المدينة هي التي شهدت انطلاقة المصلح الجليل، والمجدد الكبير الشيخ عبد الحميد بن باديس (ت ١٣٥٩ هـ) مؤسس جمعية العلماء، ومحيي النهضة الجزائرية، ومؤسس مجلة (الشهاب)، التي عرفناها من خلال العدد الأول من مجلة (الشهاب) التي أسسها الإمام حسن البنا سنة ١٩٤٧م، وقال: أرجو أن تكون خلفا لشهاب ابن باديس.

كانت جمعية العلماء هي حاملة لواء الإحياء والبعث للشعب الجزائري، بإحياء إيمانه بدينه ولغته العربية، وهما أساس وجوده الديني والقومي، وألّف في ذلك ابن باديس نشيده الذي كان يحفظه الشباب الجزائري ويرددونه:

شعب الجزائر مسلم
وإلى العروبة ينتسب
من قال: حاد عن أصله
أو قال: مات فقد كذب

> **مسيرة الشريعة في عهد النميري لم تنجح لأنها ركزت على قطع يد السارق ولم توفر الخبز للجائع والعمل للعاطل**

وكان مع ابن باديس صفوة من علماء الجزائر الذين تعاهدوا على أن ينهضوا ببلدهم، برغم وجود الاستعمار الاستيطاني المتسلط المتجبر (الاستعمار الفرنسي)، الذي آل على نفسه أن يذوّب (هُويَّة) الجزائر، بإنسانها ودينها ولغتها، فأبى هؤلاء العلماء إلا أن يفسدوا عليه خطته، ويحبطوا مكره الكبير، بإمكاناتهم القليلة. ولكن معهم إيمانهم بالله، وثقتهم بالشعب، وأملهم في الغد.

على رأس هؤلاء العلماء أمير البيان ببلاد المغرب الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، رفيق الشيخ ابن باديس في حياته، وخليفته من بعده، ومنشئ مجلة (البصائر) الشهيرة، والشيخ العربي التبسيّ، وغيرهما.

في قسنطينة كان النشاط الأساسي للشيخ ابن باديس، وفيها مسجده الأخضر، الذي ألقى فيه تفسيره للقرآن الكريم حتى ختمه.

ولا تزال هذه المدينة تغلب عليها نزعة المحافظة على الدين والتراث، من آثار المدرسة الباديسية وتلاميذها حتى اليوم.

وانتهز الإخوة وجود فسحة في الوقت يومين أو ثلاثة قبل الذهاب إلى مكان الملتقى، فرتبوا لي محاضرة في أحد المساجد الكبرى، وقد ذهبت إلى المسجد في الموعد المحدد، فوجدت بحرا زاخرا من الشباب والشابات امتلأ بهم المسجد وساحاته، وقد قدر العدد بأكثر من عشرين ألفا. وكانت استجابتهم رائعة، وحماستهم دافقة، وهتافاتهم بالتكبير والتهليل تكاد تبلغ عنان السماء.

إلى قسنطينة بلد ابن باديس وملتقى الاجتهاد:

ثم رتبت لنا الطائرة الخاصة التي تنقلنا من العاصمة إلى قسنطينة، يقودنا وزير الشؤون الدينية الشيخ عبد الرحمن شيبان.

كان موعدنا إذن مع ملتقى الفكر الإسلامي الثامن عشر في قسنطينة شرقي الجزائر، وموضوعه (الاجتهاد).

كان المسؤولون في وزارة الشؤون الدينية، قد دعوا إلى ملتقى للقرآن الكريم للسنة الثانية في مدينة تلمسان ١٩٨٢م وقد سعدت بشهوده والمشاركة فيه.

واليوم نستكمل هذا التوجه بالدعوة إلى (ملتقى الاجتهاد) فالقرآن والسنة مصدران يمثلان الوحي الإلهي: الوحي المتلو (القرآن) والوحي غير المتلو (السنة) الوحي الجلي والوحي الخفي، ولكن الاستفادة من الوحيين لا تتم إلا بالاجتهاد.

وقد زعم زاعمون أن باب الاجتهاد قد أغلق منذ قرون بعد الأئمة المتبوعين، وبخاصة الاجتهاد المطلق، ولكن الاجتهاد باب فتحه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا يملك أحد أن يغلقه.

وفي كل عصر قد وجدنا علماء كبارا قد بلغوا مرتبة الاجتهاد المطلق، وامتلكوا شروطه وأدواته، وإن لم يعلنوا أنهم مجتهدون.

وفي أواخر القرن التاسع الهجري، وأوائل القرن العاشر: ادعى الإمام المصري الحافظ عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١هـ) الاجتهاد المطلق، وأنكر عليه ذلك كثير من علماء عصره، الذين حصروا أنفسهم في دائرة التقليد، فتحداهم بكتابه المركّز القيم الذي سماه (الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل الاجتهاد في كل عصر فرض)!

وقد ذكر في هذا الكتاب جملة وافرة من العلماء الذين ارتقوا إلى درجة الاجتهاد، وأثرت عنهم اجتهادات خالفوا فيها مذاهبهم التي ينتسبون إليها.

ومن هنا: نرى أن الإخوة في الجزائر قد وفقوا في اختيار هذا الموضوع الحيوي، وقد دعوا إليه نخبة من العلماء المهتمين بقضايا الفكر والاجتهاد، وعلاج مشكلات العصر في ضوء الشريعة الإسلامية، التي يعلن الجميع أنها صالحة لكل زمان ومكان. وإنما تصلح الشريعة بإحياء الاجتهاد. أما الجمود والتقليد والتعصب فلا تحيا بها شريعة، ولا تنهض على أساسها أمة.

الاجتهاد فريضة وضرورة بشروطه

الاجتهاد كما أرى: فريضة وضرورة. فريضة يوجبها الدين، وضرورة يحتمها الواقع. وبغير الاجتهاد سنظل في مكاننا لا نتحرك ولا نتقدم، ولكن جمودنا ووقوفنا في مكاننا: لن يمنع الفلك من التحرك، ولا الأرض من الدوران، سيتطور العالم من حولنا، ونبقى جامدين. والعيب ليس في شريعتنا، ولكن العيب فينا نحن: في عقولنا المتحجرة، أو في عزائمنا الواهية.

ولكن المهم كل الأهمية: أن الشرط الأساسي في الاجتهاد الذي نسعى إليه: أن يكون صادرا من أهله في محله، حتى يحوز القبول، ويمكن العمل به.

ومعنى (من أهله): أن يكون المجتهد مستوفيا لشروط الاجتهاد، التي فصلها علماء أصول الفقه في كتبهم. وهي ليست مستحيلة على من نذر نفسه للعلم، وكان ممن آتاه الله الفطنة والبصيرة. فربط نصوص الشرع الجزئية بمقاصده الكلية، وجعل التراث الفقهي منارا يهديه، لا قيدا يعوقه، واستفاد من تراث الماضي لعلاج مشكلات الحاضر، وذلك بعد تضلعه من علوم الشرع ومن علوم اللغة التي هي آلة لفهم الشرع. كما استنار بمعرفة العصر وثقافته وتياراته، فجمع بين ثوابت الشرع ومتغيرات العصر. وعلم أن للضرورات أحكامها، وأن الله يحب أن تؤتى رخصه، وأنه يريد بعباده اليسر، ولا يريد بهم العسر، وأنه ما جعل عليهم في الدين من حرج.

ومعنى: أن الاجتهاد (في محله): أنه في الدائرة التي يجوز فيها الاجتهاد، وهي دائرة (الظنيات) من النصوص، أو الدوائر التي لم يرد فيها نص ملزم، وهي ما سميناه (منطقة العفو) أخذا من حديث «ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو، فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينس شيئا. ثم تلا «وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا» (مريم: ٦٠).

أما دائرة (القطعيات) التي فصلت فيها نصوص قطعية الثبوت، قطعية الدلالة، فقد حسم فيها الأمر، ولا مجال للاجتهاد فيها، وهي التي أجمعت عليها الأمة، وتوارثتها الأجيال، وأصبحت تجسد وحدة الأمة العملية والسلوكية، بجوار وحدتها العقدية.

وهذه القطعيات هي التي تمثل (الثوابت) التي تحدد هوية الأمة وشخصيتها العقدية والفكرية والأخلاقية، فلا يجوز لمدّع - باسم الاجتهاد - أن يخترقها أويجور عليها.

صلاة الجمعة في يوم الأحد

رفض المشاركون في ملتقى الفكر الإسلامي السابع عشر عن الاجتهاد في قسنطينة الذي كان في صيف ١٩٨٣م ما انتهى إليه اجتهاد أحدهم. وهو الأستاذ ظافر القاسمي من سوريا وهو مورخ وباحث وابن العلامة جمال الدين القاسمي الشهير. وهو خاص بصلاة الجمعة في يوم الأحد.

ذكر الأستاذ القاسمي: أنه كان في سفرة إلى أميركا، ووجد هناك أحد المسلمين الأخيار من الأثرياء، وقد وفقه الله لبناء مسجد يصلي فيه المسلمون ما يسر الله لهم من الصلوات الخمس، ومن صلاة الجمعة.

ولكن يوم الجمعة يوم عمل في أميركا، فلذا كان الاجتهاد الذي طرحه الأستاذ: أن يصلي المسلمون الجمعة في يوم الأحد، يوم إجازتهم.

ورأى الإصرار على صلاة الجمعة في يوم الجمعة من (الجمود) الذي يجب أن نتجاوزه في عصرنا، لنقدر على حل مشاكلنا.

كما رأى أننا لو أخذنا برأي العلامة الطوفي الحنبلي (٧٢٢هـ) في تقديم المصلحة على النص، لحللنا هذه المشكلة، وغيرها من مشاكلنا العصرية!!

اعترض العلماء الحاضرون جميعا على الأستاذ القاسمي، ولم يشفع له: أنه ابن الشيخ جمال الدين علامة الشام، وصاحب (محاسن التأويل في تفسير القرآن، وقواعد التحديث في علوم الحديث) وغيرهما.

وكنت ممن اعترض على الأستاذ القاسمي في عدة نقاط أساسية:

أولها: أن هذا اجتهاد في غير محله، لأنه اجتهاد في أمر قطعي، ثابت بالقرآن والسنة وإجماع الأمة بكل طوائفها ومذاهبها. فقد حددت جميعا لصلاة الجمعة يوما ووقتا، فمن لم يستطع الصلاة في اليوم المحدد، والموعد المحدد: سقطت عنه الفريضة، للعذر. ومن لم يمكنه أن يصلي الجمعة صلاها ظهرا بالاتفاق.

وقد قلت للأستاذ: ماذا تسمي هذه الصلاة المقترحة: أنسميها (صلاة الأحد) أم (صلاة الجمعة)؟

وماذا تقول في قوله تعالى «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ» (الجمعة: ٩) أنغير كلمة (الجمعة) إلى كلمة (الأحد)، وهل نسمي السورة (سورة الجمعة) أو (سورة الأحد)؟

ثانيا: ما ذكره الأستاذ عن الطوفي لا يمثل حقيقة مذهبه في المصلحة:

أ. فهو أولا: لا يعتد بالمصلحة في أمور العبادات، فهي خاصة عنده في النظر المصلحي، لما فيها من اعتبار التعبد والتقرب إلى الله، بغض النظر عن المصالح وغيرها، وسواء أدركنا العلة فيها أم لم ندركها.

ب. وهو ثانيا: لا يقدم المصلحة على النص القطعي الثبوت والدلالة، كما توهم بعضهم ممن لم يجمع كلامه كله، ويربط بعضه ببعض. وقد أثبتنا بطلان هذا القول بالدليل القاطع من كلامه في كتابنا (السياسة الشرعية بين نصوص الشريعة ومقاصدها).

فهذا اجتهاد مردود، وآفة كثير من الاجتهادات المردودة: أنها تصدر من غير متخصصين، بل من أناس مثقفين أقحموا أنفسهم على الشريعة، وهم لم يتفقهوا في علومها، بعضهم أساتذة تاريخ، وبعضهم أساتذة أدب، وبعضهم أساتذة فلسفة أو تصوف أو غير ذلك.

والمشكلة التي ذكرها الأستاذ القاسمي في أميركا قد حلها المسلمون هنا: أن من استطاع صلاة الجمعة صلاها، ومن لم يستطع اجتمع مع إخوانه يوم الأحد في محاضرات ونشاط ثقافي ودعوي وتربوي يستغرق اليوم كله.

كلمة من بعض العلماء اعتذر عنها:

وكان من المدعوين للملتقى فضيلة الشيخ الدكتور عبد المنعم النمر العالم المصري المعروف، والذي رأس تحرير مجلة (الوعي الإسلامي) بالكويت لعدة سنوات ونهض بها، والذي أصبح وكيلا للأزهر بعد ذلك، وكان له رأي في بعض القضايا أيدته فيه، نسيت في أي شيء كان، ولكن فوجئت بأن بعض إخواننا من العلماء المشاركين من بلاد الشام، يقول لي: إن كان ابن بلدك تؤيده وتسانده! فقلت له: سامحك الله يا دكتور، إن بلدي هو الإسلام، فحيثما ارتفعت المآذن تعلن أن لا إله إلا الله محمد رسول الله كان هناك بلدي. ولكني أؤيد ما أرى أنه الصواب أو الأصوب، ولو كان من بلاد واق الواق!

وكان للشيخ النمر اجتهادات في أمور أخرى حول السنّة، وحول الفوائد الربوية، وغيرها، عارضته فيها بقوة وصراحة، ورددت عليه بما لم يستطع الآخرون أن يردوا عليه. فجاء أخونا، وقال: اسمح لي يا فلان، أنا آسف على الكلمة التي قلتها من قبل. فوالله لقد رأيتك تقول الحق دون اعتبار لبلد أو نسب. وكان هذا من إنصافه ورجوعه إلى الحق، واعترافه بالخطأ، وهي شجاعة أدبية يحمد عليها.

بحثي في الملتقى

شاركت في الملتقى بإلقاء بحثي، وبالتعقيب على بحوث المشاركين، والردود على أسئلة الطلاب والطالبات في الجلسات المخصصة لهم. وقد حضر هذه المرة منهم أعداد أكبر، ممّن حضر في الملتقى السابق، وقد خصوني بعدد أكبر من المسألة.

النشاطات المصاحبة للملتقى

كما شاركت في الأنشطة المصاحبة للملتقى من لقاء الطلاب والطالبات في المساء حيث يقيمون في مواقعهم أو مواقعهن، وفي إلقاء بعض المحاضرات الجانبية، وفي إلقاء كلمة قبل الجمعة في المسجد الذي تذاع فيه الخطبة، حيث يمنع المذهب المالكي السائد في الجزائر: أن يكون المسافر إماما للمقيمين في الجمعة.

وكان إقبال الطلبة علي في هذا الملتقى أكثف من قبل، وخصوصا في الاستراحات، فيجتمع الشباب من حولي لتوجيه أسئلة، أو أخذ صورة معي. وكان رجال الأمن هذه المرة قد تنبهوا لوجودي، فكلما وجدوا الشباب من حولي يتحدثون الي أو يستمعون إلي: حاولوا أن يفرقوهم عني برفق، بحجة الإشفاق علي، قائلين: ارفقوا بالشيخ، لا تزعجوا الشيخ.

> **بلدي هو الإسلام في أي مكان وأؤيد ما أرى أنه الصواب أو الأصوب ولو كان من بلاد واق الواق!**

كما كان بعضهم يزورني في حجرتي كلما تيسر لهم ذلك، وقلما كنت أمكث في الحجرة.

وجاء الناشرون يطلبون مني الإذن بنشر كتبي في الجزائر، قلت لهم: ولماذا لا تأخذونها من ناشريها في المشرق؟

قالوا: هناك قيود مشددة على تحويل العملة تجعلنا لا نستطيع الوفاء بحقوق الناشرين المالية. وفي معارض الكتب تأتي من كل كتاب عشرات، أو حتى مئات، فيهجم طالبو الكتب الإسلامية عليها فتنفد بعد ساعات. حتى كان بعض الشباب يبيت أمام المعرض، لتكون له الفرصة الأولى، لأن المعروض قليل، والمطلوب أضعاف ما هو معروض.

ولذلك لم أجد بدا من الإذن لهم بنشر بعض كتبي، واشترطت عليهم ألا ينشروها خارج الجزائر، وحفاظا على حقوق الناشرين الأصليين في مصر وبيروت.

وفي كل سنة يزداد الإقبال على نشر الكتب، وقال لي بعض الناشرين: إن نشر الكتب الإسلامية هو الشيء الوحيد المسموح لنا به. أما ما عدا ذلك فهو ممنوع، لا أحزاب، لا جمعيات، لا نقابات.

قلت: إن نشر الكتب الأصيلة وإرخاص سعرها، وتعميمها على القراء: جدير أن يحدث ثورة ثقافية! وقد فعلوا مع الشيخ الغزالي والشيخ البوطي مثل ما فعلوا معي.

تعريب التعليم

وأريد أن أشير هنا إلى حقيقة مهمة قد تخفى على كثيرين، وهي: أن الصحوة الإسلامية التي نبتت في الجزائر، ثم اشتدت وامتدت، إنما هي ثمرة طيبة لبذرة طيبة، هذه البذرة هي التي أنبتت شجرة باسقة الفروع، وارفة الظلال، هي: تعريب التعليم العام، أعني: تحويله من الفرنسية إلى العربية، في المراحل الابتدائية والإعدادية والثانوية. وهذا يحسب لهواري بو مَدْين الذي أصر على تعريب التعليم ونفذه، مستعينا بالمصريين في ذلك.

ولولا تعريب التعليم ما استطاع شباب الجزائر أن يقرأوا الكتب الإسلامية، وأن تحدث فيهم أثرها، وما استطاعوا أن يفهموا العلماء والدعاة الإسلاميين في الملتقيات وغيرها، ولا أن يستمعوا إلى أشرطة الخطباء والمحاضرين المشهورين.

فالصحوة الإسلامية مدينة لتعريب التعليم، وقد كانت أول دفعة تدخل الجامعة. بعد تعريب التعليم. عندما بدأت زيارتي للجزائر.

ولا سيما أن معظم الشعب الجزائري. حوالي ٧٠٪ منه من الشباب.

المسيرة المليونية في السودان

في سنة ١٩٨٤م دعيت إلى السفر إلى الخرطوم للمشاركة في (المسيرة المليونية) التي دعا إليها الرئيس السوداني جعفر نميري، وشارك فيها بقوة: الإسلاميون، وكل فئات الشعب، وحضر عدد كبير من العلماء من بلاد عربية وإسلامية شتى، أذكر منهم: شيخنا الشيخ محمد الغزالي، وأخانا الداعية الكبير الشيخ صلاح أبو إسماعيل، وكثيرين من علماء العالم الإسلامي لم أعد أذكرهم. وكان النميري في أواخر عهده قد اختار طريق الشريعة الإسلامية، حين رأى أن هذا الطريق هو الذي يحل المشكلات من جذورها، ويقطع الجريمة من دابرها، ويؤسس لتكافل اجتماعي حقيقي بين فئات الشعب، ويدعم مسيرة الطهر والاستقامة في المجتمع، ويقاوم الانحراف والرذيلة فيه، ولاسيما بين القادة والمسؤولين. ثم إن هذا هو (حكم الله) الذي أمر به عباده، وليس (حكم الجاهلية) المستورد، من الغرب أو الشرق، وقد قال تعالى «أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ» (المائدة: ٥٠). وقد أقيم للمدعوين سرادق في مكان متميز في الخرطوم، بحيث يشرفون من موقعهم على المسيرة وهي تمر أمامهم، ممثلة لفئات المجتمع المختلفة، ومهنه المتنوعة، من الجمعيات الخيرية، ومن الطرق الصوفية، ومن النقابات المهنية، ومن التجمعات القبلية، ومن الجماعات السياسية، ومن غير ذلك من الفئات والجهات، التي شملت الشعب كله، وكلها تهتف من أعماقها للشريعة الإسلامية، وللدعوة الإسلامية، وعلى وجوه الناس الفرحة والثقة، وهذا استفتاء صادق للشعب، وقد كان الجو حارا، والمسافة طويلة من بداية المسيرة في الخرطوم إلى منتهاها في أم درمان، ولكن الناس كانوا أقوى من الحر، وأقوى من طول المسافة. وفي الحقيقة كان يوما حافلا، ويوما رائعا، ويوما من أيام الله، وكان كثير من المدعوين - وأنا منهم - تغرورق عينه بالدموع، كلما رأى هذه المناظر الشعبية التلقائية، المؤيدة لشرع الله، وأحكام الله. وكان أخونا الشيخ صلاح أبو إسماعيل يقول في حرقة وحرارة: متى أرى مثل هذه المسيرة في القاهرة؟ أسأل الله ألا يميتنا حتى يقر أعيننا برؤية مثل هذه المسيرة. ولكنه انتقل إلى رحمة الله قبل أن يرى هذه المسيرة.

والحقيقة أن المسيرة في القاهرة موجودة وكامنة، ولا تحتاج إلا إلى الحرية، لتنطلق بأضعاف مسيرة الخرطوم. إن المشكلة هي مشكلة الحرية. ولهذا ناديت مرارا: يجب أن ننادي بتحقيق الحرية، قبل أن ننادي بتطبيق الشريعة الإسلامية.

علام تدل هذه المسيرة؟ إنها تدل على أن شعوبنا مع الشريعة. فما السودان إلا نموذج لسائر الشعوب العربية والإسلامية، فلماذا لا تستجيب حكوماتنا لشعوبنا لتحقيق إرادتها وطموحاتها؟ أليست هذه هي حقيقة الديمقراطية: النزول على رأي الشعب، وإرادة الشعب؟

ولقد سألني بعض الصحفيين في الخرطوم عن رأيي في هذه المسيرة ودلالتها؟ وهل أنت مؤيد لها؟

وقلت في إجابتي: لو لم أكن مؤيدا لها ما جئت من الدوحة إلى الخرطوم، وهل يتصور أن أكون إلا مع الشريعة، إني مع الشريعة لأمرين:

الأول: أنها إرادة الله والثاني: أنها إرادة الشعب.

كل مالي من تعليق هنا هو: ما المراد بـ (الشريعة)؟

للأسف أكثر الناس يفهمون من الشريعة: تطبيق العقوبات والحدود الإسلامية، وهذا جزء من الشريعة، وليس كل الشريعة، ولهذا نزلت أحكامها في أواخر العهد النبوي، وفي أواخر ما نزل من القرآن في سورة المائدة. إن الشريعة تعني: العبادات والمعاملات والقيم والأخلاق والآداب، وليس مجرد الجانب القانوني، وخصوصا الجزء الجزائي والعقابي فيه.

على أن القوانين وحدها لا تصنع المجتمعات، ولكن تصنعها التربية والثقافة والتوجيه، وهي التي تنشئ العقول المستنيرة والضمائر الحية، والإرادات الحافزة إلى الخير، الرادعة عن الشر.

وأود أن أقول: إن مسيرة الشريعة في عهد النميري، لم يقدر لها أن تستمر في خطها الصحيح، لأن التصور للشريعة لم يكن واضحا تمام الوضوح للسلطة التنفيذية، فظنت أنها بمجرد الجلد والقطع والقتل، تنفذ الشريعة حقا. وليس هذا هو كل شيء، فقبل أن تقطع يد السارق، لا بد أن نوفر الخبز للجائع، والعمل للعاطل، والسكن للمشرد، والكفالة لليتيم، والرعاية للمحتاج، ونقيم التكافل الاجتماعي في الشعب. فقبل أن ينزل الله «وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ» (المائدة: ٣٨) أنزل قوله تعالى «وَآتُواْ الزَّكَاةَ» (البقرة: ٤٣) «وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ. الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ» (فصلت: ٦ و٧) «وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ» (آل عمران: ١٨٠) «أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ. فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ. وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ» (الماعون: ١ و٢ و٣).

لابد إذن ان نكفل حاجات الناس، ونسد الثغرات في حياتهم، وأن نعلمهم ونكفيهم، ثم نطبق عليهم العقوبات التي شرعها الله.

ثم إن العقوبات إنما هي لغير الأسوياء، أي لمن شذوا عن القاعدة العامة. والشريعة إنما جاءت لتجعل الناس أسوياء مستقيمين.

● جعفر نميري



● الشيخ صلاح أبو إسماعيل



ابن القرية والكُتّاب

ملامح سيرة ومسيرة (الجزء الرابع)

مذكرات فضيلة العلامة د. يوسف القرضاوي كما كتبها لـ الوطن بخط يده (١٦)

تنفرد **الوطن** بنشر الجزء الرابع من مذكرات العلامة د.يوسف القرضاوي: ملامح سيرة ومسيرة (ابن القرية والكتاب)، وهو يشمل بضعة عشر عاما (حوالي ١٨) من هذه السيرة والمسيرة: وهي سنوات حافلة بالأحداث على المستوى الشخصي في حياة الشيخ المحلي والعربي والإسلامي والعالمي، على المستوى الشخصي يفصح فضيلته لأول مرة عن قصة زواجه الثاني وكيف تطور من عاطفة صادقة إلى زواج على سنة الله ورسوله . كما يتحدث عن تخرج كل أبنائه وتزوج كل بناته . وتعيينه عميدا لكلية الشريعة ومديرا لمركز بحوث السنة والسيرة. ونجاحه في الدعوة إلى تأسيس الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية بالكويت. وعمله رئيسا لهيئة الرقابة الشرعية لعدد من المصارف الإسلامية. واختياره عضوا في المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي، وعضوا في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن (مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي) وعضو مجلس أمناء مركز اكسفورد للدراسات الإسلامية، وعضو مجلس أمناء منظمة الدعوة الإسلامية بالخرطوم، وغيرها. وحصوله في هذه الفترة على بعض الجوائز العالمية.

ومن خلال هذه المذكرات سيمر القارئ بمعظم أحداث العصر في منطقتنا العربية والإسلامية، بحكم أن صاحبها يعيش في قلب هذه المنطقة، وقلب هذه الأحداث، وقد قدر له في هذه المرحلة أن يتفاعل بها ومعها متأثرا ومؤثرا.

وتتميز هذه السنوات بأمرين لهما أهمية قصوى في حياة القرضاوي :

الأول: الانتشار الكبير له في أنحاء العالم في الشرق والغرب، وزيارة كل قارات العالم حتى أستراليا، وأميركا الجنوبية، حتى سماه البعض «الشيخ الطائر».

والثاني: ظهور المد الإسلامي أو الصحوة الإسلامية بقوة في تلك المرحلة، والتى يعتبرها الشيخ جزءا منه، كأنما هي ولده وفلذة كبده . وسنتابع نشر المذكرات يوميا بما فيها من تفاصيل يرويها القرضاوي لأول مرة.

الطالبة أسماء بن قادة تلفت الأنظار بكلمتها في ملتقى الصحوة الإسلامية بالجزائر حول الحجاب

كان من أخطاء التطبيق السوداني للشريعة: أن الدولة في عهد نميري، أفرجت عن المساجين الذين حكم عليهم القضاء السوداني في جرائم السرقة ونحوها، وهم ألوف مؤلفة، فلما أفرج عنهم دفعة واحدة، عادوا إلى مزاولة مهنتهم، وعاثوا في الأرض فسادا، ولم يصدقوا أن أيديهم ستقطع، فقطعت أيد كثيرة في زمن قصير، على غير المعهود في البلاد التي تطبق الشريعة كالسعودية. وكان الإفراج الجماعي والفوري عن هذه الأعداد الكبيرة التي تمرست بالإجرام، خطأ بينا، ولاسيما في أول عهد التطبيق الشرعي، إذ كانوا يحتاجون إلى أن يوضعوا تحت رعاية إسلامية فترة من الزمن، وألا يخرجوا إلا بعد أن يصلوا مرحلة معينة تظهر معها علامات التوبة عليهم، وأن تهيأ لهم أعمال مناسبة يزاولونها، وأن يؤخذ عليهم تعهّد بالاستقامة والبعد عن الرفقة المنحرفة، وأن يوضعوا تحت المراقبة فترة من الزمن، حتى نعينهم على أهواء أنفسهم. ولكن ذلك لم يحصل. ومن ناحية أخرى، أثبتت التجربة: أن الإسلام لا يحسن تطبيقه بحق إلا الملتزمون به إيمانا وفكرا وسلوكا، وكما يقول الماركسيون: لا اشتراكية بغير اشتراكيين، نقول نحن: لا إسلام بغير إسلاميين! ولا غرو أن هذه المسيرة لم يكتب لها النجاح تماما. وقد وقعت لي في ملتقى الصحوة الإسلامية بالجزائر سنة ١٩٨٤ جملة وقائع أو مواقف جديدة بأن أسجلها هنا، لما كان لها من صدى في نفسي، وتأثير في حياتي، أو في موقف الدعوة الإسلامية، والحركة الإسلامية. ملتقى الصحوة الإسلامية بالجزائر سنة «١٩٨٤»

كانت وزارة الشؤون الدينية المنظمة للملتقيات الفكر الإسلامي في الجزائر، قد اختارت موضوع (الصحوة الإسلامية) ليكون محور الملتقى في هذا العام ١٩٨٤ وكانت الوزارة وجهازها المعني بالملتقيات، وعلى رأسه الشاب النابه المثقف المتوقد، عبد الوهاب حمودة وإخوانه يحسنون اختيار الموضوعات، فقد عقدوا مؤتمرا عن القرآن، ثم عن السنة، ثم عن الاجتهاد، ثم هذا عن الصحوة.

وكانت الصحوة قد فرضت نفسها على الواقع العربي والإسلامي، والواقع العالمي، حتى ان أميركا قد رصدت عشرات الملايين - إن لم تكن مئاتها - من الدولارات لرصد هذه الصحوة ودراسة نواحي قوتها وضعفها. وعقدت لذلك عشرات الندوات وأصدرت العديد من الدراسات.

فلا غرو أن تكون الصحوة محور ملتقانا هذا العام في الجزائر الشقيقة. وقد أصبح حضوري في هذه الملتقيات فرضا عليّ، بعدما حضرت أول مؤتمر في تلمسان، والثاني في قسطنطينية، وعرفت مدى أهمية مشاركتي، وأن غيابي عن هذه الملتقيات بغير عذر قاهر يعتبر فرارا من الميدان. وخصوصا بعدما شاهدته من استقبال الشعب الجزائري لي، ولا سيما شبابه، واحتفاء وزارة الشؤون الدينية بي وحرصها على حضوري، وتأكيدها لذلك بكل وسيلة، ولا سيما وزيرها ابن جمعية العلماء، وتلميذ الشيخ ابن باديس رحمه الله: الشيخ عبد الرحمن شيبان، الذي كان يعاملني وشيخنا الغزالي، معاملة متميزة قد لا أراني أهلا لها. ويزداد حرصي على هذا الملتقى أكثر من غيره؛ لأن موضوعه من الموضوعات التي تهمني، وتشغل فكري وقلبي، فأنا أنظر لهذه الصحوة كما أنظر لولدي وفلذة كبدي. أحنو عليها وأحرسها من كل ما يسوءها أو يسيء إليها، من خصومها أو من أنصارها. وقد نذرت نفسي لإمدادها بالوقود حتى لا تخمد شعلتها، وإمدادها بالغذاء حتى لا تضعف قوتها، وإضاءة المصابيح في طريقها حتى لا تتعثر مسيرتها.

وقد كتبت في ذلك بعض الكتب إسهاما مني في إنارة الطريق لأبناء الصحوة، منها كتابي (الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف) وهو الذي نشرته مجلة (الأمة) في كتابها الثاني بعد كتابها الأول (مشكلات في طريق الحياة الإسلامية) للشيخ الغزالي. كما نشرت مقالات (أين الخلل؟) في مجلة الأمة، التي جمعت في كتاب بعد ذلك. منبها فيها على (الخلل) في مسيرة (الأمة الإسلامية)، والخلل في مسيرة (الحركة الإسلامية).

التعرف على محمد أركون

كان أول موقف: أني تعرفت في طريقي من مطار الجزائر إلى فندق الأوراسي على الدكتور محمد أركون. فقد ركب معي السيارة التي تقلنا معنا.

وقد سألته من الأخ الكريم؟ ومن أي البلاد قدمتم؟

قال: أنا د. محمد أركون، جزائري الأصل، أعمل في جامعة السوربون في باريس، في قسم الدراسات الإسلامية.

قلت: لابد أن لك إنتاجا علميا يتحدث عن الإسلام، مادام هذا تخصصك؟

قال: نعم، ولكني أكتب بالفرنسية.

قلت: مع إني أراك تتحدث العربية بوضوح.

قال: ولكنا نريد أن نخاطب الفرنسيين بلسانهم حتى يفهمونا.

قلت: في هذا معك حق. ولكن مثلي ممن لا يعرف إلا العربية، لن يكون له حظ منها.

ثم استطردت قائلا: كان بعض شيوخنا من علماء الأزهر الكبار، يجيدون الفرنسية، وكتبوا بها، مثل الدكتور محمد عبد الله دراز، والشيخ الدكتور عبد الرحمن تاج شيخ الأزهر، والشيخ الدكتور محمد يوسف موسى، والشيخ الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر أيضا وغيرهم. ومع هذا ظلوا أوفياء لدينهم ولهويتهم ولحضارتهم وأمتهم.

وكان بعض زملائنا قد تعلم الفرنسية بجهده الشخصي حتى أتقنها وأصبح يترجم منها إلى العربية، مثل صديقنا الدكتور عبد الصبور شاهين، الذي ترجم عددا من كتب الأستاذ مالك بن نبي إلى العربية، وهو جزائري مثلك أيضا، وأعتقد أنك تعرفه.

قال: نعم، هو مهندس يهتم بأمر الدين.

قلت: اعتقد أنه أكبر من ذلك، إنه معدود من المفكرين الإسلاميين، وله رؤية في النهضة والإصلاح والتجديد الحضاري.

وكأنما لم يرد أن يعقب على كلامي، ولكنه قال: سألتني فضيلتك عن اسمي ولم أسألك عن اسمك.

قلت: اسمي: يوسف القرضاوي، عالم أزهري لا يعرف غير العربية، ويعمل أستاذا في جامعة قطر لا جامعة السوربون!

قال: عرفنا اسمك قبل أن نراك.

كانت هذه أول مرة ألقى فيها أركون، ولم أكن أعرف عنه شيئا من قبل، ولكن تعليقه على مالك بن نبي، أعطاني مؤشرا على اتجاهه.

> **مشادة بيني وبين محمد أركون في ملتقى الصحوة الإسلامية بالجزائر بسبب تعاليه وتطاوله على الإسلاميين**

محاضرة حاشدة في أحد المساجد

وكان الموقف الثاني في هذا الملتقى، هو: أن الأخوة في الشؤون الدينية، قد فكروا أن يكون لي بعض النشاط الخاص قبل الملتقى وأثناءه، لهذا دعوا لإلقاء محاضرة حاشدة في أحد المساجد الكبرى في العاصمة، قبل أن يبدأ المؤتمر، فقد حضرت قبله بعدة أيام، وقد تسامع الشباب بهذه المحاضرة، فجاءوا من كل حدب وصوب، وامتلأ بهم المسجد، وما حوله من الميادين والطرقات، حتى قدر بعضهم الحضور بنحو عشرين ألفا. فكان هذا دليلا على قوة الصحوة في الجزائر، وأنها طفقت تستقطب الشباب والشابات، وتصهرهم في بوتقتها، وتنميهم في تربتها (كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه).

وأذكر أن موضوع محاضرتي كان عن (الجيل المسلم) الذي ننشده لنصرة الإسلام، وما يجب أن يكون عليه من الصفات الإيمانية، والخلقية والفكرية، وإننا لا نريد جيلا منغلقا على نفسه، أو معزولا عن مجتمعه، أو متعاليا على أهله ومن حوله. بل نريده عضوا حيا في جسم الأمة، تمده بالغذاء، ويمدها بالدم في عروقها.

مشادة مع أركون في الملتقى

وكان من المواقف المهمة في (الملتقى): أن أكون الذي التقيته بمحض الصدفة في طريقي إلى الفندق، قد كشف اللثام عن هويته، وعن اتجاهه الفكري، وأن أستاذ الدراسات الإسلامية المشارك في ملتقى الصحوة الإسلامية لا يؤمن بالصحوة الإسلامية، ولا بالدعوة الإسلامية، ولا بالأمة الإسلامية، ولا بالثقافة الإسلامية، ولا بالشريعة الإسلامية، وأن له رؤيته الخاصة في ذلك كله، المخالفة لرؤانا جميعا: الغزالي وأنا والبوطي وكل العلماء والدعاة والمفكرين، الحاضرين منهم والغائبين.

وهو يرى أننا نعتمد على (خطابات) غير علمية ولا موضوعية، لأننا لا نستخدم مصطلحاته ومصطلحات زملائه، فنحن نقول الإسلام والإسلامية، وهم يقولون: الإسلاموية، ونقول التاريخية، ويقولون: التاريخوية، والتاريخانية، ولا أدري ما المعايير التي يعتمدونها في زيادة الواو في النسب (تاريخوية) أو زيادة الألف والنون (تاريخانية). وعلى أي قاعدة من قواعد النحو أو الصرف أو البلاغة يقيمون أبنيتهم المحدثة؟!

كانت محاور الصحوة كلها تدور حول ترشيد الصحوة، وتسديد مسيرتها، وعلاج أمراضها، ووقايتها من الانحراف، وحمايتها من أن تتآكل من الداخل، أو تضرب من الخارج، وتوفير أسباب الصحة لها، والرقي

● د. عبد الصبور شاهين

بها فكرا وأداء.

وكانت ورقتي حول تطوير الصحوة، والانتقال بها من طور إلى طور، وتمثل ذلك في عشرين نقطة حددتها، وعرضتها على المشاركين في الملتقى، وشرحت كل نقطة منها شرحا مركزا مختصرا يلقي شعاعا عليها، ويكشف عنها الغموض والإجمال، وإن لم يستوف شرحها.

ويكفيني هنا أن أشير إلى عناوين هذه النقاط العشرين، التي تمثل الخطوط العريضة لمستقبل الصحوة المنشود، في فهم الإسلام، والدعوة إليه، والعلاقة بالآخرين من العاملين له، والقاعدين عنه من أبناء أمته، ومن الجاهلين به، والخائفين منه، والطامعين فيه، والحاقدين عليه، من غير أمته.

لا بد أن تنتقل دائرة الاهتمام والتركيز:

١- من الفروع والجزئيات إلى الأصول والكليات.

٢- من النوافل إلى الفرائض.

٣- من المختلف فيه إلى المتفق عليه.

٤ - من أعمال الجوارح إلى أعمال القلوب.

٥- من طرفي الغلو والتفريط إلى الوسطية والاعتدال.

٦- من التعسير والتنفير إلى التيسير والتبشير.

٧- من الجمود والتقليد إلى الاجتهاد والتجديد.

٨- من الكلام والجدل إلى العطاء والعمل.

٩- من العاطفية والارتجال إلى العلمية والتخطيط.

١٠- من التعصب على المخالفين في الرأي إلى التسامح معهم.

١١- من الإثارة إلى التفقيه (أو من أسلوب الوعاظ إلى أسلوب الفقهاء، أو من حماس المنبر إلى هدوء الحلقة).

١٢- من الكم إلى الكيف (أو من الاهتمام بتزايد الأعداد ولو على حساب التربية إلى العناية بالتربية ولو على حساب العدد).

١٣- من سماء الأحلام إلى أرض الواقع (أو من المثالي المنشود إلى الممكن الموجود).

١٤- من الاستعلاء على المجتمع إلى المعايشة له (أو من موقف ممثل الاتهام إلى موقف الطبيب).

١٥- من الانكفاء على الماضي إلى معايشة الحاضر، والإعداد للمستقبل.

١٦- من الاستغراق في العمل السياسي إلى الاهتمام بالعمل الاجتماعي.

١٧- من اختلاف التضاد والتشاحن إلى اختلاف التنوع والتعاون.

١٨- ومن إهمال شؤون الحياة إلى التعبد بإتقانها.

١٩- من الإقليمية الضيقة إلى العالمية الواسعة.

٢٠ - من الإعجاب بالنفس إلى محاسبة النفس (أو من الغلو في إثبات الذات إلى نقد الذات).



● د. محمد أركون

● أسماء بن قادة

هذه هي المنطلقات العشرون والتي اعتبرت بمثابة (ورقة عمل) لتوجيه الصحوة الإسلامية. وقد ضممت بعضها إلى بعض، فأصبحت عشر نقاط قام عليها كتابي (الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد).

وقد استقبل المشاركون في المؤتمر كلمتي بالترحيب والقبول والثناء، إلا واحدا، زعم أن الإسلاميين يستخدمون لغة العاطفة والإثارة، وليست اللغة العلمية، التي تحلل وتفكك وتركب، وتعتمد على علوم اللسانيات والإبستمولوجيا والانطولوجيا وما شابه ذلك.

لقد رد الكثيرون على أركون: رد عليه الشيخ الغزالي، ورد عليه الدكتور البوطي، الذي قال: إنَّ كلام الأستاذ القرضاوي كلام علمي مائة في المائة، وإن كان صوته مرتفعا فهذه طبيعته، ورد عليه كثيرون لم أعد أذكرهم لطول المدة، لأن نقده كان منصبا على الجميع، وليس عليّ وحدي. وهو ينظر بتعال وانتفاخ منكور، إلى هؤلاء العلماء الذين لا يتكلمون غير العربية، ولا يعرفون (اللوجيا).

وقد عرفت أن هذه لم تكن المرة الأولى لأركون، فقد شارك في الملتقيات مرة قبل ذلك، وثار عليه الكثيرون.

معركة جدلية حول الحجاب

وكان من المواقف المهمة التي شهدها كل المشاركين معي في (الملتقى): ما جرى من حديث اشتدّ، ونقاش احتدّ، حتى التهب وامتدّ، حول قضية (الحجاب). والحجاب مصطلح اشتهر بين الناس يعنون به (الخمار) أو غطاء الرأس المذكور في القرآن في سورة النور في قوله في توجيه المؤمنات «وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ» (النور ٣١).

ولا ينازع مراقب أو دارس: أن من أبرز آثار الصحوة المعاصرة في جانب المرأة، هو: ارتداؤها الحجاب، طوعا واختيارا، لا قسرا ولا إجبارا، فهي حركة نسائية خالصة دافعها الإيمان وتقوى الله تعالى، والحرص على رضاه.

وقد تجلت في كل بلادنا العربية والإسلامية، كما تجلت في الجزائر بصفة خاصة، ولم تفلح محاولات (الفرنسة) التي حاولها الاستعمار الاستيطاني الفرنسي المتجبر، أن تقتلع هوية المسلمة من جذورها، فسرعان ما عادت إلى حظيرتها، والتحقت بركنها، واصطلحت على ربها. وقد حاول كثيرون وكثيرات من الكتاب: أن يهونوا من أمر الحجاب، الذي غدا يعد من أكبر انجازات الصحوة في ميدان السلوك الاجتماعي، قائلين: إن المهم هو ما في داخل الرأس من أفكار، وليس ما يغطيها من حجاب أو خمار.

والحق أن هذا نوع من المغالطة، فنحن لا نوازن، ولا نعارض بين الخمار على الرأس، والأفكار في داخلها. وما يمنع المسلمة أن تملأ رأسها بفكر نيّر صحيح،



● د. عبد الحليم محمود

وتغطيه بخمار محتشم سابغ؟! والواقع أن الحجاب ليس من أركان الإسلام، ولا من فرائضه الأساسية، ولكنه في الوقت نفسه فريضة دينية بإجماع الأمة بكل مذاهبها ومدارسها، وهو أيضا رمز للتحدي والصمود أمام خصوم الصحوة، وهو يعد انتصارا هائلا بالنسبة للمرأة التي كانت في عدة عقود مضت قد سارت وراء المرأة الغربية، شبرا بشبر، وذراعا بذراع.

ولقد تحدثت إحدى المشاركات، فقالت: لماذا التركيز على الحجاب، وهل الصحوة الإسلامية صحوة لباب أو صحوة حجاب؟

وتقول: إنها صحوة لباب وحجاب؛ لأنها صحوة التزام وآداب. وقامت أستاذة جامعية معروفة من المشاركين في الملتقى، وقالت كلمة ترد فيها على الذين يعظمون أمر الحجاب، قائلة: إن الله لا ينظر إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم، واسترسلت في حديثها مندّدة بالداعيين إلى الحجاب، والداعيات إليه.

أسماء بن قادة تخطف الأضواء

وهنا انبرت للرد على هذا التيار فتاة جزائرية لم تزل طالبة في الجامعة، طلبت من رئاسة الجلسة: أن تعتلي المنصة لتقول كلمتها، فأذنت لها، ففاجأت الجميع بمنطق رصين، ولسان مبين، وحجة دامغة، وأفكار عميقة، ورؤية بصيرة، فبهرت الأبصار، وشدت الأسماع والأنظار، وأقنعت العقول والأفكار. وكان مما قالته: إن الفتاة المحجبة أثبتت وجودها في كل مكان: طالبة وموظفة وباحثة. وقد رأينا الطالبة الأولى في البكالوريا، وهي . بفضل الله تعالى . محجبة، وقد تسلمت جائزتها من يد رئيس الجمهورية!

قالت الفتاة: ماذا يضيركم أن تجمع المحجبة بين دينها ودنياها؟ أن ترضي ربها، وتعمل لرقي نفسها وقومها؟

كانت كلمات الطالبة مندفعة كالسيل، واضحة كالشمس، فقابل المشاركون كلماتها بالهتاف والتكبير. لقد أعجب المستمعون بفصاحة لسانها، ونصاعة بيانها، ورباطة جأشها، وثقتها بنفسها، وشجاعتها في إبداء رأيها، وقدرتها على التعبير عن نفسها. وما كادت تنزل من فوق المنصة حتى هرول إليها الصحفيون والإعلاميون من داخل الجزائر ومن خارجها، يلتقطون لها صورا، ويجرون معها أحاديث، وكان من أسبقهم إلى ذلك مدير تحرير مجلة (الأمة) القطرية التي اشتهرت في ذلك الحين، الأستاذ: عمر عبيد حسنة، وقد أجرى معها حوارا، نشره في العدد اللاحق للأمة، معه صورة لها. كانت هذه الفتاة هي أسماء بن قادة!

وقد بادرت إليها لأحيّها وأشجعها، وأعبر لها عن إعجابي بكلمتها، ولكن وجدت الكثيرين قد التفّوا حولها، فأجّلت ذلك إلى حين.

> **من أبرز آثار الصحوة المعاصرة في جانب المرأة ارتداؤها الحجاب طوعا لا إجبارا بدافع الإيمان والتقوى**

لقاء مع الطالبات في مسكن (بوزرّيعة):

وكان من المواقف المهمة في ذلك الملتقى: لقائي مع الطالبات في المسكن الجامعي المعروف في منطقة (بوزَرّيعة).

وكان مع كل ملتقى نشاط مصاحب، يشتمل على محاضرات ودروس، ودرس جمعة، ولقاءات بالطلاب والطالبات، وزيارة لبعض القرى والبلدان القريبة من مدينة الملتقى، ونحو ذلك. وكنت حريصا كل الحرص على القيام بهذا النشاط، فقد كنت اعتبره جزءا من الواجب عليّ لأهل الجزائر في هذه المرحلة. ولهذا كنت أكلف في كل ملتقى بلقاء الطلاب والطالبات، في المدارس أو الجامعات التي يقيمون فيها، أو يقمن فيها، وغالبا ما يكون هذا اللقاء في الليل بعد انتهاء العمل اليومي للمؤتمر.

من ذلك: اللقاء المشهود في مسكن بو زرّيعة، في إحدى ليالي الملتقى، وكانت عادتي أن ألقي محاضرتي، ثم افتح الباب لتلقي الأسئلة مكتوبة في العادة، ولا مانع أن تكون مشافهة، وإن كانت أغلبية الفتيات يفضلن المكاتبة على المشافهة، لما فطرهن الله عليه من الحياء الذي هو زينة المرأة المسلمة وحليتها.

ومما أذكره من الأسئلة التي وجهت إليَّ في تلك الليلة: سؤال غير عادي، ولا يتعلق بمشكلة علمية، ولا بمشكلة فردية أو أسرية، ولكنه سؤال له معنى خاص، ومغزى خاص، ولهذا ما زال حيا شاخصا في ذاكرتي.

قال لي الطالبات، أو قالت إحداهن متحدثة عنهن: نريد أن نسألك يا أستاذ سؤالا خاصا وصريحا، ونريد أن تجيبنا عنه أيضا جوابا حرا صريحا، وهو: هل يمكن أن تحب المرأةُ الرجلَ في الله عز وجل؟ وتثاب على ذلك ثواب المتحابين في الله تعالى؟

كان السؤال مفاجئا لي؛ ولكني لم أهرب من الإجابة عنه، وقلت: نعم يمكن أن تحب المرأة الرجل في الله، كما يمكن أن يحب الرجل المرأة في الله.

المهم أن يتحقق معنى الحب في الله، وهو أن يتأكد المرء أن حبه لله حقا، أي لا لدنيا ولا لشهوة خفية، ولا لغرض مادي، وإنما يحب من يحبه، لدينه وإخلاصه لله وبذله لدينه ونصره له.

يكون هذا من المرأة للرجل، ومن الرجل للمرأة. أنا مثلا أستطيع أن أقول: إني أحب الأخت المؤمنة الحاجة زينب الغزالي في الله؛ لما قدمته لدينها ودعوتها من جهد وتضحية وصبر على البلاء والأذى في سبيل الله.

والدليل على هذا قوله تعالى «الأَخِلاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ» (الزخرف: ٦٧) ومن هؤلاء المتقين رجال ونساء متحابون في الله، ومتحابات في الله. وكذلك الأحاديث الكثيرة التي جاءت تحث على الحب في الله، وأن المتحابين في الله يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله، وأنهم على منابر من نور يوم القيامة. وهذه النصوص العامة تشمل الرجال والنساء جميعا إذا أحب بعضهم بعضا في ذات الله تعالى. وهنا قال عدد من الطالبات المشاركات في نفس واحد: نشهد يا أستاذ أننا نحبك في الله!! وهنا لم أملك عيني من الدموع. وأنا رجل قريب الدمعة، إذا تأثرت بموقف إيماني أو إنساني، سرعان ما تغرورق عيناي! وأثر ذلك في الطالبات، فبكى الكثير منهن.

وهنا قلت للطالبات: أما وقد قلتم ما قلتن، فلا بد لي أن أخبركم بالسنة الإسلامية المطلوبة في هذا الموقف: وهما سنتان:

الأولى: إذا أحب الإنسان إنسانا في الله، فليبادر بإخباره، كما في الحديث: «إذا أحب أحدكم أخاه فليخبره» وذلك لما في الإخبار من سروره وتبشيره بالخير، وتوثيق الرابطة بينهما. الثانية: أن يدعو المحبوب لمن يخبره بأنه يحبه في الله قائلا: أحبك الذي أحببتني من أجله، أيْ أحبك الله.

حديث عفوي بيني وبين أسماء بن قادة

وكانت ليلة حافلة جياشة بالعواطف والمواقف. وقد ودعتني الطالبات بمثل ما استقبلتني به من المودة والابتهاج، وكان في وداعي عدد منهن صحبني إلى الباب، وقد استرعى انتباهي إحداهن، وزميلاتها يناديها باسمها: أسماء. فقلت لها: هل أنت أسماء صاحبة الكلمة على المنصة؟ قالت نعم: أنا هي. فلما نظرت إليها عن قرب: قلت: سبحان الله! لقد جمع الله لك يا أسماء بين الجمال الحسي، والجمال الأدبي، أعطاك الله الذكاء والبيان، وحضور الشخصية، والجمال والقوام. بارك الله لك يا ابنتي فيما منحك من مواهب، وبارك لك في فصاحتك، وبارك لك في شجاعتك، وبارك لك في ثقافتك. لقد أثلجت صدورنا بردك القوي البليغ.

فقالت: لعل كلمتي حازت رضاك يا أستاذ!

قلت: أكثر من الرضا، ولست وحدي، ولكن كل المدعوين من العلماء والدعاة عبروا عن رضاهم وإعجابهم. زادك الله توفيقا.

قالت: ما أنا إلا تلميذة من تلميذاتك وتلامذتك الكثيرين هنا، لقد تتلمذنا على كتبك من بعيد، ونتتلمذ عليك اليوم مباشرة من قريب. وقد رأيت وسمعت كيف يحبك الجميع.

قلت: إذا كان تلاميذي على هذه الدرجة من نضج التفكير، وبلاغة التعبير، فقد يغرّني هذا كأستاذ!

قالت: كتبك العلمية والفكرية ساعدتنا على أن نستكمل ثقافتنا الإسلامية، وأسلوبك الأدبي والشعري ساعدنا على أن نقوِّم تعبيرنا العربي، وقد كنا نتدارس كتبك في حلقاتنا التربوية.

قلت: وهل عرفتم شيئا عن شعري؟

قالت: نحفظ نشيد (مسلمون) وكنا نتغنى به في لقاءاتنا الإسلامية، وننشده بصورة جماعية، فيثير فينا الحماس والاعتزاز.

كما نحفظ بعض الأبيات من قصيدتك (النونية).

قلت: في أي الكليات تدرسين؟ وفي أي التخصصات؟

قالت: في كلية العلوم والتكنولوجيا، وفي قسم الرياضيات.

قلت: يا سبحان الله! كنت أحسب أنك في كلية شرعية أو أدبية. أنت مثل بناتي الأربع، كلهن في تخصصات علمية.

وعلى فكرة، ابنتي الصغرى اسمها أيضا أسماء، وأظنها في مثل سنك.

قالت: أرجو أن تبلغها تحياتي.



ابن القرية والكُتّاب

ملامح سيرة ومسيرة (الجزء الرابع)

مذكرات فضيلة العلامة د. يوسف القرضاوي كما كتبها لـ الوطن بخط يده (١٧)

تنفرد **الوطن** بنشر الجزء الرابع من مذكرات العلامة د.يوسف القرضاوي: ملامح سيرة ومسيرة (ابن القرية والكتاب)، وهو يشمل بضعة عشر عاما (حوالي ١٨) من هذه السيرة والمسيرة: وهي سنوات حافلة بالأحداث على المستوى الشخصي في حياة الشيخ المحلي والعربي والإسلامي والعالمي، على المستوى الشخصي يفصح فضيلته لأول مرة عن قصة زواجه الثاني وكيف تطور من عاطفة صادقة إلى زواج على سنة الله ورسوله . كما يتحدث عن تخرج كل أبنائه وتزوج كل بناته . وتعيينه عميدا لكلية الشريعة ومديرا المركز بحوث السنة والسيرة. ونجاحه في الدعوة إلى تأسيس الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية بالكويت. وعمله رئيسا لهيئة الرقابة الشرعية لعدد من المصارف الإسلامية. واختياره عضوا في المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي، وعضوا في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن (مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي) وعضو مجلس أمناء مركز اكسفورد للدراسات الإسلامية، وعضو مجلس أمناء منظمة الدعوة الإسلامية بالخرطوم، وغيرها. وحصوله في هذه الفترة على بعض الجوائز العالمية.

ومن خلال هذه المذكرات سيمر القارئ بمعظم أحداث العصر في منطقتنا العربية والإسلامية، بحكم أن صاحبها يعيش في قلب هذه المنطقة، وقلب هذه الأحداث، وقد قدر له في هذه المرحلة أن يتفاعل بها ومعها متأثرا ومؤثرا.

وتتميز هذه السنوات بأمرين لهما أهمية قصوى في حياة القرضاوي :

الأول: الانتشار الكبير له في أنحاء العالم في الشرق والغرب، وزيارة كل قارات العالم حتى أستراليا، وأميركا الجنوبية، حتى سماه البعض «الشيخ الطائر».

والثاني: ظهور المد الإسلامي أو الصحوة الإسلامية بقوة في تلك المرحلة، والتى يعتبرها الشيخ جزءا منه، كأنما هي ولده وفلذة كبده . وسنتابع نشر المذكرات يوميا بما فيها من تفاصيل يرويها القرضاوي لأول مرة.

قصة زواجي الثاني.. وكيف تطور الإعجاب إلى حب فزواج

من عالم العقول إلى عالم القلوب

كان الحديث العفوي الذي دار بين تلميذة وأستاذها، أو بين مريدة وشيخها، أي بيني وبين الطالبة النابهة اللامعة أسماء بن قادة بداية تعارفنا.

ولم أكن أدري أن القدر الأعلى الذي يخط مصائر البشر، قد خبأ لي شيئا لا أعلمه، فقد حجبه عني ضمير الغيب. وأن هذا الحديث التلقائي بيني وبين أسماء - الذي لم يتم بعده لقاء بيننا إلا بعد سنتين كاملتين - كان بداية لعاطفة قوية، أدّت لعلاقة وثيقة، انتقلت من عالم العقول إلى عالم القلوب، والقلوب لها قوانينها وسننها التي يستعصي فهمها على كثير من البشر، وكثيرا ما يسأل الإنسان: ما الذي يحوّل الخليّ إلى شجيّ؟ وما الذي يربط رجلا من قارة بامرأة من قارة أخرى؟ أو ما الذي يحرك القلوب الساكنة، فتستحيل إلى جمرة ملتهبة؟ حتى ترى النسمة تتطور إلى إعصار، والشرارة تتحول إلى نار!

ولا يجد المرء جوابا لهذا إلا أنه من أسرار عالم القلوب. ولا غرو أن كان من تسبيح المؤمنين: سبحان مقلب القلوب! وقد قال الشاعر:

وما سُمِّيَ الإنسان إلا لنسيه
وما القلب إلا أنه يتقلب!

وفي الحديث «إن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء» وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقسم بين نسائه ويسوي بينهن في الأمور الظاهرة، ثم يقول «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك» يعني: أمر القلب!

فقد شاء الله أن يتطور الإعجاب إلى عاطفة دافقة، وحب عميق. لا يدور حول الجسد والحس كما هو عند كثير من الناس، بل يدور حول معان مركبة، امتزج فيها العقل بالحس، والروح بالجسم، والمعنى بالمبنى، والقلب بالقالب، وهذا أمر لا يعرفه إلا من عاشه وعاناه.

كما قال الحكيم: من ذاق عرف!

وكما قال الشاعر:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها!

وقد يعذل العاذلون، ويلوم اللائمون، ويعنّف المعنفون، ويقول القائلون: لم؟ وكيف؟ كيف يحب الأستاذ تلميذته؟! أم كيف يحب الشيخ الكبير فتاة في عمر بناته؟! وهل يجوز أن يكون لعالم الدين قلب يتحرك ويتحرق مثل قلوب البشر؟

ولا جواب عن ذلك إلا ما قاله شوقي في نهج البردة:

يا لائمي في هواه والهوى قدر
لو شفّك الوجد لم تعذل ولم تلم

على أن أساس هذا العذل واللوم هو أن كثيرا من الناس يهبطون بهذه العاطفة النبيلة (عاطفة الحب) إلى أنها تعلق جسد بجسد، وهو تصور غير صحيح، وتصوير غير صادق، وإن صدق في بعض الناس، فليس يصدق في الجميع. وقد وصفت هذا الحب، فقلت:

حب أرواح تسامت
عن سُعار واشتهاءْ
فليقل من شاء: هذا
الحب وهم وغباء
ليس في عالمنا حب سوى حب البقاء
ليس في الدنيا سوى حب سباع لظباء
نحن في عصر الحواسيب وغزْوات الفضاء
فذرونا من جوى قيس وليلى والبكاء
فليكن عصركم ما شئتمو يا أذكياء
إن دنياكم بغير
الحب قشر وغثاء
إنها مبنى بلا معنى
ورسم في الهواء
إنها تمثال إنسا
ن من الروح خواء
إن سر الكون في حرفين:
في حاء وباء!

أسماء بنت الصحوة

فقد كانت أسماء من بنات الصحوة الإسلامية، في الجزائر، ومن زهرات ملتقيات الفكر الإسلامي، وكانت بعد كلمتها في ملتقى الصحوة بالعاصمة: معروفة لدى رموز الملتقى وشيوخه الكبار، قريبة منهم، كالشيخ الغزالي، والدكتور البوطي والفقير إليه تعالى. وكنت أقربهم إليها، وكانت تدهش الجميع بأسئلتها الواعية، ومقترحاتها المفيدة. ولم تكن فتاة معقدة ولا مرتبكة. بل بدا لكل من اقترب منها: أنها فتاة مثقفة ثقافة متوازنة ومتكاملة، علمية وأدبية، دينية ودنيوية، شرعية وعصرية، وأنها مع إتقانها للغة الفرنسية - التي يتقنها النخب من الجزائريين - تتقن العربية بصورة تلفت الأنظار.

وأنها قارئة جيدة لتراث مالك بن نبي، كما قرأت لعدد من العلماء والمفكرين الإسلاميين في المشرق العربي، وعلى رأسهم الشيخ الغزالي، والعبد الفقير، وكل كبار الكتاب الإسلاميين على اختلاف مدارسهم وعروقهم وبلدانهم. بل قرأت لغير الإسلاميين أيضا، ولكنها تقرأ قراءة من يفحص وينقد وينتقي.

وكان لها نشاطها الدعوي والثقافي في المساجد والأندية، وفي المعاهد والجامعات، وفي الإذاعة والتليفزيون الجزائري، بل كانت هي أول فتاة جزائرية محجبة تظهر على الشاشة الصغيرة، وتجتذب المشاهدين والمشاهدات.

ومع هذا لم تقبل أن تنتسب إلى أيٍّ من الجماعات أو المدارس الفكرية أو الدعوية على الساحة الجزائرية. حاول من يسمونهم: دعاة (الجزأرة) أن يضموها إليهم فاستعصت عليهم، وحاول دعاة الإخوان أن يجروها إلى جماعتهم، فأبت عليهم أيضا. بل دعتها الأخوات (القبيسيات) المعروفات بالعمل الدعوي والتربوي في سوريا إلى زيارتهن هناك، ونزلت ضيفة عليهن مدة من الزمن، وكن يطمحن إلى أن يكسبنها كجماعتهن، فلم يمكنهن ذلك.

وكانت لأسماء صديقة تعد من داعيات جماعة الإخوان (جماعة الشيخ محفوظ نحناح)، هي الأخت دليلة (أوهالة) تصحبها دائما إذا أرادت زيارتي. وقد أرادت أختنا الفاضلة - حين لاحظت اهتمامي بأسماء- أن تنبهني إلى أنها ليست عضوا في الجماعة! فقلت لها: أعرف ذلك، وقد أفضل أن تكون كذلك. فمن الناس من الخير له أن لا يرتبط بعضوية جماعة من الجماعات، لا لآفة فيه، ولكن لأن طبيعته ترفض القيود والالتزام برأي غير رأيه. وهذا لا يصلح للجماعات ولا تصلح له الجماعات.

> كثير من الناس يهبطون بعاطفة الحب إلى أنها تعلق جسد بجسد وهو تصور غير صحيح وغير صادق

من أسرة الأمير عبد القادر

قلت لأسماء مرة: لماذا سموك (أسماء بن قادة) ولم يقولوا: (بنت قادة)؟!

قالت: (بن قادة) هو لقب العائلة المتوارث والمعروف. ثم قالت: هل تعرف الأمير عبد القادر؟

قلت: حق المعرفة. إنه أمير على ثلاثة مستويات: أمير في الجهاد، وأمير في العلم، وأمير في السلوك والتصوف.

قالت: إن عائلتنا هي جزء من عائلة الأمير رحمه الله.

قلت: أنعم وأكرم. وأنا أعرف أن الأمير ينتمي إلى سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهما، فعائلته هاشمية حسنية.

قالت: هي كذلك. ولكن والدي يحذرنا أن نعتمد على النسب الحسني، ونفخر بذلك، وندع العمل والجد.

قلت: نعم هذا التوجيه من أبيك. وهو موافق لما جاء به نبينا العظيم في قوله «من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه».

وقد دعاني بعد ذلك والدها الأستاذ محمد بن قادة على العشاء في منزلهم بحي الرستمية بمنطقة الأبيار، وهي من أرقى المناطق في العاصمة، فلم يسعني إلا أن ألبي دعوته. وتعرفت على الوالد والوالدة، وعلى إخوتها، وهم ثلاثة، وعلى أخواتها، وهن ستّ، ثلاث منهن يحملن الدكتوراه في الفلسفة وفي الاجتماع وفي الجراحة.

ووالدها رجل معروف في المحيط الأكاديمي والتربوي: إنه (أبو الرياضيات) في الجزائر. والجميع يعرف دوره المرموق والرئيسي في تعليم الرياضيات، وفي تعريب الرياضيات بعد الاستقلال، وكان يصدر مجلة تحمل اسم (الخوارزمي).

وقد مضت سنوات، انتهت أسماء فيها من دراسة الرياضيات، وحصلت على شهادة البكالوريوس بامتياز. ثم انتقلت إلى تخصص آخر، في مجال آخر مغاير تماما، هو العلوم السياسية.

وفي هذه السنوات كنت أواري حبي، وأكتم عاطفتي في نفسي لاعتبارات شتّى. ولكل إنسان منا طاقة، في الكتمان والصبر، ثم تنفد طاقته بحكم الضعف البشري. ولا بد أن يأتي يوم يبوح فيه الإنسان بما في أعماقه. وجاء هذا اليوم لأبث أسماء ما بين جوانحي من مشاعر وأشواق، في رسالة كتبتها إليها سنة ١٩٨٩م، وأنا أقدم رجلاً وأؤخر أخرى. فلم يكن بالأمر العاديّ ولا السهل أو الهين عليّ أن أصارحها بحبي وبيني وبينها عقود من السنين تفصل بيننا. وكانت مفاجأة لها، فكرت فيها مليّا، وترددت كثيرا قبل أن تأخذ قرارها الذي لم تقدم عليه إلا بعد استخارة واستشارة، فلا خاب من استخار، ولا ندم من استشار. وقد كان ردها بردا وسلاما على قلبي، ولكم كانت فرحتي عندما وجدتها تجاوبت معي، وأحسست بسعادة غامرة أشبه بالسعادة التي تحدث عنها الصوفية حين قالوا: نحن نعيش في سعادة لو علم بها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف!

فقد تلاقت روحانا، بعد أن تعارفنا في عالم ما قبل المادة. وفي الحديث الصحيح «الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف».

● الأمير عبد القادر الجزائري



● محمد بن قادة

> زواجي الثاني لم يكن نزوة ولا شهوة عارضة وكان حبا حقيقيا نبت في أرض الصحوة وغذت عروقه قيم الإسلام ولهذا صمد على مر الأيام

من عالم القلوب إلى عالم الزواج

لا أكتم القارئ أني كنت خائفا من مفاجآت المستقبل، ولاسيما مع الفارق الكبير في السن، وتخوفي من وقع الحدث على من حولي، ولكم مرت علي لحظات ترددت فيها بين الخوف والحب، ولكن سرعان ما انقشع سحاب التردد، حين أشرقت شمس الحب، وكان حبي أقوى من خوفي، فكان لابد أن ينتهي هذا الحب الطاهر إلى ما شرعه الله ورسوله للمتحابين، وهو الزواج .

وهو أمر لم أفكر فيه قط، ولا ظننت أني سأتزوج باثنتين يوما، ولكن الله إذا أراد أمرا هيأ له الأسباب، وذلل له الصعاب، حتى يقع كما أرادت الأقدار في الوقت المحدد له «وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ» الرعد:٨، كما لم تكن تفكر أسماء أن تتزوج من رجل متزوج له أبناء وبنات.

ومن المعروف أن الزواج بيننا لم يتم إلا بعد مضيّ عدة سنوات، كانت هذه المدة كافية لأن تتأكد فيها حقيقة عواطفنا، وأنها لم تكن نزوة عابرة، ولا شهوة عارضة، بل كان حبا حقيقيا نبت في أرض الصحوة، وأجواء الإسلام، وغذت عروقه معاني الإسلام، وقيم الإسلام. ولذا صمد وثبت على مر الأيام، وعلى بعد ما بيننا من مسافة، فأنا في قارة، وهي في قارة. ولم يحدث تلاق خلال فترة طويلة. ولكن ما في القلوب إذا كان عميقا وصادقا، لم يؤثر فيه بعد المكان، ولا مرور الزمان. كما قال الشاعر:

خيالك في عيني، وذكرك في فمي
وحبك في قلبي، فكيف تغيب؟

ولقد تقدم لأسماء خطاب كثيرون من أعلى المستويات، من داخل الجزائر وخارجها. ولم تقبل واحدا منهم. وإن كان زواجي منها لم يتم بسهولة، لاعتبارات كثيرة، فقد كان والدها - برغم ما بيننا من ود واحترام متبادل - معارضا لزواجها مني، فهو يراها جامعة لكل المزايا التي ترغب الرجل في المرأة، من النسب والجمال والدين، فضلا عن الثقافة والتفوق في مجالات شتى. فلماذا يقبل لابنته أن تكون زوجة ثانية؟! ولم يكن من السهل عليه أن يقبل زواجا يخشى أن يكون من ورائه أي شائبة تعكر عليها، ولم تلن قناته إلا بعد فترة طويلة. على أن المجتمع الجزائري لا يعرف التعدد، إلا نادرا. فكيف بتعدد مع غربة؟ ومن شيخ ذي أسرة كبيرة؟

ولكن القدر الأعلى ساعدنا على أن يتم زواجنا، برغم فارق السن الكبير الذي بيننا، والذي كنت أراه أمامي حاجزا كبيرا، والذي أبت أسماء أن تنظر إليه أو تعترف به على الإطلاق، بل حتمت عليَّ لزوما: ألا أذكر هذا الأمر قط، لا بالعبارة ولا بالإشارة، وقالت: إن هذا الشيء لا أراه ولا أحس به بوجه من الوجوه، وقد اخترتك بعقلي وقلبي معا، ورأيتك بعين بصيرتي وبصري جميعا، وأنا سعيدة باختياري ورؤيتي، ولو أني خيّرت بينك وبين شباب الأرض، ما اخترت غيرك! وهكذا الحب جنون، والجنون فنون، والحياة شجون، ولله في خلقه شؤون، وهو إذا أراد شيئا قال له: كن فيكون.

وقد مرت السنوات، وحصلت على الماجستير، وتوشك أن تناقش الدكتوراه، في العلوم السياسية، وعملت بمركز الدراسات الاستراتيجية بأبوظبي، وبقناة الجزيرة في قطر منتجة للبرامج. وهي على موقفها لم تغير ولم تبدل. وقد قالت لبعض الزملاء والزميلات مرة: لو استقبلت من أمري ما استدبرت، وخيرت من جديد، ما حدت عن اختياري القديم، ولزدت استمساكا به.

وقد زاد هذا الزواج من ارتباطي بالجزائر، وحبي لها ولشعبها الذي أسرتني بطولته وجهاده، فزادتني هذه المصاهرة تعلقا به.

ومما أذكره هنا: أني كنت أحسبها مثل كثير من خريجات الجامعات العصريات، ومن الناشطات اللائي يحسنّ الاجتهاد في التحصيل الدراسي، ولا يعرفن كثيرا في تدبير المنزل، ففوجئت بأنها ربة بيت ممتازة، وأنها طاهية من الطراز الأول، ولاسيما في الأكلات الجزائرية والمغاربية، مثل الكسكسي والثريدة. وهي وأيضا متفننة في صنع الحلويات التي يسيل لها لعاب الكثيرين، وإن كنت لست منهم، فقد قاطعت الحلوى منذ زمن بعيد من أجل الوزن، حتى قبل أن أبتلى بالسكر.

كما أنها بثقافتها المتنوعة، وقدرتها على البحث في الأنترنت، أضحت تعينني في استحضار المعلومات التي أريدها، والمناقشة في كثير من الأمور، وخصوصا في العلوم السياسية والاجتماعية والإنسانية، كما تشاركني في هموم الأمة المسلمة، وقضاياها المتعددة، والعمل الدؤوب على توحيدها وإصلاحها من داخلها، وتجديد دينها الذي هو عصمة أمرها، ومصدر عزها وفخرها.

موقف الناس من هذا الزواج

هذا وقد استقبل الناس هذا الزواج بطرائق شتى، فمنهم من رحب به وباركه، لأنه زواج على ما شرع الله ورسوله.

ومنهم من اعتبر ذلك من الأمور الشخصية، التي للإنسان فيها حرية الاختيار، وهو مسؤول عن اختياره، ولا سيما إذا كان من أهل العلم والرأي.

ومنهم من أنكره ورفضه، بغير مبرر شرعي، إلا للهوى في النفس، مثل الكثيرين من المتغربين الذين يرفضون تعدد الزوجات بإطلاق، وكذلك بعض النساء اللاتي يرفضن مبدأ التعدد، وخصوصا إذا كان من رجل يقتدى به.

ومنهم من يرى مجرد التعدد عدوانا على الزوجة الأولى، وإخلالا بحقوقها، لأن العدل غير ممكن، وهذا اتهام لشرع الله تعالى، أنه يبيح الظلم.

ومنهم من نظر إليّ نظرة الحاسد المبغض، الذي استكثر عليّ أن أتزوج شابة جميلة، ومثقفة، ومتحدثة وكاتبة. وقد سمى الرسول الحسد والبغضاء (داء الأمم)!

ومنهم من اتخذه ذريعة للهجوم على شخصي، ونسجوا حوله أقاويل وحكايات ما أنزل الله بها من سلطان، فقالوا: إني تزوجت طفلة عمرها تسعة عشر عاما! أو ستة عشر عاما!! ومنهم.. ومنهم... حتى إن بعضهم من قريب اعتذر عما قاله وأذاعه على الناس، وخطأ نفسه علَنا، وأن معلوماته لم تكن صحيحة!

لقد تزوجتها وهي ناضجة راشدة، في أواخر التسعينيات من القرن الماضي، أي بعد حوالي عقد من الزمان منذ مصارحتها. وهي تحمل بكالوريوسين بامتياز، أولهما في الرياضيات، والآخر في العلوم السياسية، وكانت تدرس الماجستير في العلوم السياسية.

ولست أول من عدد، ولا آخر من يعدد، فقد عدد سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم، وعدد الرسل والأنبياء من قبله، وعدد أصحابه في حياته ومن بعد وفاته، وعدد الأئمة والصالحون. فلم اقترف ذنبا بالزواج الثاني، ولكني استخدمت رخصة شرعها الله لعباده حتى لا يرتكسوا في الحرام.

صحيح أن بيننا فارقا كبيرا في العمر، ولكن أسماء وحدها هي صاحبة الحق في قبول هذا الفارق أو رفضه، وقد قبلته راضية مختارة بكل حريتها، دون أن يؤثر عليها أحد رغبا أورهبا. وهنا يقول المثل: أنا راضية وهو راضي، وأنت مالك يا قاضي!!

وأود أن أقول هنا بصراحة: إني لست من دعاة التعدد لكل من هب ودب، من يحتاج إليه ومن لا يحتاج، ومن يقدر عليه ومن لا يقدر، ومن يعدل ومن لا يعدل، ولكني أجيز التعدد بشروطه وقيوده عند الحاجة إليه، وإن كان الأسلم لدين المرء الورع أن يبتعد عما فيه مظنة الجور إذا كان لا يأمن على نفسه، كما قال تعالى «فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً» النساء: ٣، فجعل مجرد الخوف مانعا من التعدد.

لا أستطيع إذن أن أحرم ما أحل الله، ولا أن أنكر ما شرع الله، ولا أسد بابا فتحه الله لعباده، حتى أرضي بعض الناس، فإن رضا الناس غاية لا تدرك.

لقد أثر الغزو الفكري القادم من الغرب: تأثيرا بالغا في مجتمعاتنا العربية والإسلامية، فغير مفاهيمها، وقلب موازينها، حتى غدا المعروف منكرا، والمنكر معروفا.

ومن أبرز المواضع التي ركز عليها الغزو: ما يتعلق بالأسرة المسلمة، وبخاصة ما يتميز به الإسلام عن النصرانية، مثل تعدد الزوجات والطلاق. فلا غرو أنه يؤثر الغرب بأدواته الثقافية والتعليمية والإعلامية الجبارة في أبناء أمتنا، وأن تصبح مسلمات الأمس مرفوضات اليوم.

لقد كان سلف الأمة ينكحون ما طاب لهم من النساء مثنى وثلاث ورباع، كما شرع الله لهم، إذا اقتضت ذلك حاجاتهم وظروفهم، ولا يجدون في ذلك حرجا، ولا يلومهم أحد على ما فعلوا إلا إذا جاروا ومالوا كل الميل.

ولكن الغرب الذي أباح الزنى بكل صنوفه وألوانه، وأباح الشذوذ وقننه، فتح النار على الإسلام وأهله، بشأن تعدد الزوجات، وهو في الواقع يبيح تعدد الخليلات، ويجرّم تعدد الحليلات.

قال أحد الخواجات الأوربيين لأحد المسلمين في بلاد الخليج: كم زوجة لك؟ قال: اثنتان. قال: وتكتفي بامرأتين؟ قال: الحمد لله. غيري عنده امرأة واحدة. قال له: أنا في الخمسين من عمري، وقد عاشرت أكثر من ثلاثين امرأة!

فهذه هي حياتهم، وهذه سيرتهم، التي تأثر بها من تأثر من بني جلدتنا.

> لم أفكر ولا ظننت أني سأتزوج باثنتين ولم تكن أسماء تفكر أن تتزوج من رجل متزوج له أبناء وبنات

لقد وجدت الناس في صباي في قريتنا يعددون، دون أن تثار ضجة، حتى إن حارتنا الصغيرة، وفيها نحو ست عشرة دارا، خمسة منهم له زوجتان، أي نحو ثلث الحارة معددون!

وكان جارنا الملاصق له زوجتان، كأنهما أختان، تراضيتا فلم يعد بينهما أي نوع من الصراع والخصام.

وكان لي قريب - هو ابن عمة أمي - تزوج وبقي خمسا وعشرين سنة لم ينجب من زوجته التي يحبها، وهي تحثه على الزواج من أجل الإنجاب، وهو يرفض، حتى صممت أن تخطب له هي بنفسها، وبالفعل ما زالت تحرضه، حتى تزوج امرأة قدر الله أن تنجب له البنين والبنات.

هكذا كان حال مجتمعنا قبل أن تغير مفاهيمه وقيمه الحملات المتتابعة المنظمة من الغرب، ثم من فروخه وتلاميذه، الذين صوبوا نبالهم إلى عقول أبناء الأمة وبناتها، بالأقلام والمسلسلات والتمثيليات والمسرحيات، والقصص والروايات، وغيرها من ألوان الدراما والمؤثرات، حتى غدا من تزوج بأخرى، كأنما يرتكب كبيرة أو فضيحة. وحتى إن بعض النساء توثر أن يرتكب زوجها الحرام، ولا يتزوج بأخرى في الحلال.

وفي بعض الأحيان أختلس من وقتي دقائق لأتابع بعض التمثيليات أو المسلسلات العربية، وكثيرا ما أجد سياق القصة يوجب حلا واحدا على الرجل، (بطل القصة) وهو أن يتزوج بامرأة أخرى، فتنتهي كل مشكلاته، ولكن المؤلف أو المخرج لا يقدم هذا الحل أبدا، لأن التعدد مرفوض من ناحية المبدأ والأساس، ولا يمكن تقديمه باعتباره حلا، بل هو أبدا مشكلة.

مرة واحدة قدم التليفزيون المصري مسلسلا كان غريبا على الساحة الفنية والإعلامية، هو المسلسل المعروف الذي شد انتباه الجماهير في أنحاء الوطن العربي، وتابعه الناس بلهفة، وهو مسلسل (الحاج متولي) الذي يقوم ببطولته الممثل الشهير نور الشريف، والذي كتبه الأستاذ مصطفى محرم، وهو ما جعلني أنوه به في برنامج (الشريعة والحياة) بوصفه عملا أدبيا وفنيا أصيلا وشجاعا، ومتمردا على الخط التغريبي.

إن الغربيين يهاجمون تعدد الزوجات باعتباره ضررا بالمرأة، وجورا على حقوقها، وهم يعنون بذلك: المرأة الأولى المتزوج عليها، وأغفلوا شأن المرأة الثانية المتزوج بها. فلا بد أن هذا الزواج قضى لها وطرا، وحقق لها أملا، وإلا ما رضيت به، وهي تعلم أن لها شريكة أخرى. كل ما هو مطلوب أن يعدل الرجل بين الزوجتين، وهو ما يوجبه الإسلام على الرجل، ويحرص عليه أبلغ الحرص.

وقد قالت أسماء هنا: إن للمرأة في هذا المجال مزية على الرجل، وهي أن الرجل إذا أحب امرأة متزوجة، لم يستطع أن يتزوجها، لأنها محرمة عليه بالزواج. أما المرأة إذا أحبت رجلا متزوجا، فيمكنها أن تتزوجه، بما أحل الله له من تعدد الزوجات.



● د. القرضاوي وزوجته السيدة أسماء بن قادة



ابن القرية والكُتّاب

ملامح سيرة ومسيرة (الجزء الرابع)

مذكرات فضيلة العلامة د. يوسف القرضاوي كما كتبها لـ الوطن بخط يده (٢٠)



تنفرد **الوطن** بنشر الجزء الرابع من مذكرات العلامة د. يوسف القرضاوي: ملامح سيرة ومسيرة (ابن القرية والكتاب)، وهو يشمل بضعة عشر عاما (حوالي ١٨) من هذه السيرة والمسيرة: وهي سنوات حافلة بالأحداث على المستوى الشخصي في حياة الشيخ المحلي والعربي والإسلامي والعالمي، على المستوى الشخصي يفصح فضيلته لأول مرة عن قصة زواجه الثاني وكيف تطور من عاطفة صادقة إلى زواج على سنة الله ورسوله. كما يتحدث عن تخرج كل أبنائه وتزوج كل بناته. وتعيينه عميدا لكلية الشريعة ومديرا لمركز بحوث السنة والسيرة. ونجاحه في الدعوة إلى تأسيس الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية بالكويت. وعمله رئيسا لهيئة الرقابة الشرعية لعدد من المصارف الإسلامية. واختياره عضوا في المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي، وعضوا في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن (مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي) وعضو مجلس أمناء مركز اكسفورد للدراسات الإسلامية، وعضو مجلس أمناء منظمة الدعوة الإسلامية بالخرطوم، وغيرها. وحصوله في هذه الفترة على بعض الجوائز العالمية.

ومن خلال هذه المذكرات سيمر القارئ بمعظم أحداث العصر في منطقتنا العربية والإسلامية، بحكم أن صاحبها يعيش في قلب هذه المنطقة، وقلب هذه الأحداث، وقد قدر له في هذه المرحلة أن يتفاعل بها ومعها متأثرا ومؤثرا.

وتتميز هذه السنوات بأمرين لهما أهمية قصوى في حياة القرضاوي:

الأول: الانتشار الكبير له في أنحاء العالم في الشرق والغرب، وزيارة كل قارات العالم حتى أستراليا، وأميركا الجنوبية، حتى سماه البعض «الشيخ الطائر».

والثاني: ظهور المد الإسلامي أو الصحوة الإسلامية بقوة في تلك المرحلة، والتي يعتبرها الشيخ جزءا منه، كأنما هي ولده وفلذة كبده. وسنتابع نشر المذكرات يوميا بما فيها من تفاصيل يرويها القرضاوي لأول مرة.

غلبني الحنين إلى «رمضان الدوحة» خلال رحلة علاج طويلة في ألمانيا

علمت الجالية الإسلامية - في بون خاصة، وفي ألمانيا عامة- بدخولي المستشفى، وإجرائي العملية، وأسرعوا بزيارتي، وبعضهم جاءني، ولم أكن أفقت بعد من أثر التخدير، منهم أبو أيمن الأخ الأديب الشاعر الداعية الكبير الأستاذ عصام العطار، وبعض إخوانه جاؤوا من مدينة آخن، ومن المركز الإسلامي بها. ومنهم الأخ الكبير: الأستاذ مصطفى مشهور نائب المرشد العام، وقد كان وقتها في أوروبا، فهرع لعيادتي ومعه الأخ المجاهد الحبيب الحاج عباس السيسي، الذي كان يقيم في ألمانيا في ذلك الوقت راعيا للمركز الإسلامي في فرانكفورت، ومعهما ثالث، نسيته، ربما كان الأستاذ محمد المهدي عاكف - مرشد الإخوان الآن- الذي كان يعمل مديرا للمركز الإسلامي في ميونيخ، كما اتصل بي أحباء كثيرون من قطر، من كل الفئات، وكذلك من مصر، ومن الكويت والسعودية والإمارات وبلاد الخليج، ومن أوروبا وأميركا، يصعب أن أذكرهم، فهم عدد لا يحصى، ولا يسعني إلا أن أدعو الله لهم أن يجزيهم عني خيرا.

أذكر فقط هناك الذين كرروا السؤال والاتصال، وعرض الخدمات، منهم الإخوان: يوسف ندا، وغالب همت من سويسرا.

خلال رحلة علاجي من آلام الظهر رأيت الإخوة في ألمانيا عامة، وفي بون خاصة، يحيطون بي إحاطة السوار بالمعصم، ويغمرونني بعواطفهم الجياشة بالحب، الفياضة بالحنان، وقد وضعوا أنفسهم في خدمتي، وكأنما أرادوا أن ينقلوا الدنيا كلها إلي، فقلت لهم: ليس لي إلا طلب واحد قالوا: ما هو؟ قلت: قارورة من الماء الطبيعي، فإن كل الماء الذي في المستشفى ماء غازي، وأنا لا أتذوقه و لا أستطعمه، فأشربه للضرورة. والفقهاء يقولون: الضرورة تقدر بقدرها، وأعتقد أننا أعطينا الضرورة قدرها المناسب، وآن لنا أن نخرج منها.

قارورة ماء طبيعي كانت أولى أمنياتي خلال فترة علاجي من آلام الظهر بألمانيا

وسرعان ما حملوا إلي بدل القارورة قوارير، كما أمسوا بعد ذلك يتحفوننا ببعض الأطعمة العربية التي طال شوقنا إليها، مما يسمح به عادة في مثل هذا الوضع.

وكان الإخوة من كل الجنسيات العربية والإسلامية في خدمتي، وخصوصا الإخوة السوريين، فقد كان منهم عدد كبير ولا سيما من الأطباء، فروا من دكتاتورية حكم البعث النصيري وطغيانه، وجاءني إخوة من فرانكفورت وميونيخ وشتوتجارت، وغيرها.

ومن هؤلاء إخوة مصريون لم أرهم منذ سنين طويلة، منذ خرجنا من السجن الحربي سنة ١٩٥٦م، مثل الأخ الدكتور فؤاد قنديل ابن طنطا، النابغة الذي حفظ القرآن في السجن، وكان من رواة قصيدتي (النونية) هو وزميله ابن طنطا أيضا سعد زين العابدين سلامة، الذي سعدت بزيارته أيضا.

وقد عرفت من الأخ فؤاد: أنه تزوج بعد وصوله إلى ألمانيا، بزمن قصير، ليحصن نفسه، تزوج بألمانية أسلمت، ورزق منها بثلاث بنات، مسلمات بالطبع، ولكنه كان يتمنى أن يكون إسلامهن أقوى مما هن عليه، فهما وشعورا وسلوكا، وهذا قلما يتأتى إلا في ظل مجتمع مسلم.

وممن قابلتهم أيضا: الأخ الصديق ابن المحلة، د. سيد يونس العطّافي، الذي يعمل طبيبا ناجحا للأسنان، وقد كون منزلة وثروة، وتزوج من ألمانية بعد قصة حب متبادل، وقد أسلمت وأنجبت منه ثلاثة أولاد: ولدين وبنتا، أو ولدا وبنتين، لا أذكر، ثم سلطت عليها بعض قريباتها فأفسدنها عليه، وخلقت بينهما مشكلات، انتهت إلى المحاكم لطلب الطلاق، وما زالت معلقة منذ سنوات، وقد عاد إلى البيت يوما، فلم يجدها، لا هي ولا أولادها، ولا أثاث البيت.

والطلاق في ألمانيا وفي أوروبا بصفة عامة: يعطي المرأة نصف ثروة الرجل، وهذا كان من أسباب ترك الزواج أو تأجيله، أو الاستعاضة عنه بالصداقة والمرافقة بين الرجل والمرأة، فهما يتعايشان ويتعاشران معا بلا عقد.

وقد كنت أسأل الممرضات اللاتي يقمن على خدمتي في المستشفى: آنسة أم سيدة (مِسْ أور مسز؟) فوجدت كلهن آنسات (مس). ومع هذا لكل واحدة - في الغالب - صديقها الذي تعاشره معاشرة الأزواج، بلا عقد زواج، تحررا من تبعات الزواج، وما قد يترتب عليه أحيانا من طلاق.

أحاطني الإخوة أكرمهم الله في ألمانيا بحبهم ورعايتهم، لا لغرض دنيوي ولا لمصلحة مادية، ولا لذة عاجلة، إنما هو الحب في الله الذي ربط بيني وبينهم، برباط وثيق لا تنفصم عراه، ولا ينقض حبله، وهو الذي يبقى مع صاحبه إلى يوم القيامة، فيُظل الله أصحابه في ظله يوم لا ظل إلا ظله، وفي يوم القيامة نرى أصدقاء الدنيا أعداء في الآخرة، حيث يكذب بعضهم بعضا، ويلعن بعضهم بعضا، ويبرأ بعضهم من بعض، إلا أهل الإيمان والتقوى، الذين كان ترابطهم لله وفي الله، فهم يدخلون بهذا الحب الجنة، إخوانا على سرر متقابلين، يقول تعالى: (الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ) الزخرف: ٦٧.

كان وجود زوج ابنتي - د. أحمد سيف الإسلام- معي خيرا وبركة، فقد كان الواسطة بيني وبين الأطباء الذين يعالجونني، فهو الذي يترجم لي عنهم، ويترجم لهم عني، ولأنه طبيب جراح من ناحية، ويتقن الإنجليزية من ناحية أخرى، كان نعم الرفيق في تلك المرحلة.

وقد أجريت العملية في النصف الثاني من شهر شعبان، وأقبل علينا رمضان، وأنا لا أزال في المستشفى، وقد بدأت أتعافى شيئا شيئا، وأجري بعض التمرينات الملائمة التي يتطلبها العلاج الطبيعي، ولكن لا أستطيع أن أصوم رمضان، لأسباب عدة، منها: أني آخذ بعض الأدوية كل عدة ساعات، وأني في حاجة إلى غذاء منتظم، وأن اليوم في صيف أوروبا طويل جدا، أكثر من ثماني عشرة ساعة، وليس في إفطاري أدنى حرج، وأنا أفتي الناس في مثل حالتي أن يفطروا، أخذا بالرخصة التي رخص الله لهم (وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) البقرة: ١٨٥.

فلم يكن في إفطاري مشكلة، ولكن المشكلة بدأت تظهر في حنيني الدافق إلى (رمضان الدوحة) وما فيه من حيوية وروحانية، ينعش القلوب بالإيمان، ويغمر الأفئدة بالسكينة، أين ما أنا فيه مما يعيشه إخواني في الدوحة، وما كنت أعيشه معهم من قبل: من دروس العصر، والإفطار مع العائلة، وصلاة التراويح، وتلاوة جزء من القرآن كل يوم، وختم القرآن في نهاية رمضان، ودعاء ليلة القدر ليلة ٢٧ من رمضان، ودعاء ختم القرآن.

كانت هذه المشاعر الدافقة من الشوق إلى رمضان في الدوحة، بكل ما يحمله من نفحات وبركات، وما فيه من دروس وصلوات، جعلت من هذا الشهر الكريم (ربيع الحياة الإسلامية) فيه تتجدد القلوب بالإيمان، وتتجدد العقول بالمعرفة، وتتجدد روابط الأسرة بالتلاقي في الفطور والسحور، وتتجدد أواصر المجتمع بالتواصل والتزاور واستباق الخيرات.

ولا يمر يوم ولا ليلة إلا أزداد فيها شوقا وحنينا إلى ذكريات رمضان، ولم تزل كذلك حتى أفرغت هذه العواطف الملتهبة في قصيدة أنشأتها، وأرسلتها مع صهري د. أحمد سيف، لتنشر في صحف الدوحة، بعنوان (رسالة شوق وحنين إلى الإخوة في الدوحة).

ولا بأس أن نذكر منها شيئا:

بين الجوانح في الأعماق سكناه
فكيف أنسى ومن في الناس ينساه؟!
وكيف أنسى حبيباً كنت من صغري
أسيرَ حُسن له جلت مزاياه؟!
ولم أزل في هواه، ما نقضت له
عهدا ولا محت الأيام ذكراه
قد شاخ جسمي، ولكن في محبته
ما زال قلبي فتىً في عشق معناه
من يصدق الحب يبقى حبه أبداً
أئن يشخ قيس ليلى ينس ليلاه؟

سفر د. أحمد ووصول أم محمد

وقد كان لا بد لزوج ابنتي الدكتور أحمد - الذي هو بمثابة ابني حقا- أن يعود إلى الدوحة، فقد انتهت المدة المصرح له بها، وقد كان نعم الرفيق، ونعم العون، ونعم الأنيس لي، في أشد الأيام علي، ولا سيما بعد إجراء العملية.

وفي اليوم الذي سافر فيه أو اليوم التالي - لا أذكر- وصلت أم محمد زوجتي من الدوحة، بعد أن أنجز الأولاد امتحانات آخر العام، فملأت الفراغ، وكانت لي نعم الجليس والأنيس، وسمح لها أن تبيت بجواري في المستشفى، وهي تصوم، وأنا مفطر.

الانتقال إلى بادنوين آر

ولم يطل مقامي في المستشفى بعد ذلك، فقد قرر الأطباء المعالجون أن أنقل إلى مصحة متخصصة في العلاج الطبيعي، في بلدة قريبة من مدينة (بون) على بعد نحو أربعين كيلو مترا. تسمى (بادْنُوين آر).

وجاءت سيارة إسعاف مجهزة، لتنقلني إلى تلك المصحة بطريقة سليمة، ولا تحدث لي مضاعفات أو أية آثار سلبية، وصحبتني زوجتي ومندوب من السفارة القطرية في بون.

ودخلت هذه المصحة الكبيرة، التي يشرف عليها أطباء مختصون في العلاج الطبيعي بألوانه ومستوياته المختلفة.

وهذه المصحة أشبه بفندق راق من ناحية، وبمستشفى علاجي من ناحية أخرى، وبحمامات متنوعة من ناحية ثالثة.

وأعطيت حجرة في أول الأمر، ثم نقلت إلى جناح بعد ذلك - بموافقة السفارة القطرية- لأستقبل فيه زواري الكثيرين.

وكانت هذه المصحة مجهزة بكل ألوان العلاج الطبيعي، وبالمتخصصين والمتخصصات فيه، على كل صعيد.

ففيه الحمامات المختلفة الساخنة، المعدة بالمياه العادية، والمياه المعدنية، والتي تمكن للإنسان أن يسبح فيها كما يريد، حتى أنا الذي لا أحسن السباحة للأسف، كنت أسبح فيها بطريقتي الخاصة، عن طريق الإمساك بالحديد الموجود بجدران الحمامات، والمهيأ ليعين من لا يجيد السباحة.

وكان فيها (الطين) الذي يصبغ به جسم المريض، ويترك فترة من الزمن، ثم يزال عن طريق الاستحمام.

وكان فيها التدليك أو المساج، الذي يعمم على الجسم كله، وكان من النظام المتبع في هذه المصحة أن يدلك الرجال الرجال، والنساء النساء.

وكان هناك استخدام لبعض الأعشاب، تدفأ وتوضع تحت الظهر، وألوان أخرى من العلاج، يقوم بها أخصائيون مهرة، كلها تعد المريض ليستكمل عافيته، ويستطيع بعدها أن يعود إلى حياته العادية من جديد، مؤديا رسالته، ومستمرا فيما أمكنه من هذه العلاجات.

تجاوبت كل التجارب مع ما تقدمه هذه المصحة من علاجات مختلفة، وسرعان ما ظهر أثر ذلك في صحتي، وأصبحت بعد قليل قادرا على أن أمشي مسافة غير قليلة بلا معاناة، وإن حذروني من المشي في الأماكن غير المستوية، والتي فيه صعود وهبوط، وخصوصا في الأيام الأولى.

مضى نصف رمضان، وأنا أعمل برخصة الإفطار للمريض، ثم عزمت على أن أصوم النصف الثاني، مستعينا بالله تعالى، ولا سيما أنني لم أعد أتناول أدوية في النهار تقتضيني أن أفطر.

وقلت لزوجتي: سأصوم معك غدا إن شاء الله، ونتسحر معا.

قالت: أخشى أن يؤثر الصوم على مسيرة العلاج الطبيعي، وأنت تفتي الناس بالفطر إذا احتاجوا إليه.

قلت: ولكني أشعر أني لم أعد في حاجة إليه.

وتسحرنا وصمنا، وجاء المغرب فأفطرنا، وقد جعت حقا لطول اليوم، ولكن هذه هي حكمة الصوم: أن يحس الصائم بلذعة الجوع، وحرارة العطش، فيدرك نعمة الله عليه عند الشبع والري، ويقول: الحمد لله، من كل قلبه، كما يشعر بآلام الجائعين والبائسين الذين لا يكادون يجدون القوت، فيعطف عليهم ويمد إليهم يده بالعون.

وقلت في نفسي: إنها فرصة ثمينة لإنقاص الوزن (الذي يسمونه: الريجيم) فنحن نكتفي بالطعام الذي يقدمونه لنا، وهو طعام صحي قليل، ولكنه كاف، ليس فيه ما على موائدنا في رمضان مما لذ وطاب من المسلوق والمشوي والمحمّر، ناهيك بالمعجنات والحلويات المقرونة برمضان، كأنما أصبح رمضان شهر الطعام لا شهر الصيام، وأصبح المسلمون ينفقون على بطونهم في هذا الشهر أكثر مما ينفقون في غيره من شهور العام! وأذكر أني صمت أربعة عشر يوما على هذه الحال، فقد كان الشهر تسعة وعشرين يوما، وقضيت نصف الشهر الذي أفطرته حينما عدت إلى الدوحة، كما قال تعالى: (فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ) البقرة: ١٨٤. وطوال شهر رمضان غمرني إخوتي المسلمون بالاتصال والسؤال من أنحاء العالم، ولا أدري كيف عرف الناس، حتى اتصلوا بي من قارات الدنيا الخمس، سائلين وداعين لي بالشفاء. ولا سيما من قطر التي لم يكد ينقطع الهاتف ساعة عن سؤال يأتي من أحد الإخوة من أهل قطر أو المقيمين فيها. وخصوصا بعد أن قرأوا قصيدتي في الحنين إلى الدوحة وأهلها في شهر رمضان، كما زارني كثير من أحبابي، وأنا أقضي فترة العلاج الطبيعي، رغم بعد هذه البلدة عن بون، فجزاهم الله خيرا.

وكانت هذه الاتصالات المختلفة تملؤني ثقة وأملا بأن الأمة إلى خير، ما دامت هذه المشاعر القائمة على الحب في الله: حية ومتصاعدة، كما تزيدني شعورا بمسؤوليتي تجاه هذه الأمة التي منحتني حبها وثقتها وولاءها في الله عز وجل، وأني مهما أبذل في سبيل إحيائها وإعلانها، فلن أوفيها حقها.

وصول الأولاد إلى بادنوين آر

وبعد انقضاء رمضان، وانتهاء امتحانات آخر العام أصبح في إمكان الأولاد أن يلحقوا بنا، وأن يأتوا من الدوحة إلى ألمانيا، ولا بد أن يتهيأوا لذلك، كانت إلهام وسهام وعلا قد تزوجن، وبقيت أسماء ابنتي الصغرى، وإخوتها الذكور: محمد وعبد الرحمن وأسامة، وقد انضمت اليهم علا وزوجها المهندس حسام خلف، بعد عودتهما من أميركا.

وقطع الجميع تذاكرهم، وحجزوا للسفر من الدوحة إلى فرانكفورت، وهناك استقبلهم الإخوة في المركز الإسلامي هناك، وعلى رأسهم الأخ الحبيب الداعية المربي الحاج عباس السيسي، حفظه الله ورعاه. وقد ركبوا القطار إلى بون، ومنها إلى بادنوين آر. وكان بعض الإخوة الذين يزورونني، قد بحثوا لهم عن سكن مناسب في هذه البلدة، فجاؤوا إليه، وهي شقة مناسبة فيها عدة حجرات، وعدد من الأسرة، بعضها يستعمل في الليل ويطوى في النهار، ويكون في صورة خزانة في الحائط.

وكانوا أحيانا يأتوننا ليزورونا في الجناح الذي نسكنه في المصحة (أو الفندق) وكنا نذهب نحن أحيانا، لنبقى عندهم ونتغدى أو نتعشى معهم.

كما كنا نتجول في حدائق البلدة، وهي كثيرة وجميلة، وهي فرصة للمشي الذي أنا في حاجة إليه.

كانت (بادنوين آر) بلدة جميلة مريحة، فيها من خصائص القرية وخصائص المدينة معا، ومعنى (باد) كما عرفت من الإخوة: حمام، (وآر) اسم لنهر يشق البلدة، و(نوين) بمعنى الجديد، فكان المعنى: حمام النهر الجديد.

فهذه البلدة تتميز بحماماتها ومياهها المعدنية التي يستشفى بها، كما تتميز بنهرها الذي يمر وسط القرية، ويمشي الناس والسيارات على جانبيه، ونرى فيه السمك ظاهرا، نكاد نمسكه بالأيدي.

وفيها المزارع والغابات من حولها، وبخاصة: زراعة العنب الذي يغطي الهضاب والجبال، في مشهد يبهج النفس، ويشرح الصدر، وإن كنا علمنا أنه يتخذ ليعصر خمرا، ويتخذ منه ما يسمى (الويسكي)، وهكذا يحوّل الإنسان الطيبات التي خلقها الله وامتن بها، إلى خبائث، بل إلى أم الخبائث.

وكان الأولاد يذهبون إلى الغابات يتجولون فيها، وخصوصا عبد الرحمن، الذي جابها مرات عدة صعودا ونزولا.

وكان في هذه القرية شوارع تجارية، فيها فروع للمحلات التجارية الكبرى المعروفة في لندن، فكانت أم محمد وعلا وأسماء يذهبن إلى هذه الأسواق ليشترين منها ما يحتجن إليه، أو قل: ما يشتهين، أما الأبناء: محمد وعبد الرحمن وأسامة، فلا حاجة لهم في هذه الأسواق، فالتسوق ظاهرة نسائية غالبا، وما يحتاج إليه الذكور والرجال يطلبونه غالبا من النساء أن يشترينه لهم.

بقي الأولاد معي في هذه البلدة نحو أربعة أسابيع، كانت أيامنا فيها طيبة وممتعة، ولا سيما أنهم رأوني في صحة وعافية، بعد ما ودعتهم في الدوحة، وأنا أشكو شدة الألم والعجز عن الحركة، فأمسيت اليوم، وقد مَنّ الله عليّ بالشفاء والعافية، وغدوت قادرا على الحركة والمشي، وقد خف جسمي ونقص وزني إلى حد كبير، فقد كان وزني حول التسعين كيلو غراما، فنزلت إلى نحو اثنين وثمانين، وكان هذا مكسبا عظيما، ظللت محافظا عليه عدة سنوات، حتى قطعة الحلوى أو (الشيكولاته) التي يعزم الناس بها في الزيارات، كنت أرفضها معتذرا.

ولكن من أخطر الأمور: أن يبدأ الإنسان في التساهل شيئا فشيئا، حتى يفلت الزمام منه، وقد قال الشاعر بحق: هي النفس ما عودتها تتعود!

وقال آخر:

والنفس راغبة إذا رغّبتها
وإذا ترد إلى قليل تقنع!

اضطرني المرض للأخذ برخصة الإفطار وأفطرت خمسة عشر يوما قضيتها بعد رمضان

إن عافية الجسم وصحته من أعظم نعم الله على الإنسان، ولهذا علمنا رسول الإسلام: أن نسأل الله العافية دائما، فنقول في دعاء القنوت: «وعافني فيمن عافيت» ونقول بين السجدتين: «اللهم ارزقني واجبرني وعافني» ونقول دائما: «اللهم إني أسألك العفو والعافية والمعافاة في الدين والدنيا والآخرة».

ولا يحس بنعمة العافية إلا من حرمها، وابتلي بالمرض، فالنعم عادة لا يهتم بها إلا عند فقدها، وقديما قالوا: الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى! وبعد أن انقضت المدة المحددة للعلاج الطبيعي، وعزمنا على الرحيل من (بون) أقام السفير القطري السيد أحمد الخال: مأدبة لتكريمي وتوديعي، ودعا فيها عددا من السفراء والوجهاء والأحبة، وقد شكرته على ما قامت به السفارة وقسمها الطبي، فقد علمنا الإسلام أن نشكر لكل من أسدى إلينا معروفا، أو سهل لنا أمرا، حتى وإن كان واجبا عليه، أما قولهم: لا شكر على واجب، فهو من باب المجاملة. فلا ريب أن من أدى الواجب عليه، ينبغي أن يشكر، ولهذا يشكر الله عباده على ما يؤدونه نحوه من واجب العبادة له والطاعة لأمره، وهو الواحد المعبود، الذي يستحق كل أنواع العبادة والتعظيم.

وقال السفير: إننا لم نقم إلا ببعض الواجب علينا نحوك، وحقك علينا وعلى الأمة لا ينكر، ومهما فعلنا فنحن مقصرون. وهذا من حسن أدبه. جزاه الله. ومما آسف عليه: أني في هذه الرحلة نسيت أسماء كثيرة من الإخوة الذين أكرموني، وأحاطوني بحبهم ورعايتهم، لأني لم أكن أكتب شيئا في هذه الرحلات، وأرجو أن يسامحوني إذا لم أذكر أسماءهم. وأدعو الله لهم من كل قلبي: أن يجزيهم أحسن الجزاء، ويحقق لهم الأمل من كل خير يرتجونه.

إلى مدينة ميونخ لتفتيت حصا الكلية:

وكان قد بقي أمامي مشوار آخر، إلى مدينة ميونخ، لعلاج أمر آخر أشكو منه منذ مدة، وهو: (الحصوة في الكُلْية).

فقد اكتشفت منذ زمن عن طريق الأشعة بمستشفى حمد بالدوحة: أن في إحدى كليتي حصاة ساكنة في ركن من أركان الكلية، لا أحس بها لسكونها، ولكن الأطباء قالوا: إنها يمكن أن تتحرك لسبب وآخر، وتسبب لك ألما، وألم الكُلَى إذا تحركت فظيع، نسأل الله العافية منه، ومن كل ألم وداء.

وقد عرفت أن في (ميونخ) طبيبا يهوديا بارعا ذائع الصيت، يفتت حصى الكلية بالأشعة، دون حاجة إلى فتح بطن وعملية جراحية، وما دمنا دخلنا في مشوار العلاج، فلنكمله إلى نهايته.

ومن هنا راسل القسم الطبي هذا الطبيب، وحجز لي عنده، وسافرنا إليه، ودخلت المستشفى الذي يجري فيه عملياته، وبقيت يومين أو أكثر لإجراء بعض الفحوص اللازمة، التي تتطلبها هذه العمليات، من تحليل الدم والبول وقياس الضغط ومعرفة التاريخ المَرَضي أو الصحي للمريض، بل ولعائلته أحيانا، حتى جاء اليوم المحدد للقيام بالعملية، فيفتت الحصاة بهذه الطريقة الجديدة التي أراحت الناس من فتح البطون، وذلك من فضل الله تعالى الذي علم الإنسان ما لم يعلم.

وكنت أظن أنه سيجري عملية التفتيت دون تخدير، كما قيل لي من قبل، ولكن الطبيب قال: إنه يؤثر أن يجريها تحت التخدير الكامل، فربما يحدث أي طارئ مفاجئ، فيقتضي إجراء جراحة، فنكون مستعدين في الحال لإجرائها.

وقد تم إجراء التفتيت بسلام، وبعد الإفاقة من التخدير، أعطوني أوعية أتبوّل فيها، يتجمع في قعرها الحصى المفتت، ويشاهده المريض بعينيه، ويطمئن على حالته بنفسه، كما يشاهدها الممرضون، ويجمعونها ليرصدوا حالة المريض من خلالها.

وكان الطبيب قد ركب لي بعد العملية: (قسطرة) موصولة بقربة يجتمع فيها البول، ويحملها المريض معه إذا نام على السرير، أو قام منه، أو تحرك في طرقات المستشفى ذاهبا وآيبا، وكنت ترى عامة المرضى يتجولون ويتريضون في المستشفى، وهم يحملون هذه القرب، وترى المسلمين منهم يؤدون صلواتهم الخمس، وهم حاملوها.

وقد ذكرني هذا بما نقل عن بعض المتأخرين من الفقهاء، لما قالوه افتراضا، وهو: ما إذا حمل رجل (قربة فساء) في صلاته: هل تفسد صلاته أو لا تفسدها؟ وكنا نعيب على هؤلاء الفقهاء هذه الافتراضات والتخيلات التي لا تمت إلى الواقع بصلة، وكثيرا ما تندر بها الكتاب الذين يحملون على الفقهاء ويجرّحونهم بالحق وبالباطل، وقد عشنا فرأينا المسلم يصلي وهو يحمل قربة بول، لا يملك أن ينزعها، فرحم الله فقهاءنا فقد سبقوا زمنهم.

وقد صحبتني أسرتي، إلى مدينة (ميونخ) وسعوا لاستئجار شقة مناسبة، بمساعدة الإخوة في المركز الإسلامي، الذي يديره الأخ الحبيب، والصديق القديم الأستاذ محمد المهدي عاكف - المرشد العام للإخوان الآن- فقد كنا تعارفنا من قديم في معتقل الطور سنة ١٩٤٩م في عهد الملك فاروق، الذي كان يقوم بتدريبنا رياضيا صباح كل يوم.

رحب الأخ عاكف بي وبأسرتي، وقال: أنا والمركز في خدمتكم مدة بقائكم هنا، وهذا بعض حقكم علينا وعلى الأمة.

قلت: شكر الله لكم، وجزاكم الله خيرا، كل ما نريده هو شقة ملائمة تسكن فيها الأسرة، أما أنا فستكون إقامتي في المستشفى.

قال: ولماذا لا تنزلون في المركز، وفيه بعض الحجرات المناسبة؟ ولا سيما أن العثور على شقة مناسبة في هذا الوقت قد يتعسر.

قلت: نفضل أن تسكن الأسرة خارج المركز، لتكون لها حرية الحركة كما تريد، ولا نحب أن نضيق على المركز فيما قد يحتاج إليه.

وفعلا وُجِدتْ شقة في مكان مناسب، ولكنها لم تكن بالسعة المناسبة؟ وقد كان الأولاد يشغلونها كلها حجرات وصالات وطرقات، حتى كان منهم من ينام خلف الباب، وهم يتضاحكون، ويتبادلون النكات والفكاهات، مسرورين منشرحين، وهذا يدل على أن العامل النفسي هنا مهم جدا، وهو ما جعل الناس في مصر يقولون: حجر ديب، يسع مائة حبيب! وفي بلاد الشام يقولون: بيت ضيق يسع ألف صديّق، وقال الشاعر العربي: سم الخياط مع الأحباب ميدان!

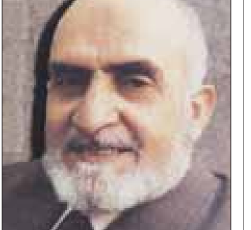
وقال آخر:

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها
ولكن أخلاق الرجال تضيق!

وكانت صاحبة الشقة تونسية، قد فرحت بأسرتي فرحا كبيرا، وقد صنعت لهم أكلة من (الكسكسي) التونسي الشهير.

ومنذ سنوات جاءت إلى الدوحة، تستشفع بي لتذهب إلى الحج من طريق الدوحة، وتذكرني بالأيام التي مضت الأسرة في شقتها الضيقة، واستعدنا الذكريات وأكرمناها، وكلمت السفير السعودي بالدوحة أن يساعدها في تحقيق أملها، وقد كان. والحمد لله.

بعد أن استعدت عافيتي بحمد الله تعالى، ومرت أيام بعد العملية، دعاني الإخوة في المركز الإسلامي لإلقاء محاضرة عامة في المركز، فاستجبت لهم، فهذا حقهم علي، وهذه زكاة عن نعمة العافية، وفي الإسلام كل نعمة لها زكاة. ولهذا تجد عوام الناس يقولون: زك عن عافيتك، زك عن عينيك... وقد احتشد لهذه المحاضرة جمع غفير، وبعد المحاضرة، قدمت لي على العادة، أسئلة عدة من الحاضرين أجبت عنها ما استطعت.



● مصطفى مشهور

● يوسف ندا

● د. أحمد سيف الإسلام مكي



ابن القرية والكُتّاب

ملامح سيرة ومسيرة (الجزء الرابع)

مذكرات فضيلة العلامة د. يوسف القرضاوي كما كتبها لـ الوطن بخط يده (٢١)

تنفرد **الوطن** بنشر الجزء الرابع من مذكرات العلامة د.يوسف القرضاوي: ملامح سيرة ومسيرة (ابن القرية والكتاب)، وهو يشمل بضعة عشر عاما (حوالي ١٨) من هذه السيرة والمسيرة: وهي سنوات حافلة بالأحداث على المستوى الشخصي في حياة الشيخ المحلي والعربي والإسلامي والعالمي، على المستوى الشخصي يفصح فضيلته لأول مرة عن قصة زواجه الثاني وكيف تطور من عاطفة صادقة إلى زواج على سنة الله ورسوله . كما يتحدث عن تخرج كل أبنائه وتزوج كل بناته . وتعيينه عميدا لكلية الشريعة ومديرا المركز بحوث السنة والسيرة. ونجاحه في الدعوة إلى تأسيس الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية بالكويت. وعمله رئيسا لهيئة الرقابة الشرعية لعدد من المصارف الإسلامية. واختياره عضوا في المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي، وعضوا في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن (مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي) وعضو مجلس أمناء مركز اكسفورد للدراسات الإسلامية، وعضو مجلس أمناء منظمة الدعوة الإسلامية بالخرطوم، وغيرها. وحصوله في هذه الفترة على بعض الجوائز العالمية.

ومن خلال هذه المذكرات سيمر القارئ بمعظم أحداث العصر في منطقتنا العربية والإسلامية، بحكم أن صاحبها يعيش في قلب هذه المنطقة، وقلب هذه الأحداث، وقد قدر له في هذه المرحلة أن يتفاعل بها ومعها متأثرا ومؤثرا.

وتتميز هذه السنوات بأمرين لهما أهمية قصوى في حياة القرضاوي :

الأول: الانتشار الكبير له في أنحاء العالم في الشرق والغرب، وزيارة كل قارات العالم حتى أستراليا، وأميركا الجنوبية، حتى سماه البعض «الشيخ الطائر».

والثاني: ظهور المد الإسلامي أو الصحوة الإسلامية بقوة في تلك المرحلة، والتى يعتبرها الشيخ جزءا منه، كأنما هي ولده وفلذة كبده . وسنتابع نشر المذكرات يوميا بما فيها من تفاصيل يرويها القرضاوي لأول مرة.

المنصرون نجحوا في تحقيق أهدافهم في بلادنا.. وانتشار الفكر العلماني أبرز ثمارهم

عضوية أمناء مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية

أبلغني شيخنا وحبيبنا الداعية الإسلامي الكبير، رجل الإسلام الأول في الهند، العلامة الشيخ السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي: أن مجلس أمناء مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية، قد اختارني بالإجماع لعضويته، وهو يرجوني أن أحرص على حضور جلساته، وأن أتعاون مع الأخ الذي اختير من قبل المجلس لإدارة المركز، وهو الدكتور فرحان نظامي. وهو أستاذ من أصل هندي يعمل في جامعة أوكسفورد.

وبالطبع، قبلت العضوية، وشكرت الشيخ على حسن ثقته بي، ووعدته بأنني سأبذل الجهد في معاونة المركز حتى يقف على قدميه، قلت للشيخ: وإن كان لدي مشكلة أود أن أصارحك بها. قال: وما هي؟ قلت: مشكلة اللغة، وطبعا لغة المركز هي الإنجليزية. قال: هذه تحل ببساطة عن طريق الترجمة.

وكان الشيخ الندوي قد حدثني من قبل: أن هناك في بريطانيا مجموعة من علماء المسلمين ومفكريهم وأهل الرأي فيهم، يفكرون جديا في تأسيس مركز علمي لخدمة الثقافة الإسلامية، وتجلية الفكر الإسلامي الصحيح، وإعطاء صورة مضيئة عن الإسلام وحضارته وأمته للغرب، بعد أن تقارب العالم واتصل بعضه ببعضه، وقد وجد أن بريطانيا هي أنسب البلاد لذلك، لأن اللغة الإنجليزية هي أشهر اللغات في العالم، ويتكلم بها مئات الملايين من المسلمين، ولأن في بريطانيا أكثر من مليونين من المسلمين.

ورأى الإخوة الذين فكروا في هذا المركز أن يرتبط بجامعة عريقة من الجامعات المعروفة في العالم، فوقع الاختيار على جامعة (أوكسفورد) العريقة، وجسوا النبض لدى المسؤولين فيها، فوجدوا قبولا لديهم.. وبعد شوط من المفاوضات: جاءت الموافقة على إقامة هذا المركز، ليكون إحدى مؤسسات الجامعة، على أن يكون له استقلاليته وشخصيته المتميزة، ويرسم سياسته مجلس أمناء، بعضه من أساتذة جامعة أوكسفورد، تعينهم الجامعة ممثلين لها، وبعضهم شخصيات علمية واجتماعية وسياسية من أنحاء العالم الإسلامي. وهم الأكثرية.

> **لست من المترفين الذين نشأوا في الحلية أو ولدوا وفي فمهم ملعقة من ذهب بل أنا ابن القرية والكُتاب**

وقام المركز وبدأ نشاطه في مبنى متواضع مستأجر من مباني الجامعة، وبدأنا نجمع له بعض التبرعات، وكان أي مبلغ ولو قليلا، له نفعه في ذلك الوقت. ولم أدخر وسعا في معونة المركز، الذي كان مديره الدكتور فرحان شعلة متوقدة من النشاط والحركة والسعي في كل مكان لجلب التبرع المادي، والتأييد المعنوي للمركز.

كانت الفترة الأولى حرجة حقا، ولكن استطاع المركز أن يجتازها بفضل الله تعالى، ثم بفضل ثقة الناس بالشيخ الندوي، ثم بمعاونة مجلس الأمناء، ثم بنشاط مدير المركز.

ثم اشترى المركز مقرا أوسع وأكبر، ولكنه مؤقت، ثم بعد أن رسخت دعائمه، سعى لبناء مركز كبير يضم في رحابه مسجدا ومكتبة وغرفا للإدارة وغيرها، وهو الآن يوشك أن يتم ويفتتح.

وقد دعا إليه شخصيات كبيرة لتحاضر فيه، وأبرز من حاضر فيه، هو الأمير تشارلز ولي عهد بريطانيا الذي ألقى فيه محاضرة كان لها صداها في إنجلترا وخارجها، عن (الإسلام والغرب) أنصف فيها الإسلام إلى حد كبير.

وقد تبنى المركز عدة مشروعات، منها: مشروع كتابة كتاب عن التاريخ الإسلامي.

ومنها: جائزة سلطان بروناي في مجال الدراسات الإسلامية، وقد حصل عليها في الحديث الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، وفي التفسير ثلاثة، أحدهم: الدكتور عدنان زرزور، وفي التاريخ العلامة أبو الحسن الندوي، وفي الفقه يوسف القرضاوي، ولا تزال الجائزة مستمرة.

وبعد وفاة العلامة الندوي رحمه الله، تولى رئاسة مجلس الأمناء من بعده: نائبه الرجل الإسلامي الواعي النشيط الأستاذ الدكتور عبد الله عمر نصيف، وفقه الله.

مناظرة دار الحكمة في القاهرة بين الإسلاميين والعلمانيين

في صيف سنة ١٩٨٥م، بعد عودتي من ألمانيا، حيث أجريت عملية الانزلاق الغضروفي بنجاح والحمد لله، ومررت مع الأولاد بمدينة لوجانو في سويسرا: عدت إلى القاهرة، لأقضي بها بقية الصيف، قبل الرجعة إلى قطر في بداية العام الدراسي.

وكان الجو في القاهرة متوترا بين الإسلاميين والعلمانيين، ولا سيما بعد المقالات التي كتبها د. فؤاد زكريا أستاذ الفلسفة في جامعة القاهرة في صحيفة الأهرام، يهاجم فيها الصحوة الإسلامية ودعاتها ومؤيديها.

وقد تنادى الفريقان: الإسلامي والعلماني، إلى مناظرة تعقد بين الفريقين في إحدى القاعات الكبيرة، يعرض كل منهما ما عنده، ويرد عليها الآخر، ويحتكم الجميع إلى جمهور الحضور.

وقد عرضت نقابة الأطباء أن تستضيف الفريقين في قاعتها الشهيرة (دار الحكمة) ودعت عددا من دعاة الإسلام ومن دعاة العلمانية، كان أبرز الإسلاميين هو الداعية الكبير شيخنا الشيخ محمد الغزالي، وأبرز العلمانيين هو الدكتور فؤاد زكريا، الذي لم يحضر في النهاية من العلمانيين غيره.

وقد وجهت الدعوة إليّ، وقد حضرت للتو من أوروبا، وقال لي الإخوة في نقابة الأطباء: إن حضورك ضروري، لتشد عضد الشيخ الغزالي، كما قال تعالى «سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ» (القصص:٣٥) واستجبت للدعوة، مستعينا بالله، سائلا أن يمدني بروح من لدنه، وأن يسدد لساني، ويقوي حجتي، وتوجهت إلى الله تعالى بدعاء موسى حين أمره ربه أن يذهب إلى فرعون «قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي. وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي. يَفْقَهُوا قَوْلِي» (طه:٢٥-٢٦-٢٧-٢٨).

وفي الموعد المقرر وصلت إلى قاعة دار الحكمة، فوجدتها مزدحمة بالجماهير الغفيرة من كل حدب وصوب، ومن كل اتجاه ولون، ووجدت عددا من قادة الرأي والفكر مثل المستشار طارق البشري، والأستاذ فهمي هويدي، والأستاذ عادل حسين، و د. أحمد العسال، فضلا عن المناظرين الأساسيين الثلاثة: الغزالي والقرضاوي وزكريا.

وقد افتتح المناظرة الدكتور زكريا، وثنى الشيخ الغزالي، وثلثت بعده. وقد بدأت أناقش ما طرحه د. زكريا بالمنطق والحجة، قبل أن أناقشه بنصوص الشرع. ودعوت قبل المناظرة إلى تحديد المفاهيم، ثم إلى تحديد المعايير التي يحتكم الفريقان إليها. ثم تحديد المواقف. وكانت الجماهير متجاوبة معي كل التجاوب، لسلامة منطقي، وقوة حجتي، ووضوح عبارتي، لا لأي اعتبار آخر. وهو ما جعل د. زكريا يقول بعد ذلك أني خاطبت مشاعر الجمهور العاطفي، ووالله ما خاطبت إلا العقول، وما استخدمت غير الحجة والبرهان. وقد شهد أهل الرأي والفكر الحاضرون بذلك.

وقد سجلت هذه الندوة في أشرطة الفيديو والكاسيت، وأذيعت على نطاق واسع. ثم رأيت أن الكتابة في هذا الموضوع أصبحت فريضة علي، فكتبت في ذلك: كتابي (الإسلام والعلمانية وجها لوجه). ناقشت فيه القضية من جذورها، وكان هذا الكتاب سلاحا في المعركة المحتدمة من قديم وإلى اليوم بين الإسلاميين الذين يريدون الإبقاء على هوية الأمة وذاتيتها، وبين الذين يريدون أن يذوّبوها في غيرها.

د. علي القره داغي في قطر

في السنة الدراسية ١٩٨٥، ١٩٨٦م انضم أخونا د. علي محيي الدين القره داغي إلى أسرة كلية الشريعة في جامعة قطر.

وكنت قد تعرفت عليه في القاهرة في إحدى إجازاتي الصيفية، حين كان يحضّر أطروحته للدكتوراه في كلية الشريعة بجامعة الأزهر في الفقه المقارن. وكان يقيم هو وأسرته في مدينة نصر، حيث أسكن أنا وأسرتي.

وقد سررت بمعرفته، حين وجدته حافظا للقرآن الكريم، كما وجدته على صلة جيدة بتراثنا الفقهي، ولا سيما فقه الشافعية. ومن المعروف أن إخواننا الأكراد في كل مكان لا يدينون إلا بمذهب الشافعي رضي الله عنه. ولهم في الأزهر رواق معروف باسمهم.

وقد درس العلوم الشرعية على أهلها من العلماء منذ نعومة أظفاره في بلده في العراق. وأكمل في بغداد. ثم أراد أن يتمم مشواره بالحصول على الدكتوراه من الأزهر، الذي ينتمي إليه أبناء العرب والمسلمين في المشارق والمغارب، وخصوصا عرب المشرق.

وقد لحظت حين لقيته وتحدثت معه، اهتمامه بفقه المعاملات المعاصرة، ولا سيما فقه الشركات الذي كان يعد فيه رسالته، فقلت في نفسي: هذا مطلوب لكلية الشريعة في قطر، حيث نحتاج إلى التركيز على هذا الجانب من فقهنا الإسلامي، الذي لا يأخذ حقه في كثير من جامعاتنا الدينية، مثل الأزهر،



● الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي

فقد كنا ندرس كتب الفقه القديمة كما ألفت في عصورها. ندرس فقه شركة العنان، وشركة المعاوضة، وشركة الوجوه، وغيرها من الشركات، ولا نعرف شيئا عن الشركات المساهمة والتوصية، وشركات التأمين، وشركات المقاولات، وغيرها من أنواع الشركات الحديثة التي يتعامل معها الناس كل يوم.

وندرس كتاب (البيوع) وكتاب (الإجارة) وكتاب (الحوالة) وكل ما يتعلق بالمعاملات، في كل مذهب من كتبه المعتمدة للدراسة، وهي معزولة عن الحياة عزلا تاما، تشرح لنا الألفاظ، وتفهم المصطلحات، وتناقش التعريفات، وتحفظ الأحكام كما وردت. أما صلتها بالواقع فهي مبتوتة تماما. هكذا درست في الفقه الحنفي في المرحلة الابتدائية: اللباب على الكتاب أو (شرح الميداني على القدوري). وفي المرحلة الثانوية، درست: الاختيار شرح المختار لابن مودود الموصلي، وكنت أحصل على أعلى الدرجات، ٤٠ من ٤٠، ولكن لا أفقه في المعاملات المعاصرة شيئا، كما يفهم شيوخي الذين درسوني.

ولهذا يكون المدرس الذي فقه الكتب واتصل بواقع الحياة: مكسبا كبيرا، يجب أن نعض عليه بالنواجد. وهو ما اقتنعت به حين تعرفت على القره داغي حفظه الله.

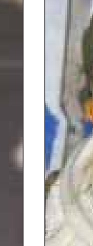
وقد سبق أن التحق بالكلية د. علي السالوس، وله عناية أيضا بهذا الفقه. وبهذا يكون القره داغي إضافة إلى هذا المجال الهام، «سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ» (القصص:٣٥) ولا سيما أن السالوس أميل إلى التشديد، والقره داغي أميل إلى التسهيل، فيتخفف حر ذاك ببرد هذا، فيتحقق التوازن المنشود.

زيارة سري لانكا

وفي شتاء سنة ١٩٨٦ زرت جمهورية سري لانكا، نزلت في العاصمة (كولومبو) ومنها اتجهت إلى زيارة الجامعة النظيمية، وهي جامعة إسلامية أنشأها التاجر المسلم المعروف، الحاج نظيم في إحدى نواحي سري لانكا.

وكان الذي حثني على زيارة هذه الجامعة وكرر حثه لي هو شيخنا العلامة أبو الحسن الندوي رحمه الله. فقد زارها من قبل وسر بها وبما تقدمه لأبنائها وبناتها، ورأى أن زيارة كبار علماء المسلمين ودعاتهم لها، تشد أزرها، وتسند ظهرها، وتقوي أمرها. فلهذا أصر عليّ أن أضع ذلك في برنامجي.

والحقيقة أنني لا أستطيع أن أتأخر عن شيء يطلبه مني الشيخ الندوي، لأني أعتقد أنه رجل مبارك، وأنه ليس من أهل عصرنا المشغولين بالدنيا وزخرفها، بل هو من بقية السلف الصالح رضي الله عنهم، كأنما هو رجل جاء من القرون الإسلامية الأولى التي هي خير القرون، ليعيش في عصرنا هذا، عصر المادة والمنفعة. وأنا أتقرب إلى الله تعالى بحبه، كما



● د. عدنان زرزور

قال القائل:

أحب الصالحين ولست منهم
لعلي أن أنال بهم شفاعة!

ولهذا لم أتردد في الإسراع بزيارة الجامعة النظيمية، وقد ظللت في رحابها نحو أسبوع نائما في إحدى حجرها، فلم يكن هناك فندق قريب منها، وهي في قرية من القرى. وأنا بحمد الله لست من المترفين الذين نشئوا في الحلية، أو ولدوا وفي فمهم ملعقة من ذهب كما يقال، بل أنا ابن القرية والكتاب.

لذا لم أشعر بمعاناة، ولم أشكُ من تعب بسكناي داخل الجامعة، أو قريبا منها. بل كانت المنطقة منطقة ريفية رائعة الجمال، مكسوة بالخضرة والنضرة، حافلة بأشجار جوز الهند (الترجيلة) والباباي، وغيرها من فواكه تلك البلاد اللذيذة والطيبة. وهي أشبه ما يكون بمنطقة (كبرالا) في الهند أو (بنغلاديش).

وقد التقيت أساتذة الجامعة، لقاءات خاصة، سألوني فيها جملة أسئلة تتعلق بالمناهج والكتب والتدريس، وأجبتهم بما فتح الله علي به.

والتقيت بالطلاب في محاضرات خاصة ببعضهم، في العلوم الشرعية المعروفة: الفقه والأصول والتفسير والحديث والعقيدة والدعوة. كما ألقيت عليهم عددا من المحاضرات العامة، حضرها كل من في الجامعة، من أساتذة وطلاب وطالبات، وكنت ألمح في وجوههم مدى تأثرهم بما يلقى عليهم، فهم يتلقونه بعقولهم وقلوبهم.

وقد زرت العاصمة (كولومبو) وبعض المدارس الإسلامية التي وجدت فيها بعض مدرسين بعثهم الأزهر إليها.

وزرت بعض كبار الشخصيات الإسلامية التي نسيت أسماءها جميعا، ولكن كان فيهم وزير في الحكومة يمثل الأقلية الإسلامية.

فهناك أقلية إسلامية موجودة من قديم، حيث تعتبر هذه البلاد امتدادا للهند، وإن كانت الديانة السائدة فيها هي البوذية، السائدة في الصين، وليست الهندوسية السائدة في الهند. وقد كنت أجد تماثيل (بوذا) في الميادين المختلفة، ومنها: تمثال ضخم كان في طريقنا إلى القرية التي فيها الجامعة. وكلها مقدسة عندهم.

كما زرت رجل البر والخير، الذي أسس هذه الجامعة، الحاج نظيم في العاصمة، وهو تاجر جواهر مشهور، وأذكر أنه دعاني إلى بيته على غداء، ودعا بعض المسلمين المعروفين، ليسلموا علي وأسلم عليهم. وقد شكرني على الزيارة، وطلب مني أن أكررها، فهم معزولون عن العالم الإسلامي، وقد لمس أثر هذه الزيارة في الأساتذة والطلاب جميعا، ووعدتهم أن أزورهم إذا يسر الله ذلك، ولم ييسر الله ذلك إلى اليوم، وإن كانوا في الواقع يستحقون الزيارة والتشجيع، وأوصي إخواني من العلماء والدعاة - كما أوصاني الشيخ الندوي - أن يزوروا هذه الجامعة التي أرجو من ورائها الخير لمسلمي سري لانكا. سدد الله خطاهم، وثبت على الحق أقدامهم.

وأذكر أن الإخوة هناك عرضوا علي أن أزور البلدة التي كانت قد نفي فيها البطل المصري أحمد عرابي قائد الثورة الوطنية الشهيرة، التي انتهت بهزيمته، ونفي الإنجليز له إلى تلك البلاد. ولكني اعتذرت لهم، إذ لم يكن عندي الوقت الكافي لذلك، فالواجبات عندي - دائما - أكثر من الأوقات، والمعين هو الله.

تأسيس الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية

كان النشاط التنصيري في أوج قوته في السبعينيات من القرن العشرين، وقد عقد دعاة التنصير مؤتمرا عالميا لهم في (بال) بسويسرا سنة ١٩٧٤م بهدف تنصير العالم!

وفي سنة ١٩٧٨م عقدوا مؤتمرا في ولاية كلورادو في الولايات المتحدة بهدف أعلنوا عنه، وهو: تنصير المسلمين في العالم!! وكان هؤلاء المنصّرون من البروتستانت الأميركيين.

وكأن المسلمين هم أول من يحتاج إلى الهداية التي يملكونها!! كنا نظن أن يتوجهوا - أول ما يتجهون- بجهود تنصيرهم إلى البلاد التي تعلن الإلحاد صراحة، ويقولون بصراحة وجلاء: لا إله، والحياة مادة فحسب! ولا تؤمن بالله، ولا برسالات السماء، ولا بالآخرة، فهم أول من يحتاج إلى أن يوصلوا بالسماء، ويذكروا بالله وبالحياة الباقية الأخرى، فإن وقفت في طريقهم العقبات: اتجهوا إلى البلدان التي لم تصل إليها النبوات، ولا تزال تعيش تحت سلطان الديانات البدائية، والوثنيات الهمجية.



> **مجلس أمناء مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية في لندن اختارني بالإجماع لعضويته**

فهؤلاء وأولئك كانوا أولى بالتبشير والتنصير من المسلمين: اتباع ملة إبراهيم، وأصحاب الديانة التوحيدية، التي تميز توحيدها بالخلوص والصفاء، فليس فيه تشبيه اليهود، ولا تثليث النصارى، فاليهود يشبهون الخالق بالمخلوق، والنصارى يشبهون المخلوق بالخالق.

ولكنا فوجئنا بهذا التوجه الغربي من المبشرين الأميركان خاصة لتنصير المسلمين في العالم.

والأميركان مولعون بأن يكونوا هم (الأعلى) في العالم في كل شيء، بحيث تكون مأكولاتهم تغزو العالم كله (بيتزا وماكدونالد وكنتاكي وغيرها) وأن تكون مشروباتهم تغزوا العالم كله (كوكاكولا وبيبسي كولا وغيرهما) وأن تكون أفلامهم تغزو العالم، فلماذا لا يغزون بدينهم العالم كله أيضا؟!

اجتمع مائة وخمسون من عتاة المنصّرين البروتستانت من الأميركان ومن يدور في فلكهم في كلورادو لتنصير المسلمين في العالم، وقدموا أربعين أو ثلاثة وأربعين بحثا أو دراسة عن الإسلام وأمته وكتابه ونبيه وتاريخه وحاضره ومستقبله، برؤية مسيحية تنصيرية.

وكيف يمكن التأثير في المسلمين؟ واقتلاعهم من دينهم؟ واقناعهم بالنصرانية، وأن المسيح هو ابن الله المخلص للبشر من الذنب الذي ورثوه عن أبيهم آدم، أو هو (أقنوم) من الأقانيم الثلاثة التي تتكون منها الألوهية عند النصارى: (الإله الأب، والإله الابن، والروح القدس). والمشكل هنا: أن المسلمين يؤمنون كل الإيمان بأن دينهم هو الدين الخاتم، الذي ختم الله به النبوات، وأن كتابهم هو المهيمن على الكتب كلها، وأن دينهم جاء متمما لما جاءت به الرسالات السابقة، ومصححا لما وقع فيها من أوهام وأخطاء وتحريفات على مر الزمان.

ومن الصعب إخراج المسلم من دينه ليعتنق دينا آخر، ويتحول محمد وأحمد وعلي وحسن وحسين إلى جورج وحنا وبطرس، هذا أمر يكاد يكون مستحيلا في العادة.

ولقد جرب المبشرون ذلك في أول القرن العشرين في عدد من الأقطار، ومنها مصر، بلد الأزهر، وبلد القرآن والعلم الديني.

وكانوا يبعثون الحملات إلى القرى، ممن جهزوهم بمعرفة العربية، وحفظ القصص عن المسيح والعذراء، إلى غير ذلك. ويظل المبشر يحكي للناس هذه القصص والناس سكوت، فيحسب المبشر أنهم قد قبلوا كلامه، أو فتحوا له قلوبهم، فلا يلبث أن يسمع أحد الحاضرين يقول: «وحدوه»! فيرد الجميع بصوت جهير: لا إله إلا الله! فيقول: كمان صلوا على النبي، فيقولون: عليه الصلاة والسلام! وهنا يشعر المبشر أنه لم يصنع شيئا!

وانتهت هذه الحملة التبشيرية على مصر، بتقرير كتبه رئيس الحملة قال في نهايته: سيظل الإسلام صخرة عاتية، تتحطم عليها محاولات التبشير المسيحي، ما دام للإسلام في مصر هذه الدعائم الأربع: القرآن، والأزهر، واجتماع الجمعة الأسبوعي، ومؤتمر الحج السنوي!!

والآن قد غير القوم خططهم وأساليبهم، وجاؤوا - فيما زعموا - بمخططات جديدة، وأساليب جديدة، منها طباعة الإنجيل على طريقة القرآن، وعلى شكل القرآن، وتسمية الإصحاحات في الإنجيل (سورا) وتسمية الفقرات آيات، والفصل بين كل إصحاح وآخر، بما يفصل به بين سور القرآن بعضها وبعض، وأهم من ذلك: قبول بعض المسلمين المتمسكين ببعض تعاليم دينهم، وتسميتهم: العيسويين، بوصف ذلك مرحلة في التحول الكامل إلى النصرانية.

ودراسات شتى تضمنها هذا الكتاب الذي ترجم إلى العربية تحت عنوان (التنصير): خطة لغزو العالم الإسلامي.

وهو ما دفع شيخنا الشيخ الغزالي بعد ذلك أن يكتب كتابه(صيحة تحذير من دعاة التنصير).

وقابل العلماء والدعاة والمهتمون في العالم الإسلامي، هذه الحملة، بالتوجس، أو الصراخ، والتحذير للأمة مما يحاك لها.

وقد عرفنا: أن التنصير قد بدأ بغزو البلاد الإسلامية بالفعل، وبخاصة البلاد الكبرى مثل نيجيريا أكبر بلد إسلامي في أفريقيا، ومثل أندونيسيا أكبر بلد إسلامي في آسيا، بل في العالم كله.

ورأينا التنصير يغير هدفه وفق المكان والزمان والحال، فهو في المنطقة العربية لا يطمع في تحويل المسلم إلى نصراني بصراحة، ويكتفي بتشكيكه في الإسلام شريعة ونظاما، إن لم يتمكن في تشكيكه فيها عقيدة وتوحيدا، ولهذا يعمل على نشر الفكر العلماني الذي يتفق مع اللاهوت المسيحي في الجملة، في ترك ما لقيصر لقيصر، وما لله لله!

أما في غير المنطقة العربية، فهو يعمل على تحويله إلى مسيحي بالفعل، ولا سيما عن طريق المدارس التي تلتقط الطفل في صغره، وتأخذه خامة بيضاء، فتغرس فيه ما تشاء من عقائد ومفاهيم وقيم، وتنقله من دين إلى دين، وأهله وذووه لا يشعرون!

ولقد نجح التنصير إلى حد كبير في هدفيه في المنطقة العربية، والمنطقة الإسلامية غير العربية.

ومع هذا يشيع دعاة التنصير الغربيون دائما ويكررون: أنهم لم ينجحوا في البلاد الإسلامية، وأن جهودهم لم تحقق أهدافها.

واعتقد أنهم في ذلك كاذبون ومضللون.

فقد رعوا الفكر العلماني ونشروه في ديار الإسلام وروجوه بضاعة بين المسلمين.

ورعوا كل كاتب من أبناء المسلمين يتمرد على الإسلام، ويطعن في شريعته أو ثقافته أو قرآنه، وإن كان هؤلاء قلة، ولكنهم ينفخون فيهم، ويجعلون من كل حبة قبة، ومن كل قط جملا.

ووقفوا - من وراء ستار - وراء كل حاكم يتنكر لشريعة الإسلام، أو لدعوة الإسلام، يشدون أزره، ويسندون ظهره، ويوصون (الكبار) به خيرا.

ونجحوا بالفعل في تحويل بعض المسلمين إلى المسيحية، فلا غرو أن تجد اسم الشخص مسيحيا، واسم أبيه أو جده مسلما، أو تجده من قبيلة إسلامية خالصة، معناه أنهم حولوه منذ صباه إلى المسيحية.

أعتقد أن هذا الإعلان بأنهم أخفقوا مع المسلمين: أمر مقصود لهم، يحقق لهم مكاسب يرجونها:

أولها: أن تتدفق عليهم الأموال والتبرعات التي تبلغ المليارات، لتمكّنهم من التغلب على صلابة المسلمين (الناشزين) والتأثير فيهم.

وثانيها: أن يخدروا (الفريسة) التي يريدون اصطيادها، وهي: المسلمون، حيث يقولون: الإسلام بخير، والأمة بخير، والمنصرون قد فشلوا في مهمتهم معهم، فلا يجتهدون في المقاومة، ولا يفكرون في عمل إيجابيّ مضاد.

وثالثها: أن يظل القوم يشعرون بأنهم مقصرون في أداء واجبهم في غزو المسلمين، وأن عليهم أن يتداركوا ذلك بالمزيد من بذل الجهد والتخطيط والتنسيق والعمل الدؤوب، ومن سار على الدرب وصل.

وربما كان سبب إعلان فشلهم: أنهم لم يحققوا كل ما كانوا يطمحون إليه من أهداف في تنصير المسلمين الذين استعصوا بعقيدتهم عليهم وخيبوا فألهم، فاعتبروا أنفسهم قد فشلوا!



● د. عبد الله عمر نصيف



● فؤاد زكريا







مذكرات فضيلة العلامة د. يوسف القرضاوي كما كتبها لـ الوطن بخط يده (٢٢)

تنفرد **الوطن** بنشر الجزء الرابع من مذكرات العلامة د.يوسف القرضاوي: ملامح سيرة ومسيرة (ابن القرية والكتاب)، وهو يشمل بضعة عشر عاما (حوالي ١٨) من هذه السيرة والمسيرة: وهي سنوات حافلة بالأحداث على المستوى الشخصي في حياة الشيخ المحلي والعربي والإسلامي والعالمي، على المستوى الشخصي يفصح فضيلته لأول مرة عن قصة زواجه الثاني وكيف تطور من عاطفة صادقة إلى زواج على سنة الله ورسوله . كما يتحدث عن تخرج كل أبنائه وتزوج كل بناته . وتعيينه عميدا لكلية الشريعة ومديرا المركز بحوث السنة والسيرة. ونجاحه في الدعوة إلى تأسيس الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية بالكويت. وعمله رئيسا لهيئة الرقابة الشرعية لعدد من المصارف الإسلامية. واختياره عضوا في المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي، وعضوا في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن (مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي) وعضو مجلس أمناء مركز اكسفورد للدراسات الإسلامية، وعضو مجلس أمناء منظمة الدعوة الإسلامية بالخرطوم، وغيرها. وحصوله في هذه الفترة على بعض الجوائز العالمية.

ومن خلال هذه المذكرات سيمر القارئ بمعظم أحداث العصر في منطقتنا العربية والإسلامية، بحكم أن صاحبها يعيش في قلب هذه المنطقة، وقلب هذه الأحداث، وقد قدر له في هذه المرحلة أن يتفاعل بها ومعها متأثرا ومؤثرا.

وتتميز هذه السنوات بأمرين لهما أهمية قصوى في حياة القرضاوي :

الأول: الانتشار الكبير له في أنحاء العالم في الشرق والغرب، وزيارة كل قارات العالم حتى أستراليا، وأميركا الجنوبية، حتى سماه البعض «الشيخ الطائر».

والثاني: ظهور المد الإسلامي أو الصحوة الإسلامية بقوة في تلك المرحلة، والتى يعتبرها الشيخ جزءا منه، كأنما هي ولده وفلذة كبده . وسنتابع نشر المذكرات يوميا بما فيها من تفاصيل يرويها القرضاوي لأول مرة.

شاركت في تأسيس الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية للوقوف في وجه غارات المنصرين

بدأ التنصير غارة جديدة على العالم الإسلامي، باجتماع كلورادو، الذي صمم فيه على تنصير المسلمين في أنحاء العالم، ورصد لذلك (ألف مليون) دولار، وأنشأ لذلك معهدا لتخريج منصّرين مسلمين، سموه (معهد زويمر) إحياء لذكرى ذلك المنصر العتيد الذي رأس المؤتمر التبشيري الكبير في القاهرة سنة ١٩٠٦م.

القوم إذن جادون في مهمتهم، مصرون على غايتهم، ووراءهم إمكانات مالية هائلة، ودول تؤيدهم بسلطانها وقوتها، وجيوش من المبشرين والمبشرات.

بلغت منذ عدة سنين ٤،٧٥٠٠٠٠ أربعة ملايين وسبعمائة وخمسين ألف مبشر ومبشرة في أنحاء العالم.

وقد كنت أحسب أن (المليار دولار)، الذي رصدوه لتنصير المسلمين: مبلغ كبير، حتى عرفت بعد ذلك أنهم يجمعون في بعض الأحيان مليارات لا مليارا واحدا، وأن المال ليس مشكلة لديهم على الإطلاق.

ومن المعلوم: أن الفاتيكان كان يعتبر - من ناحية الغنى - الدولة الثالثة في العالم بعد أميركا والاتحاد السوفياتي.

إن المسلمين ينظرون إلى التنصير أنه ليس مجرد عمل ديني، أو دعوة دينية خالصة، بل يرونه نوعا من الغزو الغربي للشرق الإسلامي.

فقد غزانا الغرب عسكريا، وغزانا سياسيا، وغزانا ثقافيا، وغزانا كذلك دينيا.

وكانت أداته الأولى في غزونا دينيا هو هذا الذي سموه (التبشير) وسميناه التنصير، والذي كان دائما خادما للاستعمار وممهدا له، ومساعدا له على استذلال الشعوب، وامتصاص خيراتها، ونهب ثرواتها، وابقائها في حضيض الفقر والتخلف، كما بين ذلك الذين أرخوا لهذا التبشير وعمله في بلادنا، مثل الدكتور عمر فروخ، والأستاذ مصطفى الخالدي في كتابهما (التبشير والاستعمار) ومثل كتاب (الغارة في العالم الإسلامي) الذي ترجمه السيد محب الدين الخطيب إلى العربية من قديم.



> المسلمون يعتبرون التنصير غزوا غربيا للشرق الإسلامي وليس مجرد دعوة دينية خالصة

كنت ممن قرأ ما صنعه المنصرون في (كلورادو) وما قرروه من أمر خطير، فأخذت على عاتقي أن أنبه المسلمين على هذا المكر الكُبّار، وأدق ناقوس الخطر، لتنبيه الأمة على ما يحاك لها، وهي في غفلة عن هذا. وليس لها قيادة توقظها وتحركها، لا سياسية ولا دينية.

وفي محاضرة لي في مدينة (جدة) بدعوة من مركز أبحاث الاقتصاد الإسلامي التابع لجامعة الملك عبد العزيز، تكلمت عن هذا الموضوع بإفاضة، وقلت: لو كان الأمر بيدي لدعوت في الحال لإنشاء صندوق إسلامي نجمع فيه ألف مليون دولار، لا لأسلمة العالم، ولكن لحماية الوجود الإسلامي من هذا الغزو المخطط الحاقد الماكر.

وبعد المحاضرة اجتمع عدد من الإخوة، منهم الشيخ الزنداني، ود. محمد عمر زبير، ود. أنس الزرقا، وعدد من الشيوخ والأساتذة الفضلاء، وقالوا: لماذا لا تنادي أنت بإنشاء هذا الصندوق، ولماذا تنتظر غيرك أن يقوم بهذه المهمة؟

قلت: بأي صفة أقوم بذلك؟

قالوا: بصفتك أحد علماء المسلمين، الذين تثق بهم الأمة، وتستمع إليهم، وتقرأ لهم، وتحملك المسؤولية عنهم. وأعتقد أن ثقة الأمة بك تجعل من فرض العين عليك أن تقوم بهذا الأمر، وتتبناه، ونحن أول المؤيدين لك، والسائرين وراءك، فعاهدنا على ذلك، ولم يدعوني حتى عاهدتهم على أن أتبنى مواجهة هذا الغزو.

وأصبحت حين أحاضر في أي بلد أدعو لإنشاء هذا الصندوق الإسلامي العالمي، ذكرت ذلك في قطر، وفي الإمارات، وفي الأردن، وفي كل بلد دعيت إليه.

ثم هيأ الله لي فرصة في الكويت في اجتماع مؤتمر المصارف الإسلامية، وكان هو المؤتمر الثاني للمصارف، بعد مؤتمر دبي الذي عقد منذ سنوات. وفي الجلسة الختامية للمؤتمر، طلبت الكلمة، وقلت للإخوة: اسمحوا لي أن أنقلكم من جو المصارف والمعاملات المالية الإسلامية إلى جو آخر. هو أشد سخونة، وأعظم خطرا، إنه يتعلق بالحفاظ على دين الأمة وعقيدتها وهويتها، وذكرت لهم ما رصد المنصرون لذلك (ألف مليون دولار). وأن على الأمة أن ترصد مثلها لحماية المسلمين من خطر الغزو المرتقب. وأمتنا أكثر من ألف مليون، فلو دفع كل فرد -في المتوسط- دولارا، لجمعنا الألف مليون بسهولة، ومن هنا نرفع شعار (ادفع دولارا تنقذ مسلما).

وأن ننشئ لذلك مؤسسة خيرية مهمتها: أن نجمع ألف مليون دولار من المسلمين، وأن نستثمرها في الحلال، لننفق من عوائدها، ونبقي الأصل سالما، وأنا أقترح أمينا عاما لهذه المؤسسة أخانا الفاضل الشيخ يوسف الحجي، (وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية سابقا، وأحد رجالات الكويت المحبوبين والمحترمين) وتجاوب الحضور معي، وأثنوا على قولي وكان منهم أخونا الفاضل المعطاء في كل عمل خير؛ أبو بدر (عبد الله المطوع) رحمه الله وأثابه، فجاء وهمس في أذني، وقال: لقد أصبت وأحسنت في اختيار يوسف الحجي لهذه المهمة، فهو موضع ثقة وقبول من الجميع، وأنا أقول لك: أني متبرع لهذا المشروع بمليون دولار أضعها لحسابه في بيت التمويل الكويتي، ولكن أرجو ألا تذكر اسمي، وأعلنت ذلك على الحضور، فامتلأت القاعة بالتكبير، ولم أعلن عن اسمه حسب رغبته، وإن كان الأمر قد عرف بعد ذلك، وإنما لكل امرئ ما نوى.

بعد هذا الإعلان وجدت حماسا بالغا من الناس على كل مستوياتهم، وكنا في يوم الخميس، وقد انتهى المؤتمر وسأسافر في المساء، ولكن أخانا السيد محمد ناصر الحمضان وكيل وزارة الأوقاف في حينها، قال: أقترح أن تؤجل سفرك، وتبقى إلى الغد، وتخطب خطبة الجمعة، وتذاع في التليفزيون والإذاعة، وتحث الناس على هذا المشروع، وبذلك يكون له أرضية قوية.

ولم يكن الشيخ يوسف الحجي موجودا حين أعلنت عن اختياره، ليكون أمين هذه المؤسسة المنشودة، فلما حضر وأبلغ بما قلته، رحب بتحمل المسؤولية، وقال: ما دعا إليه القرضاوي، فنحن له جنود.

وعدت إلى قطر، وخطبت الجمعة التالية في قطر، ونوهت بالموضوع، فلقيت من القبول والتشجيع ما شرح صدري، وكان من ذلك برقية من الشيخ محمد بن حمد شقيق الأمير، ووزير التربية والتعليم، يثني فيها على المشروع، ويعلن وقوفه بجانبي بقوة وبكل ما يستطيع، ويدعو لي وللمشروع بالنجاح والتوفيق.

كما لقيت أمير دولة قطر السابق الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني حفظه الله، وحدثته عن فكرة المؤسسة ومقاصدها، فرحب بها، وشجعني على المضي في المشروع، وقال: ثق أني مستعد للمساعدة في ذلك، على المستوى الشخصي، وعلى مستوى الدولة، وسررت بذلك سرورا كبيرا، وكان مما يشجع على ذلك في تلك الأيام: ارتفاع أثمان البترول، وازدياد دخل دول الخليج، وهذا من حسن حظ المشروع، ولله الحمد.

وكان علي: أن أضع تصورا عاما للمشروع، وأهدافه ووسائله، وأن يكون في صورة مؤسسة عالمية، لها أعضاء مؤسسون من كل أنحاء العالم، يمثلون رجال الأمة من أهل العلم والرأي، ومن أهل المال والثروة، ومن أهل الكفاية والخبرة.

وبعثت بهذه التصورات إلى الإخوة في الكويت، ليعطوا هذه التصورات إلى أحد القانونيين ليجعلها في صورة قانونية، على شكل نظام أساسي، ثم نبحث بعد ذلك كيف نستخرج القانون الذي يقرها ويعطيها الوجود القانوني.

وكنت اخترت تسميتها (المؤسسة الخيرية الإسلامية العالمية) ولكن أخانا الكريم الأستاذ خليل حمد المدرس في قطر - وهو من الأعضاء المؤسسين- اقترح اسم (الهيئة) بدل اسم (المؤسسة) لاعتبارات تتعلق بالترجمة إلى الإنجليزية.

وبعد الصياغة المبدئية لنظام الهيئة: أرسل إلى الأعضاء الذين اختيروا من شتى البلدان ليبدوا ملاحظاتهم على مواد النظام مادة مادة، وفقرة فقرة، ويقترحوا تعديل ما يريدون تعديله، وحذف ما يرون حذفه، وإضافة ما يرون إضافته.

نسيت أن أذكر أنا قد اجتمعنا في الكويت عدة مرات لاختيار الأشخاص المؤسسين، وحرصنا كل الحرص على أن يكونوا ممثلين بقدر الإمكان للأقطار والأجناس والتيارات المختلفة.

كما اخترنا لجنة تحضيرية للنظر في كل ما يلزم للإعداد لهذه الهيئة وظهورها بالصورة الملائمة لاسلاميتها وعالميتها، وكانت اللجنة مكونة من ستة أشخاص:

١. الشيخ يوسف الحجي.
٢. الشيخ يوسف القرضاوي.
٣. الشيخ سليمان الراجحي.
٤. الشيخ عبد الله العقيل.
٥. الشيخ عبد الله المطوع.
٦. الشيخ أحمد بزيع الياسين.

كانت اللجنة تنظر في الترشيحات التي تقدم لها ليكونوا من المؤسسين، وتراعي موازنات مختلفة في الاختيارات، منها: تمثيل الأقطار الاتجاهات، وأهل العلم وأهل البذل، والشخصيات المقبولة في مجتمعاتها، ثم تخطر الذين وقع عليهم الاختيار، وتعرض عليهم فكرة الهيئة كما تصورتها، ثم مشروع النظام الأساسي المقترح، وتطلب الرأي فيه.



● الشيخ محمد بن حمد آل ثاني

كما كانت مهمة اللجنة التفاهم مع الجهات المسؤولة في الكويت، لتذليل العقبات لاستصدار القانون بالهيئة المنشودة.

ولم يكن الأمر سهلا، فالهيئة - وإن كان مقرها الكويت- ليست هيئة كويتية محلية، بل هي هيئة عالمية بحكم تكوينها من مؤسسين يمثلون المسلمين في العالم، وبحكم أهدافها، فهي لخير المسلمين في العالم، وإمدادهم بما يحتاجون إليه ليعيشوا مسلمين ملتزمين بدينهم، غير متخلفين عن عصرهم، وهي عالمية بحكم تمويلها، فهي تقبل التبرعات - غير المشروطة- من أي جهة أو فرد يساعدها في مهمتها، وهي عالمية بحكم مصارفها ومواقع نشاطها، فهي تعمل في كل مكان يوجد فيه مسلمون محتاجون، ولا سيما في إفريقيا وآسيا، حيث ينشط التنصير بين المسلمين، مستغلا فقرهم ومرضهم وأميتهم، فيقدم المساعدات الغذائية، وينشئ المستشفيات والمستوصفات الطبية، ويؤسس المدارس التعليمية، التي قاطعها المسلمون، لصبغتها الكنسية، فمن دخلها نال الشهادة، وفقد الدين! ولهذا بقي المسلمون في معظم دول إفريقيا - جنوب الصحراء - معزولين عن التعليم العصري، قاصرين تعليمهم على القرآن واللغة العربية وشيء من العلوم الشرعية، وبعض مبادئ الحساب، كل ذلك يعلم على الطريقة التقليدية القديمة، فقط تطور الأزهر، وتطورت المعاهد العلمية الدينية في العالم العربي، وكثير من البلاد الإسلامية ولم يتطور التعليم عند هؤلاء.

المهم أن الهيئة المنشودة هيئة عالمية بلا نزاع، ونريد من القانون الذي يصدر بإنشائها في الكويت أن يحافظ على عالميتها واستقلالها.

كان هذا العمل يقوم به إخواننا الكويتيون من الأعضاء المؤسسين في الهيئة، وكان هناك عمل آخر تقوم به اللجنة التحضيرية مع المؤسسين لإنضاج النظام الأساسي، والاتفاق المبدئي على صيغته النهائية بعد التعديلات المقترحة.

وقد صدر قانون الهيئة (قانون رقم ٦٤ لسنة ١٩٨٦م) بأمر أميري من الشيخ جابر الصباح أمير دولة الكويت، وأحيل إلى مجلس الأمة، لمناقشته وإقراره أو تعديله، وبعد أخذ ورد، وجذب وشد، وافق مجلس الأمة على القانون.

الاجتماع التأسيسي لإقرار النظام

وكان المؤسسون دعوا للاجتماع في الكويت بتاريخ ١٩٨٦م لمناقشة النظام الأساسي ثم إقراره بعد تعديل ما يتطلب التعديل، وكان الحضور مكثفا، لم يكد يعتذر إلا من قهرته الظروف أو أقعده المرض، وكانوا صفوة من رجالات الأمة المعنيين بأمرها، المشغولين بهمومها، حتى قال لي شيخنا الغزالي وعينه تذرف الدموع: جزاك الله خيرا، لقد جمعت حكماء الأمة في هذا المكان، وقلما يجتمعون، وحملتهم الآن المسؤولية الدينية والتاريخية، لينهضوا بواجبهم، ويقوموا بدورهم.



● الشيخ عبد المجيد الزنداني

وكذلك قال شيخنا الشيخ عبد المعز عبد الستار: كنا نسمع عن حكماء صهيون، أو مشيخة بني إسرائيل، الذين اجتمعوا يوما لينظروا في مصير قومهم، ويقرروا ما يجب عليهم لمستقبلهم، ويحددوا علاقتهم بغيرهم. وها نحن اليوم نرى مشيخة المسلمين أو صفوتهم يجتمعون، لينظروا في مصير أمتهم.

قلت للشيخين: لا داعي أن نسرف في التفاؤل، على كل حال، فإن لقاء المؤمنين لا يثمر إلا خيرا، وخصوصا إذا اجتمعوا لهدف واضح، ومنهج بين، ولم تكن لهم أغراض دنيوية، أو مصالح شخصية، إنما جمعهم حب الله ورسوله، والانتصار لهذا الدين الذي يشكو إلى الله أبناء عقوه، وأنصارا خذلوه.

وكان بعض الإخوة الحضور - لأغراض خاصة - يريدون تأجيل هذا الاجتماع الحاسم، وقال لي أحدهم: ما وجه الاستعجال - يا شيخ يوسف- في أمر خطير كهذا؟ وما الضرر لو أخرناه بضعة أشهر حتى يزداد نضجا؟

وكنت رئيس الجلسة، فرفضت الاقتراح بحزم وحسم، وقلت: لقد مضت عدة سنوات منذ اقترحت إنشاء هذه الهيئة في الكويت، حتى تغيرت الأحوال عما كانت، وانخفض سعر البترول بعد ما كان مرتفعا، وهذا ليس في صالحنا، ولقد ناقشنا النظام الأساسي حتى مللنا، ولا بد لنا أن نحسم أمرنا، وقد قال تعالى «وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّه» (آل عمران: ١٥٩) وقد عزمنا وتوكلنا على الله، «وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ» (الطلاق: ٣).

وانتهى الاجتماع بإقرار النظام الأساسي، بعد تعديلات طفيفة عليه.

وقد حرصنا في نظامنا الأساسي: أن تكون هيئتنا هيئة خيرية محضة، كل همها عمل الخير، وليست هيئة تبشيرية أو دعوية في أساسها، وإن كان الدافع الأول من إنشائها هو الحملة التنصيرية الكبرى على المسلمين.

كما حرصنا أن نبعد الصيغة السياسية والجهادية عن الهيئة، ضمانا لحسن أدائها لعملها بعيدا عن المؤثرات السياسية وتياراتها المتناقضة. وهو ما يعرضها لخصومات وصراعات تضرها ولا تنفعها.







● الشيخ يوسف الحجي



● د. محمد عمر زبير

وأذكر أن بعض الإخوة، ومنهم الأخ الكبير الدكتور أحمد الملط نائب المرشد العام للإخوان في مصر رحمه الله، وقف يعترض بشدة، ويقول لي بوصفي رئيس الجلسة، وصاحب الفكرة: كيف تحذف السياسة من الإسلام يا شيخ يوسف؟ أتريدون إسلام الأضرحة والموالد، الذي يبارك الأنظمة الفاجرة، ويسير في ركاب الطغاة من الحكام؟ ألست أنت الذي كنت تعلّمنا: أن الإسلام عقيدة وشريعة، وعبادة ومعاملة، ودين وسياسة، وصلاة وجهاد؟

قلت: يا دكتور أحمد، نحن لا نؤمن بتجزئة الإسلام، ولا بحذف السياسة أو الاقتصاد أو الجهاد منه، ولكننا نؤمن بالتخصص، ونحن متخصصون في عمل الخير على كل المستويات، وعن طريق هذا الخير نرقى بالناس، حتى نمكنهم من العمل في السياسة والاقتصاد والدعوة والجهاد، بعد أن نهيئ الخبز للجائع، والكساء للعريان، والدواء للمريض، والكفالة لليتيم، والمسكن للمشرد، والعمل للعاطل، والتدريب للعامل، والمدرسة للأمي، والكفاية للأسرة، وهذه أمور تحتاج منا إلى جهود وأوقات وأموال وعقول، وطاقات بشرية مدربة، وكل هذه لا نملك منها إلا القليل، أو الأقل من القليل.

هذا هو عمل الهيئة الذي ينبغي أن نتفرغ له، أما السياسة والجهاد وغيرها، فلها رجالها، ولها مجالها، وقد حضنا القرآن على رعاية التخصصات، وسد الثغرات المختلفة، وعدم توجيه الطاقات كلها في اتجاه واحد وإغفال ما عداه، وفي ذلك جاء قوله تعالى «وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ» (التوبة: ١٢٢).

> عار على أمة الإسلام أن تعجز عن التبرع بمليار دولار لحماية عقيدتها من سهام المنصرين

وكان على المجتمعين أن ينتخبوا بالاقتراع الحر: مجلسا للإدارة من ٢١ شخصا، وقد اجتمع المجلس عقب اختياره في جلسة إدارية، ليختاروا الرئيس ونائبه أمينا عاما وأمين الصندوق، وقد اختار المجلس بالإجماع الشيخ يوسف الحجي رئيسا عاما للهيئة، واختار نائبا له: أخانا الفاضل الشيخ صالح الحصين، وهو شخصية سورية معروفة، واختار أمينا عاما: الشيخ عيسى بن محمد آل خليفة، واختار أمينا للمال: الشيخ أحمد البزيع ياسين من الكويت.

كما اختار لجنة تنفيذية من الأعضاء تكون أقدر على الاجتماع في مدة أقرب من مدة المجلس. وكنت ممن اختيروا لمجلس الإدارة، وللجنة التنفيذية. كما اختير للمجلس من قطر: فضيلة الشيخ عبد الله بن ابراهيم الأنصاري رحمه الله.

وانصرف المجتمعون، وهم يحمدون الله على أن يسر أمرهم، كما يدعونه عز وجل أن يعينهم على العمل لتحقيق أهداف الهيئة كل في بلده.

وقد اتفقنا على أن يمر وفد يمثل الهيئة بأمراء دول الخليج وملوكها، ويشرح لهم أهدافها وفكرتها، ويطلب منهم المعونة والتأييد المادي والمعنوي لها.

وكان الوفد يتكون من رئيس الهيئة الشيخ يوسف الحجي، ومن الشيخ عبد الله الأنصاري رحمه الله، ومن الشيخ عبد الله المطوع (أبي بدر) رحمه الله، ومن الفقير إلى الله تعالى.

وقد مررنا بأمير قطر الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني، وقد كنت قد حدثته من قبل عن الهيئة، كما ذكرت من قبل، فأحسن استقبالنا، وتجاوب معنا، وأمر بفتح حساب في مصرف قطر الإسلامي للهيئة.

كما مر الوفد بدولة البحرين، ولقي أميرها الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة، الذي رحب بنا كل الترحيب، وقال: البلد بلدكم، ونحن معكم.

وقدم الوفد طلبا لزيارة دولة الإمارات العربية المتحدة، ففوجئنا باعتذارهم من عدم استقبالنا في الظروف الراهنة. أما عُمان، فلم ترد علينا، لابالإيجاب، ولا بالسلب. وكذلك المملكة العربية السعودية لم ترد علينا. وكان بعضهم قد شوه في تقريره صورة الهيئة عند المسؤولين وقال لهم: إذا أردتم أن تدعموا الإخوان المسلمين فادعموا الهيئة الخيرية!!

وهو تشويه ظالم، فرغم أن الداعي لفكرة الهيئة كان من الإخوان، وعدد من أعضائها من الإخوان، فإن الهيئة تتميز بتمثيل متوازن لكل فئات الأمة، خصوصا على مستوى أهل السنة، ولم يكن يسعها أن تتجاهل الإخوان المسلمين، وهم جماعة حية كبيرة لها وجود ملموس في كل أقطار المسلمين.

ومن نظر إلى مجموع المؤسسين وجد فيهم عددا كبيرا من السعوديين.

وهذا الموقف من الأنظمة الحاكمة جعلني أستشعر أن الأمر ليس كما كنت أتوقعه، حين قلت: إن الألف مليون دولار يمكن أن تجمع من أكثر من ألف مليون شخص، على أساس: متوسط دولار لكل فرد.

وقد نظرت في الأمر يوما نظرة رياضية، فقلت يمكننا أن نجمع الألف مليون بواحدة من هذه الطرق:

- ألف فرد يدفع كل واحد مليون دولار فتكون النتيجة = مليارا.
- أو عشرة آلاف فرد يدفع كل واحد مائة ألف دولار فتكون النتيجة = مليارا.
- أو مائة ألف فرد يدفع كل واحد عشرة آلاف دولار فتكون النتيجة = مليارا.
- أو مليون فرد يدفع كل واحد ألف دولار فتكون النتيجة = مليارا.
- أو عشرة ملايين فرد يدفع كل واحد مائة دولار فتكون النتيجة = مليارا.
- أو مائة مليون فرد يدفع كل واحد عشرة دولارت فتكون النتيجة = مليارا.
- أو ألف مليون فرد يدفع كل واحد دولارا واحداً فتكون النتيجة= مليارا.

ولكن تبين لي أن هناك عقبات وعقبات، وحواجز وحواجز، تحول بيننا وبين الوصول إلى الفرد المسلم العادي، وأن هناك مئات الملايين من المسلمين لا يمكن الوصول إليهم، بعضهم وراء الستار الحديدي، وبعضهم محبوس في اقفاص الأنظمة الشمولية، وبعضهم تحكمه أنظمة علمانية إذا سمعت كلمة (إسلام) أصابها ما يشبه الصَّرَع، وبعضهم مشغول بلقمة عيشه التي لا يكاد يجدها.

وتمخضت جهودنا في جمع الأموال التي أردناها في بلدين اثنين: الكويت بلد المقر، والذي كنا نطمع أن تمدنا دولته بمبلغ محترم يوقف الهيئة على قدميها في أول مسيرتها، وانتهت المقابلات والوعود إلى مبلغ ٢٠٠،٠٠٠ دينار كويتي! لولا المليون الأول من أخينا أبي بدر ثم عمارتان أوقفهما للهيئة، وبعض أهل الخير، أخلف الله عليهم وجزاهم خيرا.

والبلد الثاني، هو: قطر، الذي كان حساب الهيئة فيه عامرا دائما بتبرعات أهل الخير، ولا سيما قبل أن تنشأ جمعية قطر الخيرية، وتستقطب معظم تبرعات المحسنين فيها.

ولقد زرنا الشيخ الأنصاري وأنا: عددا من الشيوخ والتجار في قطر نعرّفهم بالهيئة وأغراضها، ونلتمس منهم دعمهما بما أفاء الله عليهم، فكان معظمهم يسألنا: هل يجوز أن ندفع لها من الزكاة؟ وكان الجواب: يجوز دفع الزكاة للهيئة، ولكنها ستصرف في مصارف الزكاة، ولن تدخل في رأس مال الهيئة المنشود الذي يعد صدقة جارية لصاحبه، وهو بمثابة الوقف الخيري، الذي يدوم ثوابه مادام الانتفاع بريعه مستمرا، حيث يحبس أصله، وتسبّل ثمرته.

والآن وقد مر على تأسيس الهيئة رسميا بضع وعشرون سنة: لم نجمع من رأس المال المطلوب (وهو ألف مليون دولار) إلا مائة وبضعة ملايين دولار، وهو عار على أمة الإسلام.

ومع هذا أثبتت الهيئة وجودها بأنشطتها المختلفة عن طريق ما يدفع إليها من الزكوات والصدقات والتبرعات المخصصة لبناء مساجد، أو مدارس، أو دور أيتام، أو طبع مصاحف، أو حفر آبار، أو نشر كتب، أو إنشاء مراكز للدعوة، وكلها أنشطة مهمة تبرع بها أهل الخير، ووثقوا بإدارة الهيئة وأجهزتها في إنفاق هذه الأموال بأمانة وكفاءة.

وقد كان أخونا الشيخ يوسف الحجي يأبى أن يأخذ من المتبرعين أي مبلغ مقابل الإدارة، ويرى أن هذا هو واجب الهيئة، لولا أن ضغطنا عليه، وقلنا: إن هذا يقوي الهيئة، وهو من حقها، وهو لا يأخذ شيئا لنفسه، بل يعمل محتسبا في خدمة الهيئة من الصباح الباكر حتى المساء المتأخر جزاه الله خيرا. وقد أجاز الشرع الحكيم للعاملين على الزكاة أن يأخذوا أجرهم منها. فلماذا تتورع الهيئة عن أخذ أجرها، وهو في النهاية مصروف للخير وللدعوة، وللفقراء والمحتاجين؟

كما كان أخونا الحبيب الشيخ يرفض أن يستثمر شيئا من أموال الزكاة، حتى لا تتعرض للمخاطر، والمفروض أنه أمانة لدى الهيئة حتى يصل إلى مصارفه، وقد استفتتني الهيئة في ذلك، فأفتيتها بجواز استثمار ما يجمع من أموال الزكاة في استثمارات قصيرة الأجل، حتى تصل إلى مستحقيها، في خلال السنة لا تزيد عن ذلك، على أن يكون ذلك في معاملات مأمونة المخاطر، وما يأتي من أرباح يضاف إلى الزكاة لحساب المستحقين. واستجاب الشيخ يوسف يوسف لذلك، واستمر الأمر عليه إلى اليوم. والحمد لله رب العالمين.





مذكرات فضيلة العلامة د. يوسف القرضاوي كما كتبها لـ الوطن بخط يده (٢٢)

تنفرد الوطن بنشر الجزء الرابع من مذكرات العلامة د. يوسف القرضاوي: ملامح سيرة ومسيرة (ابن القرية والكتاب)، وهو يشمل بضعة عشر عاما (حوالي ١٨) من هذه السيرة والمسيرة: وهي سنوات حافلة بالأحداث على المستوى الشخصي في حياة الشيخ المحلي والعربي والإسلامي والعالمي، على المستوى الشخصي يفصح فضيلته لأول مرة عن قصة زواجه الثاني وكيف تطور من عاطفة صادقة إلى زواج على سنة الله ورسوله. كما يتحدث عن تخرج كل أبنائه وتزوج كل بناته. وتعيينه عميدا لكلية الشريعة ومديرا المركز بحوث السنة والسيرة. ونجاحه في الدعوة إلى تأسيس الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية بالكويت. وعمله رئيسا لهيئة الرقابة الشرعية لعدد من المصارف الإسلامية. واختياره عضوا في المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي، وعضوا في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن (مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي) وعضو مجلس أمناء مركز اكسفورد للدراسات الإسلامية، وعضو مجلس أمناء منظمة الدعوة الإسلامية بالخرطوم، وغيرها. وحصوله في هذه الفترة على بعض الجوائز العالمية.

ومن خلال هذه المذكرات سيمر القارئ بمعظم أحداث العصر في منطقتنا العربية والإسلامية، بحكم أن صاحبها يعيش في قلب هذه المنطقة، وقلب هذه الأحداث، وقد قدر له في هذه المرحلة أن يتفاعل بها ومعها متأثرا ومؤثرا.

وتتميز هذه السنوات بأمرين لهما أهمية قصوى في حياة القرضاوي :

الأول: الانتشار الكبير له في أنحاء العالم في الشرق والغرب، وزيارة كل قارات العالم حتى أستراليا، وأميركا الجنوبية، حتى سماه البعض «الشيخ الطائر».

والثاني: ظهور المد الإسلامي أو الصحوة الإسلامية بقوة في تلك المرحلة، والتى يعتبرها الشيخ جزءا منه، كأنما هي ولده وفلذة كبده. وسنتابع نشر المذكرات يوميا بما فيها من تفاصيل يرويها القرضاوي لأول مرة.

شاركت في تأسيس الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية للوقوف في وجه غارات المنصرين

بدأ التنصير غارة جديدة على العالم الإسلامي، باجتماع كلورادو، الذي صمم فيه على تنصير المسلمين في أنحاء العالم، ورصد لذلك (ألف مليون) دولار، وأنشأ لذلك معهدا لتخريج منصّرين مسلمين، سموه (معهد زويمر) إحياء لذكرى ذلك المنصر العتيد الذي رأس المؤتمر التبشيري الكبير في القاهرة سنة ١٩٠٦م.

القوم إذن جادون في مهمتهم، مصرون على غايتهم، ووراءهم إمكانات مالية هائلة، ودول تؤيدهم بسلطانها وقوتها، وجيوش من المبشرين والمبشرات.

بلغت منذ عدة سنين ٤،٧٥٠٠٠٠ أربعة ملايين وسبعمائة وخمسين ألف مبشر ومبشرة في أنحاء العالم.

وقد كنت أحسب أن (المليار دولار)، الذي رصدوه لتنصير المسلمين: مبلغ كبير، حتى عرفت بعد ذلك أنهم يجمعون في بعض الأحيان مليارات لا مليارا واحدا، وأن المال ليس مشكلة لديهم على الإطلاق.

ومن المعلوم: أن الفاتيكان كان يعتبر – من ناحية الغنى – الدولة الثالثة في العالم بعد أميركا والاتحاد السوفياتي.

إن المسلمين ينظرون إلى التنصير أنه ليس مجرد عمل ديني، أو دعوة دينية خالصة، بل يرونه نوعا من الغزو الغربي للشرق الإسلامي.

المسلمون يعتبرون التنصير غزوا غربيا للشرق الإسلامي وليس مجرد دعوة دينية خالصة

فقد غزانا الغرب عسكريا، وغزانا سياسيا، وغزانا ثقافيا، وغزانا كذلك دينيا.

وكانت أداته الأولى في غزونا دينيا هو هذا الذي سموه (التبشير) وسميناه التنصير، والذي كان دائما خادما للاستعمار وممهدا له، ومساعدا له على استذلال الشعوب، وامتصاص خيراتها، ونهب ثرواتها، وابقائها في حضيض الفقر والتخلف، كما بين ذلك الذين أرخوا لهذا التبشير وعمله في بلادنا، مثل الدكتور عمر فروخ، والأستاذ مصطفى الخالدي في كتابهما (التبشير والاستعمار) ومثل كتاب (الغارة في العالم الإسلامي) الذي ترجمه السيد محب الدين الخطيب إلى العربية من قديم.

كنت ممن قرأ ما صنعه المنصرون في (كلورادو) وما قرروه من أمر خطير، فأخذت على عاتقي أن أنبه المسلمين على هذا المكر الكُبّار، وأدق ناقوس الخطر، لتنبيه الأمة على ما يحاك لها، وهي في غفلة عن هذا. وليس لها قيادة توقظها وتحركها، لا سياسية ولا دينية.

وفي محاضرة لي في مدينة (جدة) بدعوة من مركز أبحاث الاقتصاد الإسلامي التابع لجامعة الملك عبد العزيز، تكلمت عن هذا الموضوع بإفاضة، وقلت: لو كان الأمر بيدي لدعوت في الحال لإنشاء صندوق إسلامي نجمع فيه ألف مليون دولار، لا لأسلمة العالم، ولكن لحماية الوجود الإسلامي من هذا الغزو المخطط الحاقد الماكر.

وبعد المحاضرة اجتمع عدد من الإخوة، منهم الشيخ الزنداني، ود. محمد عمر زبير، ود. أنس الزرقا، وعدد من الشيوخ والأساتذة الفضلاء، وقالوا: لماذا لا تنادي أنت بإنشاء هذا الصندوق، ولماذا تنتظر غيرك أن يقوم بهذه المهمة؟

قلت: بأي صفة أقوم بذلك؟

قالوا: بصفتك أحد علماء المسلمين، الذين تثق بهم الأمة، وتستمع إليهم، وتقرأ لهم، وتحملك المسؤولية عنهم. وأعتقد أن ثقة الأمة بك تجعل من فرض العين عليك أن تقوم بهذا الأمر، وتتبناه، ونحن أول المؤيدين لك، والسائرين وراءك، فعاهدنا على ذلك، ولم يدعوني حتى عاهدتهم على أن أتبنى مواجهة هذا الغزو.

وأصبحت حين أحاضر في أي بلد أدعو لإنشاء هذا الصندوق الإسلامي العالمي، ذكرت ذلك في قطر، وفي الإمارات، وفي الأردن، وفي كل بلد دعيت إليه.

ثم هيأ الله لي فرصة في الكويت في اجتماع مؤتمر المصارف الإسلامية، وكان هو المؤتمر الثاني للمصارف، بعد مؤتمر دبي الذي عقد منذ سنوات. وفي الجلسة الختامية للمؤتمر، طلبت الكلمة، وقلت للإخوة: اسمحوا لي أن أنقلكم من جو المصارف والمعاملات المالية الإسلامية إلى جو آخر. هو أشد سخونة، وأعظم خطرا، إنه يتعلق بالحفاظ على دين الأمة وعقيدتها وهويتها، وذكرت لهم ما رصد المنصرون لذلك (ألف مليون دولار). وأن على الأمة أن ترصد مثلها لحماية المسلمين من خطر الغزو المرتقب. وأمتنا أكثر من ألف مليون، فلو دفع كل فرد –في المتوسط– دولارا، لجمعنا الألف مليون بسهولة، ومن هنا نرفع شعار (ادفع دولارا تنقذ مسلما).

وأن ننشئ لذلك مؤسسة خيرية مهمتها: أن نجمع ألف مليون دولار من المسلمين، وأن نستثمرها في الحلال، لننفق من عوائدها، ونبقي الأصل سالما، وأنا أقترح أمينا عاما لهذه المؤسسة أخانا الفاضل الشيخ يوسف الحجي، (وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية سابقا، وأحد رجالات الكويت المحبوبين والمحترمين) وتجاوب الحضور معي، وأثنوا على قولي وكان منهم أخونا الفاضل المعطاء في كل عمل خير؛ أبو بدر (عبد الله المطوع) رحمه الله وأثابه، فجاء وهمس في أذني، وقال: لقد أصبت وأحسنت في اختيار يوسف الحجي لهذه المهمة، فهو موضع ثقة وقبول من الجميع، وأنا أقول لك: أني متبرع لهذا المشروع بمليون دولار أضعها لحسابه في بيت التمويل الكويتي، ولكن أرجو ألا تذكر اسمي، وأعلنت ذلك على الحضور، فامتلأت القاعة بالتكبير، ولم أعلن عن اسمه حسب رغبته، وإن كان الأمر قد عرف بعد ذلك، وإنما لكل امرئ ما نوى.

بعد هذا الإعلان وجدت حماسا بالغا من الناس على كل مستوياتهم، وكنا في يوم الخميس، وقد انتهى المؤتمر وسأسافر في المساء، ولكن أخانا السيد محمد ناصر الحمضان وكيل وزارة الأوقاف في حينها، قال: أقترح أن تؤجل سفرك، وتبقى إلى الغد، وتخطب خطبة الجمعة، وتذاع في التليفزيون والإذاعة، وتحث الناس على هذا المشروع، وبذلك يكون له أرضية قوية.

ولم يكن الشيخ يوسف الحجي موجودا حين أعلنت عن اختياره، ليكون أمين هذه المؤسسة المنشودة، فلما حضر وأبلغ بما قلته، رحب بتحمل المسؤولية، وقال: ما دعا إليه القرضاوي، فنحن له جنود.

وعدت إلى قطر، وخطبت الجمعة التالية في قطر، ونوهت بالموضوع، فلقيت من القبول والتشجيع ما شرح صدري، وكان من ذلك برقية من الشيخ محمد بن حمد شقيق الأمير، ووزير التربية والتعليم، يثني فيها على المشروع، ويعلن وقوفه بجانبي بقوة وبكل ما يستطيع، ويدعو لي وللمشروع بالنجاح والتوفيق.

كما لقيت أمير دولة قطر السابق الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني حفظه الله، وحدثته عن فكرة المؤسسة ومقاصدها، فرحب بها، وشجعني على المضي في المشروع، وقال: ثق أني مستعد للمساعدة في ذلك، على المستوى الشخصي، وعلى مستوى الدولة، وسررت بذلك سرورا كبيرا، وكان مما يشجع على ذلك في تلك الأيام: ارتفاع أثمان البترول، وازدياد دخل دول الخليج، وهذا من حسن حظ المشروع، ولله الحمد.

وكان علي: أن أضع تصورا عاما للمشروع، وأهدافه ووسائله، وأن يكون في صورة مؤسسة عالمية، لها أعضاء مؤسسون من كل أنحاء العالم، يمثلون رجال الأمة من أهل العلم والرأي، ومن أهل المال والثروة، ومن أهل الكفاية والخبرة.

وبعثت بهذه التصورات إلى الإخوة في الكويت، ليعطوا هذه التصورات إلى أحد القانونيين ليجعلها في صورة قانونية، على شكل نظام أساسي، ثم نبحث بعد ذلك كيف نستخرج القانون الذي يقرها ويعطيها الوجود القانوني.

وكنت اخترت تسميتها (المؤسسة الخيرية الإسلامية العالمية) ولكن أخانا الكريم الأستاذ خليل حمد المدرس في قطر – وهو من الأعضاء المؤسسين– اقترح اسم (الهيئة) بدل اسم (المؤسسة) لاعتبارات تتعلق بالترجمة إلى الإنجليزية.

وبعد الصياغة المبدئية لنظام الهيئة: أرسل إلى الأعضاء الذين اختيروا من شتى البلدان ليبدوا ملاحظاتهم على مواد النظام مادة مادة، وفقرة فقرة، ويقترحوا تعديل ما يريدون تعديله، وحذف ما يرون حذفه، وإضافة ما يرون إضافته.

نسيت أن أذكر أنا قد اجتمعنا في الكويت عدة مرات لاختيار الأشخاص المؤسسين، وحرصنا كل الحرص على أن يكونوا ممثلين بقدر الإمكان للأقطار والأجناس والتيارات المختلفة.

كما اخترنا لجنة تحضيرية للنظر في كل ما يلزم للإعداد لهذه الهيئة وظهورها بالصورة الملائمة لاسلاميتها وعالميتها، وكانت اللجنة مكونة من ستة أشخاص:

١. الشيخ يوسف الحجي.
٢. الشيخ يوسف القرضاوي.
٣. الشيخ سليمان الراجحي.
٤. الشيخ عبد الله العقيل.
٥. الشيخ عبد الله المطوع.
٦. الشيخ أحمد بزيع الياسين.

كانت اللجنة تنظر في الترشيحات التي تقدم لها ليكونوا من المؤسسين، وتراعي موازنات مختلفة في الاختيارات، منها: تمثيل الأقطار الاتجاهات، وأهل العلم وأهل البذل، والشخصيات المقبولة في مجتماعاتها، ثم تخطر الذين وقع عليهم الاختيار، وتعرض عليهم فكرة الهيئة كما تصورتها، ثم مشروع النظام الأساسي المقترح، وتطلب الرأي فيه.





● الشيخ محمد بن حمد آل ثاني

كما كانت مهمة اللجنة التفاهم مع الجهات المسؤولة في الكويت، لتذليل العقبات لاستصدار القانون بالهيئة المنشودة.

ولم يكن الأمر سهلا، فالهيئة – وإن كان مقرها الكويت– ليست هيئة كويتية محلية، بل هي هيئة عالمية بحكم تكوينها من مؤسسين يمثلون المسلمين في العالم، وبحكم أهدافها، فهي لخير المسلمين في العالم، وإمدادهم بما يحتاجون إليه ليعيشوا مسلمين ملتزمين بدينهم، غير متخلفين عن عصرهم، وهي عالمية بحكم تمويلها، فهي تقبل التبرعات – غير المشروطة– من أي جهة أو فرد يساعدها في مهمتها، وهي عالمية بحكم مصارفها ومواقع نشاطها، فهي تعمل في كل مكان يوجد فيه مسلمون محتاجون، ولا سيما في إفريقيا وآسيا، حيث ينشط التنصير بين المسلمين، مستغلا فقرهم ومرضهم وأميتهم، فيقدم المساعدات الغذائية، وينشئ المستشفيات والمستوصفات الطبية، ويؤسس المدارس التعليمية، التي قاطعها المسلمون، لصبغتها الكنسية، فمن دخلها نال الشهادة، وفقد الدين! ولهذا بقي المسلمون في معظم دول إفريقيا – جنوب الصحراء – معزولين عن التعليم العصري، قاصرين تعليمهم على القرآن واللغة العربية وشيء من العلوم الشرعية، وبعض مبادئ الحساب، كل ذلك يعلم على الطريقة التقليدية القديمة، فقط تطور الأزهر، وتطورت المعاهد العلمية الدينية في العالم العربي، وكثير من البلاد الإسلامية ولم يتطور التعليم عند هؤلاء.

المهم أن الهيئة المنشودة هيئة عالمية بلا نزاع، ونريد من القانون الذي يصدر بإنشائها في الكويت أن يحافظ على عالميتها واستقلالها.

كان هذا العمل يقوم به إخواننا الكويتيون من الأعضاء المؤسسين في الهيئة، وكان هناك عمل آخر تقوم به اللجنة التحضيرية مع المؤسسين لإنضاج النظام الأساسي، والاتفاق المبدئي على صيغته النهائية بعد التعديلات المقترحة.

وقد صدر قانون الهيئة (قانون رقم ٦٤ لسنة ١٩٨٦م) بأمر أميري من الشيخ جابر الصباح أمير دولة الكويت، وأحيل إلى مجلس الأمة، لمناقشته وإقراره أو تعديله، وبعد أخذ ورد، وجذب وشد، وافق مجلس الأمة على القانون.

الاجتماع التأسيسي لإقرار النظام

وكان المؤسسون دعوا للاجتماع في الكويت بتاريخ ١٩٨٦م لمناقشة النظام الأساسي ثم إقراره بعد تعديل ما يتطلب التعديل، وكان الحضور مكثفا، لم يكد يعتذر إلا من قهرته الظروف أو أقعده المرض، وكانوا صفوة من رجالات الأمة المعنيين بأمرها، المشغولين بهمومها، حتى قال لي شيخنا الغزالي وعينه تذرف الدموع: جزاك الله خيرا، لقد جمعت حكماء الأمة في هذا المكان، وقلما يجتمعون، وحملتهم الآن المسؤولية الدينية والتاريخية، لينهضوا بواجبهم، ويقوموا بدورهم.



● الشيخ عبد المجيد الزنداني

وكذلك قال شيخنا الشيخ عبد المعز عبد الستار: كنا نسمع عن حكماء صهيون، أو مشيخة بني إسرائيل، الذين اجتمعوا يوما لينظروا في مصير قومهم، ويقرروا ما يجب عليهم لمستقبلهم، ويحددوا علاقتهم بغيرهم. وها نحن اليوم نرى مشيخة المسلمين أو صفوتهم يجتمعون، لينظروا في مصير أمتهم.

قلت للشيخين: لا داعي أن نسرف في التفاؤل، على كل حال، فإن لقاء المؤمنين لا يثمر إلا خيرا، وخصوصا إذا اجتمعوا لهدف واضح، ومنهج بين، ولم تكن لهم أغراض دنيوية، أو مصالح شخصية، إنما جمعهم حب الله ورسوله، والانتصار لهذا الدين الذي يشكو إلى الله أبناء عقوه، وأنصارا خذلوه.

وكان بعض الإخوة الحضور – لأغراض خاصة – يريدون تأجيل هذا الاجتماع الحاسم، وقال لي أحدهم: ما وجه الاستعجال – يا شيخ يوسف– في أمر خطير كهذا؟ وما الضرر لو أخرناه بضعة أشهر حتى يزداد نضجا؟

وكنت رئيس الجلسة، فرفضت الاقتراح بحزم وحسم، وقلت: لقد مضت عدة سنوات منذ اقترحت إنشاء هذه الهيئة في الكويت، حتى تغيرت الأحوال عما كانت، وانخفض سعر البترول بعد ما كان مرتفعا، وهذا ليس في صالحنا، ولقد ناقشنا النظام الأساسي حتى مللنا، ولا بد لنا أن نحسم أمرنا، وقد قال تعالى «وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ» (آل عمران: ١٥٩) وقد عزمنا وتوكلنا على الله، «وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ» (الطلاق: ٣).

وانتهى الاجتماع بإقرار النظام الأساسي، بعد تعديلات طفيفة عليه.

وقد حرصنا في نظامنا الأساسي: أن تكون هيئتنا هيئة خيرية محضة، كل همها عمل الخير، وليست هيئة تبشيرية أو دعوية في أساسها، وإن كان الدافع الأول من إنشائها هو الحملة التنصيرية الكبرى على المسلمين.

كما حرصنا أن نبعد الصيغة السياسية والجهادية عن الهيئة، ضمانا لحسن أدائها لعملها بعيدا عن المؤثرات السياسية وتياراتها المتناقضة. وهو ما يعرضها لخصومات وصراعات تضرها ولا تنفعها.

وأذكر أن بعض الإخوة، ومنهم الأخ الكبير الدكتور أحمد الملط نائب المرشد العام للإخوان في مصر رحمه الله، وقف يعترض بشدة، ويقول لي بوصفي رئيس الجلسة، وصاحب الفكرة: كيف تحذف السياسة من الإسلام يا شيخ يوسف؟ أتريدون إسلام الأضرحة والموالد، الذي يبارك الأنظمة الفاجرة، ويسير في ركاب الطغاة من الحكام؟ ألست أنت الذي كنت تعلّمنا: أن الإسلام عقيدة وشريعة، وعبادة ومعاملة، ودين وسياسة، وصلاة وجهاد؟

قلت: يا دكتور أحمد، نحن لا نؤمن بتجزئة الإسلام، ولا بحذف السياسة أو الاقتصاد أو الجهاد منه، ولكننا نؤمن بالتخصص، ونحن متخصصون في عمل الخير على كل المستويات، وعن طريق هذا الخير نرقى بالناس، حتى نمكنهم من العمل في السياسة والاقتصاد والدعوة والجهاد، بعد أن نهيئ الخبز للجائع، والكساء للعريان، والدواء للمريض، والكفالة لليتيم، والمسكن للمشرد، والعمل للعاطل، والتدريب للعامل، والمدرسة للأمي، والكفاية للأسرة، وهذه أمور تحتاج منا إلى جهود وأوقات وأموال وعقول، وطاقات بشرية مدربة، وكل هذه لا نملك منها إلا القليل، أو الأقل من القليل.

هذا هو عمل الهيئة الذي ينبغي أن نتفرغ له، أما السياسة والجهاد وغيرها، فلها رجالها، ولها مجالها، وقد حضنا القرآن على رعاية التخصصات، وسد الثغرات المختلفة، وعدم توجيه الطاقات كلها في اتجاه واحد وإغفال ما عداه، وفي ذلك جاء قوله تعالى «وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ» (التوبة: ١٢٢).

وكان على المجتمعين أن ينتخبوا بالاقتراع الحر: مجلسا للإدارة من ٢١ شخصا، وقد اجتمع المجلس عقب اختياره في جلسة إدارية، ليختاروا الرئيس ونائبه أمينا عاما وأمين الصندوق، وقد اختار المجلس بالإجماع الشيخ يوسف الحجي رئيسا عاما للهيئة، واختار نائبا له: أخانا الفاضل الشيخ صالح الحصين، وهو شخصية سورية معروفة، واختار أمينا عاما: الشيخ عيسى بن محمد آل خليفة، واختار أمينا للمال: الشيخ أحمد البزيع ياسين من الكويت.

كما اختار لجنة تنفيذية من الأعضاء تكون أقدر على الاجتماع في مدة أقرب من مدة المجلس. وكنت ممن اختيروا لمجلس الإدارة، وللجنة التنفيذية. كما اختير للمجلس من قطر: فضيلة الشيخ عبد الله بن ابراهيم الأنصاري رحمه الله.

وانصرف المجتمعون، وهم يحمدون الله على أن يسر أمرهم، كما يدعونه عز وجل أن يعينهم على العمل لتحقيق أهداف الهيئة كل في بلده.

وقد اتفقنا على أن يمر وفد يمثل الهيئة بأمراء دول الخليج وملوكها، ويشرح لهم أهدافها وفكرتها، ويطلب منهم المعونة والتأييد المادي والمعنوي لها.

وكان الوفد يتكون من رئيس الهيئة الشيخ يوسف الحجي، ومن الشيخ عبد الله الأنصاري رحمه الله، ومن الشيخ عبد الله المطوع (أبي بدر) رحمه الله، ومن الفقير إلى الله تعالى.

وقد مررنا بأمير قطر الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني، وقد كنت قد حدثته من قبل عن الهيئة، كما ذكرت من قبل، فأحسن استقبالنا، وتجاوب معنا، وأمر بفتح حساب في مصرف قطر الإسلامي للهيئة.

كما مر الوفد بدولة البحرين، ولقي أميرها الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة، الذي رحب بنا كل الترحيب، وقال: البلد بلدكم، ونحن معكم.

وقدم الوفد طلبا لزيارة دولة الإمارات العربية المتحدة، ففوجئنا باعتذارهم من عدم استقبالنا في الظروف الراهنة. أما عُمان، فلم ترد علينا، لا بالإيجاب، ولا بالسلب. وكذلك المملكة العربية السعودية لم ترد علينا. وكان بعضهم قد شوه في تقريره صورة الهيئة عند المسؤولين وقال لهم: إذا أردتم أن تدعموا الإخوان المسلمين فادعموا الهيئة الخيرية!!

وهو تشويه ظالم، فرغم أن الداعي لفكرة الهيئة كان من الإخوان، وعدد من أعضائها من الإخوان، فإن الهيئة تتميز بتمثيل متوازن لكل فئات الأمة، خصوصا على مستوى أهل السنة، ولم يكن يسعها أن تتجاهل الإخوان المسلمين، وهم جماعة حية كبيرة لها وجود ملموس في كل أقطار المسلمين.

ومن نظر إلى مجموع المؤسسين وجد فيهم عددا كبيرا من السعوديين.

وهذا الموقف من الأنظمة الحاكمة جعلني أستشعر أن الأمر ليس كما كنت أتوقعه، حين قلت: إن الألف مليون دولار يمكن أن تجمع من أكثر من ألف مليون شخص، على أساس: متوسط دولار لكل فرد.

وقد نظرت في الأمر يوما نظرة رياضية، فقلت يمكننا أن نجمع الألف مليون بواحدة من هذه الطرق:

– ألف فرد يدفع كل واحد مليون دولار فتكون النتيجة = مليارا.
– أو عشرة آلاف فرد يدفع كل واحد مائة ألف دولار فتكون النتيجة = مليارا.
– أو مائة ألف فرد يدفع كل واحد عشرة آلاف دولار فتكون النتيجة = مليارا.
– أو مليون فرد يدفع كل واحد ألف دولار فتكون النتيجة = مليارا.
– أو عشرة ملايين فرد يدفع كل واحد مائة دولار فتكون النتيجة = مليارا.
– أو مائة مليون فرد يدفع كل واحد عشرة دولارت فتكون النتيجة = مليارا.
– أو ألف مليون فرد يدفع كل واحد دولارا واحداً فتكون النتيجة= مليارا.

ولكن تبين لي أن هناك عقبات وعقبات، وحواجز وحواجز، تحول بيننا وبين الوصول إلى الفرد المسلم العادي، وأن هناك مئات الملايين من المسلمين لا يمكن الوصول إليهم، بعضهم وراء الستار الحديدي، وبعضهم محبوس في اقفاص الأنظمة الشمولية،

عار على أمة الإسلام أن تعجز عن التبرع بمليار دولار لحماية عقيدتها من سهام المنصرين

وبعضهم تحكمه أنظمة علمانية إذا سمعت كلمة (إسلام) أصابها ما يشبه الصَّرَع، وبعضهم مشغول بلقمة عيشه التي لا يكاد يجدها.

وتمخضت جهودنا في جمع الأموال التي أردناها في بلدين اثنين: الكويت بلد المقر، والذي كنا نطمع أن تمدنا دولته بمبلغ محترم يوقف الهيئة على قدميها في أول مسيرتها، وانتهت المقابلات والوعود إلى مبلغ ٢٠٠،٠٠٠ دينار كويتي! لولا المليون الأول من أخينا أبي بدر ثم عمارتان أوقفهما للهيئة، وبعض أهل الخير، أخلف الله عليهم وجزاهم خيرا.

والبلد الثاني، هو: قطر، الذي كان حساب الهيئة فيه عامرا دائما بتبرعات أهل الخير، ولا سيما قبل أن تنشأ جمعية قطر الخيرية، وتستقطب معظم تبرعات المحسنين فيها.

ولقد زرنا الشيخ الأنصاري وأنا: عددا من الشيوخ والتجار في قطر نعرّفهم بالهيئة وأغراضها، ونلتمس منهم دعمهما بما أفاء الله عليهم، فكان معظمهم يسألنا: هل يجوز أن ندفع لها من الزكاة؟ وكان الجواب: يجوز دفع الزكاة للهيئة، ولكنها ستصرف في مصارف الزكاة، ولن تدخل في رأس مال الهيئة المنشود الذي يعد صدقة جارية لصاحبه، وهو بمثابة الوقف الخيري، الذي يدوم ثوابه مادام الانتفاع بريعه مستمرا، حيث يحبس أصله، وتسبّل ثمرته.

والآن وقد مر على تأسيس الهيئة رسميا بضع وعشرون سنة: لم نجمع من رأس المال المطلوب (وهو ألف مليون دولار) إلا مائة وبضعة ملايين دولار، وهو عار على أمة الإسلام.

ومع هذا أثبتت الهيئة وجودها بأنشطتها المختلفة عن طريق ما يدفع إليها من الزكوات والصدقات والتبرعات المخصصة لبناء مساجد، أو مدارس، أو دور أيتام، أو طبع مصاحف، أو حفر آبار، أو نشر كتب، أو إنشاء مراكز للدعوة، وكلها أنشطة مهمة تبرع بها أهل الخير، ووثقوا بإدارة الهيئة وأجهزتها في إنفاق هذه الأموال بأمانة وكفاءة.

وقد كان أخونا الشيخ يوسف الحجي يأبى أن يأخذ من المتبرعين أي مبلغ مقابل الإدارة، ويرى أن هذا هو واجب الهيئة، لولا أن ضغطنا عليه، وقلنا: إن هذا يقوي الهيئة، وهو من حقها، وهو لا يأخذ شيئا لنفسه، بل يعمل محتسبا في خدمة الهيئة من الصباح الباكر حتى المساء المتأخر جزاه الله خيرا. وقد أجاز الشرع الحكيم للعاملين على الزكاة أن يأخذوا أجرهم منها. فلماذا تتورع الهيئة عن أخذ أجرها، وهو في النهاية مصروف للخير وللدعوة، وللفقراء والمحتاجين؟

كما كان أخونا الحبيب الشيخ يرفض أن يستثمر شيئا من أموال الزكاة، حتى لا تتعرض للمخاطر، والمفروض أنه أمانة لدى الهيئة حتى يصل إلى مصارفه، وقد استفتتني الهيئة في ذلك، فأفتيتها بجواز استثمار ما يجمع من أموال الزكاة في استثمارات قصيرة الأجل، حتى تصل إلى مستحقيها، في خلال السنة لا تزيد عن ذلك، على أن يكون ذلك في معاملات مأمونة المخاطر، وما يأتي من أرباح يضاف إلى الزكاة لحساب المستحقين. واستجاب الشيخ يوسف يوسف لذلك، واستمر الأمر عليه إلى اليوم. والحمد لله رب العالمين.







● الشيخ يوسف الحجي



● د. محمد عمر زبير

ابن القرية والكُتّاب

ملامح سيرة ومسيرة (الجزء الرابع)

مذكرات فضيلة العلامة د. يوسف القرضاوي كما كتبها لـ الوطن بخط يده (٢٣)



تنفرد **الوطن** بنشر الجزء الرابع من مذكرات العلامة د. يوسف القرضاوي: ملامح سيرة ومسيرة (ابن القرية والكتاب)، وهو يشمل بضعة عشر عاما (حوالي ١٨) من هذه السيرة والمسيرة: وهي سنوات حافلة بالأحداث على المستوى الشخصي في حياة الشيخ المحلي والعربي والإسلامي والعالمي، على المستوى الشخصي يفصح فضيلته لأول مرة عن قصة زواجه الثاني وكيف تطور من عاطفة صادقة إلى زواج على سنة الله ورسوله . كما يتحدث عن تخرج كل أبنائه وتزوج كل بناته . وتعيينه عميدا لكلية الشريعة ومديرا المركز بحوث السنة والسيرة. ونجاحه في الدعوة إلى تأسيس الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية بالكويت. وعمله رئيسا لهيئة الرقابة الشرعية لعدد من المصارف الإسلامية. واختياره عضوا في المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي، وعضوا في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن (مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي) وعضو مجلس أمناء مركز اكسفورد للدراسات الإسلامية، وعضو مجلس أمناء منظمة الدعوة الإسلامية بالخرطوم، وغيرها. وحصوله في هذه الفترة على بعض الجوائز العالمية.

ومن خلال هذه المذكرات سيمر القارئ بمعظم أحداث العصر في منطقتنا العربية والإسلامية، بحكم أن صاحبها يعيش في قلب هذه المنطقة، وقلب هذه الأحداث، وقد قدر له في هذه المرحلة أن يتفاعل بها ومعها متأثرا ومؤثرا.

وتتميز هذه السنوات بأمرين لهما أهمية قصوى في حياة القرضاوي :

الأول: الانتشار الكبير له في أنحاء العالم في الشرق والغرب، وزيارة كل قارات العالم حتى أستراليا، وأميركا الجنوبية، حتى سماه البعض «الشيخ الطائر».

والثاني: ظهور المد الإسلامي أو الصحوة الإسلامية بقوة في تلك المرحلة، والتى يعتبرها الشيخ جزءا منه، كأنما هي ولده وفلذة كبده . وسنتابع نشر المذكرات يوميا بما فيها من تفاصيل يرويها القرضاوي لأول مرة.

خلل فني في طائرة مصرية سبب لي رحلة عذاب إلى الجزائر عن طريق أوروبا

لم أحضر ملتقى الفكر الإسلامي التاسع عشر الذي عقد في بجاية سنة ١٩٨٥م بسبب رحلتي إلى ألمانيا، ولكني عوضت ذلك بالاستجابة لدعوة أثناء العام الدراسي، في فصل الشتاء لزيارة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية في مدينة قسنطينة، والتي كان شيخنا الغزالي يعمل مستشارا علميا لها، ويرأس مجلسها العلمي، وكان مديرها الأستاذ الدكتور عمار الطالبي أستاذ الفلسفة الإسلامية الذي عرفناه في ملتقيات الفكر السابقة، وقد بلغني أن الجوّ بينه وبين الشيخ الغزالي ليس على ما يرام، وأنا أكره هذه الأجواء التي يسود فيها الخلاف، وتكثر فيها الدسائس والوشايات، ولا سيما في الجو الإسلامي.

ولكن من حسن حظي، حين استجبت للدعوة، وذهبت إلى الجزائر العاصمة، ومنها إلى مدينة قسنطينة التي تحتضن الجامعة، كان الدكتور الطالبي قد نقل منها، وانتدب لإدارتها أحد الأساتذة، هو الدكتور نور الدين. ومن المصادفات الغريبة: أني وجدت الدراسة في الجامعة شبه معطلة، لأن الطلاب مضربون عن الدراسة، لأن لهم مطالب من الجامعة، أو من الدولة لم تتحقق، ومع هذا ألقيت عددا من المحاضرات تداعى إليها الطلاب وحرصوا على حضورها، رغم إضرابهم. كان الشيخ الغزالي موجودا في قسنطينة في ذلك الوقت، وقد أنزلوني في منزل قريب من منزله من بيوت الجامعة، وتعهدوا بأن يقوموا بكل ما أحتاج إليه من طعام وشراب، وأنا – ولله الحمد- رجل قليل الحاجات، قليل الطلبات، لا أكلف مُضيّفي ما يرهقه أو يزعجه، وقد نشأت في بيئة ريفية تقنع بالقليل، وتعودت على التقشف في السجون والمعتقلات. ولا غرو أن أصحابي هنا لم يضيقوا بي ذرعا، بل كانوا يلحُون عليّ: ألا تحتاج شيئا؟ ألا تريد مزيدا من الطعام؟ ألا تريد... ألا تريد؟ وأنا حقيقة لا أريد شيئا. وقد قالوا قديما: القناعة كنز لا يفنى. وفي الحديث الشريف: «ليس الغنى عن كثرة العرض، إنما الغنى غنى النفس».

ويقول أبو فراس الحمداني:

إن الغني هو الغني بنفسه
ولوَ انّه عاري المناكب حافي
ما كل ما فوق البسيطة كافيا
وإذا قنعت فبعض شيء كافي

بقيت أياما في قسنطينة التقيت فيها بالطلاب في محاضرات عامة، والتقيت ببعضهم في لقاءات خاصة، والتقيت بإدارة الجامعة وعدد من أساتذتها. وسعدت سعادة خاصة بلقاء الشيخ الغزالي، الذي أتقرب إلى الله تعالى بحبه والقرب منه، وما لقيته قط إلا استفدت منه. وبعد أيامي في قسنطينة: عدت إلى العاصمة بالطائرة، ولقيت إخواننا في وزارة الشؤون الدينية، وسلمت عليهم، وودعتهم، مؤكدين على أن أكون معهم في ملتقى الفكر القادم في الصيف إن شاء الله.

السفر لحضور الملتقى وما حدث فيه من مفاجآت

حرصت على حضور ملتقى الفكر الإسلامي العشرين المقرر عقده في مدينة سطيف بالجزائر، وكان موعده في الصيف كما هو المعتاد.

ولا أدري: لماذا لم أحجز لنفسي مبكرا من القاهرة – التي أقيم فيها في الصيف عادة- على الطائرة الجزائرية، فقد تسبب تأخري في الحجز: أني لم أجد لي مقعدا في الطائرة الجزائرية في الوقت المطلوب.

ومما يؤسف له أن المواصلات – في ذلك الوقت- بين المشرق العربي والمغرب العربي بصفة عامة، لم تكن كافية، ولا مؤدية للغرض، فكل ما بين القاهرة والجزائر: رحلات أسبوعية قليلة، ليست في كل الأيام، وإذا أردنا الوصول إلى الجزائر في غير ذلك، فلا بد أن يكون عن طريق أوربا. هذا ما بين القاهرة والجزائر، أما ما بين قطر والجزائر، أو بلاد الخليج والجزائر، فلا يوجد طريق مباشر قط، على خلاف ما عليه الحال اليوم. وعلى هذا، بدأت أفكر في الوصول إلى الجزائر عن طريق أوروبا، وقد وجدت رحلة عن طريق جنيف بسويسرا. أمتطي الطائرة المصرية التي تقوم في الصباح، لتصل إلى جنيف، ومن جنيف أركب الطائرة السويسرية إلى الجزائر. فأصل الجزائر قبل المغرب بساعتين أو أكثر.

وقد أرسلت إلى الإخوة المسؤولين عن الملتقى في الجزائر بموعد وصولي والطائرة التي سأصل عليها ورقم الرحلة، وما إلى ذلك، وهيأوا أنفسهم لاستقبالي.

وفي اليوم المحدد، ذهبت إلى مطار القاهرة متوكلا على الله، وركبت الطائرة المصرية المتجهة إلى جنيف، وقالوا لنا: اربطوا الأحزمة، وتهيأوا لإقلاع الطائرة، ودعونا بأدعية السفر المأثورة، واستعددنا للإقلاع. ولكن الطائرة لم تقلع. حدثت فترة من الصمت، ثم تأسفوا وطلبوا منا النزول، لخلل فني في الطائرة، سيتم إصلاحه عن قريب، ونزلت مع من نزل، وأنا في قلق يتزايد لحظة بعد أخرى، وبدأ (قلبي يأكلني)، كما يعبر المصريون عن حالة القلق. ولا أدري كيف يأكل القلب صاحبه!

إذا تأخرت الطائرة ساعة أو ساعتين فلا حرج، يمكنني أن أدرك الطائرة بجنيف، أما أكثر من ذلك، فقد ضاعت الرحلة، وهيهات أن أعوضها.

قلت ذلك لمدير المحطة المصرية بالمطار، وقلت له: إذا تأخرت الطائرة سأقع في مشكلة لا حل لها. قال: سنجتهد في إصلاح الطائرة بأقصى سرعة.

ومرت ساعتان وأكثر، ولم تصلح الطائرة، وهنا ثرت على مسؤولي الطائرة المصرية، قلت لهم: ماذا أفعل الآن، وأنا ذاهب إلى الجزائر؟ إذا فاتتني الطائرة السويسرية الذاهبة إلى الجزائر، فقد فقدت أي ضمان لوصولي إلى الجزائر، ونحن في فصل الصيف والطائرات مليئة بركابها، ومن المتعسر – بل من المتعذر- أن تجد مكانا في طائرة. وأسقِط في يدي الرجل، وعجز عن عمل أي شيء، ولما علا صوتي واشتد احتجاجي، أوصلني إلى رئيسه الذي اعتذر إلي بلطف، وحاول أن يهدئ من ثائرتي، ويقول: سنفعل كل ما في وسعنا لراحتك. وللأسف لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئا، كل الطائرات المسافرة إلى أوروبا قد أقلعت، وحتى لو وجدنا طائرة متجهة إلى أوروبا، كيف أصل من أوروبا إلى الجزائر؟

> آمنت بالإسلام عن بينة والتزمت المنهج السني عن اقتناع ولست متعصبا لمدرسة واحدة أو لمذهب واحد في العقيدة أو في الفقه

ولم أجد بدا من التسليم للأمر الواقع، والرضا بقضاء الله وقدره. فما يغني الغضب ولا الضجر ولا القلق شيئا، لا يسعفنا في هذه الحالة إلا أن نقول: قدر الله وما شاء فعل. إن التسليم لقدر الله والرضا به في هذا المقام يريح المؤمنين الذين يقولون «لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا» (التوبة: ٥١).

ودون ذلك يتعب الإنسان كثيرا، ويغلي من داخله، وكل ذلك على حساب صحته الجسمية والنفسية، وإن لم يغير من الواقع كثيرا أو قليلا.

قال الرئيس المسؤول عن الطائرة المصرية: سنوفر لك أقصى ما يكون من الراحة والطعام والشراب حتى تصلح الطائرة، ونحن نأسف كل الأسف لما حدث، وهو ليس بأيدينا. قلت له: لا بد أن تكون لديكم بدائل في مثل هذا الموقف، وإلا عرضتم مصالح الناس للضياع. قال: هذا صحيح، ولكن دون ذلك عقبات وعقبات لا تخفى على مثلك. ونرجو أن تقدر موقفنا وضعف إمكاناتنا. وظللت على أحرّ من الجمر طول النهار، حتى جاء المسؤول في المساء يقول لي: إن الطائرة ستقلع إلى سويسرا في الساعة الثامنة مساء، ولكنها ستذهب إلى (زيورخ) وليس إلى جنيف. قلت: ولكن تذكرتي إلى جنيف، ومنها سأبدأ المحاولات غير المضمونة للوصول إلى الجزائر. قال: علينا أن نوصلك إلى جنيف، إن شئت بالباص فورا، وإن شئت بالطائرة صباحا.

قلت: أبعد هذا الانتظار، أركب الباص من زيورخ إلى جنيف لعدة ساعات؟ أكُتِب عليّ الشقاء لأعاني هذا كله؟

قال: نحن آسفون، سنوفر لك فندقا قريبا من المطار، وفي الصباح الباكر، تذهب إلى جنيف، وسيكون مندوبنا في انتظارك في مطار زيورخ ليساعدك، ويسهل عليك ما تريد، وآسفون مرة أخرى.

وهنا لا نملك إلا أن نقول: لا حول ولا قوة إلا بالله. والمسلمون يقولون في مثل هذا المقام: لعله خير. كل تأخيرة وفيها خيرة! «وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ» (البقرة: ٢١٦). كل هذا ليرضّي الإنسان نفسه بالواقع، وإن كان مرا. وقد قال العرب: من غضب على الدهر طال غضبه! لأن وقائع الدهر ومفاجآته لا تنتهي.

وركبت الطائرة، وانتهت بنا إلى زيورخ، وصلت في منتصف الليل حوالي الثانية عشرة ليلا. وفي المطار لم أجد مندوب المصرية ولا أي أحد ينتظرني، كما قيل. وهذا مما نحزن له أبلغ الحزن في بلادنا: أن نقول فلا نصدق، ونعد فلا نفي. ولكن مندوب السويسرية أخذني إلى فندق قريب من المطار، وأنزلني فيه لأستعد من الفجر لأخذ الطائرة التي تذهب إلى جنيف. وكانت الساعة قد بلغت الواحدة بعد منتصف الليل.

وتركني الرجل وقد بلغ بي الإرهاق والإعياء أشده، وشعرت بحرارة شديدة تنتابني، وبقشعريرة تهز جسدي، ولم أحتط لنفسي، فأحمل بعض حبات (البندول) أو (الاسبرين) أو نحوها، أو بعض فيتامين سي الفوار أو غيرها. ولا أعرف كيف أتصل بالفندق وأشرح له ما عندي. وهذه مشكلة لامني عليها كثيرون: أني أسافر وحدي بلا رفيق، مع شدة حاجتي أحيانا إليه ليساعدني في الملمات، ويكون ترجمانا بيني وبين الآخرين. فصبرت على ما أصابني، وفوضت لله أمري حتى الصباح، ولم يبق إلا ساعات قلائل، لا أدري: لعلي نمت قليلا. وعند الفجر قمت فصليت، وأديت فرض ربي. وما هي إلا دقائق حتى دق الباب، وجاءوا ليأخذوني إلى الطائرة المسافرة إلى جنيف، وفي أقل من ساعة استغرقتها الرحلة، وصلت الطائرة إلى جنيف حوالي السابعة صباحا.

وكان معي تأشيرة إلى جنيف، حيث كنت أتردد عليها كثيرا في اجتماعات هيئة الرقابة الشرعية لمؤسسة (دار المال الإسلامي) ومقر إدارتها جنيف. والعمارة التي تملكها الدار، وتقيم فيها إدارتها قريبة جدا من المطار، يراها المرء من المطار بلونها الأزرق. وقد عزمت على أن أذهب من المطار إليها، لأستعين بالإخوة المسؤولين هناك على تذليل العقبات في مسألة الحجز إلى الجزائر.

أخذت سيارة أجرة (تاكسي) من المطار إلى مبنى الدار، ونزلت هناك حوالي السابعة والنصف صباحا، وبالطبع لم أجد أحدا. فالدوام لم يبدأ بعد. ومضت مدة قليلة، ثم بدأ الموظفون يجيئون، وفوجئوا بي فرحبوا، وأبدوا استعدادهم للمعاونة بكل سبيل. وفرغوا لي موظفا، يبحث عن الخطوط التي تصل إلى الجزائر. ولكنهم للأسف لم يجدوا فيها مقعدا واحدا، وهذا شأن هذا الوقت من كل عام. وكانت هناك طائرة تذهب إلى الجزائر مباشرة من جنيف، وهي مليئة، ولكن قالوا لي: اذهب إلى المطار، لعل راكبا يتخلف في آخر لحظة، فتكون فرصة. والغريق يتعلق بقشة كما يقولون، فذهبت إلى المطار تعلقا بهذا السراب، ولم يتخلف أحد.

كل هذا، والإخوة في الجزائر قد انتظروني بالمطار في الموعد المضروب، ولم يجدوني، ولم أعتذر، ولا يعرفون عني شيئا، وأهلي في مصر يظنون أني قد وصلت إلى الجزائر. وأنا لم أتصل بأحد، لأني لا أعلم متى أصل، ولا كيف أصل. ليس عندي معلومة أعطيها لأحد. وما زال الإخوة في دار المال الإسلامي يبحثون، حتى وجدوا طريقا من عدة وصلات: أسافر إلى زيورخ ومنها إلى نيس في فرنسا، وأبقى حوالي أربع ساعات، ومنها إلى الجزائر، ورغم المشقة في الرحلة، لم يكن لي بد من قبولها، والمضطر يركب الصعب كما يقول المثل. وكما يقول الشاعر:

إذا لم يكن إلا الأسنة مركب
فما حيلة المضطر إلا ركوبها

وبعد تغيير التذكرة أخذت الطائرة من جنيف إلى زيورخ، ومن زيورخ أخذت طائرة أخرى إلى نيس، وفي مطارها بقيت أربع ساعات مرت طويلة بطيئة، لا تكاد عقارب الساعة فيها تتحرك.

وقد اعتدت في الساعات الطويلة التي أتوقف فيها في المطارات: أن أخرج قلمي وورقي وأكتب، فلا أكاد أحس بالوقت، ولكن من فرط الإعياء الذي حل بي من الناحية الجسمية والنفسية، لم يكن عندي قابلية للكتابة. كل ما أستطيع أن أفعله أن أشغل نفسي بقراءة بعض القرآن من حفظي، والحمد لله، لم أزل قادرا على أن أتلو سورا وأجزاء كاملة دون الحاجة إلى مصحف، ومن غير أن يضيع مني حرف واحد، وهذا بفضل الله تعالى، ثم بفضل الحفظ في الصغر، فهو كالنقش على الحجر، كما قالوا. وعندما جاءت الطائرة الذاهبة إلى الجزائر، ولا أذكر: أكانت جزائرية أم فرنسية، استقللتها حتى حطت بسلامة الله إلى العاصمة الجزائرية، قبل الفجر بنحو ساعتين. وبالطبع لم أجد أحدا ينتظرني، إذ لا علم لأحد بحضوري. لكن المسؤولين عن المطار رحبوا بي وأحسنوا استقبالي، وأجلسوني في حجرة عندهم وقدموا لي الشاي والمشروبات المختلفة، حتى أذن الفجر فصليت، وانتظرت حتى أشرقت الشمس، وبدأ الناس يذهبون إلى وزاراتهم ودوائرهم ليمارسوا أعمالهم اليومية. وهناك اتصل مسؤولو المطار بالمسؤولين في وزارة الشؤون الدينية، يعلمونهم بوجودي، وسرعان ما أقبل الإخوة من الوزارة، وتأسفوا غاية الأسف أن لم يكن أحد في استقبالي، وعذرهم أنهم لم يكونوا يعرفون أي معلومات عني. ولا يعلمون: لماذا تخلفت عن طائرتي الأولى؟ ولا على أي طائرة سآتي بعدها. وقلت لهم: لا عتب عليكم، ولا عتب علي أيضا، فهو أمر قدره الله، وما قدره لا بد أن ينفذ.

قالوا: إن السيد الوزير، ومعه المدعوون والمشاركون في الملتقى، قد استقلوا الطائرة الخاصة على ما هو معتاد، إلى مدينة سطيف لتبدأ أعمال الملتقى. والمطلوب الآن: أن تستريح في الفندق لبضع ساعات، حتى تعوض معاناة الأمس، ثم نهيئ لك سيارة مناسبة تأخذك إلى سطيف، لتلحق بإخوانك هناك.

قلت: على بركة الله، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن «رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ» (الممتحنة: ٤).

واسترحت قليلا في فندق الأوراسي الذي اعتدت على النزول به، وإن كنت في مثل هذه الأحوال لا أستطيع التعمق في النوم، ككثير من إخواني الذين أغبطهم على سهولة نومهم، فبمجرد أن يضعوا رؤوسهم على وسائدهم يغطون في نوم عميق. أما أنا فحديث النوم معي ذو شجون، ولله في خلقه شؤون.

رحلة بالسيارة مع رشيد بن عيسى

وبعد أن صليت الظهر والعصر جمع تقديم، وأظن أني تغديت غداء خفيفا، جيء بالسيارة التي ستنقلني إلى مدينة الملتقى (سطيف). وما إن ركبت السيارة حتى جيء برفيق لي سيصحبني في الطريق الطويل الذي يستغرق أربع ساعات. قلت: الرفيق عون على تقريب الطريق، ولا سيما إذا كان متوافقا مع صاحبه.

قالوا: إنه الدكتور رشيد بن عيسى، من تلاميذ مالك بن نبي، وأنت تعرفه، وهو يعرفك.

قلت لهم: نعم عرفته والتقيته أكثر من مرة في أميركا.

وكان الذي حدثني عن رشيد بن عيسى قبل أن ألقاه صديقنا الحبيب الأستاذ عبد الحليم أبو شقة رحمه الله، الذي كان معنيا بالبحث عن كل كفاية وكل شخصية تستطيع أن يكون لها دور في خدمة الإسلام، وخصوصا الجانب الفكري والثقافي. وهو الذي عرفني بالأخوين الكريمين الأستاذ طارق البشري حفظه الله، والأستاذ عادل حسين رحمه الله.

وحين لقيت رشيدا في بعض مؤتمرات اتحاد الطلبة المسلمين في أميركا: سررت به وبثقافته، وبعقله النقدي، وتفكيره الإيجابي.

ولكني فوجئت منه في هذه الرحلة بما لم يكن في الحسبان، ولم يخطر لي على بال. لقد كنت أعلم أن ابن عيسى كان معجبا بالإمام الخميني وبثورته، وبما حققه إخواننا في إيران من منجزات... وهذا ما لا ننكره عليه، بل هو ما نشاركه فيه. ولقد وقفنا مع الثورة الإسلامية وأيدناها من أول يوم، بل كنا معها من قبل أن تنجح، لأننا مع كل حركة تقاوم الطغيان، وتنادي بالحرية، فكيف إذا كانت تنادي بالحرية مع الإسلام؟!!

وجدت رشيد بن عيسى لا يقف عند حد الإعجاب بالثورة وإمامها ومنجزاتها، ولكنه تعدى ذلك إلى الإعجاب بالمذهب الشيعي، وليته وقف عند ذلك، بل شن هجوما قاسيا على المذاهب السنية ومعتقداتها وأئمتها. هذا ما سمعته بأذني، ولمسته بيدي في هذه الرحلة.

ولابدأ القصة من أولها.

حين التقينا تصافحنا وتعانقنا، ورحب بي ورحبت به. وما أن انتهيت من أدعية السفر، واستعذنا بالله من وعثاء السفر وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في المال والأهل والولد. وسألنا الله أن يكتب لنا في سفرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ما يرضى: حتى بدأ الأخ بن عيسى في تسويق فكره الجديد، أو الدعوة إلى مذهبه الجديد، وكأنما كان يحسبني صيدا سهلا، يلقي علي شباكه، فإذا أنا أسير داخلها!

بدأ حديثه معي بقوله: أترى هذه التعليقة المعلقة أمام السائق؟ قلت: نعم أراها. قال: ما تعليقك عليها؟ قلت إنها في اعتقاد العوام (تعويذة) تقيهم من (العين) عين الحاسدين، ويسمونها في مصر (خمسة وخميسة)، لأنها تشير إلى خمسة أصابع. وكأنهم يقولون هذه الأصابع الخمسة في عين الحسود!

قال: أما أنا فأرى أنها تشير إلى الخمسة (أصحاب الكساء) وهم الرسول وعلي وفاطمة والحسن والحسين.

قلت: ما أظن هذا خطر ببال الذين وضعوا هذه التعاويذ وأمثالها مما يعلق في السيارات، فمنهم من يعلق مسبحة، ومنهم من يعلق آية قرآنية، كآية الكرسي، ومنهم من يعلق بعض الأذكار، مثل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. وهي الباقيات الصالحات.

قال: هؤلاء الخمسة هم الذين نزل فيهم قوله تعالى «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً» (الأحزاب: ٣٣).

قلت: هؤلاء الخمسة على عيني ورأسي، وإن حبهم من دلائل الإيمان، وبغضهم من دلائل الكفر، وإني أتقرب إلى الله بحبهم جميعا، ولكن الآية لم تنزل فيهم، ومن قرأ الآية وتدبرها في ضوء سياقها وما لحقها: يستيقن أنها في نساء النبي صلى الله عليه وسلم، فكل الآيات قبلها خطاب لنساء النبي «يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً. وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً. يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً. وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً» (الأحزاب: ٣٣:٣٠)، فهذا لا شك أنه خطاب لنساء النبي، يؤكده بقية السياق، وهو قوله تعالى «وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً» (الأحزاب: ٣٤). وقد كان عكرمة مولى ابن عباس يقول: من شاء باهلته: أنها في نساء النبي، وليس كما يقولون!

قال – منتقلا من الموضوع إلى غيره-: إنك ذكرت في كتابك فتاوى معاصرة: أن عمر بن الخطاب كان لا يعرف حكم التيمم، لولا أن عرفه بعض الصحابة بما ورد فيه من نصوص، والعجيب أنك قلت: إن هذا كان اجتهادا منه أخطأ فيه، وهو مأجور على اجتهاده!

> اعتددت في الساعات الطويلة التي أتوقف فيها في المطارات أن أخرج قلمي وورقي وأكتب فلا أكاد أحس بالوقت

قلت: هو مأجور على اجتهاده أجر المجتهد إذا أخطأ، وهذه من روائع الإسلام: أن يثيب المجتهد المخطئ تشجيعا للاجتهاد. ولكنه يعطيه نصف أجر المجتهد المصيب.

قال: ولكن هذا أمر بدهي من أوليات الإسلام التي لا يجوز أن تجهل، فكيف يثاب من جهلها، ويأخذ أجرا على جهله؟

قلت: لكي نكون منصفين في تقديرنا للأشخاص، وتقويمنا للوقائع: يجب أن نضعها في إطارها الزمني. ففي ذلك الوقت لم يكن الحكم بالوضوح البيّن لنا اليوم.

قال: ليس هذا أول حكم خالف فيه عمر النصوص.

قلت: كان من الأوصاف التي مدح بها عمر: أنه كان وقافا عند كتاب الله. ولقد ردت عليه امرأة – وهو على المنبر- بآية من كتاب الله، فلم يسعه إلا أن يقول: أصابت امرأة وأخطأ عمر. وكل ما ادعوه على الفاروق رضي الله عنه، من دعاوى تجاوز النصوص: مردود عليها من العلماء الراسخين.

قال: مثل مَن؟

قلت: مثل العلامة الشيخ محمد المدني الذي نشر جملة مقالات قيمة في (مجلة الأزهر) تحت عنوان (نظرات في فقه عمر) فند فيها كل هذه المزاعم الباطلة. وكم أتمنى أن تنشر في كتاب يجمعها.

قال: أنتم -أهل السنة- تقدسون الصحابة، وإن كانت أخطاؤهم مكشوفة للعيان.

قلت: نحن أهل السنة لا نقدس الصحابة، ولا ندعي عصمتهم، ولكنا نحبهم ونجلهم ونكرّمهم، لأن الله في كتابه كرمهم وعظم منزلتهم في سورة التوبة، وفي أواخر سورة الأنفال، وفي أواسط سورة الفتح، وفي آخرها، وفي سورة الحشر، وفي غيرها... ويكفي قوله تعالى «وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ» (التوبة: ١٠٠)، وقوله تعالى «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً» (الأنفال: ٧٤)، وقوله سبحانه «لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ» (الفتح: ١٨)، وقوله عز وجل «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً...» (الفتح: ٢٩). وقوله تعالى «لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى» (الحديد: ١٠). بالإضافة إلى قوله سبحانه «النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ» (الأحزاب: ٦).

أضف إلى هذه الآيات القرآنية: ما صح في الثناء عليهم، والتنويه بفضلهم، من الأحاديث الشريفة النبوية، مثل قوله صلى الله عليه وسلم: «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»، وقد استفاض هذا عن عدد من الصحابة.

والحديث المتفق عليه «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا، ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه». ثم ما جاء في أحاديث صحاح تنوه بفضل جماعة منهم، مثل: أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وسائر العشرة المبشرين بالجنة، ومنهم طلحة والزبير، وآخرون مثل: ابن مسعود وابن عباس وأبي ذر وعمار وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأسامة بن زيد، وغيرهم. ولو لم تجئ النصوص بفضلهم لقضى العقل بذلك، فهم الذين حملوا راية الإسلام من أول يوم، وتحملوا الأذى في سبيله، وبذلوا من أجله الأنفس والأموال، وأخرجوا من ديارهم من أجله، ونصروا الله ورسوله، وادافعوا عنه بكل ما يملكون. وهم الذين نقلوا إلينا القرآن الكريم، فعنهم تليقينا هذا القرآن، نقله عنهم أصحابهم من التابعين، وعنهم نقله الأتباع، حتى وصل إلينا عن طريق التواتر اليقيني جيلا بعد جيل. وهم الذين رووا لنا الأحاديث النبوية، والسنة المحمدية: القولية والفعلية والتقريرية.

وهم الذين فتحوا الفتوح، ونشروا الإسلام في آفاق العالم، ليخرجوا الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

ثم هم تلاميذ المدرسة المحمدية، الذين تربوا على مائدتها، واقتبسوا مباشرة من نورها، فهم أقرب الناس إلى رسول الله، وألصقهم به، وأكثرهم فهما لما جاء به، وعملا بأحكامه وتعاليمه، فمن طعن في هؤلاء التلاميذ الصادقين، فكأنما طعن في أستاذهم ومعلمهم. وهكذا استطردت في الكلام عن الصحابة، لما أعرفه من حقد كثير من الشيعة عليهم، وأنهم يتعبدون لله بسبّهم، وقد بدا ذلك من رشيد بن عيسى، من أول الحديث، لم يستطع أن يكتمه. ونحن مع حبنا للصحابة: نحب آل البيت معهم ونكرمهم ونعظمهم، ونرى أن هذا فرع محبتنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم إن كثيرا منهم صحابة أيضا.

قال ابن عيسى في نقلة أخرى لحديثه: كيف أنشأ أهل السنة مذاهب أربعة أئمتها من العرب والعجم، ولكن لا يوجد فيهم واحد من أئمة أهل البيت، أو ليس هذا غريبا؟ قلت: لا غرابة في ذلك، إذا عرفت كيف نشأت هذه المذاهب، إن أهل السنة لم يجتمعوا في مؤتمر حاشد، ليقولوا: نريد أن ننشئ عددا من المذاهب: مذهب فلان، ومذهب علان. الواقع أن أئمة المذاهب لم يريدوا أن يؤسسوا مدارس أو مذاهب فقهية يقلدها الناس، ويتخذونها منهاجا لحياتهم. إنما كانوا يدلون بآرائهم واجتهادهم، ويعلمونها تلاميذهم، ولا يدعون أنها الحق وحدها، فمنهم من وجد أصحابا وتلاميذ أقوياء نشروا مذهبه، ووسعوا آفاقه، ومنهم من لم يرزق بذلك، فبقي في الكتب، كما قال الشافعي عن الليث بن سعد: الليث أفقه من مالك ولكن أصحابه لم يقوموا به! ومنهم من انتشر مذهبه فترة ثم انقرض، مثل: الأوزاعي، والثوري، والطبري، وغيرهم.

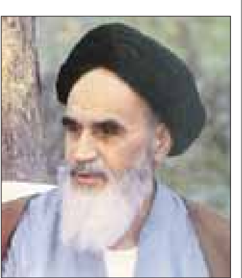
وفي ذلك الوقت ظهر من أئمة أهل البيت: الباقر والصادق وزيد بن علي، وغيرهم، فاتبعهم أناس وقلدوهم، كما اتبع آخرون مالكا وأبا حنيفة والشافعي وأحمد. وتناولنا أمورا أخرى لم أعد أذكرها... ثم قال الأخ بن عيسى: لقد كنت أنتظر لقاءك هذا منذ سنوات، ولكنك صدمتني وخيبت أملي!

قلت: ماذا كان أملك فيَّ: أن أنتقل من التسنن إلى التشيع، كما فعلت أنت، أو أوافقك على انتقاص الصحابة، وتكوين صورة مظلمة عنهم تخالف القرآن والسنة والتاريخ ومنطق العقل؟

الحقيقة: أنني أنا الذي فوجئت بموقفك، فقد كنت أعلم أنك معجب بثورة الخميني، وهذا من حقك، أما أن تنتقل من الإعجاب بالثورة إلى التزام المذهب، فهو الذي يحتاج إلى تساؤل.

أما أنا فقد آمنت بالإسلام عن بينة، والتزمت المنهج السني عن اقتناع، وأنا لست متعصبا لمدرسة واحدة، أو لمذهب واحد في العقيدة أو في الفقه، فآخذ من الأشاعرة، وآخذ من الماتريدية، وآخذ من السلفية، بل لا مانع أن آخذ من المعتزلة: ما أكون به تصورا صحيحا عن أصول الإيمان. كما لا أتعصب لمذهب من مذاهب السنة، بل أوازن بينها، وأتخير منها وأدع، وأرجح ما أراه أقوى دليلا، وأهدى سبيلا، وأقرب إلى تحقيق مقاصد الشرع ومصالح الخلق.

أخذ هذا النقاش أكثر من ساعة من ساعات الطريق الأربع، التي نحتاج إليها، لنصل إلى سطيف، ثم صمت رفيقي، وصمت، طوال الطريق، فلم نكد نتكلم، حتى وصلنا إلى مقصدنا بحمد الله.



● الإمام الخميني

● طارق البشري



تنفرد **الوطن** بنشر الجزء الرابع من مذكرات العلامة د.يوسف القرضاوي: ملامح سيرة ومسيرة (ابن القرية والكتاب)، وهو يشمل بضعة عشر عاما (حوالي ١٨) من هذه السيرة والمسيرة: وهي سنوات حافلة بالأحداث على المستوى الشخصي في حياة الشيخ المحلي والعربي والإسلامي والعالمي، على المستوى الشخصي يفصح فضيلته لأول مرة عن قصة زواجه الثاني وكيف تطور من عاطفة صادقة إلى زواج على سنة الله ورسوله . كما يتحدث عن تخرج كل أبنائه وتزوج كل بناته . وتعيينه عميدا لكلية الشريعة ومديرا لمركز بحوث السنة والسيرة. ونجاحه في الدعوة إلى تأسيس الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية بالكويت. وعمله رئيسا لهيئة الرقابة الشرعية لعدد من المصارف الإسلامية. واختياره عضوا في المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي، وعضوا في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن (مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي) وعضو مجلس أمناء مركز اكسفورد للدراسات الإسلامية، وعضو مجلس أمناء منظمة الدعوة الإسلامية بالخرطوم، وغيرها. وحصوله في هذه الفترة على بعض الجوائز العالمية.

ومن خلال هذه المذكرات سيمر القارئ بمعظم أحداث العصر في منطقتنا العربية والإسلامية، بحكم أن صاحبها يعيش في قلب هذه المنطقة، وقلب هذه الأحداث، وقد قدر له في هذه المرحلة أن يتفاعل بها ومعها متأثرا ومؤثرا.

وتتميز هذه السنوات بأمرين لهما أهمية قصوى في حياة القرضاوي :

الأول: الانتشار الكبير له في أنحاء العالم في الشرق والغرب، وزيارة كل قارات العالم حتى أستراليا، وأميركا الجنوبية، حتى سماه البعض «الشيخ الطائر».

والثاني: ظهور المد الإسلامي أو الصحوة الإسلامية بقوة في تلك المرحلة، والتى يعتبرها الشيخ جزءا منه، كأنما هي ولده وفلذة كبده . وسنتابع نشر المذكرات يوميا بما فيها من تفاصيل يرويها القرضاوي لأول مرة.

محاولة فاشلة لوزير أوقاف مصري لتجنيدي سندا لسياسة النظام الحاكم

كانت هذه السفرة الطويلة الثقيلة من الجزائر إلى سطيف، بساعاتها الأربع، وبرفقتها المشاكسة، ومناقشاتها المثيرة: إضافة إلى متاعب الرحلة الغريبة التي كانت مليئة بالمفاجآت، ورغم هذا كله، وصلنا إلى مدينة سطيف، حيث ينعقد الملتقى، وأنشدنا قول الشاعر:

فألقت عصاها واستقر بها النوى
كما قر عينا بالإياب المسافر!

ولكنا هنا لم نقر عينا بالإياب، بل قررنا عينا بالوصول.

إلى ملتقى الفكر في سطيف

وعند وصولنا إلى (سطيف) ذهبنا إلى الفندق الذي نقيم فيه، وحططنا رحالنا وتركنا حقائبنا في حجراتنا، ثم انطلقنا إلى الملتقى، الذي كان يمارس نشاطه في جلسته المسائية، وقبل أن أصل إلى القاعة، حتى هرول إليّ الوزير الأستاذ (بو علّام باقي) وهو من قيادات ثورة التحرير. وكان رجلا فاضلا حكيما. ومعه كبار المسؤولين في وزارة الشؤون الدينية، وقالوا: كنا في قلق شديد على عدم وصولك في الموعد المحدد، والأدهى من ذلك أننا لم نعلم عنك أي شيء، فقد انقطعت الأخبار بيننا وبينك.

قلت لهم: لقد حدثت أشياء كثيرة أخرتني عن موعدي، والحمد لله أني وصلت بعد جهد شديد ومعاناة.

وعندما دخلت القاعة: اشرأبت الأعناق، ورنت الأبصار، وتجاوبت القاعة بهتاف التكبير والتحميد. وفي الاستراحة أقبل الطلاب والطالبات في شوق ولهفة، وكلهم يتساءلون: ماذا جرى؟ ويعلنون فرحتهم بوصولي ومشاركتي. وشكرت الجميع على هذه العواطف الصادقة، وعلى حسن ظنهم بي، وما أنا إلا جندي من جنود الإسلام، جنده الله للدعوة إلى هذا الدين، وشرح حقائقه، وبيان عقائده وشرائعه، والذود عن حياضه وحرماته. فالحمد لله حمدا كثيرا كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه.

رشحوني مرشدا رابعا للإخوان بعد وفاة التلمساني فاعتذرت ورشحت الشيخ الغزالي فرفضوه

الإسلام والعلوم الإنسانية

كان موضوع الملتقى هذه المرة، هو (الإسلام والعلوم الإنسانية). وهو موضوع له اعتباره وأهميته في التكوين الفكري والثقافي للأمة، لأن العلوم الإنسانية والاجتماعية هي التي تصنع الأفكار والميول والأذواق والاتجاهات العقلية والنفسية والسلوكية، التي تختلف فيها الأمم، ويتمايز بعضها عن بعض.

إن العلوم الكونية المادية: عالمية بطبيعتها، فهي لكل الأمم، ولكل الأديان والثقافات، لا وطن لها، ولا دين خاص بها، بخلاف العلوم الإنسانية والاجتماعية، فهي التي تلوّن ثقافة الأمم، وتميز فكر بعضها عن بعض.

فإذا كانت العلوم الطبيعية والرياضية، لها أثرها في عالم المادة، وهي التي غيرت الحياة من حولنا، وقربت البعيد، وأنطقت الحديد، وجعلت العالم قرية واحدة، فإن العلوم الإنسانية والاجتماعية هي التي تغير الإنسان، أو تحاول أن تغيره، لأن تغيير الجبال والصخور أسهل من تغيير الإنسان: تغيير عقيدته وفكره واتجاهه.

ولقد ألف أحد أقطاب العلم الغربي من الحاصلين على جائزة نوبل في العلوم - وهو الأستاذ ألكسس كاريل- كتابا سماه (الإنسان ذلك المجهول) بيّن فيه: أن الإنسان عرف الكثير من أحوال المادة وخصائصها، من الذرة إلى المجرة، واستطاع أن يوظفها في تيسير ظروفه، وتحقيق أهدافه. ولكنه للأسف يجهل الكثير عن أحوال نفسه. وهذا هو سر المشكلة أو المأساة التي يعيشها الناس اليوم: أنهم لا يعرفون حقيقة أنفسهم.

لذا كان من المهم: أن يعقد هذا الملتقى لبيان الموقف الإسلامي من العلوم الإنسانية والاجتماعية: علم النفس، وعلم التربية، والفلسفة، وعلم الأخلاق، وعلم الاجتماع، وعلم التاريخ، وعلم الاقتصاد، وعلوم اللسانيات، وغيرها. ولا سيما أن هذه العلوم قد وصلت إلينا، كما عرفها الغرب وأصّلها وعرضها، فهي غربية المنبع والجذور والفكر والأسلوب.

ونحن فيها، عالة على الغرب، وجميع المثقفين وأساتذة الجامعات: تلاميذ تابعون للمدرسة الغربية، يحتكمون إلى فلسفتها، ويؤمنون بقيمها، ويدافعون عن توجهاتها، ولا يرون في الوجود بديلا عنها.

إن هذه العلوم تدرس في جامعات البلاد العربية والإسلامية بصفة عامة، كما جاءت من الغرب، دون نقدها، ولا تعقيب عليها، إلا ما كان من الغربيين أنفسهم، حين ينقد بعضهم بعضا. وإلا ما ندر من بعض علمائنا العرب والمسلمين، وقليل ما هم.

ومازلنا ننتظر من الأجيال الجديدة من العلماء: أن يغوصوا ويتعمقوا في هذه العلوم، وألا يقفوا منها موقف التسليم المطلق، بل موقف الفاحص الناقد المتخير، في ضوء الواقع المشهود، وفي ضوء تطور العلم والمعرفة، وفي ضوء تراثنا وتراث البشرية، ليستخرج منها ما هو أقوم قيلا، وأهدى سبيلا، وأثبت في ميزان الحق. لا نريد أن ننفي ما وصلت إليه البشرية من نتائج ومعارف في هذا المجال، فهذا ما لا يتصور، ولكن نريد أن ندرس دراسة الناقد المتأمل، لا دراسة المقلد المتلقي. نأخذ منه وندع، وفق قراءتنا ومعايرنا.

وبهذا تظهر المدارس الإسلامية المختلفة في العلوم الإنسانية والاجتماعية: المدرسة الإسلامية في علم النفس، والمدرسة الإسلامية في علم الاجتماع، والمدرسة الإسلامية في علم التربية، وهكذا، وأنا أوثر هذا المصطلح، على مصطلح (علم النفس الإسلامي)، و(علم الاجتماع الإسلامي) إلى آخره.

وفاة الأستاذ عمر التلمساني المرشد الثالث للإخوان

في ١٣ من شهر رمضان ١٤٠٦ الموافق ٢٢ مايو ١٩٨٦، وفي يوم الأربعاء، انتقل إلى جوار ربه الأستاذ عمر التلمساني، المرشد الثالث للإخوان المسلمين، وقد صلي عليه في مسجد عمر مكرم، ودفن في مقابر مدينة نصر، وشيعته جماهير غفيرة تقدر بالألوف، من إخوان مصر وأحبائهم، رغم حرارة جو القاهرة ومع صيام شهر رمضان.

وقد ودعته الجموع بأعين باكية، وقلوب آسية، وألسن داعية، كلها تبتهل إلى الله عز وجل أن يسكنه الفردوس الأعلى، وأن يجزيه عن الإسلام ودعوته وأمته خير ما يجزي الدعاة الصادقين، والعلماء العاملين.

فقد كان الأستاذ التلمساني رجلا محببا إلى خلق الله، لما وهبه الله من خصال الخير، وفضائل الإيمان، ومكارم الأخلاق، كان سهلا سمحا باسم الثغر، حييّا متواضعا، لين الجانب، رفيقا رقيقا مع القريب البعيد، والكبير والصغير، والمسلم وغير المسلم، كأنما اقتبس ذلك من أخلاق النبوة التي أثنى الله على صاحبها بقوله: «فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ» (آل عمران: ١٥٩).

يقول المصريون في مثله: يوضع على الجرح فيبرد! كأنما هو مرهم أو ترياق. ومع هذا لم يكن يفرّط في حق، أو يداهن في باطل؛ بل كان متمسكا بالعروة الوثقى لا انفصام لها، علما وعملا، وإيمانا وسلوكا، وغيرة وجهادا.

كان معنا في معتقل الطور سنة ١٩٤٩، واتفق الإخوان المعتقلون على أن يولوه قيادتهم في المعتقل، بعد استدعاء الأستاذ البهي الخولي للتحقيق معه، امتثالا للحديث النبوي «إذا كنتم ثلاثة فأمروا أحدكم» ولكنه سرعان ما استدعي هو الآخر، واختار المعتقلون بعدها الشيخ الغزالي وهو في ريعان شبابه.

عمل مع المرشد الأول حسن البنا، ثم عمل مع المرشد الثاني حسن الهضيبي، فلما اصطدمت الثورة بالإخوان أو اصطدم الإخوان بالثورة، كان عضوا بمكتب الإرشاد العام للجماعة، فقدم للمحاكمة مع من قدموا من قيادات الإخوان، وأظنه حكم عليه بخمس عشرة سنة سجنا مع الأشغال الشاقة، هو والعالم الأزهري الكبير الشيخ أحمد شريت رحمهما الله تعالى. وبعد أن قضى مدة سجنه، خرج ليتولى قيادة الجماعة في عهد السادات، بحكمته ورفقه وأنائه وحلمه، وحسن سياسته، وتأنيه للأمور، في غير عنف ولا إحراج. وأصدر (مجلة الدعوة) الأسبوعية من جديد، ليرأس تحريرها، ويكتب فيها مقالا كل أسبوع.

وكان بحلمه وسماحته ورقته يحل كثيرا من المشاكل المعقدة التي تصعب على الكثيرين، أن يحلوها بطريق الشدة والقوة، وعرض العضلات.

وقد اجتمع مرة مع الرئيس السادات ممثلا لدعوة الإخوان، التي اعترف بها واقعا وفعلا، وإن لم يعترف بها رسميا وقانونا، وقد ذكر السادات عنه شيئا، فقال له ليس لي إلا أن أشكوك إلى الله. فإن الإنسان إذا ظلمه شخص عادي، شكاه إلى الحاكم، فإذا ظلمه الحاكم نفسه لم يكن له إلا أن يشكو إلى الله.

وهنا قال له السادات: لا تشكني إليه، فإني أخافه سبحانه، وأعرف قدره، ولا قبل لي به جل جلاله.

قال التلمساني: ولكني أشكوك إلى رب عادل، لا يظلم مثقال ذرة، ولا يخاف أحد عنده ظلما ولا هضما.

قال السادات: ومع ذلك أنا أخافه ولا أدعي العصمة.

وقد سعدت بزيارته في قطر، واستقباله في منزلي، أول ما تولى منصبه، وقد التقى بعدد من الإخوان الذين يعملون في قطر، وإن كان منهم من لم يعد له صلة بالتنظيم الإخواني، بل هو من الإخوان بحكم النشأة والولاء، وأذكر من الموجودين: عبد البديع صقر، وعز الدين إبراهيم، ود. كمال ناجي، وعلي جمّاز، وعبد اللطيف زايد، وآخرين.

● عمر التلمساني

● الشيخ الغزالي

وكان الأستاذ عمر الأميري بالدوحة، فالتقى العمران رحمهما الله.

ولقيته أكثر من مرة في اجتماعات مجلس الشورى العالمي، أيام البحبحة، والسماح لقادة الإخوان بالسفر إلى الخارج، كما التقيته في القاهرة في دار الإخوان بالتوفيقية.

وقد انتشرت الدعوة في عهده في مصر وفي خارج مصر، فقد أثبت الواقع الذي تعيشه الأمة أنه لا خلاص لها إلا بالعودة إلى الإسلام الحقيقي، بتوازنه وتكامله وتسامحه، وأن دعوة الإخوان هي أقرب الدعوات المعروضة في الساحة إلى الإسلام الحق، وإلى المنهج الوسط الذي لا ينحاز إلى اليمين أو اليسار.

وكان معتدا بقيادة الإمام حسن البنا مؤسس الجماعة ويسميه (الملهَم الموهوب).

كما كان يؤثر السهولة والسماحة في كل شيء، ولا يميل إلى التفلسف والتنظير وما إلى ذلك من تعقيدات أهل الفكر، ومجادلي التيارات المخالفة.

قيل له يوما: لا بدّ لنا من خطة استراتيجية، تستلهم الماضي، وتعايش الحاضر، وتستشرف المستقبل.

فقال: لا أرى أن الدعوة إلى الله تحتاج إلى هذا كله. هل يحتاج قولك للناس: اتقوا الله واعملوا بإسلامكم إلى استراتيجية وخطة مستقبلية... الخ؟!

قلت له: يا فضيلة الأستاذ نحن لسنا مجرد وعاظ نذكر الناس بالله، والدار الآخرة، نحن مع ذلك دعاة إصلاح للأمة، وتجديد الدين، ولنا أهداف كبيرة، نريد الوصول إليها، وهذه الأهداف تحتاج إلى وسائل متنوعة وإلى مراحل محددة، تسلم كل مرحلة إلى الأخرى، كما علينا أن نحدد المفاهيم التي تلتبس على الناس، ونرد الشبهات التي يثيرها خصوم الإسلام، ونضع المفاهيم العلمية والدعوية والتربوية وغيرها اللازمة للنهوض بالأمة، والسير بالجماعة إلى الطريق الأقوم، والسبيل الأوضح.

وهنا قال: ادعو الله يا شيخ يوسف أن يوفقكم فيما تصبون إليه.

ومما أذكره هنا: أن فئة من الإخوان القدامى - حين مرض الأستاذ التلمساني ودخل المستشفى - اجتمعوا في بيت أحدهم وأظنه بيت القيادي الإخواني الكبير الأستاذ فريد عبد الخالق حفظه الله، وقرروا أمرا، ثم أرسلوا بعضهم ليعلموني به، وكنت في القاهرة يومئذ، ولا أذكر من هؤلاء الإخوة الذين زاروني في بيتي في مدينة نصر، إلا الأخ الكريم القديم الذي أصابه ما أصابه من بلاء في سبيل الدعوة، وهو الناشر الإسلامي المعروف الحاج وهبة حسن وهبة صاحب (مكتبة وهبة) الشهيرة، رحمه الله. وكان الذي قرروه أن أقبل تولي منصب المرشد العام بعد الأستاذ التلمساني، وأن عليهم هم أن يقنعوا الإخوان بذلك، وإن كانوا يعتقدون أن القواعد الإخوانية كلها ترحب بذلك.

ولكني فاجأت الإخوة برأي آخر، ما لا يخطر على بال، وهو أني قلت لهم: هل لكم فيمن هو خير مني فضلا وسبقا في الدعوة وبلاء في خدمة الإسلام، وهو الآن لسان الإسلام الصادق، وقلم القرآن الناطق، وحارس الدعوة السابق؟ قالوا: من تعني؟

قلت: أعني شيخنا محمد الغزالي، فهو - والله - أحق مني، وهو لها وأهلها، وأنا مستعد أن أكون عونا له، أشد عضده، وأسند ظهره.

وقلت لهم: أنا مستعد أن أكلم الأستاذ فريد عبد الخالق، واقنعه بهذه الفكرة، وفعلت واتصلت بالأستاذ فريد هاتفيا، وأخبرته برأيي، واقتناعي به، وإصراري عليه، فوافقني على رأيي، وقال: نعم الرأي ما أشرت به، وهذا يزيد قدرك في نظر أخوانك، فكم من الناس يركض ركضا وراء هذا المنصب، ومن يلهث لهثا للحصول عليه، وأنت تؤثر غيرك به.

قلت له: والله لا أفعل ذلك تواضعا، بل أراه في صالح الدعوة، وفي مصلحة الإسلام العليا.

وقال: علينا أن نروج لهذه الفكرة وسط الإخوان، وننادي بها، وندلل على صوابها، وبالله التوفيق.

وتركتهم وسافرت إلى الدوحة، واستمر مرض الأستاذ التلمساني فترة، ويبدو أن ترشيح الشيخ الغزالي لم يلق القبول، وخصوصا من قيادات الإخوان، لما حدث أيام الخلاف مع عبد الناصر، ولما تركه خلافه مع الأستاذ الهضيبي من رشحات على أنفس الإخوان وعقولها، مع أن الأستاذ فريد كان أولى الناس أن يتأثر بها، لما بينه وبين الأستاذ الهضيبي من وشائج قوية، ولكنه جعل مصلحة الدعوة فوق كل اعتبار.

رحم الله الأستاذ التلمساني، ورحم الله الشيخ الغزالي، وشكر الله للإخوة أصحاب الاقتراح، وجزى الله الجميع خيرا.

محاولات د. محمد المحجوب وزير الأوقاف المصري

كان وزير الأوقاف المصري د. محمد المحجوب عضوا بالحزب الوطني الحاكم، وكان يحب أن يثبت وجوده، ويبرز نشاطه في خدمة الحزب وسياسته، وخدمة الرئيس وتوجهاته. وكان قد التقى بي في (مؤتمر ديوبند) بالهند، واستمع إلى كلمتي، ولاحظ أثرها في الناس، وذلك قبل أن يصبح وزيرا، بل كان الوزير في ذلك الوقت أخونا العالم الباحث المتخصص في الحديث وعلومه الدكتور الأحمدي أبو النور، وكان أبو النور رجل علم أكثر من رجل سياسة. فلما جاء المحجوب أراد أن يثبت لمبارك أنه يستطيع أن يجند له العلماء، ليكونوا سندا لسياسته، يوجهون الشعب لنصرته، ويحاربون كل من يقول له: لا، بل من يقول له: لم؟ أو كيف؟

ويبدو من تصرفاته: أن قد وضع في خطته أن يجندني لغرضه هذا ضمن من يجندهم، وغاب عنه قول أبي الطيب:

ومن يجعل الضرغام بازا لصيده
تصيده الضرغام فيما تصيدا!

وقول أبي العلاء:

أرى العنقاء تكبر أن تُصادا
فعاند من تطيق له عنادا!

المحجوب يحاول تقريبي من الرئيس مبارك:

قابلني مرة بالقاهرة، فقال: أنا أريد أن يتعرف الرئيس عليك، ويستفيد البلد منك، لذا أرجو أن تهدي إلى الرئيس مجموعة من كتبك، يتعرف من خلالها عليك.

قلت: ولكن معلوماتي أن الرئيس لا يقرأ، ولا يحب القراءة.

قال: إن كتبك تمتاز بسلاستها وعذوبتها ووضوح فكرها، وجمال أسلوبها فلعلها تجذبه يوما إلى القراءة.

وحتى لو لم يقرأ هو، قد يوجد في بيته من يقرأها وينتفع بها. وعلى كل حال نعمل ما علينا، والباقي على الله.

وفعلا، أهديت له عددا من الكتب، وقلت في نفسي: علينا البلاغ، وعلى الله الحساب.

وبعدها بأشهر، جمعنا المحجوب، أنا ومجموعة من بالعلماء بالرئيس مبارك في قصره بمصر الجديدة، ولقد نسيت في أي مؤتمر كنت، ولا أذكر من كان معي من العلماء، إلا الدكتور عبد الله عبد المحسن التركي رئيس جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض. وهي أول مرة ألتقي فيها الرئيس وجها لوجه . وقد أجلسني قريبا منه ولم يكن بيني وبينه غير الوزير. وأذكر أن الرئيس سلم علي بحرارة غير معتادة، وربت على كتفي. وكان المحجوب حاضرا، فقال لي: أرأيت كيف عاملك الرئيس معاملة خاصة؟ أريد أن تكون الصلة بينك وبينه حسنة!

قلت له: أنا أود أن تكون الصلة بيني وبين جميع الناس حسنة، ولكني يا دكتور لا أحب زيادة الاقتراب من الحكام! فلست راغبا فيما عندهم ولا طامعا في دنياهم. وقد أخشى أن يتخذ ذلك ذريعة لتشويه سمعتي.

وسافرت إلى قطر، وانقضت مدة من الزمن، حتى دعانا صديقنا الشيخ صالح كامل إلى عقد ندوة عن الزكاة، تعقد في مركز صالح كامل في جامعة الأزهر، في أواخر الثمانينات من القرن العشرين. أظنها كانت في ١٩٨٧م وكان الوزير المحجوب من المدعوين في حفل الافتتاح. وقد رآني، فأرسل إلي ورقة يقول فيها: أريد أن ألقاك بعد الافتتاح لأمر ضروري.

وبعد أن انتهينا من الحفل الافتتاحي، أقبل عليّ بلهفة، وقال: أنا أبحث عنك من زمن، وأريد أن أخلو بك، لأتحدث إليك. قلت: لا بأس، وليكن ذلك الآن، فما أضمن وقتي بعد.

قال: أنت العالم الوحيد الذي يثق به المسلمون في كل مكان، ويستمعون إلى كلامه، ويأخذون بفتاواه، ولا مأخذ عليه في علمه أو دينه، ونهجك نهج وسطي معتدل، لا إفراط فيه ولا تفريط. وهو النهج الذي ترحب به الدولة هنا في مصر، وتحرص على إشاعته وتعليمه للناس، وغرسه في نفوس الأجيال.

ولهذا نريد أن يكون لك مكانة في الإعلام - وفي التليفزيون خاصة - تتفق ومنزلتك في العلم والدين، وتتناسب مع نظرة الناس إليك.

نريد أن يكون لك برنامج أسبوعي - على الأقل - في وقت حيوي تظهر فيه على الشاشة وتقول ما عندك للناس، يشاهدك فيه ستون مليونا في مصر وحدها.

قلت له: هذا رأيك أم رأي الدولة ؟

قال: هو رأيي ورأي الدولة.

ونستطيع أن نجعله برنامجا حواريا، وتختار من يحاورك من كبار العلماء والمفكرين المعروفين: د. محمد عمارة، د. كمال أبو المجد، أو أحد علماء الأزهر.. أو من شئت.

قلت: وما المقصود من هذا البرنامج ؟

قال: لا شيء غير إشاعة الفكر الوسطي الذي تدعو إليه، وتثبيته، ومطاردة فكر الغلو والتشدد.

قلت: ولكني محسوب على الإخوان المسلمين، المحاربين من الدولة، فكيف يفسر الناس ظهوري المفاجئ على التلفزيون؟ أخشى أن يقول الناس: إن الحكومة اشترت القرضاوي بهذه البرامج؟

قال: أنت فوق الشبهات، وتاريخك يرد عليهم. وما تقوله أيضا يجيب عنك. فليس مطلوبا منك أن تمدح أحدا أو تذمه. إنما تقدم للناس الإسلام الصحيح.

وكان موعد الجلسة العلمية الأولى في ندوة الزكاة، قد حان، فاستأذنته أن أذهب إلى الجلسة، قال: على أن نلتقي مرة أخرى قبل سفرك، فلم ينته حديثنا بعد.

قلت: ربنا ييسر.

وانتهت جلسات الندوة، وكانت لي فيها ورقة قدمتها، وعقبت على بعض البحوث المقدمة. وعدت إلى الدوحة، دون أن يتم اللقاء الذي رغب فيه الوزير.

ولكنه ظل يلاحقني بهواتفه حينا، وبرسله حينا آخر، حتى عدت مرة إلى القاهرة، فطلب إليّ أن نجلس دقائق لنكمل الحديث الذي بدأناه. قلت له: بصراحة أنا لست مستريحا إلى هذا العرض، ولا أعرف ما الهدف منه حقيقة؟

قال: قد شرحت لك الغرض، ولا شيء إلا أن الدولة تريد أن تقول: إنها ليست ضد الإسلام، وإن القرضاوي - وهو رمز الإسلام الأول - يعرض الإسلام كما يريد بكل حرية.

قلت له: إذا كانت الدولة تريد أن تحسن صورتها عند الشعب، وأنها ترحب بالإسلام عقيدة وشريعة ومنهج حياة. فلتخط بعض الخطوات التي تدل على ذلك.

قال: مثل ماذا؟

قلت: مثل السماح للمحجبات بالظهور على شاشة التلفزيون، مثل منع الصور الفاضحة أن تعرض على الشاشة، مثل إعلان العزم على تطبيق الشريعة، ولو بالتدريج، مثل إطلاق الحرية السياسية للجميع، ومنهم الإسلاميون..الخ

قال: هذا يحدث بالتدريج.

قلت: فلتكن خطوات في هذا السبيل، ثم ننتظر الباقي.

وكأن هذا الكلام لم يصادف هوى عند الوزير، وكأنه صدم به. ويبدو أنه كان يتوقع أن أطير فرحا بهذه الفرصة؛ ففوجئ بهذا الموقف مني. فسكت عن طلبه هذا إلى حين.

ومضت مدة ربما كانت سنتين أو أكثر، ثم إذا هو يتصل بي في مكتبي بعمادة كلية الشريعة بجامعة قطر، وقال: نريدك هنا في القاهرة لأمر ضروري وهام.

قلت: وأي أمر ضروري وهام يستدعي حضوري إلى القاهرة؟

قال: ستعرفه عندما تحضر.

قلت: والله أنا مشغول جدا في هذه الأيام، ولا أستطيع السفر.

قال: إنما نريدك ليوم أو يومين، ونتفق على المطلوب ثم تعود في الحال.

قلت: وأي أمر هذا الذي يقضى في يوم أو يومين؟

قال: يا شيخنا، ألا تريد أن تؤدي خدمة لوطنك؟

قلت: أنا دائما في خدمة وطني وخدمة أوطان المسلمين جميعا.

أول مرة ألتقي فيها الرئيس مبارك وجها لوجه أجلسني قريبا منه وسلم علي بحرارة غير معتادة وربت على كتفي

وسلط علي فضيلة شيخنا الشيخ محمد الغزالي، وقال: الرجل يلح على وجودك، لعل وراء ذلك خيرا للبلد وللأمة، ولعل الله ينفع بك.

وعلمت بعد ذلك أن الشيخ الغزالي بطيبته وصفاء نفسه، ظن أن القوم يفكرون في أن يسندوا إلي منصبا كبيرا، وقال في نفسه: إن يوسف والله أهل له، ولن يجد الأزهر مثله يقود سفينته في لجة هذه العصر وأمواجه المتلاطمة، وذهب الشيخ بعيدا بعيدا. وهو في واد والقوم في واد آخر!

قال الشيخ الغزالي: لا مانع أن تحضر وترى ماذا هناك.

ولم يسترح ضميري لهذا الطلب والإلحاح فيه. ولكن المحجوب لم يدعني، ولم يزل يلاحقني، وهو رجل ملحاح. ثم فهمت منه أن هناك اجتماعا لعدد من كبار العلماء، وسيكون معهم المرشد العام للإخوان، و د. أحمد كمال أبو المجد، والشعراوي والغزالي والمشد، وغيرهم، ولا يكمل هذا الجمع إلا بحضورك. وسيبحثون بكل حرية فيما يهم الأمة.

وأنا رجل أضعف أمام الإلحاح، ولا سيما إذا تكرر، فلم أملك إلا أن أستجيب، ولا سيما أني اتصلت بمكتب المرشد العام للإخوان المسلمين بالقاهرة، وسألتهم عن حقيقة دعوة المرشد لهذا اللقاء، فأكدوا لي أنه حدث اتصال، ولكن المرشد في الصعيد، وسيحضر اليوم أو غدا. وقد أرسلوا إلي التذكرة، وسافرت، وفي المطار لقيني مندوب من وزارة الأوقاف، ففوجئ بأنهم استوقفوني فترة، وأخذوا جوازي، ليعرضوه على الجهات المختصة، قبل أن يؤذن لي بالدخول. واستغرب المندوب، وقال لي: أليس الوزير هو الذي دعاك وطلبك للحضور؟

قلت: بلى. قال: فكيف يوقفونك؟ قلت: لا تجزع. هذه إجراءات روتينية اعتدنا عليها.

وبعد برهة من الزمن، أعيد الجواز وخرجنا، وذهب بي مندوب الوزارة إلى فندق في الجيزة، يقيم فيه شيخنا الشيخ محمد متولي الشعراوي رحمه الله. وهو الذي سيلتقي فيه كبار المشايخ المدعوون، وبعد المغرب بقليل حضر العلماء في ضيافة الشيخ الشعراوي: الشيخ الغزالي والشيخ عبد الله المشد رئيس لجنة الفتوى بالأزهر، والشيخ محمد الطيب النجار رئيس جامعة الأزهر، والشيخ محمد سيد طنطاوي مفتي مصر في ذلك الوقت، والدكتور أحمد كمال أبو المجد، والفقير إليه تعالى. ولم يحضر المرشد العام للإخوان كما قيل. وكان هو الأستاذ محمد حامد أبو النصر.

لماذا اجتمع هؤلاء في هذا الوقت خاصة؟

تبين لي أنهم اجتمعوا ليصدروا بيانا للناس، يؤكدون فيه: أن مصر دولة إسلامية، وأن حكامها مسلمون، يطبقون شريعة الله، ومن يتهمهم بالكفر أو الفسوق يستحق العقوبة، إلى آخر ما هو من هذا القبيل.

وكنت في أول الأمر لا أعرف وجه الحاجة إلى مثل هذا البيان، الذي يلح عليه الوزير، ثم عرفت بعد ذلك من سياق الأحداث: أن هذا البيان يقصد به الرد على ما جاء في شهادة العالم الداعية الشهير، والبرلماني المصري المعروف: الشيخ صلاح أبو إسماعيل رحمه الله، أعني: شهادته في المحكمة التي زلزلت الحكومة زلزالا، والتي اتهمها فيها بالكفر والفسق والظلم، وفقا لما جاء به القرآن في سورة المائدة: «وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ» (المائدة: ٤٤) «وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» (المائدة: ٤٥) «وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» (المائدة: ٤٧).

وكان في البيان أجزاء وصيغ متفق عليها، ولا مانع من تمريرها، وأجزاء أخرى تقف في الحلق، وفيها وقع الخلاف.

ولا أذكر تفاصيل ذلك، ولكن الذي أذكره: أنهم طلبوا مني أن أوقع، فلم أفعل، واعتذرت عن ذلك. وعجلت بسفري، قافلا إلى الدوحة.

ولكنهم حين أصدروا البيان ذكروا اسمي مع الموقعين، وأنا كنت مع الحاضرين والمناقشين، ولكن لم أكن من الموقعين. وهذا ما اضطرني أن أحرر بيانا نشرته صحيفة (الشعب) لسان حزب العمل، أبين فيه حقيقة موقفي، كما وقع.

أما الذين وقعوا البيان، فقد ذهبوا - أو ذهب بهم - إلى الجامع الأزهر، ليعقدوا مؤتمرا فيه، وتكلم فيه كل من الشيخ الشعراوي، والشيخ الغزالي، والشيخ محمد الطيب النجار. كل بما عنّ له في وقته، وإن تفاوتت مستويات كلماتهم في القرب والبعد مما أرادته الحكومة أو وزيرها. ولكن الشيخ الغزالي استدرك على هذا المؤتمر ببيان نشره في جريدة (الشعب) يوضح فيه موقفه، ويزيل ما في الموضوع من غبش وتلبيس. واستغلال كلامه أو موقفه لخدمة هدف لم يقصد إليه وإنما لكل امرئ ما نوى.



تنفرد **الوطن** بنشر الجزء الرابع من مذكرات العلامة د. يوسف القرضاوي: ملامح سيرة ومسيرة (ابن القرية والكتاب)، وهو يشمل بضعة عشر عاما (حوالي ١٨) من هذه السيرة والمسيرة: وهي سنوات حافلة بالأحداث على المستوى الشخصي في حياة الشيخ المحلي والعربي والإسلامي والعالمي، على المستوى الشخصي يفصح فضيلته لأول مرة عن قصة زواجه الثاني وكيف تطور من عاطفة صادقة إلى زواج على سنة الله ورسوله . كما يتحدث عن تخرج كل أبنائه وتزوج كل بناته . وتعيينه عميدا لكلية الشريعة ومديرا لمركز بحوث السنة والسيرة. ونجاحه في الدعوة إلى تأسيس الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية بالكويت. وعمله رئيسا لهيئة الرقابة الشرعية لعدد من المصارف الإسلامية. واختياره عضوا في المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي، وعضوا في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن (مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي) وعضو مجلس أمناء مركز اكسفورد للدراسات الإسلامية، وعضو مجلس أمناء منظمة الدعوة الإسلامية بالخرطوم، وغيرها. وحصوله في هذه الفترة على بعض الجوائز العالمية.

ومن خلال هذه المذكرات سيمر القارئ بمعظم أحداث العصر في منطقتنا العربية والإسلامية، بحكم أن صاحبها يعيش في قلب هذه المنطقة، وقلب هذه الأحداث، وقد قدر له في هذه المرحلة أن يتفاعل بها ومعها متأثرا ومؤثرا.

وتتميز هذه السنوات بأمرين لهما أهمية قصوى في حياة القرضاوي :

الأول: الانتشار الكبير له في أنحاء العالم في الشرق والغرب، وزيارة كل قارات العالم حتى أستراليا، وأميركا الجنوبية، حتى سماه البعض «الشيخ الطائر».

والثاني: ظهور المد الإسلامي أو الصحوة الإسلامية بقوة في تلك المرحلة، والتى يعتبرها الشيخ جزءا منه، كأنما هي ولده وفلذة كبده . وسنتابع نشر المذكرات يوميا بما فيها من تفاصيل يرويها القرضاوي لأول مرة.



باركت إنشاء منظمة الدعوة الإسلامية لسد بعض الثغرات في العمل الخيري والإنساني التي تفتقر إليها المجتمعات الإفريقية

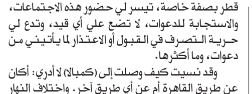
في سنة ١٩٨٠م أنشأ الإخوة العاملون للإسلام بالسودان الشقيق مؤسسة تعنى بالدعوة والعمل الخيري في المجتمعات الإسلامية، ولا سيما إفريقيا، التي يغلب عليها الفقر والمرض والأمية، وتحاول أن تغزوها التيارات المختلفة من نصرانية وشيوعية.

وقد تلقيت رسالة من الأمانة العامة لمنظمة الدعوة الإسلامية بالخرطوم: أن المجلس قد اختارني عضوا بمجلس أمناء المنظمة، وأنهم يهنئونني - أو كما قالوا: يهنئون أنفسهم بانضمامي إلى المجلس، راجين أن ينتفعوا بتجربتي الدعوية، وتجربتي العلمية والعملية، في المضي بمسيرة المنظمة إلى الأمام.

ورددت عليهم شاكرا، راجيا أن أكون عند حسن ظنهم، سائلا الله تبارك وتعالى أن يبارك في وقتي، ويمدني بتوفيقه وتأييده، مؤكدا لهم أني مؤمن بمهمة المنظمة الجليلة في العمل الخيري والعمل الدعوي.

وكان الإخوة في السودان قد أسسوا هذه المنظمة، لتسد بعض الثغرات في العمل الخيري والإنساني في إطعام الجائع، وكسوة العاري، وإيواء المشرد، وتعليم الجاهل، ومداواة المريض، وغير ذلك من ألوان الخير، التي تفتقر إليها المجتمعات الإفريقية أكثر من غيرها، والتي انفردت بها الإرساليات التنصيرية من كاثوليكية وبروتستانتية، والتي تمدها أوروبا وأميركا بالملايين، بل بالمليارات. فكان لا بد أن يدخل المسلمون هذا الميدان ولا يدعوه لغيرهم ممن لا يريدون بعملهم مجرد فعل الخير، ولكن يريدون أن يفتنوا الناس عن دينهم، مستغلين فقر الناس وجهلهم وحاجتهم إلى كل شيء.

والسودان هو أولى الناس بتبني مثل هذا العمل الخيري الدعوي في إفريقيا، لأنه البوابة الأولى للعرب للدعوة في إفريقيا، بما فيه من خصوصية ليست لغيره، وهو أنه يجمع بين العروبة والإفريقية، فيصلح أن يكون حلقة الوصل بين الإسلام والقارة السوداء.



أسامة الباز قال لي إن الدولة تريد للأزهر أن يقوى.. ولكن لا تريده قوة في مواجهة الدولة

وقد اختار المجلس أمينا عاما للمنظمة معروفا بكفايته ونشاطه وإخلاصه ووعيه، هو الأخ الحبيب الدكتور التيجاني أبو غديري، الذي عرفته عضوا حيا متحركا محركا في العمل الإسلامي في أمريكا، وخصوصا في اتحاد الطلبة المسلمين، فقد كان يمثّل إحدى القيادات المسؤولة عن الجانب التعليمي والتربوي، والذي ترك أثرا واضحا في مجاله.

وشاء الله أن يتبوأ هذه المسؤولية في هذه المنظمة المرجوّة، وقد استدعاه الإخوة للحضور من أميركا ليتفرغ لهذا العمل الجديد، فلبى النداء، وقد قضى فيه شوطا مباركا، ثم شاء له القدر أن يتوفى في حادث مروري، في إحدى رحلاته الدعوية ويكتب الله له الشهادة. رحمه الله وأسكنه الفردوس الأعلى.

وكان المدير التنفيذي للمنظمة هو الأخ الداعية المبارك النشيط المخلص، ولا أزكيه على الله: مبارك قسم الله، الذي كان شعلة من الحركة والنشاط والتفاني في العمل لخدمة المنظمة ورسالتها. وقد تسلم الأمانة العامة بعد أخيه التيجاني، وكان خير خلف لخير سلف.

وكان مجلس أمناء المنظمة يضم عددا من الإخوة من ذوي الوجاهة والشأن في بلاد الخليج، من السعودية والكويت وقطر والإمارات، لأن التمويل الأساسي لمشاريع المنظمة من الخليج.

دأبت على حضور مجالس المنظمة ما وجدت سبيلا لذلك، ما لم أكن مرتبطا بأمر آخر لا يمكنني الفكاك منه، وهذا هو الواجب على الإنسان أن يعمله حين تتعارض أمامه المصالح، أو الخيارات بعضها وبعض، وهو ما نسميه (فقه الموازنات)، وله أصل في الفقه وأصوله في باب (التعارض والترجيح).

وكان المجلس يعقد جلساته أول الأمر في الخرطوم، ثم رأى أن يعقد جلساته - ما استطاع - في العواصم الإفريقية المختلفة، تعريفا بالمنظمة من ناحية، وتعرفا على البلد الذي يعقد فيه المجلس من ناحية أخرى.

وقد حضرت مجلسين مهمين في بلدين إفريقيين: أحدهما: في (كمبالا) عاصمة أوغندا. والثاني: في (دار السلام) عاصمة تنزانيا.

حضور مجلس المنظمة في كمبالا

فأما المجلس الأول فكان في شتاء سنة ١٩٨٧م أثناء العام الدراسي، وكانت دولة قطر بصفة عامة، وجامعة قطر بصفة خاصة، تيسر لي حضور هذه الاجتماعات، والاستجابة للدعوات، لا تضع علي أي قيد، وتدع لي حرية التصرف في القبول أو الاعتذار لما يأتيني من دعوات، وما أكثرها.

وقد نسيت كيف وصلت إلى (كمبالا) لا أدري: أكان عن طريق القاهرة أم عن أي طريق آخر. واختلاف النهار والليل ينسي، كما قال شوقي رحمه الله.

وعلى كل حال، ذهبنا إلى هذا البلد الذي فيه أحد منابع النيل : البحيرات الكبرى التي كنا ندرسها في الجغرافيا، بحيرة فيكتوريا، وبحيرة ألبرت وإدوارد، وألبرت إنينزا. ورأيت بحيرة فيكتوريا على سعتها.

واطلعنا على بعض المعالم في المدينة، ومنها: المسجد الضخم الذي أراد (عبيدي أمين) الحاكم العسكري السابق إقامته، وقام على الأعمدة، وبقي غير مكتمل، ولا أدري إلام انتهى أمره اليوم.

وكانت كمبالا كمعظم بلاد إفريقيا السوداء، ينقصها الكثير من مظاهر المدنية والرقي المادي والتكنولوجي، الذي يجعلها تعيش في عصرنا، عصر الثورات العلمية.

وكان الفندق الذي نقيم فيه متواضعا جدا، رغم أنه من أرقى الفنادق عندهم، حتى الطعام لا تجد فيه من التنوع ما نستطيع معه اختيار ما يلائمنا. كان معظم ما عندهم (الموز) يقدمونه في الوجبات الثلاث.

ومن اللطائف التي أذكرها: أني بحثت عن (الجبنة) فلم أجدهم يعرفون لها أثرا، أو يسمعون لها خبرا. وكان معنا وكيل وزارة الأوقاف الكويتي الأستاذ محمد بن ناصر الحمضان - وهو رجل فكه خفيف الروح- كلما لقيني يقول: تريد جبنة؟ فأمازحه قائلا: لقد صار لدى الأمة اليوم مخزون هائل من (الجبن). موريًا بحالة التقاعس التي ابتليت بها الأمة، وخصوصا في قضية فلسطين.

وفي هذا المجلس كنا في حاجة إلى اختيار رئيس جديد للمنظمة، لا أدري: أستقال الرئيس السابق أم انتهت مهمته؟ لا أذكر، ولكني اتفقت مع بعض الإخوة أن نرشح للرئاسة المشير عبد الرحمن سوار الذهب، وهو وجه مقبول ومحبوب في داخل السودان، وفي العالم العربي والإسلامي، ووجوده يعطي دفعة جديدة للمنظمة، وهو رجل غير منسوب إلى جماعة ولا إلى فئة. وهذا يفيد المنظمة التي كثيرا ما تنسب إلى الجبهة القومية الإسلامية (جبهة الترابي في ذلك الوقت).

وكان الجميع موافقين ما عدا عضوا واحدا، (نسيت اسمه) كان لواء متقاعدا في الجيش السوداني، وقال: أنا لا أوافقكم على هذا، وأرى أن نترك المشير بعيدا عن المنظمات كلها، فقد يأتي وقت يحتاج إليه الوطن كله لإنقاذه، كما فعل في المرة السابقة، ومثل هذا المنصب ينأى به عن ذلك.

وكان الرد: أن المنظمة ليست هيئة سياسية، والعمل فيها لا يحول دون الترشح لما يتطلبه الموقف الوطني في وقته. وعلى كل نحن نرشح الرجل، وهو الذي يقدر الموقف، ويحسن أن يقول: نعم أو لا.

وقد وافق الجميع على ذلك، وحمل الأمين العام إليه رأي المجلس، فكان الرجل عند الظن به، ولم يتردد في قبول المنصب، وقال: إنه تكليف لا تشريف، وأنا أريد أن أختم حياتي بمثل هذا العمل الصالح، إسهاما في النهوض بالأمة، والوقوف في وجه الذين يريدون بها الشر.

ومما أذكره: أن يوم الجمعة صادفنا في الاجتماع، فأخذنا الإخوة من المجلس الإسلامي الأوغندي إلى الصلاة في الجامع الكبير في المدينة، وطلبوا مني أن ألقي كلمة على المصلين بعد الصلاة. وقدمني أحد علمائهم بكلمة، كان مما قاله فيها: إنه صاحب كتاب (الحلال والحرام) الذي ترجم إلى لغتكم السواحلية وقرأتموه. . ولم أكن أعرف قبلها: أن الكتاب ترجم إلى السواحلية.

وألقيت كلمة مناسبة، أقبل الناس بعدها عليَّ يصافحون ويعانقون، وهو ما تفعله الروح الإسلامية أبدا في كل مكان.

في دار السلام

والمجلس الثاني: كان في صيف سنة ١٩٨٨م، وكان في مدينة (دار السلام) عاصمة تنزانيا، وهو اسم عربي خالص، كانت تسمى به مدينة (بغداد) عاصمة الدولة العباسية، وهو يدل على مدى التغلغل العربي



● أسامة الباز



● المشير عبد الرحمن سوار الذهب

الإسلامي في إفريقيا من قديم. ولو كان المسلمون يحملون رسالة الإسلام بحق، كما يأمرهم دينهم، لتابعوا نشر الدعوة الإسلامية في هذه القارة التي دخلها الإسلام منذ عصر النبوة، ولكانت القارة الإفريقية (قارة إسلامية) بلا منازع.

لقد انتشر الإسلام في معظم إفريقيا بالسلم لا بالحرب، وباللسان لا بالسنان، وبأخلاق المسلمين لا بسيوفهم، انتشر عن طريق الطرق الصوفية، وعن طريق التجار المسلمين الصادقين.

وحين دخل الاستعمار إلى إفريقيا في القرن الثامن عشر: وجد الإسلام فيها مستقرا، ليس للنصرانية فيها إلا أقليات في بعض البلدان، مثل: مصر والسودان والحبشة، ولكنه وضع خطته الماكرة لمطاردة الإسلام وإحلال النصرانية مكانه.

ومن المعلوم: أن أوربا المستعمِرة في ذلك الوقت كانت دولها علمانية، بعد أن تحررت من سلطان الكنيسة، وفصلت الدولة عن الدين. ومع هذا نرى هذه الدول العلمانية في الداخل: نصرانية في الخارج، تلبي بكل قوة وحماس مطالب التنصير أو (التبشير) كما يسمونه. وتقوم بحمايته ورعايته، وترى في هذا التنصير سندا لها ونصيرا لتحقيق أهدافها، يؤيدها ويدعمها باسم الدين باسم التوراة والإنجيل.

ولقد كانت تنزانيا قبل مدة قليلة، يحكمها الاشتراكيون الماركسيون، ولا زلنا نذكر اسم الزعيم (نيريري) الذي طالما نوّه به الزعيم المصري جمال عبد الناصر. ولقد عرف الناس في المشارق والمغارب كيف اضطهد هذا الرجل العرب والمسلمين، ونصب مذبحة كبرى لهم، سقط فيها ثلاثون ألفا، كما أذاعت وكالات الأنباء في ذلك الوقت.

وهذه الدولة تتكون من جزأين: تنجانيقا وزنجبار. فأما تنجانيقا، فهي الجزء الأكبر والأغنى والأقوى والأكثر تحضرا، وفيه العاصمة، وأما زنجنبار، فيغلب عليها العنصر العربي. ومنهم شافعية، ومنهم إباضية.

السودان هو الأولى بتبني العمل الخيري الدعوي في إفريقيا لأنه حلقة الوصل بين الإسلام والقارة السوداء

أحرص على حضور اجتماعات المنظمات الخيرية ما لم أكن مرتبطا بأمر آخر تطبيقا لما نسميه «فقه الموازنات»

وقد نزلنا في أحد الفنادق الكبرى في العاصمة، وقد اجتمع المجلس هذه المرة برئاسة رئيسه الجديد المشير سوار الذهب، وكان الجميع مسرورا بوجوده، مستبشرين بالخير والتقدم لمستقبل المنظمة، بقيادة هذا الرجل الذي ضرب المثل بالتنازل عن كرسي الرئاسة مختارا، مؤثرا أن يكون مواطنا عاديا يخدم وطنه، مع سائر المواطنين، في حين يستقتل آخرون مكروهون من شعوبهم في سبيل البقاء فوق الكرسي الساحر. ويسحقون كل من قاومهم أو تخيلوا أنه يمكن أن يقاومهم. ولا يكتفون بذلك، بل يحاولون توريث الكرسي إلى أبنائهم. ولأول مرة في العالم، يرى الناس في بلادنا وحدها نظام التوريث في الجمهوريات!!

وكان كثيرا ما يدعى لبعض الأمور، فينيبني عنه لإدارة الجلسة. وأذكر أني اقترحت في هذه الدورة اقتراحا مهما، وهو: أن المنظمة تحمل اسم (الدعوة) منظمة الدعوة الإسلامية، ومع هذا لا تباشر الدعوة بطريقة مباشرة، لكن بواسطة العمل الخيري الذي يمهد لانتشار الدعوة، وأرى أنه غدا من المناسب أن تخوض المنظمة لُجّة الدعوة بإعداد الدعاة المؤهلين علميا وفنيا ولغويا، والمدرَّبين على التعامل مع الناس، وبيئتهم في مناطق شتى حسب الأولوية. وأقترح هنا: أن ننشئ استمارة (كفالة داعية) كما عرف الناس (كفالة يتيم)، ووجد إقبالا من المسلمين، فينبغي أن يدخل هذا المصطلح الجديد (كفالة الداعية) ميدان العمل الخيري. ولمثل هذا فليعمل العاملون، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

ووقع هذا الاقتراح موقع القبول من الأعضاء جميعا، ورحبوا به، وأظنه بعد ذلك بدأ يدخل ميدان التطبيق.

وجاء يوم الجمعة، فاتفق مسلمو دار السلام على أن أخطب الجمعة في مسجد (الجنيد) وهو مسجد الجماعة اليمنية التي تقيم بالعاصمة، وهم مهاجرون قدامى، يزيد عددهم على ستين ألفا، ولهم أئمتهم ومدارسهم وتراثهم.

واليمنيون يتميزون عن سائر إخوانهم من العرب: أنك تجدهم في كل مكان في العالم، من الشرق أو من الغرب، فهم يؤمنون أن الحركة بركة، وأن الجمود هلكة، وأن العز في النُّقل، كما قال الطغرائي في لاميته:

إن العلا حدثتني وهي صادقة
فيما تحدث: إن العز في النُّقل

ومثله قال الإمام الشافعي فيما كنا نحفظه في الصبا:

ما في المقام لذي عقلٍ وذي أدبٍ
من راحة فدع الأوطان واغترب
سافر تجد عوضاً عمن تفارقه
وانصب فإن لذيذ العيش في النصب
إني رأيت وقوف الماء يفسده
إن ساح طاب وإن لم يجر لم يطب
والأسد لولا فراق الغاب ما افترست
والسهم لولا فراق القوس لم يصب
والشمس لو وقفت في الفلك دائمة
لملها الناس من عجم ومن عرب
والتبر كالترب ملقى في أماكنه
والعود في أرضه نوع من الحطب
فإن تغرب هذا عز مطلبه
وإن تغرب ذاك اعتزَّ كالذهب

فلا غرو أن وجدت اليمنيين في أميركا، في قرية لهم، يتكلمون فيها العربية، ويعيشون فيها محتفظين إلى حد كبير بتقاليدهم ومفاهيمهم الخاصة، وذلك في ولاية ديترويت.

ووجدتهم في إندونيسيا، ولهم منطقة خاصة في العاصمة: دعونا إليها، وأطعمونا الطعام اليمني (بنت الصحن) وغيرها.

ولا غرو فهم الذين فتحوا إندونيسيا، عن طريق تجارهم من، الذين قدموا إلى هذه البلاد ليشتروا فيها ويبيعوا، ولكنهم أخذوا منها التوابل وغيرها، وقدموا لها الإسلام الذي رضوه دينا لهم، وعاشوا له وماتوا عليه. رأيت اندونيسيا أكبر دولة مسلمة في العالم الإسلامي.

ورأيت اليمنيين أيضا في سنغافورة، واطلعت على بعض أنشطتهم، وزرت مدرستهم المعروفة هناك بـ «مدرسة الجنيد». وقد سألت الإخوة في تنجانيقا، وقلت لهم: ما سر الاشتراك في الاسم بينكم وبينهم؟ هذا مسجد الجنيد، وتلك مدرسة الجنيد. فقالوا: نحن أبناء عمومة.

لا بد أن يدخل المسلمون ميدان العمل الخيري ولا يدعوه للمنصرين الذين يريدون أن يفتنوا الناس عن دينهم

وكان من الأشياء التي سهلتها لنا الدولة: زيارتنا لزنجبار التي تجولنا فيها لعدة ساعات، وصلينا الظهر والعصر جمعا في أحد مساجدها، وتناولنا الغداء ضيوفا على أهلها. وإن كنت لم أعد أذكر شيئا من تفاصيل هذه الرحلة، لطول المدة، ولأني لم أكتب سطرا واحدا عن هذه الرحلة ولا غيرها بعد عودتي إليها.

ومما أذكره من هذه الرحلة: أن الفندق الذي نزلنا به كان به رسائل تدعو إلى المذهب الجعفري (الشيعي) بعضها مكتوب باللغة الإنجليزية، وبعضها باللغة المحلية (السواحلية). وكانت إيران في هذا الوقت مشغولة بالحرب مع العراق التي كلفتها الكثير من المال والرجال. ومع هذا لم تنس الدولة - وهي في هذه المعمعة - أن تقوم بما تراه واجبا في نشر الدعوة.

وقد قال لي بعض الأعضاء عاتبا: أين أنتم يا علماء السنة مما يقوم به غيركم؟

قلت له: إن هذا مذهب وراءه دولة، ودولة غنية، وأكثر من ذلك: أنها دولة رسالية ونحن لا دولة لنا، بل نحن كل ما نطمع فيه: أن تتركنا الدولة في حالنا، وأن تكف أذاها عنا، وألا تعوق حركتنا، وتسلط علينا زبانيتها يسوموننا سوء العذاب والهوان!

فانظر يا أخي كم يكون الفرق بين مَن وراءه دولة تؤيّده، ومن وراءه دولة تقيّده!

لقائي مع أسامة الباز

في هذا العام، التقيت لأول مرة الدكتور أسامة الباز، وهو رجل له باعه في رسم السياسة المصرية لقربه من الرئيس مبارك، ولموقعه في وزارة الخارجية، فقد كان مديرا لمكتب الرئيس للشؤون السياسية ووكيلا لوزارة الخارجية لسنوات طويلة.

كان ذلك بمناسبة زيارته لدولة قطر ضيفا على الشيخ محمد بن حمد آل ثاني، وزير التربية والتعليم، وهو رجل له صلة طيبة بمصر، لما له فيها من مشروعات دينية وخيرية.

اتصل بي الشيخ محمد مساء خميس، وقال لي: أرجو أن تلبي دعوتي في صلاة الجمعة في مزرعتي في طريق الشمال، وستتعرف على شخصية مصرية لها منزلتها، وربما لم يتح لك أن تلقاها من قبل، قلت: من هو؟ قال: الدكتور أسامة الباز.

قلت: أنت تعلم أني مرتبط بصلاة الجمعة في مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة، ويذيعها تليفزيون قطر، وأنا أقدر دعوتك، وأحب أن ألتقي د. أسامة الباز، ولكن يشق عليّ ترك مسجدي.

قال: من أجل خاطري، اتركه هذه المرة.

ولم أملك إلا أن أستجيب لدعوة الرجل، ولا أدري هل كانت هذه مبادرة شخصية محضة من الشيخ محمد، أو باقتراح من د. الباز، فربما أراد أن يتعرف عليّ لأسباب عنده؟ وفي ضحى الجمعة ذهبنا إلى المزرعة. د. أسامة وعدد من المدعوين .. ذهبنا إلى المسجد الذي أقامه الشيخ محمد في مزرعته، وقد حضره عدد لا بأس به، وألقيت خطبة الجمعة. وبعد قضاء الصلاة، ذهبنا إلى مجلس الشيخ محمد، وجلس د. أسامة بجانبنا، وتبادلنا التعارف والحديث، وقد عرفني بأن والده كان من علماء الأزهر، وأنه يعتز بذلك وبالأزهر وعلمائه.

وانتهزت هذه البادرة، وقلت: هذا يوجب عليك العناية بأمر الأزهر أكثر من غيرك، باعتبارك من المشاركين في صنع القرار، والمشيرين الأساسيين على الرئيس. فالأزهر مؤسسة عالمية كبرى، لها وجود في كل أنحاء العالم، بخريجيها وأبنائها، وبآثارهم في التعليم والدعوة والإفتاء والتنوير.

وذكرت له ما يقوم به المبشرون النصارى من محاولة نشر دينهم في أنحاء العالم، حتى أنهم اجتمعوا (البروتستانت الأميركان منهم) في ولاية كلورادو سنة ١٩٧٨م لتنصير المسلمين في العالم، وأنشأوا لذلك معهدا سموه معهد (زويمر) - أحد كبار المبشرين الذي كانت إقامته بالبحرين - ورصدوا لذلك ألف مليون دولار.

وإذا تركنا المسيحيين، ونظرنا إلى إخواننا الشيعة، وجدناهم رغم اشتغالهم بحرب العراق، يقومون بنشر دعوتهم المذهبية على قدم وساق. وأهل السنة وحدهم هم المقصرون في نشر الدعوة، والأزهر هو المسؤول الأول عن هذا الأمر، ويجب أن يمكن من أداء هذه الرسالة في أنحاء العالم، وأنا أحملك في هذه القضية التبعة الأولى.

قال د. الباز: إني موافق على كلامك كله، ولكن مثلك لا يخفى عليه أن السياسة تدخلها المخاوف والتوازنات بين الأمور بعضها وبعض. ومن ذلك: أن الدولة تريد للأزهر أن يقوى، ولكن لا تريده قوة في مواجهة الدولة.

قلت: ولماذا لا تعتبره قوة للدولة نفسها، فهو رسولها إلى العالم الإسلامي، وهو القائم بحماية الإيمان والأخلاق في الداخل. وهذا كله يقوي الدولة ولا يضعفها.

قال: ليس كل الأزهريين مثلك، يستطيع أن يضبط كلامه، ويدعو بالحكمة والموعظة الحسنة، كما علمت أن لك مطلق الحرية هنا، ومع هذا تقدر هذه الحرية، وتضع الأمور في موضعها.

قلت: الناس لن يقدروا نعمة الحرية إلا إذا عاشوها ومارسوها، ومع هذا لا بد أن توجد أخطاء، وعلى الناس أن يصححوا أخطاءهم.

وهنا دعانا مُضَيّفنا إلى مائدة الغداء، وقال الدكتور: إن حديثنا لم ينته، لا بد أن نلتقي مرة أخرى، فالحديث عن الأزهر ورسالته في الداخل والخارج أمر يجب أن يأخذ حقه، ولعلي أراك حين تنزل مصر في بعض الأوقات.

قلت: أنا أنزل كل سنة في الإجازة الصيفية.

قال: لنحرص على أن نلتقي لنكمل حديثنا.

قلت: أنا حاضر لكل ما فيه خدمة ديننا وأوطاننا وأمتنا ورسالتها الحضارية. أرجو ألا يكون المانع من قبلكم.

وبعد الغداء، تواعدنا وانصرفنا.

وبعد حوالي سنة التقيت بالمصادفة مع د. الباز في مطار القاهرة، فأسرع ليصافحني، وقال: بيننا حديث لم يتم.

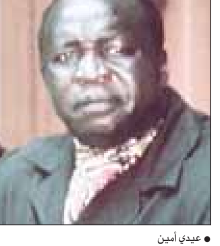
قلت: لقد أبديت استعدادي للقاء في أي وقت تحب، وقلت لك: أرجو ألا يكون المانع من جهتكم.

قال: أتمنى أن يتم ذلك عن قريب.

ولم يتم ذلك حتى اليوم، رغم أننا التقينا بعد ذلك عدة مرات، في لقاءات عابرة في مناسبات شتى، وفي أقطار شتى أيضا.

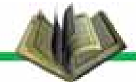






● نيريري

● عيدي أمين





ابن القرية والكُتّاب

ملامح سيرة ومسيرة (الجزء الرابع)

مذكرات فضيلة العلامة د. يوسف القرضاوي كما كتبها لـ الوطن بخط يده (٢٦)

تنفرد **الوطن** بنشر الجزء الرابع من مذكرات العلامة د. يوسف القرضاوي: ملامح سيرة ومسيرة (ابن القرية والكتاب)، وهو يشمل بضعة عشر عاما (حوالي ١٨) من هذه السيرة والمسيرة: وهي سنوات حافلة بالأحداث على المستوى الشخصي في حياة الشيخ المحلي والعربي والإسلامي والعالمي، على المستوى الشخصي يفصح فضيلته لأول مرة عن قصة زواجه الثاني وكيف تطور من عاطفة صادقة إلى زواج على سنة الله ورسوله . كما يتحدث عن تخرج كل أبنائه وتزوج كل بناته . وتعيينه عميدا لكلية الشريعة ومديرا المركز بحوث السنة والسيرة. ونجاحه في الدعوة إلى تأسيس الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية بالكويت. وعمله رئيسا لهيئة الرقابة الشرعية لعدد من المصارف الإسلامية. واختياره عضوا في المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي، وعضوا في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن (مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي) وعضو مجلس أمناء مركز اكسفورد للدراسات الإسلامية، وعضو مجلس أمناء منظمة الدعوة الإسلامية بالخرطوم، وغيرها. وحصوله في هذه الفترة على بعض الجوائز العالمية.

ومن خلال هذه المذكرات سيمر القارئ بمعظم أحداث العصر في منطقتنا العربية والإسلامية، بحكم أن صاحبها يعيش في قلب هذه المنطقة، وقلب هذه الأحداث، وقد قدر له في هذه المرحلة أن يتفاعل بها ومعها متأثرا ومؤثرا.

وتتميز هذه السنوات بأمرين لهما أهمية قصوى في حياة القرضاوي :

الأول: الانتشار الكبير له في أنحاء العالم في الشرق والغرب، وزيارة كل قارات العالم حتى أستراليا، وأميركا الجنوبية، حتى سماه البعض «الشيخ الطائر».

والثاني: ظهور المد الإسلامي أو الصحوة الإسلامية بقوة في تلك المرحلة، والتي يعتبرها الشيخ جزءا منه، كأنما هي ولده وفلذة كبده . وسنتابع نشر المذكرات يوميا بما فيها من تفاصيل يرويها القرضاوي لأول مرة.

قضية فلسطين أولى القضايا التي تشغل فكري وقلبي من قديم.. وأعتبرها قضية العرب والمسلمين الأولى

كانت قضية فلسطين من قديم، أولى القضايا التي تشغل فكري وقلبي، ومنذ دخلت المعهد الديني في طنطا، وجدت نفسي أسير مع الطلبة في ٢ نوفمبر من كل عام، احتجاجا على وعد (بلفور)، وزير خارجية بريطانيا، الذي وعد اليهود في العالم بإنشاء وطن قومي لهم في فلسطين. هكذا فهّمنا طلبة القسم الثانوي في المعهد، الذين جاءوا إلينا، في المعهد الابتدائي، وأخرجونا لنشاركهم في مظاهرتهم المحتجة على تغلغل اليهود في فلسطين.

وقد عرفت فيما بعد أن الطلبة الذين كانوا يقودون هذه المسيرات ويلقون الخطب النارية، والقصائد الثورية، كانوا من طلبة الإخوان المسلمين، الذين كانوا أكثر المصريين اهتماما بفلسطين، وإدراكا لخطر المشروع الصهيوني عليها، وكان الأستاذ حسن البنا مرشد الجماعة أكثر الناس وعيا بهذا الخطر، المؤيد من الغرب. وإن كان العرب للأسف في غفلة عما يجري من حولهم.

وعندما كنت في السنة الثالثة الابتدائية، بدأت أشارك بإلقاء الخطب، وإنشاد القصائد، والمشاركة في قيادة المظاهرات اللاهبة، والهتاف الصاخب بحياة فلسطين، وسقوط الصهيونية.

وبعد ذلك تطور عملنا لخدمة قضية فلسطين، بعد أن التحقت بالإخوان. وكان الإخوان يجمعون السلاح من كل حدب وصوب، لتسليح الفلسطينيين، وكان شراء هذه الأسلحة يحتاج إلى مال، فكنا نذهب إلى المدن والقرى في مصر لنجمع التبرعات لمعونة فلسطين. وبعد ذلك فتح الإخوان باب التطوع لمن يريد الجهاد في فلسطين، واستجاب الألوف لهذا النداء، ولكن الإمام البنا، رفض قبول طلاب المراحل الثانوية في التطوع، ولم يستثن من ذلك إلا أحد إخوتنا الذي كان متيما بالجهاد في فلسطين، وهو الأخ الشهيد عبد الوهاب البتانوني رحمه الله ورضي عنه. وقد تحدثت عن ذلك في الجزء الأول.

وكانت هذه كلها محاولات للإنقاذ، ولكن المؤامرة قد أكملت وأحكمت خيوطها، وبدأت في التنفيذ، تحت سمع وبصر بريطانيا دولة الانتداب على فلسطين. وتمكنت عصابات الإرهاب التي كانت تملك من الأسلحة ما تشاء - في حين يحرم على أي فلسطيني تملك أي سلاح - من فرض سلطانها بالقوة وبالحديد والنار، والمجازر الرهيبة التي تقذف الرعب في قلوب الفلسطينيين. فخرجوا من ديارهم قسرا وقهرا، ليرثها الغرباء القادمون من خارج فلسطين.

ورأينا مدن فلسطين الكبرى تسقط مدينة مدينة، حيفا ويافا وعكا، وغيرها، ويرثيها أخونا الخطيب المؤثر زعيم الجامعة المصرية، مصطفى مؤمن بصوته الباكي في إذاعة مصر، ونحن نسمع ونبكي، ولا نملك غير الدموع.

وما زلنا كذلك حتى انتهت الحرب العالمية الثانية، وقامت الأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي، ثم قامت دولة إسرائيل في ١٥ مايو سنة ١٩٤٨م واعترفت بها بعد دقائق: أميركا، كما اعترفت بريطانيا وروسيا وأوروبا، وأعلن الجميع: أنها خلقت لتبقى!

ثم ساقونا إلى الاعتقال في جبل الطور، في عهد الملكية، وجاءوا بالمتطوعين الأبطال بلباس الميدان إلى ما وراء القضبان، جزاء لهم على ما أبدوه من بطولات شهد بها اليهود أنفسهم، وشهد بها القادة البريطانيون، كما شهدت بها الدماء الزكية التي أريقت على تراب فلسطين، وجثث الشهداء التي واراها ذلك الثرى الطاهر.

ولم نزل على وفاء لقضية فلسطين، التي نراها قضيتنا، ونرى الدفاع عنها فريضة علينا، فإن الشريعة الإسلامية تفرض على المسلمين أن يجاهدوا لتحرير كل قطعة أرض يحتلها الأعداء، إذا لم يقدر أهل الأرض على مقاومتهم، وإخراجهم من أرضهم، فتنتقل الفريضة منهم إلى جيرانهم، الأقرب فالأقرب، حتى يشمل المسلمين كافة.

هذا هو الواجب مع كل جزء من أرض الإسلام، باعتبار المسلمين أمة واحدة، يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم، كما أن الإسلام يعتبر بلاد المسلمين دارا واحدة، يسميها الفقهاء (دار الإسلام). وحمايتها وتحريرها مسؤولية جميع أبنائها بالتضامن.

هذه نظرتنا إلى قضية فلسطين: إنها قضيتنا، وليست قضية إخواننا ونحن نساعدهم! وهذه هي النظرة الإسلامية الصحيحة.

وكم حاول بعض الذين لا يعلمون: أن يثنوا أعناقنا عن هذا الموقف، ويقولون: إن أصحاب القضية لا يعتنون بها مثل عنايتكم، وأنا أقول لهم: إنكم غالطون، نحن أصحاب القضية، ولسنا غرباء عنها، أو دخلاء عليها.

وكنت في خطبي ومحاضراتي، أذكر أبدا بقضية فلسطين، وفي شعري كذلك. وفيما أنشئه من أناشيد حماسية يتغنى بها الشباب. مثل (نشيد العودة). الذي يقول:

أنا عائد، أقسمت أني عائدُ
والحق يشهد لي، ونعم الشاهدُ
ومعي القذيفة والكتاب الخالد
ويقودني الإيمان نعم القائد
لغة الدِّما لغتي، وليس سوى الدما
أنا عن فنون القول أغلقت الفما
وتركت للرشاش لأن يتكلما
ليحيل أوكار العدو جهنما
يا أخوتي هبوا ليوم الموعد
هذي يدي، فضعوا يديكم في يدي
لا تذكروا لي الأمس نحن مع الغد
ولنا صلاح قدوة، فلنقتد

وحين أخذت في صيف سنة ١٩٦٢م بعد عودتي من قطر للإجازة، وألقيت في سجن المخابرات المصرية حوالي سبعة أسابيع، أنشأت ثلاث قصائد، إحداها عن فلسطين، بعنوان (ثورة لاجئ).

وحين وقعت هزيمة ١٩٦٧م، التي سموها (النكسة) أصدرت كتابا بعنوان «درس النكبة الثانية: لماذا انهزمنا وكيف ننتصر؟» أقصد: أنها النكبة الثانية بعد النكبة الأولى سنة ١٩٤٨م. فقد اغتصبوا ما اغتصبوا من فلسطين بحرب ١٩٤٨م، وبهذه الحرب الخاطفة استولوا على ما بقي من فلسطين.

وظللت مع فلسطين بعقلي وقلبي، وجهدي وفكري، وشعوري وعزمي، وفي بعض الأوقات يصيب القضية ركود وفتور، ففكر الإخوة الإسلاميون في فلسطين أن يحركوا القضية، وخصوصا قضية القدس والأقصى. ويحركوا العالم الإسلامي لمناصرتها. وكان من هذا التفكير: الدعوة إلى مؤتمر إسلامي عالمي، تدعو إليه شخصية إسلامية عالمية مقبولة من عامة المسلمين وخاصتهم، ووقع اختيارهم علي، لأقوم بهذه المهمة.

وفي رحلة من رحلاتي إلى عَمّان التقيت بهم ليرتبوا معي هذا الأمر، وتعيين مكانه وزمانه والمدعوين إليه. ولكني اقترحت عليهم شخصية أخرى غيري هي أحق وأولى، وإن كانوا في أول الأمر توقفوا واعترضوا، وقالوا: إننا استعرضنا الشخصيات الإسلامية بحياد وموضوعية، ورجحت كفتك. قلت لهم: أنتم حصرتم أنفسكم في الشخصيات العربية، ولكن عندي شخصية إسلامية عالمية غير عربية. قالوا: من؟ قلت: الشيخ العلامة أبو الحسن الندوي.

فهذا الشخص بعلمه وزهده ودينه وتاريخه وسنه موضع إجماع عند علماء المسلمين. ثم هو بوصفه غير عربي يعطي للقضية بعدها الإسلامي العالمي. ثم هو غير منسوب إلى جماعة من الجماعات أو حركة من الحركات. وهذه ميزة أخرى. فعلى بركة الله تعالى نختاره ليكون هو رئيس المؤتمر وباسمه توجه الدعوات.

والحق أن اسم الشيخ لقي القبول من الجميع، ومثله لا يختلف عليه اثنان.

قابلت خالد مشعل أول مرة في باكستان ووجدت فيه شابا نابها متميزا جديرا بأن يكون له مكان في القيادة!

وبدأنا نفكر في المكان، فلم نجد مكانا في العالم العربي يقبل استضافة مؤتمر كمؤتمرنا هذا. واقترح بعضنا اسم ماليزيا، ولكن وجدنا أن ماليزيا بعيدة عن المنطقة العربية، ومكلفة كثيرا، وسيكون تأثيرها غير متكافئ مع التكاليف.

ثم اقترح اسم باكستان، ورئي أنها أنسب من غيرها، واتصل بعض الإخوة بالجماعة الإسلامية، ورحبوا بذلك، وكان ذلك في عهد نواز شريف، وهو أقرب إلى الإسلاميين.

وبدأنا نفكر في أي مدينة في باكستان يعقد المؤتمر، فرشحت إسلام آباد، وهي العاصمة، ولها مزايا بهذا الاعتبار، ولكن رأينا أن انتقال الناس من مطار إلى مطار، سيكون شاقا على الناس، وقد لا يجدون أماكن، والانتقال بالسيارات متعب جدا، ويحتاج إلى وقت طويل. ولهذا رأينا أن يكون في كراتشي، لأنها محطة الوصول للجميع.

وكان في هذه اللقاءات شاب التقيته لأول مرة، ولكن وجدته نابها متميزا، حاضر الذهن، وافر الوعي، كان إخوانه يكنونه: أبا الوليد. وقلت في نفسي: هذا الشاب جدير أن يكون له مكان في القيادة! ثم عرفت بعد ذلك أن اسمه خالد مشعل!

ولقد اتصلت بالعلامة مولانا أبي الحسن الندوي، وأبلغته باختيار الإخوة له لرئاسة المؤتمر المنشود، فرحب بذلك، على أن أكون نائبا ومساعدا له، قلت: أنا في خدمتك وعونك دائما.

وظل الإخوة يعدون العدة، ويختارون الأسماء التي ستدعى، والشعارات التي سترفع، والأوراق التي ستقدم، والقرارات التي ستتخذ ... الخ. ثم شاء القدر أن يحدث تغيير سياسي في باكستان، وأن تسقط حكومة نواز شريف، وتأتي حكومة بنظير بوتو.. وتغير بعدها كل شيء، وأجلت فكرة المؤتمر، أو قل: ألغيت.



● بي نظير بوتو

الانتفاضة الفلسطينية الأولى

كانت الانتفاضة الأولى للشعب الفلسطيني: ثورة تلقائية على المظالم المستمرة، التي ترتكبها الدولة الصهيونية الفاشية في حقه. وهو يصبر ويصابر، ويكظم غيظه، ويحاول أن يشتكي إلى مجلس الأمن أو الأمم المتحدة، أو للجامعة العربية، أو إلى من بيدهم الأمر، مثل الأميركان والاتحاد السوفياتي، ولكن أحدا لم يسمع لشكواه، ولم ينصت إلى صراخه، وما زال المرجل يغلي في صدره ويغلي، حتى تفجر المرجل، وكانت الانتفاضة أو الثورة، التي انطلقت من غزّة، ومن جامعتها وجوامعها، ولذا أطلقوا عليها في أول الأمر: أنها ثورة المساجد، فقد انطلقت أول ما انطلقت من المساجد، قامت بها الأيدي المتوضئة، والقلوب المؤمنة، وجعلت راياتها المصاحف، وهتافاتها: لا إله إلا الله، والله أكبر.

وهذه هي الثورة التي عرفت باسم (ثورة أطفال الحجارة) فقد انطلق الصبيان يقاومون التجبر الإسرائيلي، والحديد الإسرائيلي، بالحجارة الصغيرة والحصى، يقذفونه بأيديهم، أو بالمقاليع الصغيرة (النبلة) يرمون بها الدبابات والمجنزرات والمصفحات، لا يبالون بالموت الذي يواجههم بإطلاق الرصاص عليهم من قبل العدو المتوحش، الذي لا يرحم طفلا صغيرا، ولا شيخا كبيرا، ولا امرأة مسنة. وهو أينما توجه يقتل ويدمر، يمنة ويسرة، مشرقا ومغربا. فليس للروح ولا للحياة عنده قيمة ولا حرمة. ولا غرو، فقد علمته التوراة التي يقرأها ويؤمن بها: أنه إذا حارب أهل هذه البلاد - فلسطين أو أرض كنعان - فالواجب عليه أن لا يستبقي فيها نسمة حية، وأن يبيد سكانها عن بكرة أبيهم!

وكنت أرى من واجبي أن أقف بكل قوتي مع هذه الانتفاضة الشعبية العارمة، وأن أشد عضدها، وأقوي ظهرها، بلساني وقلمي، وحركتي واتصالاتي، وأن نجمع لها العون، من العرب والمسلمين حيثما كانوا.

وما كنت أحب أن أسمي هذا العون (تبرّعا) بل أراه فرضا على الأمة، وهو لون من الجهاد بالمال الذي أوجبه الله على الأمة «وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ» التوبة: ٤١، وإذا كان الإخوة في فلسطين يبذلون - عن طواعية - أنفسهم ودماءهم، فلا أقل من أن نبذل نحن بعض أموالنا.

وكنت أقول: نستطيع أن نعطيهم من زكوات أموالنا، ومن زكاة فطرنا، ومن وصايا أمواتنا، ومن عوائد الأوقاف، ومن الحقوق الواجبة في المال بعد الزكاة، ومن الصدقات التطوعية، وغيرها.

بل هم أولى بالزكاة من غيرهم، لأن كثيرا منهم أصبحوا فقراء ومساكين وغارمين وأبناء سبيل (مشردين) وبوصفهم أيضا من مصرف (في سبيل الله).



● نواز شريف

● خالد مشعل

بل إذا كان هناك مال مكتسب من شبهة أو حرام، مثل فوائد البنوك، فهم أولى بأن تصرف إليهم، بدل أن تتركها للبنوك، لأن المال مصرفه شرعا: الفقراء وجهات الخير، وهم في مقدمتها.

تأسيس حركة المقاومة الإسلامية (حماس)

وظلت هذه الانتفاضة صامدة، برغم التضحيات الكبيرة والمتتابعة، وعرف الإسرائيليون أنهم أمام شعب لا يركع ولا يهون أبدا. وفي هذا الوقت في ١٥ ديسمبر ١٩٨٧م، أعلن عن تأسيس (حركة المقاومة الإسلامية) التي يرمز إليها بـ (حماس) باعتبارها حركة جهادية، تنهج خط المقاومة العسكرية، لتحرير فسطين، كل فلسطين، وتعتبر هذه الممثلة للجناح العسكري للإخوان المسلمين في فلسطين، الذين لا ينسى أحد جهادهم من أجل الأرض المقدسة، أرض الإسراء والمعراج، وسيظل التاريخ يذكر شهداءهم الذين روّت دماؤهم ثرى فلسطين.

وبعد فترة أعلنت الحركة عن تأسيس جناحها أو ذراعها العسكرية: كتائب عز الدين القسام. اختاروا أن تحمل اسم هذا العالم الديني السوري الذي استشهد من أجل فلسطين.

وفي هذا الوقت الذي ظهرت فيه حماس على الساحة قوة فتية ضاربة، أثبتت وجودها بسرعة، وذكرت اليهود بما شاهدوه سنة ١٩٤٨م من متطوعي الإخوان، الذين كانوا يسرعون الخطى إلى الموت في سبيل الله، حتى قال بعض اليهود: نحن لا نخاف من أي جيش أو جماعة، إلا من جماعة (الله أكبر)!

مكيدة مسيرة الحلول السلمية

في هذا الوقت بدأ المكر اليهودي، ومعه الكيد الأمريكي، يرسم استراتيجية جديدة ، من شأنها أن تشتت جهد المقاومة، وتمزق شملها المتلاحم، فرأوا أن يجربوا سلاحا آخر مع الفلسطينيين، وهو ما سموه (الحل السلمي) أو (الحل السياسي) وأن يجروا أرجلهم إلى هذا المنزلق أو هذا الفخ، الذي من دخله، فهيهات أن يخرج منه. ففتحوا لهم باب التفاوض في السر، وكان هناك من يسيل لعابه إلى هذا الحل، بل كان يتمناه، ويسعى إليه ركضا. وكان في البلاد العربية من يشجع هذا، ويحث عليه.

وبدأت المسيرة المزعومة للسلام مع الفلسطينيين، وهو سلام ملغوم، سلام كما تريده إسرائيل، وكما تملى صورته وشروطه، وهو في الواقع استسلام لما تريده إسرائيل.

وكانت مفاوضات مدريد، ولقاءات العرب والفلسطينيين مع الإسرائيليين ورئيس حكومتهم إسحاق شامير، الذين رفض أن يجتمع بهم يوم السبت، لأنه يوم عطلة لا عمل فيه عند اليهود. وقال له العرب: لقد كان أمس يوم جمعة عندنا، ولم تعطل المفاوضات فيه، قال: أما نحن فلا نجاوز التوراة.

وقد أنشأت قصيدة بهذه المناسبة سميتها: سراب السلام أو سلام السراب، وفيها قلت:



● الشهيد حسن البنا

وقالوا أبشروا بالسلم
يا عرب امرئ القيس!
بدت في الأفق طلعة
شمسه صفراءَ كالورَس!
تولى عهدُ شامير
شبيهِ الأسود العنسي!
وأقبل بعدُ رابينُ
أخو عنترةَ العبسي!
ورابينٌ كشامير
فمن نحس، إلى نحس!
فلا أسوأ من هذا
سوى هذا، وبالعكس!
أفاعٍ كلها سمٌّ
وإن نَعمتْ لدى اللمس!
فيا عجباً لمن يجري
وراء سرابه النفسي
يظن له به رِيّاً
ويرجع فارغَ الكأس
يفرّطُ في دم الشهدا
ءِ، يا لْلعار والبؤس!
يبيع الأرض والتاريخ
بالأرخص من فِلْسِ
بحكم في حِمى صهيونَ
يا للثّمن البَخْس!
فلا دولتُهُ قامت
ولا أبقى على النفس
وضاع جهادُ أجيالٍ
فقد دفنوه في الرَّمْسِ
جهود كلها ذهبت
كأن لم تَغْنَ بالأمس
فما معنى فلسطينٍ
بلا أقصى ولا قدس؟
فلسطينُ بلا قدس
كجثمان بلا رأس

زيارة أستراليا في صيف ١٩٨٧م

في أثناء السنة الدراسية لسنة ١٩٨٧م: جاءتني دعوة من الجمعية الإسلامية في استراليا، من الأخ المهندس النشيط أحمد توفيق وإخوانه في مدينة (ملبورن) لحضور مؤتمر إسلامي يعقد في هذه المدينة في شهر يوليو - على ما أذكر - ويشارك فيه عدد من العلماء والدعاة المرموقين، ويتناول قضايا معاصرة تهم المسلمين في استراليا، وألح الإخوة على ألا أتأخر عن المشاركة، وأن من حق المسلمين في هذه القارة أن يكون لهم حظ منك، كما كان لسائر القارات.. إلخ ما قالوا، واتصلوا بي وكرروا الاتصال، حتى استجبت لدعوتهم.

السلام مع الفلسطينيين سلام ملغوم كما تريده إسرائيل وكما تملي صورته وشروطه وهو في الواقع استسلام لما يريده الصهاينة

والحقيقة أني كنت حريصا على زيارة استراليا، فهذه فرصة لي، ومن الواجب علي ألا أفوّتها. وإن كان عيب توقيتها: أنها تصطدم مع موعد ملتقى الفكر الإسلامي السنوي في الجزائر، الذي أصبحت ملتزما أدبيا بحضوره كل عام. ولكن عندما تتزاحم الواجبات، لا بد من الترجيح وفق معايير كل إنسان، وأولوياته. وقد رجحت زيارة استراليا على ملتقى الجزائر، لأن ملتقى الجزائر يعوض بغيره، وهذه قد لا تعوض، ولأن هذه هي المرة الأولى. وربما تكون الأولى والأخيرة لبعد المسافة بيني وبين استراليا. وكانت أسفاري في جل تلك السنين أقوم بها وحدي بلا رفيق معي، رغم أن العرب قالوا في أمثالهم من قديم: الرفيق قبل الطريق. كما أن كثيرا من إخواني ومشايخي قالوا: لا ينبغي أن تسافر، وليس معك مرافق. ولكن الرفيق يحتاج إلى تذكرة، وهي باهظة الثمن، فمن يدفعها؟ لهذا كان مما يقلقني في مثل هذه الرحلة: طول الطريق، وعدم الرفيق! وأضف إليه أمرا ثالثا، وهو: فقدان الدليل!

ولقد قدر الله لي أن أذهب إلى استراليا من مدينة (لندن) فقد كان عندي هناك اجتماع مجلس أمناء (مركز أوكسفورد) للدراسات الإسلامية، وبعد الاجتماع، عزمت على الرحيل إلى (هونغ كونغ) لأبيت هناك ليلة، وفي اليوم التالي، أمتطي طيارة (الكاتي باسفيك) إلى مدينة ملبون بأستراليا.

وأحسب أنني أخذت من لندن الطائرة (السنغافورية) إلى هونغ كونغ، ولكنها من مطار (جات ويك) وكانت درجة واحدة، وكانت شديدة الزحام، ورغم أني استعنت بأدعية السفر المأثورة، واستعذت بالله من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في الأهل والمال والولد، وسألت الله أن يصحبني في سفري، ويخلفني في أهلي، كانت هذه الطائرة جلستها متعبة، ورحلتها مرهقة، ونام الناس من حولي، ولم أستطع أن أنام إلا خطفات، لا تريح المتعب، ولا تطمئن القلق. وأنا ممن لا يحسنون النوم في الطائرات مثل كثير من الأصدقاء، فكيف بمثل هذه الطائرة المزحومة المكظومة؟

المهم أنه بعد أربع عشرة ساعة مليئة بالمتاعب، وصلت إلى (هونغ كونغ). وهنا وقعت في مطب لم يكن على البال.

مفاجأة في مطار هونغ كونغ

فقد رتب لي الإخوة من استراليا من ينتظرني في مطار هونغ كونغ عند وصولي، وهو أخ يعرف العربية ويعرفني، وقد نسيت اسمه. وكان المفترض أن أجده منتظرا قدومي بمجرد وصولي.

ولكني نزلت من الطائرة، وتسلمت الحقيبة، وخرجت، لأتلفت يمنة ويسرة، فلم أجد أحدا، فوقفت مدة حتى تعبت، ثم رأيت أن هناك أكثر من طابق للانتظار، فسحبت عربتي التي تحمل حقيبتي، ونزلت إلى تحت وانتظرت قليلا، ثم صعدت إلى فوق، وانتظر قليلا، حتى تعبت أو كدت. وقلت: قدر الله وما شاء فعل، لعل شيئا ألم بالأخ المكلف بالانتظار، فأخره من حيث لا يحتسب. وقد قال الشاعر:

تأنّ ولا تعجل بلومك صاحبا
لعل له عذرا وأنت تلوم!

وكان الذي يؤلمني ويحز في نفسي: أنني أشبه بالغريق، الذي لا يحسن العوم، ولا يجد السباح الذي ينقذه.

ومشكلتي هي اللغة! ما أضعف الإنسان الذي لا يعرف لغة يتفاهم بها مع الناس كالإنجليزية، وما أعجزه!!

ما كان غبائي حين لم أستمر في تعلم الإنجليزية وقد كنت متفوقا فيها! ها أنذا اليوم أقف حائرا تائها لا أستطيع أن أفعل شيئا. وما عندي من بضاعة قليلة في الإنجليزية لا يسعفني لأتحادث مع الناس.

وأخيرا قررت أن أستخدم ما عندي من كلمات إنجليزية محدودة، لأسأل عن أقرب فندق لأنام فيه هذه الليلة، ثم أعطيهم التذكرة الموصلة إلى ملبورن، ليهيئوا لي السفر بعد ذلك.

وبينما أنا في هذا التفكير، وإذا الأخ المكلف باستقبالي يظهر فجأة، ويتأسف غاية التأسف على تأخيره، معتذرا إلي بكل أساليب الاعتذار، وبعد أن لمته وشددت عليه في أول الأمر، لم يسعني إلا أن أقبل منه. وأنا رجل هين لين، أعفو وأسامح وأقبل العذر، وقد وصف الله رسوله عليه الصلاة والسلام بقوله «فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ» آل عمران: ١٥٩، وقد قال بعض السلف: المؤمن يلتمس المعاذير، والمنافق يلتمس العثرات.

وأخذني الأخ إلى الفندق المقرر النزول فيه، وظل معي إلى أن ذهبنا في المساء إلى المسجد، لألتقي بالإخوة في هونغ كونغ، وألقي فيهم درسا، ثم أعود إلى الفندق لأنام. وفي صباح اليوم التالي، تجولت جولة في المدينة، حتى يأتي موعد قيام الطائرة، الذاهبة إلى استراليا. وقد حرصت على زيارة محل عرفته قبل ذلك، يبيع لوحات المناظر الطبيعية التي أهواها، واشتريت بعضها بالفعل، وهي صور زيتية رائعة ليس فيها صور للإنسان ولا للحيوان.

طائرة الكاتي باسفيك إلى ملبورن

وفي الموعد المقرر ركبت الطائرة (الكاتي باسفيك) إلى ملبورن، ومدة الطيران (٩) مضافة إلى (١٤) السابقة، لتكون مدة هذه الرحلة ثلاثا وعشرين ساعة، وهي أطول رحلة شبه متصلة قمت بها في حياتي.

ولكن الطائرة في هذه المرة، كانت غاية في المتعة والروعة، وتوفير الراحة، ولاسيما لركاب الدرجة الأولى، الذين كانوا يدللونهم تدليلا. فكانت الدرجة الأولى من طابقين، كنت في أعلاهما، وكانت كراسيها غاية في السعة من كل جانب، والإعانة على النوم لمن أراد، وعلى الكتابة لمن شاء، أما الطعام والشراب، فهما أنواع وألوان، فيها مجال للاختيار والانتقاء، ليطلب كل امرئ ما يشتهي.

فكانت هذه الرحلة المرتبة إلى استراليا، تعويضا عن تلك الرحلة القاسية من لندن. وكثيرا ما تشجعني هذه الرحلات الطويلة على إخراج ورقي وقلمي من حقيبتي، لأبدأ الكتابة. إذ كيف أقضي تسع ساعات، إن لم استعن فيها بالقلم؟ سأحاول ما استطعت أن أنام بعض الليل، ولكن عندي وقتا يمكنني أن أستفيد منه للكتابة. وخصوصا أني لست من الذين يشاهدون الأفلام التي تعرض في الطائرات. فما لي رغبة فيها، ولا صبر عليها.





تنفرد **الوطن** بنشر الجزء الرابع من مذكرات العلامة د.يوسف القرضاوي: ملامح سيرة ومسيرة (ابن القرية والكتاب)، وهو يشمل بضعة عشر عاما (حوالي ١٨) من هذه السيرة والمسيرة: وهي سنوات حافلة بالأحداث على المستوى الشخصي في حياة الشيخ المحلي والعربي والإسلامي والعالمي، على المستوى الشخصي يفصح فضيلته لأول مرة عن قصة زواجه الثاني وكيف تطور من عاطفة صادقة إلى زواج على سنة الله ورسوله . كما يتحدث عن تخرج كل أبنائه وتزوج كل بناته . وتعيينه عميدا لكلية الشريعة ومديرا لمركز بحوث السنة والسيرة. ونجاحه في الدعوة إلى تأسيس الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية بالكويت. وعمله رئيسا لهيئة الرقابة الشرعية لعدد من المصارف الإسلامية. واختياره عضوا في المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي، وعضوا في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن (مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي) وعضو مجلس أمناء مركز اكسفورد للدراسات الإسلامية، وعضو مجلس أمناء منظمة الدعوة الإسلامية بالخرطوم، وغيرها. وحصوله في هذه الفترة على بعض الجوائز العالمية.

ومن خلال هذه المذكرات سيمر القارئ بمعظم أحداث العصر في منطقتنا العربية والإسلامية، بحكم أن صاحبها يعيش في قلب هذه المنطقة، وقلب هذه الأحداث، وقد قدر له في هذه المرحلة أن يتفاعل بها ومعها متأثرا ومؤثرا.

وتتميز هذه السنوات بأمرين لهما أهمية قصوى في حياة القرضاوي :

الأول: الانتشار الكبير له في أنحاء العالم في الشرق والغرب، وزيارة كل قارات العالم حتى أستراليا، وأميركا الجنوبية، حتى سماه البعض «الشيخ الطائر».

والثاني: ظهور المد الإسلامي أو الصحوة الإسلامية بقوة في تلك المرحلة، والتي يعتبرها الشيخ جزءا منه، كأنما هي ولده وفلذة كبده . وسنتابع نشر المذكرات يوميا بما فيها من تفاصيل يرويها القرضاوي لأول مرة.

البنوك الإسلامية غرقت في عمليات المرابحة وأعرضت عن البدائل الحقيقية لمعاملات البنوك الربوية

الوصول إلى ملبورن باستراليا

وصلت إلى مدينة ملبورن في قارة استراليا، التي أزورها لأول مرة. وكان الأخ أحمد توفيق ورفاقه في انتظاري، وقد حضر معظم المدعوين إلى المؤتمر، والباقون في طريق الوصول. وقد وجدت الجو في استراليا على عكس الجو في بلادنا وفي أوروبا، فقد كنا نحن في عز الصيف أو قل: في أواخره، وكانوا هم في عز الشتاء، أو قل في أواخره أيضا، والجو بارد، والأمطار تهطل بغزارة. فنحن في الجانب الآخر من الأرض، صيفنا شتاؤهم، وشتاؤنا صيفهم. وفي هذا تبادل المصالح بين العباد. فكم تأتينا في قلب الشتاء فواكههم الصيفية، وكم تأتينا في وقت الصيف منجاتهم الشتوية، ولله في خلقه شؤون.

وقد أقيم المؤتمر في ملبورن، ولم أعد أذكر موضوع المؤتمر، ولا الحضور فيه، وقد شارك فيه من مصر ومن أميركا، ومن غيرهما. ولا أذكر إلا الأخ العالم الداعية المعروف الدكتور عبد الصبور شاهين من مصر، والأخ العالم الداعية الدكتور جمال بدوي من أميركا. وكم سررت بوجوده، لأني وجدته خير من يترجم عني إلى الإنجليزية، لقدرته الفائقة فيها، ولثقافته الإسلامية القوية، وتمرسه بالدعوة إلى الإسلام بين الأميركان والكنديين. ولقد استمر المؤتمر ثلاثة أيام ثم انفض.

وبعد مؤتمر ملبورن، واللقاءات الخاصة بالعاملين للدعوة الإسلامية فيها، زرت بعض المدن الأخرى التي نسيت اسمها، وبعضها متميز بأغلبية تركية،

ومن الغرائب: أني وجدت في بعض المدن مساجد قديمة ليس حولها عمران، ولا يصلي فيها أحد.

ولما سألت عنها، قالوا لي: هذه مساجد بناها الجيل الأول من المسلمين، الذين حضروا إلى هذه البلاد، وكانوا من الأفغان الذين حرصوا على إنشاء مساجد يقيمون فيها شعائر دينهم، ويجتمعون فيها لصلوات جماعتهم وجمعهم.

بقيت المساجد أبنية وجدرانا، وليس فيها مصلون. فقد جاء هذا الجيل من الأفغانيين المسلمين المتمسكين بدينهم، ولم يكن معهم من مقومات البقاء على هذا الدين شيء، لا معهم عائلاتهم وزوجاتهم، ولا معهم علماؤهم وموجهوهم. فبقي الدين ما بقي هذا الجيل، ثم ذهب وذهب الدين معه.

كانوا في غالبهم شبانا وعزابا، فاضطروا أن يتزوجوا من الاستراليات، وأنجبوا منهن بنين وبنات، ولم يكن لديهم من العلم والثقافة ما يلقنونه لذريتهم ويثقفونهم به، وهم مشغولون بأعمالهم وكسب رزقهم، فنشأ الأولاد على ما تلقنه لهم أمهاتهم، فما أسرع ما ذابوا في هذا المجتمع المسيحي، بحكم ديانة الدولة المكتشفة لاستراليا والفاتحة لها، وهي بريطانيا، حامية المسيحية البروستانتية.

ومثل هذا الجيل الأول، الذي ذهب إلى أميركا اللاتينية (الأرجنتين) وغيرها، فإن هذا الجيل ذاب في ذلك المجتمع، كما يذوب الملح في الماء، ولم يعد له وجود إسلامي، حتى جاءت أجيال أخرى.

إلى سيدني: وبعد تطواف في عدة مدن، كان لا بد أن نذهب إلى سيدني المدينة الأم، والعاصمة الكبرى، وفيها أكبر مجموعة إسلامية، وفيها المساجد والمدارس والمؤسسات الإسلامية.

وفيها خطبت الجمعة في جامعها الكبير، الذي يخطب فيه أشهر الدعاة هناك، الشيخ تاج الدين الهلالي، وألقيت عدة محاضرات ودروس في أماكن مختلفة. كما ألتقيت عدة لقاءات عامة وخاصة.

وقد وجدت المسلمين - كالعادة - مختلفين شيعا وأحزابا، على أن كل ما حولهم يوجب عليهم أن يجتمعوا ولا يتفرقوا، وأن يتوحدوا ولا يختلفوا، وأن لا يتنازعوا فيفشلوا وتذهب ريحهم.

ولقد رأيت بعيني ولمست بيدي أن كل الأقليات في الدنيا تتقارب وتتضامن وتتلاحم فيما بينها، لتحافظ على كيانها وحقوقها في مواجهة الأكثرية، إلا الأقليات الإسلامية للأسف الشديد، فهي دائما على خلاف، وأبدا في تطاحن، مع أن كتاب ربهم وسنة نبيهم، وأحكام شريعتهم، كلها تناديهم أن يعملوا على توحيد الكلمة، كما يؤمنون بكلمة التوحيد.

إن الاتحاد يقوي القلة، والاختلاف يضعف الكثرة. وقد قال تعالى: (وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ) آل عمران: ١٠٣ (وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ). «١٠٥» .

وقال رسولهم: «لا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا» .

وقال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا» . وشبك بين أصابعه.

العروبة الحقيقية لا تستغني عن إسلام الوسطية والاعتدال الذي لا غلو فيه ولا تفريط ولا طغيان ولا إخسار

حدثتهم في هذه المعاني، وركزت عليها، وخصوصا مع العلماء الذين يقومون بالتوجيه والإرشاد للجماعة المسلمة هناك، ومنهم الشيخ تاج الدين الهلالي، وهو عالم أزهري مصري أمسى له شأن بينهم.

العودة عن طريق إندونيسيا:

وبعد أيام في سيدني، ذهبت إلى مدينة بيرث وهي في الطرف الآخر من استراليا، وقد استغرقت الرحلة - على ما أذكر - نحو خمس ساعات، وهي قريبة من حدود أندونيسيا. وفيها الأخ المسلم النشيط عبدالله مجر، وهو مصري يعيش هناك من زمن، وقد أنشأ مؤسسات ومدارس تعمل لحفظ أجيال المسلمين.

وقد بقيت فيها عدة أيام، ألقيت فيها عددا من المحاضرات والدروس، وعقدت فيها بعض الاجتماعات وزرت فيها بعض المؤسسات.

والمهم أني في خلال هذه الرحلة التي امتدت ما يقرب من أسبوعين، لم يتح لي فيها أن أزور حديقة من الحدائق، أو متحفا من المتاحف، أو أشاهد معلما من المعالم التي يذهب الناس إليها زائرين، فقد كان وقتي مشغولا بهموم المسلمين، ومشكلاتهم المتراكبة التي تحتاج إلى حلول، وأسئلتهم المجتمعة التي تحتاج إلى أجوبة، وحسب وقتي أن يتسع ليسهم ببعض هذه الأجوبة والحلول. وربما أجد في ذلك ما يعوضني عن كل نزهة أو فسحة يتطلع إليها الناس هنا وهناك.

إلى إندونيسيا

كانت خطتي أن أعود من غير الطريق الذي ذهبت منه؛ لأمر على إندونيسيا، وخصوصا أني قريب من حدودها. وأندونيسيا لها حق علينا، باعتبارها أكبر بلد إسلامي، بعد انقسام باكستان إلى دولتين (إحداهما بنغلاديش): وهو بلد مهدد بالتنصير، من الإرساليات الغربية التي خططت لغزوه دينيا والسيطرة عليه في ظرف خمسين سنة كما زعموا.

ركبت الطائرة من مدينة بيرث وذهبنا إلى جاكارتا مرورا بجزيرة سياحية أظنها بالي التي وقعت فيها التفجيرات منذ سنوات. وقد توقفت فيها الطائرة، ولم ننزل إلى البلدة، ومنها استقللنا طائرتنا إلى العاصمة الأندونيسية جاكارتا.

وكان الإخوة من أعوان الدكتور محمد ناصر وإخوانه في المجلس الأعلى للدعوة الإسلامية في انتظاري، وكان الدكتور ناصر مريضا، وقد بلغ من الكبر عتيا، وثقل حمله من آثار الشيخوخة، ومن آثار المرض، ومن هموم الدعوة، وهموم الأمة، فلزم الفراش منذ مدة.

وكان من الموكلين بمرافقتي شاب أزهري اسمه (م) المازني، فقلت له: المازني .. نسبة إلى قبيلة (مازن) المشهورة التي قال فيها الشاعر:

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي
بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا!

قال: الحقيقة أن اسمي الأصلي (المُزَني) ولكن بعض الإخوة العرب ممن زارونا، اقترح علي أن أغير اسمي من المزني إلى المازني!

قلت له: عد إلى اسمك الأصلي، فإن والدك حين سماك بهذا الاسم، كان يقصد المزني صاحب الإمام الشافعي رضي الله عنهما. والناس هنا حريصون على إحياء أسماء أئمة الشافعية، فهناك: الغزالي والرافعي والنووي وغيرهم. وأصبحت لا أناديه إلا بهذا الاسم (المُزَني).

وكان من أول ما حرصت عليه بعد وصولي إلى جاكارتا: أن أسأل عن صديقي القديم، ورفيقي في السكن في كلية أصول الدين، الجزائري العالم الأديب المناضل: محمد أكسوري (أوالأقصري كما كنا نناديه) والذي علمت أنه سفير الجزائر في إندونيسيا، ولكني - للأسف الشديد - لم أجده في أندونيسيا. فقد كان في إجازة في ذلك الوقت. أي أنه ذهب إلى الجزائر في الوقت الذي كان ينبغي أن أكون في الجزائر لحضور ملتقى الفكر الإسلامي.

فلم يشأ الله تعالى أن ألتقي بصديقي الأخ الجزائري في الجزائر من قبل، ولا في أندونيسيا من بعد، وإن كنت لقيته مرة بعد ذلك بنحو سنتين.

وقد رتب لي الإخوة برنامجا حافلا، زرت فيه عددا من الجامعات في جاكارتا ومدارسها الإسلامية العريقة: الشافعية والطاهرية وغيرها. وفي بعض المدن القريبة في جزيرة جاوة.

وكان من أهم ما رتبوه لي: التقاء الدعاة من الشباب، لأتحدث إليهم وأنورهم بما يجب عليهم في هذه المرحلة، من إعداد أنفسهم للحفاظ على المسلمين، ولمواجهة المنصرين، وهو إعداد متكامل، يجب أن يكون إعدادا ثقافيا، وإيمانيا، وأخلاقيا،



● الأمير الحسن بن طلال

وذكرتهم بما كتبته من قبل في كتابي (ثقافة الداعية).

ومما أذكره أني التقيت بعض الشباب من الدعاة القادمين من المملكة السعودية، وكان من بينهم الشيخ سلمان فهد العودة حفظه الله، وقد أمسى اليوم من مشاهير الدعاة.

وكان من المهم جدا في هذا البرنامج هو: زيارة جزيرة (سومطرة) لأول مرة، وهي الجزيرة الكبرى الثانية، بعد جاوة. وقد ذهبت إليها بالطائرة، ثم تنقلنا بالسيارة بين مدنها، حتى وصلنا إلى أعلى الجزيرة، وقد حاضرت في جامعاتها ومعاهدها، ولقيت أهل العلم والدعوة والفكر فيها، وكانت رحلة خصبة مباركة.

ولقد اطمأنيت من خلال هذه الزيارة: أن أحلام الإرساليات الأوربية والأميركية في تحويل أندونيسيا من الإسلام إلى النصرانية خلال خمسين عاما .. هذه الأحلام قد تبخرت. فقد نسي المخططون الحالمون: أن الإسلام أرسخ قدما، وأعمق جذورا، مما يظن الظانون «يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ» (التوبة: ٣٣،٣٢).

ندوة الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي في عمّان

في شتاء سنة ١٩٨٧م جاءتني دعوة من (منتدى الفكر العربي) بعمّان، الذي يرأسه ويوجهه الأمير المثقف الحسن بن طلال، ويشغل الأمانة العامة له في ذلك الوقت: الدكتور سعد الدين إبراهيم أستاذ علم الاجتماع، ومؤسس مركز ابن خلدون في القاهرة.

وقد اتصل بي د. سعد الدين، وألح على ضرورة حضوري، إذ أن الأمير الحسن حريص على مشاركتي، وسيكون في الندوة عدد من المعنيين بالصحوة في العالم العربي والإسلامي، وعدد من قادة الحركات الإسلامية.

وأكدت له أني عازم على المشاركة، وقد أعددت ورقة مطولة حول الموضوع المطروح، كما طلبتم مني. فقال: أرجوك أرسلها لنا بسرعة، لنطبعها ونوزعها على الأعضاء.

وقد حضرت الندوة، وقدمت فيها ورقتي، وناقشها الحضور، وهم صفوة من المهتمين بالصحوة في العالم العربي، منهم إسلاميون مثل د. حسن الترابي، ود. محمد عمارة، ود. إسحاق الفرحان، والأستاذ كامل الشريف، ومنهم قوميون مثل د. فهد الفانك، ومنهم مسيحيون مثل د. وليم سليمان قلادة، القبطي المصري. كما شاركت بقوة في مناقشة الأوراق المقدمة للندوة.

وفي خواتيم المؤتمر، شكرني الأمير الحسن بن طلال شكرا خاصا، وتحدث معي حديثا خاصا، وكان مما قاله لي: لقد رأيت أن وجودك معنا كان مثمرا ومتميزا، فأرجوك أن لا تبتعد كثيرا عنا.

● الشيخ صالح كامل

قلت له: تعلم سيادتكم أني عضو في مؤسسة آل البيت، وأحضر إلى عمان في مناسبات كثيرة.

قال: ولكني أريد أن تقترب منا في منتدانا هذا، فنحن لا نريد عروبة مجافية للإسلام، ولا متبرئة منه.

قلت: إن العروبة الحقيقية لا تستغني عن الإسلام ولا تنفصل عنه، والشاعر المعروف محمود غنيم يقول:

إن العروبة لفظ إن نطقت به فالشرق والضاد والإسلام معناه!

والمصريون، ومثلهم المغاربة أهل الشمال الإفريقي، لا يفرقون بين عروبة وإسلام، ولا بين عربي ومسلم. فإذا قال أحدهم: اللهم انصر العرب. تعني تماما: اللهم انصر الإسلام والمسلمين.

قال: وهذا ما نريد أن نشيعه ونثبته، على أن يكون الإسلام الذي نتبناه هو الإسلام المستنير، الإسلام المتوازن، لا إسلام المتشددين الغلاة، الذين صوروا الإسلام وكأنه غول مخيف أو وحش مفترس.

قلت: بل إسلام الوسطية والاعتدال، الذي لا غلو فيه ولا تفريط، لا طغيان ولا إخسار، كما أشار القرآن إلى ذلك في قوله: «وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ» (الرحمن: ٧-٩)، وهذا ما أؤمن به وأدعو إليه وأحرص عليه.

قال: ولهذا نريد قربك منا، لتفيدنا في بيان هذا المنهج وشرحه.

قلت للأمير: لن أتأخر عنكم في كل ما أراه يخدم هذا المنهج، ويؤيد هذا التيار.

وشكرت للأمير موقفه وحسن اهتمامه وحفاوته بشخصي.

وكذلك قال لي د. سعد الدين إبراهيم: أشكرك على كل شيء. أشكرك على استجابتك للدعوة، وأشكرك على بحثك الكبير الذي قدمته للندوة، وأشكرك على مشاركتك الحية أثناء الندوة. وأرجو أن يستمر تعاونك معنا، وقد رأيت حفاوة الأمير بك، واهتمام الجميع بحضورك.

وقد رددت التحية بمثلها أو بأحسن منها، ودعوت الله أن يعيننا جميعا على خدمة الأمة، وحسن تثقيفها في دينها ودنياها.

كان من أهم ما وقع لي في هذه الندوة: ما دار بيني وبين د. فهد الفانك من حوار، والدكتور الفانك من مثقفي الأردن المشهورين، وهو نصراني الديانة، قومي الاتجاه، تحرري النزعة.

وقد خلا بي في إحدى الاستراحات مرحبا بي، ثم قال: لقد كان لهذه الندوة ثمرات كثيرة لمسناها.

قلت ضاحكا: منها؟

قال: منها: أننا عرفناك على حقيقتك، وغيرنا فكرتنا عنك تماما.

قلت: وماذا كانت فكرتكم عني؟

قال: بصراحة، كنا نعتقد أنك شيخ متشدد متعصب، ضيق الأفق، غريق في التراث، لا تعرف العصر وتياراته، لا تقبل التعايش مع المخالفين من أصحاب الديانات أو المذاهب أو الاتجاهات الأخرى.

قلت: يا دكتور، هل قرأتم شيئا من كتبي؟

قال: في الحقيقة، لا.

قلت: هل سمعتم شيئا من محاضراتي أو خطبي؟

قال: في الحقيقة أيضا، لا.

قلت: هل تابعتم بعض برامجي في الإذاعة أو التليفزيون؟

قال: في الحقيقة كذلك، لا.

قلت: فمن أين كونتم فكرتكم عني؟

قال: لا أكذب عليك، إنما كوناها بالتسامع والتناقل من بعض الناس لبعض. وهو منهج غير سليم بلا شك.

قلت: والآن؟

قال: أصدقك القول يا شيخ يوسف: أننا غيرنا فكرتنا عنك ١٨٠ درجة.

ولهذا أنصحك أن تحرص على حضور مثل هذه الندوات التي لا تقتصر على الإسلاميين وحدهم، والتي يراك فيها المخالفون من ذوي الاتجاهات المختلفة، ويعرفونك عن كثب، ويسمعون منك مباشرة، ويتحدثون معك وجها لوجه.

قلت: صدقت، والحديث الشريف يقول: «ليس الخبر كالعيان» ، والشاعر العربي يقول:

يا ابن الكرام، ألا تدنو فتبصر ما
قد حدثوك، فما راءٍ كمن سمعا!

وقد نشرت البحث الذي أعددته للندوة في كتاب تحت عنوان (الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي) أضفت كلمة (الإسلامي) إلى (العربي) بناء على أن لا تناقض بين العروبة والإسلام، وعلى أن هموم الوطن العربي عموما هي في الواقع هموم الوطن الإسلامي في الجملة، وكما قال شوقي رحمه الله:

نصحت ونحن مختلفون دارا ولكن كلنا في الهم شرق!

شركة الراجحي للصيرفة والاستثمار

كانت شركة الراجحي من الشركات الكبرى في المملكة السعودية، وكانت تعمل في المجالات الاقتصادية والتجارية المختلفة، ومع البنوك التقليدية التي تقوم على الفوائد الربوية.

ولم يكن في المملكة بنك إسلامي يتعامل بغير الفوائد، ووفق أحكام الشريعة الإسلامية، رغم أن الذين قادوا مسيرة البنوك الإسلامية سعوديون، على رأسهم الأمير محمد الفيصل آل سعود، الذي أسس بنوك فيصل الإسلامية في مصر والسودان والبحرين، وأسس دار المال الإسلامي في جزر البهاما وإدارتها في جنيف في سويسرا. ولكنه لم ينشئ بنك فيصل الإسلامي السعودي. كما كان من الذين قادوا المسيرة أيضا: الشيخ صالح كامل وما أسس من بنوك البركة في أقطار شتى.

ولقد قدم الشيخ سليمان الراجحي وإخوانه طلبهم للسلطات المالية السعودية، ليحصل على تصريح بإنشاء بنك إسلامي، وبعد سنين طويلة، وجهد جهيد، أذن له أن يحول شركته إلى شركة تتعامل بغير الفوائد، دون أن تسمّى (بنكا إسلاميا). لأن هذا يحرج المملكة، فإذا كان هذا بنكا إسلاميا، فماذا تسمى البنوك الأخرى، والمفروض أن المملكة ملتزمة بتطبيق الشريعة الإسلامية في كل مجالات الحياة، كما هو صريح أمر القرآن: «وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ» (المائدة: ٤٩).

المهم أن الشركة أذن لها في العمل المصرفي بغير فائدة، وغدا اسمها: شركة الراجحي للصيرفة والاستثمار، وقد عينت الشركة لها هيئة شرعية للإشراف عليها والتوجيه لها، وضمان سيرها على أحكام الشريعة. وكان رئيس الهيئة سماحة العالم الجليل الشيخ عبدالله بن عقيل، والد أخينا وصديقنا الإسلامي المتحرك عبد الرحمن بن عبدالله بن عقيل، وعين نائبا له معالي الشيخ صالح الحصين، الرجل الذي جمع بين الفقه والقانون، كما جمع بين النظر والتطبيق، واختاروا لعضوية الهيئة العلامة الشيخ مصطفى الزرقا وسماحة الشيخ عبدالله البسام، والفقير إليه تعالى، ولأمانتها الشيخ عبد الرحمن بن عقيل، وقد اقترح الشيخ الحصين على الهيئة جملة اقتراحات جوهرية ومتميزة، وهي:

أولا: أن تعمل الهيئة احتسابا، دون أن تتقاضى أية مكافأة. وقد وافق الجميع على ذلك. وذلك حتى تكون حرة تماما في الرقابة والتوجيه.

ثانيا: أن تكون مهمة الهيئة التوجيه الشرعي للشركة، والفتوى فيما يعرض عليها من عقود وتصريحات. أما الرقابة فستكون من سلطة المحاسب القانوني، الذي يجب عليه التدقيق في عمل الشركة وفق أحكام الشريعة، وعليه أن يكون ضمن جهازه شرعيون، يمكنهم القيام بهذا التدقيق.

ثالثا: أن تضع الشركة خطة للتخلص من التعامل من المرابحة خلال ثلاث سنوات.

وكانت هذه الخطوة الأخيرة خطوة ثورية تقدمية. فقد غرقت البنوك الإسلامية في عملية المرابحة، وأعرضت عن كل المعاملات الأخرى من التجارات والمشاركات والمضاربات، التي هي البديل الحقيقي لمعاملات البنوك الربوية.

وكان الشيخ الحصين: إن المرابحة شديدة القرب من التعامل بالفائدة الذي تقوم به البنوك الرأسمالية التقليدية. فإذا انحصر عمل البنوك والشركات الإسلامية المصرفية في هذه المعاملة، فيا ضيعة الجهود المبذولة في إقامة البنوك الإسلامية، وما أجدرنا أن نتمثل بقول الشاعر حينئذ:

إن كان منزلتي في الحب عندكم
ما قد لقيت، فقد ضيعت أيامي!

وقد اجتهدت الشركة أن تقلص من دور المرابحة، وأن تدخل في المقاولات والمعاملات المختلفة، وما أكثرها في المملكة، ولكنها لم تستطع أن تتخلص منها نهائيا، كما كان يريد أخونا الكبير الشيخ صالح حفظه الله.

لقد دخلت البنوك الإسلامية في (قمقم) المرابحة، ولم تستطع أن تخرج منه.

في عملية المرابحة، وأعرضت عن كل المعاملات الأخرى من التجارات والمشاركات والمضاربات، التي هي البديل الحقيقي لمعاملات البنوك الربوية.

وبعد عدة سنوات، تكاثرت عليّ الأعباء، فاستعفيت من عضوية هيئة الشركة، وقبلوا مني ذلك، وخصوصا بعد أن فرغت الشركة العلامة الفقيه الكبير الشيخ مصطفى الزرقا، لبحوث الهيئة، وتحرير معاملاتها، وتأصيل فتاواها، رحمه الله، وجزاه خيرا.

زيارة ألمانيا صيف ١٩٨٧

في ربيع سنة ١٩٨٧م اتصل بي صديقنا الأستاذ الدكتور محمود حمدي زقزوق عميد كلية أصول الدين بجامعة الأزهر، وقد عمل معي عدة سنوات في قطر وكيلا لكلية الشريعة، وبيننا صلة مودة. وقد طلب مني د. زقزوق أن أستجيب لدعوة لزيارة ألمانيا موجهة من الدكتور عبد الجواد فلاتوري، الذي يحمل الجنسية الألمانية، وهو إيراني الأصل، شيعي المذهب، ولكنه يعيش في ألمانيا بوجدانه المسلم لا غير.

وقد حاولت أن أعتذر للدكتور زقزوق في أول الأمر، ولكنه ألح علي أن أتغلب على كل الظروف، وأن المدعوين فيهم فضيلة الشيخ محمد الغزالي، وفضيلة الدكتور السعدي فرهور مدير جامعة الأزهر سابقا، والدكتور أبو حطب أستاذ اللغات في جامعة الأزهر، وما زال بي، حتى أخذ مني وعدا بل موثقا أن أكون ضمن هذا الوفد.

وفي الوقت المحدد في عطلة الصيف، سافرنا نحن الخمسة من القاهرة إلى فرانكفورت، ومنها بالسيارات إلى مدينة (كولن) التي يقيم فيها الأستاذ الفلاتوري.

ونزلنا بأحد الفنادق هناك، وفي اليوم التالي، أرانا الفلاتوري نماذج من العمل الكبير الذي قام به، وهو عمل جدير بالتنويه والتقدير. فقد تتبع الكتب الدراسية في ألمانيا، في مختلف المراحل الدراسية، وما تحمله من أغلاط حول الإسلام ورسالته ونبيه وقرآنه وحضارته وتاريخه، ووجد في هذه الكتب المقررة على الطلاب: ألوف الأغلاط، التي تمتلئ بها هذه الكتب.

والمهم أنه عرض مشروعه على المسؤولين عن التعليم في ألمانيا، فرحبوا به كثيرا، وأبدوا استعدادهم لتصحيح هذه الأخطاء، ووضع الصواب مكانها، وأن سبب هذه الأغلاط هو ضعف المعلومات لدى الكاتبين، وربما كانت مصادرهم نفسها غير مأمونة.

وقد عرفنا الفلاتوري: أنه - مع أعوانه - كتبوا مجلدات.

وأكثر من ذلك: أنه بعد نجاح مشروعه في ألمانيا، بدأ يتجه إلى نفس العمل في بلاد أوربية أخرى، بدأها بالكتب الدراسية في بريطانيا.

والحقيقة: أن عمل الأستاذ الفلاتوري: نموذج يحتذى في خدمة الثقافة الإسلامية، والفكر الإسلامي. وبالتالي: خدمة الإسلام نفسه ورسالته. فهذا عمل علمي كبير، ويتم في صمت وهدوء، بعيدا عن الأضواء والإعلان والضجيج، وهو عمل استغرق سنين وجهودا كبيرة، بعد تحفيظ وصبر طويل، فآتى أكله، وأعطى ثمراته.

فليتنا نتعلم من هذا الدرس النموذجي العملي، الذي يفترض أن تنتفع بثمراته أمة كبرى مثل الأمة الألمانية. وبهذا نخدم الرسالات والثقافات والحضارات.

في أول زيارة لأستراليا وجدت في بعض المدن مساجد قديمة ليس حولها عمران ولا يصلي فيها أحد



● الشيخ سلمان العودة



● الشيخ تاج الدين الهلالي



ابن القرية والكُتّاب

ملامح سيرة ومسيرة (الجزء الرابع)

مذكرات فضيلة العلامة د. يوسف القرضاوي كما كتبها لـ الوطن بخط يده (٢٨)

تنفرد **الوطن** بنشر الجزء الرابع من مذكرات العلامة د. يوسف القرضاوي: ملامح سيرة ومسيرة (ابن القرية والكتاب)، وهو يشمل بضعة عشر عاما (حوالي ١٨) من هذه السيرة والمسيرة: وهي سنوات حافلة بالأحداث على المستوى الشخصي في حياة الشيخ المحلي والعربي والإسلامي والعالمي، على المستوى الشخصي يفصح فضيلته لأول مرة عن قصة زواجه الثاني وكيف تطور من عاطفة صادقة إلى زواج على سنة الله ورسوله. كما يتحدث عن تخرج كل أبنائه وتزوج كل بناته. وتعيينه عميدا لكلية الشريعة ومديرا لمركز بحوث السنة والسيرة. ونجاحه في الدعوة إلى تأسيس الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية بالكويت. وعمله رئيسا لهيئة الرقابة الشرعية لعدد من المصارف الإسلامية. واختياره عضوا في المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي، وعضوا في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن (مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي) وعضو مجلس أمناء مركز اكسفورد للدراسات الإسلامية، وعضو مجلس أمناء منظمة الدعوة الإسلامية بالخرطوم، وغيرها. وحصوله في هذه الفترة على بعض الجوائز العالمية.

ومن خلال هذه المذكرات سيمر القارئ بمعظم أحداث العصر في منطقتنا العربية والإسلامية، بحكم أن صاحبها يعيش في قلب هذه المنطقة، وقلب هذه الأحداث، وقد قدر له في هذه المرحلة أن يتفاعل بها ومعها متأثرا ومؤثرا.

وتتميز هذه السنوات بأمرين لهما أهمية قصوى في حياة القرضاوي:

الأول: الانتشار الكبير له في أنحاء العالم في الشرق والغرب، وزيارة كل قارات العالم حتى أستراليا، وأميركا الجنوبية، حتى سماه البعض «الشيخ الطائر».

والثاني: ظهور المد الإسلامي أو الصحوة الإسلامية بقوة في تلك المرحلة، والتى يعتبرها الشيخ جزءا منه، كأنما هي ولده وفلذة كبده. وسنتابع نشر المذكرات يوميا بما فيها من تفاصيل يرويها القرضاوي لأول مرة.



خسرت أنا وأولادي كل مدخراتنا في «بنك التقوى» بعد وضعه تحت الحراسة عقب أحداث «١١» سبتمبر

لقاء مع المستشرقين ورجال الدين المسيحي

ومن ثمرات هذه الرحلة إلى ألمانيا: هذا اللقاء الذي رتبه الأستاذ فلاتوري مع عدد من المستشرقين ورجال الدين النصارى، حيث التقينا معهم في يوم عمل مستمر، وتناولنا فيه الغداء معا. وقد وجهوا إلينا عددا من الأسئلة الشائكة حول موضوعات إسلامية مختلفة، منها: حول المرأة، وحول الحريات وعقوبة الردة ونحوها، وحول الاجتهاد والتجديد، وحول الأقليات الدينية، وفرض الجزية داخل الدولة الإسلامية، أو المجتمع الإسلامي، وحول الجهاد والسلام .. إلى غير ذلك من القضايا التي يحتدم فيها النزاع بين المسلمين وغيرهم، وتختلف فيها الأجوبة عند الإسلاميين أنفسهم.

وقد وجدوا عندنا أجوبة مقنعة - إلى حد كبير - حول هذه التساؤلات، وهي أجوبة تعتمد على الأصول الشرعية مع النظر إلى العصر وتياراته ومشكلاته من ناحية أخرى.

ولقد قرب هذا اللقاء بين الطرفين إلى حد كبير، وليس هناك أنفع من الحوار المباشر، الذي يلتقي الناس فيه وجها لوجه. وقد تمنى الجميع لو تكرر مثل هذا اللقاء في أوروبا أو في البلاد العربية.

وقد دعانا السفير المصري في (بون) إلى منزله على عشاء، دعا فيه عددا من الشخصيات المعنية بالشأن الإسلامي، وكانت ليلة طيبة بمن شارك فيها من الرجال، وبما جرى فيها من حوار، وبما سادها من تفاهم، رغم اشتداد الجدال في بعض القضايا.

ومما أذكره في تلك الليلة أمران يتعلقان بي:

الأول: أننا تحدثنا حديثا طويلا عن الأصولية والأصوليين، وتعرضت لشرح معنى الأصولية. وهي تعني: العودة إلى الأصول والجذور، ونحن عندنا أصول الدين، وأصول الفقه، وينسب إليهما فيقال: أصولي.

وقد قال السفير: إذن أنت تعتبر نفسك أصوليا؟

قلت: بل عريقا في الأصولية. ومن حكمنا المأثورة: إنما يحرم الوصول، من ضيع الأصول. وما دامت الأصولية هي التمسك بالجذور، فاللهم أحيني أصوليا، وأمتني أصوليا، واحشرني في زمرة الأصوليين!

الأمر الثاني: كلمة قالها شيخنا الغزالي أمام الإخوة والضيوف، فأحرجني بها. وذلك حين أجبت عن بعض الأسئلة المطروحة، مما سر الشيخ وأثلج صدره. فقد قال في صراحة: كان يوسف فيما مضى تلميذا لي، أما اليوم فأنا تلميذه!

قلت: يا مولانا، أنا لا أزال تلميذك اليوم وغدا.

وبعد سهرة طيبة، ودعنا السفير، وشكرناه، جزاه الله خيرا، واستعددنا للرحيل عائدين إلى القاهرة، داعين بدعاء السفر: اللهم إنا نعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في المال والأهل والولد، آيبون تائبون عائدون، لربنا حامدون.

بنك التقوى

اتصل بي الأخ الصديق المهندس يوسف ندا هاتفيا من لوجانو في سويسرا، وقال: لعلك عرفت بعزمنا على تأسيس بنك إسلامي، اخترنا أن نسميه (بنك التقوى) وربما قرأت أسماء المكتتبين أو الراغبين في الاكتتاب والمشاركة فيه.

قلت: نعم قرأت ذلك، وتمنيت لو استشرتني قبل ذلك، وأنت تعلم اهتمامي بشأن البنوك الإسلامية.

قال: نعم أعلم ذلك، وقد رشحتك - مع من رشحوك - لمجلس إدارة بنك فيصل الإسلامي في القاهرة من زمن طويل. وبماذا كنت تشير علينا لو استشرناك، فما زال للشورى مكانها؟

قلت: لكل شيء أوانه، فإذا فات أوانه لم تعد تجدي المشورة. فقد كنت أود أن تختاروا اسما غير اسم (التقوى) مثل: بنك الخير، بنك الطيبات، بنك الاستقامة، أو نحو ذلك.

قال: وهل في تسمية (بنك التقوى) حرج؟

قلت: لا حرج، ولكن فيها شيء من تزكية النفس، وعلى كل حال، هذا أمر قد وقع، ونسأل الله أن يؤسس البنك على تقوى من الله ورضوان.

والأمر الآخر: كنت أود ألا تعلنوا على الناس هذه القائمة من الإسلاميين من أقطار شتى، فكأننا نزفهم إلى رجال المباحث وأمن الدولة.

قال: أردنا أن نعطي جماهير الملتزمين بالإسلام: أن هذا البنك مؤيد ومشجع من كل شخص غيور على الإسلام، عامل لخدمته.

قلت: لا شك أن هدفكم نبيل، وأن نيتكم كانت صالحة، ولكنها قدمت خدمة للمتربصين بالدعوة الإسلامية، والحركة الإسلامية. ولعل الله تعالى يجزيكم بحسن نيتكم، ويعمي أعين الكائدين للإسلام وأمته عنكم.

ثم قال المهندس يوسف ندا: لقد اتصلت بك لتضع يدك في أيدينا، لنقيم هذا البنك على أسس إسلامية واقتصادية سليمة، وأن ترأس هيئة الرقابة الشرعية في البنك، حين ننتهي من تأسيسه، وتختار لها من تحب من إخوانك العلماء الذين تثق بقوتهم وأمانتهم.

قلت: عزيز علي والله أن أعتذر عن عدم استجابتي لرغبتك، برغم معزتك عندي، ولكن كثرت الأعباء علي، وهي تعطلني عن عملي العلمي، الذي أرى فيه حياة روحي، وروح حياتي.

قال: يعني يا شيخ يوسف تتحمل مسؤوليات بنوك شتى هنا وهناك، وحين يلجأ إليك إخوانك الذين كلهم ثقة بك، تتخلى عنهم!!

قلت: والله ما أتخلى عنهم، ولكن أخشى ألا أقوم بالأمر المنوط بي كما يجب، ولا سيما أن هذا العمل يتطلب أسفارا إلى أوروبا.

فقال: سنخفف عنك ما استطعنا، وسنعفيك من الأسفار ما أمكننا، وسنعقد بعض الاجتماعات عندك في الدوحة.

قلت: إذن نستعين بالله، ونتوكل عليه، وندعوه أن يقوي ظهرنا.

وقلت للمهندس ندا: ليتك تبعث إلي نظام البنك لأنظر فيه مع بعض أقراني، وهل هو قابل للتعديل أو لا؟

قال: نعم، هو قابل للتعديل، ولكم أن تعدلوا فيه ما شئتم حتى يكون متوافقا مع مبادئ الشريعة الإسلامية.

وأرسل إلي النظام الأساسي، واجتمعت أنا وبعض إخواني: الدكتور جمال الدين عطية الذي كان يعمل أستاذا بكلية الشريعة، والدكتور علي محي الدين القرداغي، ونظرنا في هذا النظام، وعدلنا فيه تعديلات جذرية. وأرسلناها إلى المهندس يوسف ندا وشريكه الأستاذ غالب همت، ليأخذ طريقة القانوني في إقراره واعتماده من الجهات المسؤولة في (البهاما) التي سجل فيها البنك. وقد أدخلنا على النظام تعديلات مهمة، ليصبح موافقا للشريعة الإسلامية، ولعله أول بنك يتاح له مثل هذا، وقد وافق إخواننا المؤسسون على كل ما طلبناه.

ثم طلب إلي الأخ يوسف ندا أن أختار من يعملون معي في هيئة الفتوى والرقابة الشرعية، فاخترت الأخوين الكريمين: الدكتور علي محي الدين القرداغي من قطر، والدكتور عبد الستار أبو غدة من سورية، وهو يعمل في جدة، مع الشيخ صالح كامل.

ومما نشهد الله عليه: أن إخواننا في إدارة بنك التقوى ندا وهمت ومن يعاونهما، كانوا صادقين في التعاون معنا على أن تكون معاملات البنك شرعية خالصة، لا شائبة فيها، ولا دخل.

وكنا نطيل النقاش في فهم القضايا والإحاطة بها من جميع جوانبها، حتى يفصل فيها، دون محاولة من فريق الاحتيال على الآخر، وكما قال الأخ ندا: نحن نريد ربحا حلالا صرفا.

وكان بنك التقوى فيما شاهدت: أسلم البنوك الإسلامية من حيث استقامة المعاملات وبعدها عن الصورية التي وقعت فيه كثير من المصارف.

ومن هنا لم يدخل البنك في بيع المرابحة، لما فيه من قيل وقال، وقد رأينا أخانا الشيخ صالح الحصين يحاول تخليص شركة الراجحي من المرابحة، فما استطاع.

كما لم يدخل بنك التقوى في متاهات سوق السلع والمعادن الدولية، التي تحيط بها شبهات الشكلية والصورية من كل جانب، ولا يكاد يرى المرء فيها سلعا تتحرك من منتج إلى مستهلك، إلا ما ندر. وإنما هي أوراق تُسوّد وتنقل الملكية من فلان إلى فلان، والسلعة في مكانها لم تغادره.

وظل البنك سنين يعطي من الأرباح للمساهمين والمضاربين أفضل مما يعطي غيره من البنوك.

ولكن أعين المراقبين من القوى المتربصة بالإسلام وأمته، الراصدة لكل حركة في الأمة، وخصوصا حركة المال والاقتصاد، بدأت تكيد للبنك وتشوش عليه سمعته، وتزعم أنه يمول جهات إرهابية، يقصدون حركة المقاومة الإسلامية (حماس).

بدأت ذلك بعض الصحف الإيطالية، وليس معها أي دليل تقدمه، إلا دعاوى عريضة ليس عليها



● يوسف ندا

أدنى بينة، ثم تلى ذلك فيلم في سويسرا، كل ذلك بقصد تعكير الأجواء، وتخويف الناس، ليسحبوا أموالهم من البنك فينهار، ولا ريب أن أغلبية الناس لم يبالوا بهذه الدعايات المسمومة، ولكن أقلية من الناس تأثرت بها، فطلبت سحب رصيدها. ومجرد طلب السحب يحدث هزة ليس في صالح البنك.

ثم جاء الزلزال المالي والنقدي الذي حدث في جنوب شرق آسيا، في ماليزيا وأندونيسيا، وانخفاض قيمة العملات انخفاضا هائلا مرة واحدة، وأثر ذلك في كثير من الشركات والمؤسسات، وبعضها كانت لبنك التقوى معه معاملات كبيرة، وهو من أوليات الأمور التي يعيبها الاقتصاديون: أن تضع بيضك كله أو جله في سلة واحدة، فإذا سقطت السلة، وانكسر البيض، ضاع كل شيء.

ولكن هذا ما كان، مع ظروف أخرى، زادت الأمر تعقيدا، ولم يكن في الإمكان تدارك الخسارة، ولم يكن لدى البنوك الإسلامية صندوق للتضامن يمكن منه جبر الكسر، حتى يصح ويقوى.

وزادت الطين بلة أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، فشلت البنك تماما عن أي حركة، بل صادرته وأدخلته تحت الحراسة، وفي هذا نفقات هائلة، كلها عبء على البنك، الذي يدفع ولا يكسب، بالإضافة إلى القضايا التي رفعها البنك في اتجاهات شتى، وكلها أعباء ونفقات ضخمة تؤخذ من لحم الحي، مما بقي من رأسمال البنك الذي أحاطت به المصائب من كل جانب، وما زال الإلحاح على إدارته من الجهات المسؤولة في البهاما، ليقوم بتصفية البنك نهائيا، وهو ما كان.

لقد كانت خسارتي أنا وأبنائي وبناتي كبيرة بخسارة بنك التقوى، فقد وضعنا فيه في النهاية جل مدخراتنا، وهي مبالغ كبيرة بالنسبة لنا، ولم يقدر لنا أن نصرف بعض الأرباح، كما فعل بعض المودعين، بل ما تحقق لنا من أرباح وضعناه في مضاربات البنك. ولا يسعنا إلا أن نحتسب ما أصابنا عند الله سبحانه، وندعوه جل شأنه أن يعوضنا عن خسارتنا، في الدنيا والآخرة.

زيارة زكي بدر للدوحة

في شتاء ١٩٨٨م: زار الدوحة وزير الداخلية المصري الشهير ببذاءة لسانه، وقسوة قلبه، وتجاوزاته في تصرفاته: زكي بدر، الذي أصدر الأوامر إلى الجنود، في مكافحة المظاهرات ونحوها: أن يضربوا في (المليان)، كناية عن إطلاق الرصاص الحقيقي، وتصويبه في صدور الجماهير. وقد ذاع صيته، وحفل سجله بالوقائع المؤلمة، والغزوات المتتابعة للجماعات الإسلامية، من حارب منها ومن سالم. وكان كل عامل في الحقل السياسي يكرهه ويتقي شره، ولا سيما من كان في المعارضة من الأحزاب، وكل من عادى الحكومة وحزبها عنده: لا ينبغي أن يسمح له بالوجود، فضلا عن التعبير عن



● اللواء زكي بدر

ذاته وبرنامجه، بالاجتماع أو الكلام.

وذات يوم، فوجئت بدعوة من السفارة المصرية، تدعوني إلى أن أحضر حفلا تقيمه السفارة على شرف الوزير زكي بدر. واتصلوا بي هاتفيا يلحون على ضرورة حضوري، وأن الوزير يود أن يلقاك. وترددت في أول الأمر، ثم قررت أن ألقاه فعلا.

وفي الميعاد المقرر ذهبت إلى السفارة، ووجدت الوزير الذي رحب بي كثيرا، واستقبلني بود وبشاشة، فوجئت بهما. ونادى على زوجته لتسلم علي، وقال: ها هي زوجتي محجبة كما ترى.

وحرص على أن يأخذ معي جملة من الصور، أرسلت إلي السفارة نسخة منها بعد ذلك.

وبعد الاحتفال، ألقى الوزير كلمة، ذكر فيها آية من القرآن «الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ» (قريش: ٤) كما ذكر حديثا نبويا يشيد بالأمن وقيمته في الحياة.

وقال بعد الكلمة: أرأيت كيف أدخل في كلامي القرآن والحديث؟

ثم سألني: هل من شيء تطلبه منا؟ أو تشكو من شيء في علاقتك بنا؟

قلت: أشكركم على كل حال. لا شكوى عندي ولا طلب لي، إلا تسهيلات إجراء دخولي: ففي كل سفرة لي إلى مصر. يأخذون الجواز للمراجعة، ويبقى عندهم برهة من الزمن قد تقصر، وقد تطول، ولا أدري ماذا يصنعون بالجواز: إن كان المراد تصوير صفحاته لمعرفة تحركاتي والبلاد التي أزورها، فهذا يمكن عمله في ثوان. وعلى كل حال يتعامل الضباط معي في غاية الأدب والاحترام.

وهنا قال الوزير: على فكرة أنا الذي أمرتهم أن يوقفوك، وأنا الذي أمرتهم أن يعاملوك في غاية الأدب. ويمكن أن تمر علينا في الوزارة لنحل لك هذه المشكلة. ثم نادى ضابطا من رفقائه، اسمه اللواء مصطفى عبد القادر (صار وزيرا بعد) وقال له: يا مصطفى، شوف طلبات الشيخ. فقال اللواء: لا نطلب منك شيخنا إلا أن تتفضل عندنا وتشرب فنجان قهوة، ونحل لك بعدها كل المشاكل. خذ تليفوني عندك، بمجرد وصولك اتصل بي، ويمكننا أن نرسل إليك سيارة تأتي بك من البيت إلى مكتبنا إن شئت.

قلت: شكرا لكم، وأمر المجيء سهل إن شاء الله.

هذا ما جرى بيني وبين زكي بدر في سفارة مصر بالدوحة، تودد وتلطف ومجاملة إلى أبعد حد، ومع هذا عرفت أنه اجتمع بالمصريين في الدوحة، وقال كلاما آخر، هاجمني بالباطل، وقال: إنه يأخذ من مصرف قطر الإسلامي في الشهر ثمانين ألفا، أجر الرقابة الشرعية! وهذا الكلام كله باطل. ونحن لا نأخذ على الرقابة الشرعية أجرا بل مكافأة، وكانت في ذلك الوقت. عشرين ألف ريال في السنة لرئيس الهيئة ولكل عضو فيها.

ثم عرفت أنه ذهب إلى الإمارات العربية المتحدة، وهاجمني هناك، كما هاجم عددا من العلماء، بدون مبرر ولا ضرورة لذلك.

وأدهى من ذلك وأمر: موقفه بعد أن رجع إلى مصر، فما هي إلا مدة قليلة، حتى فتح النار عليّ وعلى كثيرين من العلماء والكتاب والمفكرين والزعماء والصحفيين، ولم يدع أحدا في البلد، إلا صوب إليه سهامه الجارحة، وعباراته البذيئة.

وكان ذلك في اجتماعه بالضباط في مدينة بنها. وكان مما قاله عني: أني شكوت إليه إيقافي وتأخيري في المطار، وأن الضباط يعاملونني بكل أدب واحترام. وزعم أنه قال لي: أما إيقافهم لك، فأنا الذي أمرتهم بذلك، وأما معاملتهم لك بكل أدب، فسأحاسبهم على ذلك! وهو في الشق الثاني كذاب بلا ريب، ولا يتصور من رجل ضيف على قطر - وأنا فيها من أنا - يجابهني بهذا القول، ويقول: سأحاسبهم على أنهم قابلوك بأدب، كيف لم يعاملوك بقلة الأدب؟!

وفي هذه الجلسة السرية التي تجاوز فيها كل الخطوط الحمر في التعبير والتعامل مع شخصيات كبيرة في البلد لها وزنها العلمي أو الفكري أو الديني أو السياسي أو الاجتماعي، أو هذا كله، وكيف أسفّ هذا الإنسان إلى هذا الحد؟؟

وكان يظن أن الجلسة مغلقة، ولن يتسرب خبرها إلى أحد، فهو يتكلم مع ضباطه يقول لهم ما يشاء أن يقوله، دون دين يردعه، أو حياء يمنعه، أو قانون يقمعه، ولكن شاء الله أن يهتك ستره، ويفضح أمره، فاستطاعت جريدة (الشعب) المصرية المعارضة، لسان حال حزب العمل: أن تحصل على نسخة من هذا الخطاب الذي بلغ الغاية في الإقذاع والإسفاف، وتحايلت الجريدة بحيل شتى، حتى استطاعت أن تصدر، وهي تحمل المفاجأة الكارثة، التي أصابت زكي بدر في مقتل، وهاجت عليه مصر كلها. واحتج بشدة كل من جاء ذكرهم بالسوء في هذا الخطاب وما أكثرهم!

كان صدور جريدة الشعب بمثابة حكم بالإعدام الأدبي والسياسي على زكي بدر، وقد رد الكثيرون عليه ببرقيات ومقالات وشكاوى ورسائل.

وقد كتبت أنا شخصيا رسالة مفتوحة إلى الرئيس حسني مبارك أشكو إليه من حكم زكي بدر وطغيانه وافتراءاته على العلماء والدعاة والمفكرين. وقد نشرتها الصحف القطرية، وجريدة الشعب المصرية.

ملتقى الفكر الإسلامي ١٩٨٨م في مدينة (بو حنيفية) عن الحياة الروحية في الإسلام

انعقد هذا المؤتمر في مدينة (بوحنيفية) في ولاية (معسكر) وهي بلدة مشهورة بما فيها من حمامات معدنية، يأتي إليها الناس قاصدين من داخل الجزائر وخارجها.

وكان موضوع الملتقى من الموضوعات المهمة، والموضوعات الشائكة أيضا، وهو ما يتصل بما يسمى (الحياة الروحية في الإسلام) أي بالتصوف والسلوك، وهو موضوع مختلف فيه بين طرفين وواسطة.

منكرو التصوف كله:

الطرف الأول: طرف الذين ينكرون على التصوف كله، سنيه وبدعيه، العملي والفلسفي، المستقيم منه والمنحرف. ويرون أن التصوف نهج دخل على الإسلام مقتبس من المانوية الفارسية، والبراهمية الهندية، والرواقية اليونانية، والرهبانية النصرانية، وما إلى ذلك من المذاهب التي تقوم على المبالغة في التقشف وتعذيب الجسد، في سبيل تصفية الروح. ومن هؤلاء أكثر السلفية، الذين يزعمون أنهم على منهج شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الإمام ابن القيم، وهما على عكس ما يدعون. فلابن تيمية مجلدان من مجموع رسائله وفتاواه حول التصوف والسلوك، ولابن القيم مجموعة غير قليلة من المؤلفات حول التصوف، مثل: عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، وطريق الهجرتين، وروضة المحبين وغيرها. ولعل أوسعها وأهمها: كتابه الشهير (مدارج السالكين شرح منازل السائرين إلى مقامات «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» وهو شرح موسع ومؤصل لرسالة (منازل السائرين) للعلامة إسماعيل الهروي الأنصاري الحنبلي (ت٤٨١هـ).

الآخذون بالتصوف كله سنيه وبدعيه:

والطرف الثاني: هم الذين يأخذون التصوف بكل ما فيه، بعجره وبجره، كما يقولون. على ما يحمل أحيانا من شركيات في العقيدة (القبوريات وأمثالها)، وابتداعات في العبادة، في الصلوات والأذان والأذكار وغيرها، وسلبيات في التربية، مثل قولهم: من قال لشيخه: لِمَ؟ لا يفلح. من اعترض انطرد. ومن باح راح. المريد بين يدي الشيخ كالميت بين يدي الغاسل!!

وأخطر من ذلك التصوف الفلسفي، الذي يقول بأفكار غريبة عن عقائد الإسلام، مثل: الحلول (ما في الجبة غير الله) والاتحاد، أو وحدة الوجود، أنه لا ثنائية في الوجود، فلا يوجد خالق ومخلوق، ولا رب ومربوب، ولا آمر ومأمور. وقد نادى بذلك متصوفون معروفون مثل: الحلاج والسهروردي المقتول وابن سبعين وابن عربي، الذي حير الناس بكتاباته التي يعارض بعضها بعضا.

وقد أصبحت هناك ثقافة صوفية مختلفة، يعبرون فيها عن وجهتهم، ولهم فيها مصطلحاتهم الخاصة، وعباراتهم المؤثرة، التي تحمل من حرارة التعبير، وبراعة التصوير، وقوة التأثير، ما لا يوجد في عبارات غيرهم، التي تغلب عليها الصنعة، وتتسم بالجمود والبرود والهمود.

ومن الأفكار الأساسية التي غلبت عليهم، وراجت عندهم:

١- اعتبار القلب والوجدان والذوق مصدرا من مصادر الحكم الشرعي، فيكتفي أحدهم إذا فعل شيئا أو تركه، أو حث عليه، أو نفر منه، أن يقول: قلبي أمرني أو نهاني.

وهذا ما جعل بعضهم يحملون على العلم الشرعي وعلى أهله، ويعتبرون هذا العلم (حجابا) عن الوصول إلى الله عز وجل.

وكانوا يعيبون على علماء الحديث معاناتهم في طلبه بأسانيده: حدثنا فلان عن فلان عن فلان ... حتى إن أحدهم قيل له: هل لك أن ترحل إلى صنعاء تطلب العلم عن عبد الرزاق؟

فقال لهم: ما يصنع بالأخذ عن عبد الرزاق مَن يأخذ علمه عن الخلاق؟!!

وعندما قيل لبعضهم: مَن حدثك هذا؟ قال: حدثني قلبي عن ربي!!

ليس كل الصوفية يقولون هذا، ولكن هذا شأن الغلاة منهم، وهم معظمون عادة عند سائر الصوفية، وإن لم يقولوا بقولهم.

٢- تفرقتهم بين الشريعة و الحقيقة، وأن هناك أناسا لا يعرفون إلا (ظاهر الشريعة) وهذا مبلغ علمهم، وهناك آخرون جعلوا همهم في طلب (باطن الحقيقة) فغاصوا في الأعماق، ووصلوا إلى المقصود.

وعندهم: أن الشيء قد يكون مذموما أو منكرا في الشريعة، ولكنه محمود أو معروف في الحقيقة. ويستدلون على ذلك بقصة سيدنا موسى مع الخضر، وأن ما كان يعتبره موسى منكرا، كخرقه السفينة، وقتل الغلام، كان من المعروف المشروع عند الخضر، كما بين له ذلك.

ومن أقوالهم المأثورة هنا: مَن نظر إلى الخلق بعين الشريعة مقتهم، ومَن نظر إليهم بعين الحقيقة عذرهم!

لأن الذي ينظر إليهم بعين الحقيقة يراهم -وإن لم ينفذوا أمر الله- قد نفذوا أرادته في كونه، فهم أطاعوا الإرادة، وإن عصوا الأمر.

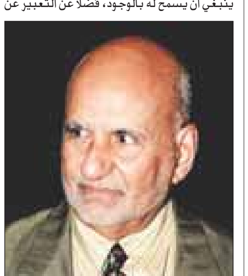
ومعنى هذا: أنه يجب أن نعذر فرعون وهامان وقارون، وكل الكفرة المفسدين في الأرض، والمستكبرين على خلق الله، بل يجب أن نعذر شر خلق الله إبليس، فهو ينفذ إرادة الله فيه!!

وعلى هذا، يقولون: إن الناس لم يعبدوا أحدا غير الله، لأنهم مقهورون على تنفيذ إرادته، ولذا قال ابن عربي: أبى الله أن يعبد أحد سواه «وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ» (الاسراء: ٢٣)، ويعني بالقضاء هنا: القضاء الكوني لا القضاء الأمري التشريعي. وهو ما تعنيه الآية الكريمة. ومن شعره:

عقد الخلائق في الإله عقائدا
وأنا اعتقدت جميع ما عقدوه!

ولذا ورد عن ابن عربي ما يذيب الفوارق بين الأديان، فليس فيها صحيح وفاسد، ولا منسوخ وناسخ، ولا حق وباطل، ومن أشهر ذلك قوله:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي
إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
وقد صار قلبي قابلاً كلَّ صورة
فمرعى لغزلان، ودير لرهبان
وبيت لأوثان، وكعبة طائف
وألواح توراة، ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنّى توجّهتْ
ركائبُه، فالحب ديني وإيماني!



● د. جمال الدين عطية



● د. علي محيي الدين القره داغي



تنفرد **الوطن** بنشر الجزء الرابع من مذكرات العلامة د. يوسف القرضاوي: ملامح سيرة ومسيرة (ابن القرية والكتاب)، وهو يشمل بضعة عشر عاما (حوالي ١٨) من هذه السيرة والمسيرة: وهي سنوات حافلة بالأحداث على المستوى الشخصي في حياة الشيخ المحلي والعربي والإسلامي والعالمي، على المستوى الشخصي يفصح فضيلته لأول مرة عن قصة زواجه الثاني وكيف تطور من عاطفة صادقة إلى زواج على سنة الله ورسوله . كما يتحدث عن تخرج كل أبنائه وتزوج كل بناته . وتعيينه عميدا لكلية الشريعة ومديرا لمركز بحوث السنة والسيرة. ونجاحه في الدعوة إلى تأسيس الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية بالكويت. وعمله رئيسا لهيئة الرقابة الشرعية لعدد من المصارف الإسلامية. واختياره عضوا في المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي، وعضوا في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن (مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي) وعضو مجلس أمناء مركز اكسفورد للدراسات الإسلامية، وعضو مجلس أمناء منظمة الدعوة الإسلامية بالخرطوم، وغيرها. وحصوله في هذه الفترة على بعض الجوائز العالمية.

ومن خلال هذه المذكرات سيمر القارئ بمعظم أحداث العصر في منطقتنا العربية والإسلامية، بحكم أن صاحبها يعيش في قلب هذه المنطقة، وقلب هذه الأحداث، وقد قدر له في هذه المرحلة أن يتفاعل بها ومعها متأثرا ومؤثرا.

وتتميز هذه السنوات بأمرين لهما أهمية قصوى في حياة القرضاوي :

الأول: الانتشار الكبير له في أنحاء العالم في الشرق والغرب، وزيارة كل قارات العالم حتى أستراليا، وأميركا الجنوبية، حتى سماه البعض «الشيخ الطائر».

والثاني: ظهور المد الإسلامي أو الصحوة الإسلامية بقوة في تلك المرحلة، والتى يعتبرها الشيخ جزءا منه، كأنما هي ولده وفلذة كبده . وسنتابع نشر المذكرات يوميا بما فيها من تفاصيل يرويها القرضاوي لأول مرة.

الشيخ الروحي للشعراوي بالجزائر قال لي «إن الله أعطاك نعمة خاصة لا يعطيها إلا للقليلين»

المتوسطون بين الطرفين

هناك فئة الوسط بين طرف حول التصوف الغلاة في النفي، وطرف الغلاة في الإثبات. وخير الأمور أوسطها.

هؤلاء يرون أن دعوى القائلين بأن التصوف كله مستورد من خارج الدائرة الإسلامية، دعوى متطرفة مبالغ فيها. فممّا لا ريب فيه أن جذور التصوف إسلامية، ولذا اجتهد المتصوفة فيما بعد أن يستدلوا لمقاماتهم ومنازلهم بالقرآن أحيانا، وبه وبالسنة أحيانا أخرى. بالعبارة أحيانا، وبالإشارة أخرى، كما فعل صاحب (منازل السائرين)، وكما حاول الإمام الغزالي في كل كتاب من كتبه الأربعين التي ضمّها كتابه الشهير (إحياء علوم الدين): أن يستدل على كل موضوع يتحدث عنه بآيات القرآن وبالأحاديث النبوية، وبالآثار عن الصحابة والتابعين وسلف الأمة، حتى يثبت له المشروعية الإسلامية.

كما يرون أن المتصوفة كغيرهم من سائر الطوائف، مثل: الفقهاء والمتكلمين والمفسرين والمحدثين، يؤخذ منهم ويرد عليهم، فهم بشر غير معصومين. وأعدل ما قيل فيهم ما قاله الإمام ابن تيمية عنهم:

(تنازع الناس في طريقهم: فطائفة ذمت (الصوفية والتصوف) وقالوا: إنهم مبتدعون خارجون عن السنة. ونقل عن طائفة من الأئمة في ذلك من الكلام ما هو معروف، وتبعهم على ذلك طوائف من أهل الفقه والكلام.

وطائفة غلت فيهم، وادّعوا أنهم أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبياء ... وكلا طرفي هذه الأمور ذميم.

و الصواب: أنهم مجتهدون في طاعة الله، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين. وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ، وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب. ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه، عاص لربه.

وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم: كالحلاج مثلا، فإن أكثر مشايخ الطريق أنكروه، وأخرجوه عن الطريق. مثل: الجنيد بن محمد سيد الطائفة وغيره اهـ.

منهج الحياة الروحية في القرآن والسنة

لم يكن قد طلب مني موضوع أعده لهذا الملتقى، ولكن طلب مني الإخوة المسؤولون في وزارة الشؤون الدينية حين وصلت إلى الجزائر: أن أفتتح جلسات الملتقى العلمية بمحاضرة عن (منهج الحياة الروحية كما رسمه القرآن والسنة).

وبالطبع، لم يكن لدي مراجع في الموضوع، ولا أستطيع أن أراجع فيه، لو وجدت المراجع. فتوكلت على الله، واعتمدت على المخزون عندي حول الموضوع، وهو ليس بالقليل، وطفقت أحضر في ذهني محاور المحاضرة، وكانت واضحة لديَّ وضوح الشمس في ضحى النهار.

وتكلمت عن هذه المحاور واحدا بعد الآخر، مستشهدا بالنصوص القرآنية والنبوية، وبآثار السلف، وبأقوال كبار الصوفية المتقدمين أمثال: أبي سليمان الداراني، والفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم، وشيخ المربين الجنيد، والقشيري، وغيرهم، والمتأخرين أمثال: الغزالي، وابن عطاء الله السكندري وحكمه الشهيرة، وكنت أحفظ الكثير منها.

وأنا لا أذكر ما قلته في ذلك الوقت بالضبط، لطول الزمن، ولعل الإخوة في الجزائر، يكونون قد سجلوا هذا الحديث المرتجل، فليس له أي أصل عندي.

ولكني لم أحاول أن أرضي طرفا من أطراف النزاع، من دعاة التصوف وأعدائه، وأمسكت بميزان الاعتدال، مستشهدا بما أنزل الله من الكتاب والميزان.

وكان الحضور في الملتقى من كل الاتجاهات -من أنصار التصوف ومن خصومه- يصغون إلي باهتمام شديد كأن على رؤوسهم الطير! وكان الإخوة المسؤولون قد قالوا لي: خذ راحتك في بيان المنهج القرآني والنبوي وشرحه، فإننا نعول على هذه المحاضرة في بيان موقف إدارة الملتقى واتجاهها المتوازن بين المفْرطين والمفرِّطين في هذا الجانب.

وبعد محاضرتي، علَّق عليها الكثيرون من دعاة التصوف ومن معارضيه، مثنين عليها وعلى توازنها، وعلَّق صديقنا الأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، فقال: لقد كشف لنا الدكتور القرضاوي أن بداخله صوفيا عميقا، يخفيه عنا بأقواله حول السلف والسلفية، والعقل والعقلانية.

وقام شيخنا الشيخ الغزالي وعانقني، وقال لي: لقد كنت موفقا غاية التوفيق في عرض الموضوع، وترتيب أفكاره، وشرحها والاستدلال عليها، وكنت أنظر إليك كأن ملكا يسددك.

وقال الأخ عبد الوهاب حموده: إنك لم تكن تتكلم، ولكن كنت تتدفق كالسحاب الماطر، أو تفيض كالبحر الزاخر.

وقال الشيخ عبد الرحمن شيبان، وغيرهم من الحاضرين ما قالوا، وأنا أقول للجميع ما قاله سيدنا شعيب «وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ» (هود: ٨٨).

كان من أهم التعليقات التي سمعتها في ملتقى الفكر الإسلامي ١٩٨٨م في مدينة «بو حنيفية» بالجزائر على الكلمة التي ألقيتها حول التصوف : كلمة سمعتها ونحن على الغداء من الرجل الصوفي الأول في الجزائر، والذي يتبعه الكثيرون من أبناء الجزائر، وقد كان الشيخ الروحي وأستاذنا المفسر الكبير الشيخ محمد متولي الشعراوي، الذي أخذ عليه العهد عندما كان معارا من الأزهر إلى الجزائر رئيسا لبعثتها، ذلكم هو الشيخ «بو الفايد» فقد جلسنا على مائدة واحدة عند الغداء، وجرى الحديث عن محاضرتي ومدى ما كان فيها من توفيق في حسن شرح المنهج الإسلامي حول الجانب الرباني، الذي هو لباب الدين كله، «قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» (الأنعام: ١٦٢). وهنا قال لي الشيخ بو الفايد: اسمع يا شيخ يوسف، أقول لك: إن الله أعطاك نعمة خاصة، لا يعطيها إلا للقليلين من عباده، ولم أره أعطاها لأحد ممن سمعت.

قلت: حفظك الله، هل لي أن أعرف هذه النعمة؟

قال: ربي أعطاك «اللوْعة»، التي تجعل لكلامك مذاقا غير مذاق الآخرين، ووقعا في النفوس غير وقع الآخرين، فاحمد الله على هذه النعمة، التي لست تتكلفها تكلفا، بل هي منحة من الله، لو تكلفتها لفسدت.

قلت: أرجو أن يعينني الله على شكرها، وأن يجعلني أهلا لها، وأن أكون عند حسن ظن إخواني المسلمين، وأن يغفر لي ما لا يعلمون.

وكأن محاضرتي أنعشت أهل التصوف ورجاله، فاشرأبت أعناقهم، وارتفعت رؤوسهم، وأمست لهم صولة وجولة، وهذا ما جعل إخواننا من تلاميذ مدرسة ابن باديس يتوجسون خيفة، بل ربما ضاقوا ذرعا بما يجري في ساحة الملتقى، وجاءني بعضهم يشكو ويصرخ، قائلا: لقد عاش الشيخ ابن باديس وإخوانه في جمعية العلماء: البشير الإبراهيمي، والعربي التّبسي، وغيرهم، يحملون على ما سموه «الطُّرقية» التي نومت الشعب الجزائري، ورضّته بالواقع، الذي فرضه الاستعمار على البلاد، ولم تعلمه الثورة على الباطل، والتمرد على الاستعمار الكافر الفاجر، الذي أفسد البلاد وأذل العباد!

واليوم نفسح لهم المجال ليعودوا من جديد، ليقودوا الأمة إلى الوراء.. إلى آخر ما قالوا.

قلت: يا إخواني، هونوا على أنفسكم، نحن لا نريد أن ننصب معركة بين الصوفية وغيرهم. أنتم تعلمون أن من منهجي الأساسي، وهو كذلك من منهجكم: أن نبني ولا نهدم، ونجمع ولا نفرق، وأن نحاول التقريب بين المتباعدين ما أمكننا لنقف عند منهج وسط، نتعاون فيه فيما اتفقنا عليه، ونتسامح فيما نختلف فيه.

وأحسب أن محاضرتي كانت كلها تصب في هذا المجرى، وتخدم هذه الوجهة، وقد رضي عنها الطرفان.

قالوا: ولكنهم يريدون أن يستغلوا الموقف لما هو أبعد من ذلك.

قلت: إذا رأينا ذلك يقع بالفعل فلكل حادث حديث، وهناك نعالج الموضوع بالحكمة اللازمة، «وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً» (البقرة: ٢٦٩).

وكان من الإخوة المشاركين معنا في هذا المؤتمر الأخ الأستاذ الدكتور محمد كمال جعفر أستاذ العقيدة والفلسفة في كلية دار العلوم جامعة القاهرة، والمعار إلى كلية الشريعة في جامعة قطر، وقد كانت له دراسات حول التصوف ومصطلحاته. وقد ألقى محاضرة قيمة في هذا الملتقى حول «مصطلحات الصوفية».

وعلى العادة المتبعة في كل الملتقيات، رتبت لي لقاءات خاصة بالطلاب والطالبات في مواقعهم وجامعاتهم أو مدارسهم التي ينزلون، أو اللائي ينزلن بها. وأجبت عن تساؤلاتهم المتنوعة في أمور الدين والحياة، ولا سيما ما يتعلق بالعمل الإسلامي، والحركة الإسلامية.

والكلام في هذه الموضوعات يتطلب قدرا من الوعي والحكمة ومعرفة الواقع، حتى لا يؤول كلامي على غير وجهه، ويُحمّل ما لا أقبله لنفسي، فلا أحب أن أحسب على فئة بعينها، بل أحب أن أكون للمسلمين جميعا.

وفي الملتقى، كانت هناك اللقاءات العامة بين العلماء والشباب، الشباب يسألون، والعلماء يجيبون، في كل ما يخطر لهم من قضايا الإسلام، أو العصر والمجتمع والحياة، وكان الطلاب يوجهون بعض الأسئلة الخاصة إلى شيوخ معينين من الحضور، وكثيرا ما يكون لي نصيب الأسد فيها، وكنت أجيب عنها بما يفتح الله علي، سائرا على نهجي الوسطي الذي آمنت به، ونذرت نفسي لإشاعته وتأصيله وتثبيته، ولله الحمد رب السماوات، ورب الأرض، رب العالمين.

عشنا في رحاب هذا البلد المعروف بحماماته المعدنية، وعرض علي الإخوة أن أبقى بعد الملتقى أياما، أستفيد فيها من هذه الحمامات التي يقبل عليها الناس من



● د. طارق البشري

كل حدب وصوب، وكنت في أشد الحاجة إلى ذلك. ولكن مشكلتي دائما هي الوقت الذي أراه يضيق يوما بعد يوم عن واجباتي التي تتكاثر هي الأخرى يوما بعد يوم.

ففضلا عن التزاماتي الإدارية من عمادة كلية الشريعة بجامعة قطر، وإدارة مركز بحوث السنة والسيرة بها، وهذا عدا المحاضرات المنهجية التي لا زلت ملتزما بها لبعض طلابي. كان عندي شيء عاجل لم أعد أذكر ما هو، لا بد أن أعجل سفري لإدراكه مع أنا كنا في الإجازة الصيفية، ولذلك لم ابق إلى آخر يوم في الملتقى لأعود بالطائرة الخاصة مع الوزير والمشاركين، بل استأذنت منهم، لأذهب بالسيارة إلى قسنطينة التي لم تكن تبعد كثيرا عن مدينة الملتقى، ومن هناك نأخذ الطائرة إلى العاصمة. وانتقلت بالسيارة إلى قسنطينة، وأذكر أنه كان معي من الإمارات العربية: الأخ الدكتور على العجلة، رئيس تحرير مجلة «منار الإسلام» في ذلك الوقت. وبعد وقت قصير قضيناه في قسنطينة توجهنا إلى الجزائر العاصمة، وبتنا فيها ليلة، استقللت بعدها الطائرة الجزائرية التي نقلتني إلى القاهرة.

لقائي د. مصطفى الفقي

ومن الشخصيات المصرية التي لقيتها في قطر: د. مصطفى الفقي، الذي كان يعمل مستشارا في مكتب رئيس الجمهورية «حسني مبارك». وقد دعي إلى الدوحة لإلقاء محاضرة عامة في نادي «الجسرة» الثقافي الذي تعود أن يدعو الشخصيات العربية المرموقة من رجالات الأدب والعلم والفكر والسياسة، وإن عرف أنه لا يدعو أحدا من ذوي الاتجاه الإسلامي المعروف. وإنما سمي النادي «نادي الجسرة» نسبة إلى المنطقة التي قام فيها من الدوحة، وهي منطقة الجسرة، وكانت دعوة د. الفقي في شتاء سنة ١٩٨٩م.

وقد دعا قبل ذلك: أحمد بهاء الدين، وأنيس منصور وغيرهما، من مصر وغيرها من البلاد العربية.

وقد حرصت على أن أحضر المحاضرة، وأن ألتقي المحاضر بعد ذلك في حجرته أو جناحه في الفندق، مرحبا به في قطر، وقد احتفى بزيارتي له، وقال لي: لقد كان من أهداف زياتي لقطر أن أسعد بلقائك، وأتعرف عليك وجها لوجه، بعد أن عم صيتك الآفاق. وقال: وهذه زوجتي تشهد أن لقاءك هو من المقاصد الأساسية لزيارتي، وإننا في مصر نعتز بك ونعتبرك رمزا للإسلام المعتدل المستنير، الذي ينظر إلى العالم من أفق واسع هو أفق التعاون والتسامح، وأنك بمفردك مؤسسة دينية تعادل المؤسسة الرسمية، وقد تتفوق عليها. وقد رزقك الله حب الناس في كل مكان.

ثم قال: وأن هذا ليس رأيي وحدي، ولكنه رأي جمهور المثقفين في مصر، بل أقول لك: انه رأي الجهات الرسمية، فالجميع يقدرك، ويعدك فخرا للأزهر ولمصر، ويعرف منزلتك في فقه الدين وحسن عرضه، والدفاع عنه أمام من يعاديه.

وهنا قلت له: فلماذا يوقفونني في المطار كلما دخلت إلى مصر، ويأخذون جوازي ولا يعيدونه إلي إلا بعد ساعة، أو تزيد؟

قال: من يقوم بذلك؟

قلت: يقوم به المسئولون عن الأمن: رجال زكي بدر «وزير الداخلية في ذلك الوقت» وأمثالهم في المطار، وإن كانوا - والحق يقال - يتعاملون معي في غاية الأدب والذوق.

قال: سأنقل هذا إلى الجهات العليا، وأعتقد أنهم لا يقبلون ذلك، ولا يرضيهم.

قلت له: أنا لا يهمني كثيرا موقفي بوصفي فردا، وإن كنت أحب أن أعامل كما يعامل المواطنون الشرفاء في الأوطان الحرة الكريمة، ولكن الذي يهمني أكثر هو العلاقة بين الحركة الإسلامية والحكومة، فليس من مصلحة أمتنا هذا التوتر أو الصدام الظاهر والخفي بين الطرفين. وكم أتمنى أن يكون لك دور في إصلاح ذات البين، والتقريب بين الطرفين.

قال: هذه أمنية نتمناها جميعا، وندعو الله أن يكون لنا حظ في تحقيقها، أو تقريبها.

وبعد أن تحدثنا في القضايا العربية والإسلامية التي تشغل الساحة يومئذ، ومنها: العلاقة بين مصر وإيران، والموقف بين السنة والشيعة، وكانت آراؤنا متقاربة إلى حد كبير. ثم ودعته وانصرفت، متمنيا له إقامة طيبة في الدوحة، وعودة بالسلامة إلى مصر.

● الدكتور حسن الترابي

ندوة قضايا المستقبل الإسلامي

في سنة ١٩٨٩م انعقدت بالجزائر حول «قضايا المستقبل الإسلامي» التي دعا إليها الكاتب الصحفي المعروف محمد الهاشمي الحامدي، الذي أسس في لندن مع جماعة من المفكرين والمهتمين «مركز دراسات المستقبل الإسلامي» بالتعاون مع معهد الدراسات الإستراتيجية بالجزائر، الذي كان يديره الأستاذ محمد بايزيد.

وكان الحامدي قد لقيني منذ أشهر في أمريكا في مدينة واشنطن، حيث نزلت ضيفا على الإخوة في المعهد العالمي للفكر الإسلامي، وقد أقمت أياما بينهم، اجتمعت فيها بقياداتهم وبأبرز العاملين في المعهد، على عادتي كلما مررت بواشنطن. أخبرني الحامدي عن مركزه في لندن، وعن نيته في عقد الندوة، وأنه سيدعو إليها عددا ممن تحبهم ويحبونك من المفكرين الإسلاميين - وغير الإسلاميين أيضا - من مصر والسودان وبلاد الشام والغرب العربي. ولكي يغريني بالحضور، قال: إن الندوة ستقام بالبلد الذي تحبه ويحبك: الجزائر.

وطلب الحامدي إلي أن يكون بحثي في هذه الندوة عن «أولويات الحركة الإسلامية في العقود الثلاثة القادمة» لما رآني شديد لاهتمام بما أسميته «فقه الأولويات» الذي ركزت عليه، وكررت الحديث عنه في السنوات الأخيرة، ثم ألفت فيه كتابا. وهو جزء من اهتمامي بترشيد الصحوة الإسلامية، وتسديد الحركة الإسلامية، فهذا همي الأكبر، وما أعظمه وأثقله من همم أدعو الله تعالى أن يوفقني ويعينني على القيام بحقه، فلا حول ولا قوة إلا به. وهو المستعان في كل عظيمة.

ولم يسعني إلا أن أستجيب لهذه الدعوة، وأعددت بحثي الذي جعلت عنوانه: «أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة». ولم أشأ أن أتقيد ب «العقود الثلاثة» كما طلب مني: لأني لا أستريح لمثل هذا التحديد الصارم، في هذا الزمن السريع المتغير، الحافل بالمفاجآت الكبيرة.

وما كتبته في هذا البحث ليس جديدا كل الجدة، إنما هو امتداد وتكملة للاتجاه النقدي البناء، الذي بدأته من قبل، في «الحلول المستورد وكيف جنت على أمتنا» و«الحل الإسلامي فريضة وضرورة» و«ظاهرة الغلو في التكفير» و«أين الخلل؟» و«الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف» و«الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي» وغيرها. ولقد ألقيت خلاصة بحثي شفهيا على المشاركين، وقد وقع موقع القبول منهم. ولا سيما ما يتعلق بنقد الحركة الإسلامية، وكان ممن أثنى عليه شيخنا الغزالي الذي أمتعنا ببحثه قبل هذا، والأستاذ توفيق الشاوي، والمستشار طارق البشري، والأستاذ منير شفيق، والأستاذ عادل حسين رحمه الله، والأستاذ راشد الغنوشي، والدكتور حسن الترابي، أما المفكر المغربي المعروف المهدي المنجرة، فأطال الثناء على البحث. وقال: كنت أتعلم وأستمتع في الوقت نفسه كأني أستمع إلى سمفونية عالمية. وكان مما أخذه الأستاذ المنجرة على هذه الندوة: أن المرأة غير ممثلة فيها كما ينبغي، فلم يكن يمثل النساء غير الأخت أسماء بن قادة، ثم أضيفت إليها بعد ذلك الأخت هالة. ومما أذكره في هذه الندوة: أني تقدمت بمقترح مهم للمشاركين، وهو فكرة: إنشاء اتحاد لكتاب المسلمين. فكما أن هناك اتحادات للكتاب المحليين، واتحادا للكتاب العرب، فينبغي أن يكون هناك اتحاد لأرباب القلم والفكر من الإسلاميين.

ولاقى هذا الاقتراح القبول من الحضور بصفة عامة، وإن كان الأخ الدكتور محمد عمارة، أبدى ملاحظة أن بعضنا عضو في اتحاد الكتاب العرب، وأن مثل هذا الاتحاد قد يتعارض مع ذاك.

وقلت له: نحن نقول في تراثنا: لا تعارض بين الخاص والعام، فكما أن بعضنا عضو في اتحاد قطري في بلده، وهو كذلك عضو في الاتحاد العربي، ولم يجد غضاضة ولا تناقضا في ذلك. كذلك لا تعارض بين اتحاد الكتاب العرب، واتحاد على مستوى العالم الإسلامي، بل على مستوى المسلمين في العالم كله.

وكان من المتحمسين لفكرة هذا الاتحاد: شيخ القانونيين أ.د. توفيق الشاوي، متعه الله بالعافية، ومعه أ.د. محمد سليم العوا اللذان أخذا على عاتقهما، صياغة الفكرة صياغة قانونية. على أن يكون مقر هذا الاتحاد هو: الجزائر، التي رحب المسؤولون فيها بالفكرة، وباستضافة المؤسسة التي تنشأ لخدمتها.

وشاء الله تعالى أن تتغير الأمور في الجزائر بعد ذلك، وتدخل في دوامة من الصراع الدموي، دميت له قلوبنا، قبل أن تدمع أعيننا. وظل ذلك إلى سنوات، لم نكن نملك أمامها إلا الحوقلة والاسترجاع.

واختفت فكرة الاتحاد، ولكنها لم تمت، بل اختزنتها، حتى ظهرت فكرة أخرى في صورة «اتحاد عالمي لعلماء المسلمين» الذي حقق الله به ذلك الأمل المنشود، في شكل جديد، وتحت عنوان جديد.

زيارة البرازيل

وفي صيف سنة ١٩٨٩م دعيت لزيارة البرازيل في أمريكا الجنوبية، والتقاء المجموعة الإسلامية فيها، وخصوصا في مدينة «ساو برناردو» التي تتركز فيها الجماعة الإسلامية، وخصوصا من لبنان.

وكان الذي وجه الدعوة إلي هو الأخ الداعية الكريم الأستاذ أحمد الصيفي، الذي التقيت به كثيرا في عدد من المؤتمرات ممثلا لمسلمي البرازيل.

وقد رتبت أموري على أن أذهب إلى البرازيل من لندن، بعد حضوري جلسة مجلس أمناء مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية. ومنها أنطلق إلى مدينة سان باولو، ومنها إلى المدينة المنشودة.

وفي المطار وجدت الإخوة يستقبلوني، وقد حملوني إلى مدينتهم، وأسكنوني في أحد فنادقهم. وهناك فوجئت بأنهم في فصل الشتاء لا في فصل الصيف، فنحن في شمال الكرة الأرضية وهم في جنوبها، فشتاؤهم صيفنا، وصيفهم شتاؤنا. ولهذا يستورد الناس من عندهم فاكهة الصيف في الشتاء عندنا، والعكس.

وهو نفس ما وجدته في استراليا من قبل.

أقام الإخوة مؤتمرا دعى إليه عدد كبير من الجالية الإسلامية في المدينة التي تسكن فيها، وفي غيرها من المدن.

وتحدث فيه عدد من العلماء، أذكر منها صديقنا الجليل الشيخ خليل الميس مفتي البقاع في لبنان، الذي كان له تأثير قوي على الحاضرين، ولا سيما من أهل لبنان.

وتحدثت في المؤتمر، ولا أذكر الموضوع الذي تحدثت فيه، كما خطبت الجمعة في بلدة يكثر فيها اللبنانيون. وأحسب أن مضمون الخطبة كان عن واجبات المسلم المغترب نحو نفسه، ونحو أسرته، ونحو إخوانه وجماعته حيث يقيم، ونحو الآخرين من غير المسلمين، ونحو أمته الإسلامية في المشارق والمغارب. كما نظم الإخوة محاضرة لي في المدينة الكبرى «سان باولو» في الجامع الكبير فيها، وكان معي على ما أذكر الشيخ خليل الميس أيضا.

والتقيت عدة مرات لقاءات خاصة مع الشباب الذي يحملون لواء العمل الإسلامي، والدعوة الإسلامية.

كان الأولى - وقد زرت هذه القارة الفسيحة - أن أتجول في بعض أقطارها، مثل الأرجنتين وغيرها. فليس من اليسير أن تتاح لي مثل هذه الزيارة إلا بعد زمن يعلمه الله. ولكن الزحمة التي أشكو منها أبدا، زحمة الواجبات المتكاثرة، التي تصطدم بالأوقات المحدودة، جعلتني أعتذر عن عدم تلبية الطلبات التي جاءتني من هنا وهناك. ولا حول ولا قوة إلا بالله. لم يحدث في هذه الزيارة شيء ذو بال يستحق التسجيل والتنويه. ولكني أردت هنا أن أسجل ملاحظة مهمة بالنسبة للمسلمين في هذه القارة. فإن الجيل الأول، أو قل: الأجيال الأولى من المسلمين، التي بدأت الهجرة إليها، ضاعت تماما، وذابت في أهل البلاد، فكثيراً ما كانوا عزابا، وتزوجوا غير مسلمات، فولد أبناؤهم في بيئة غير إسلامية، الدين غير الدين، واللغة غير اللغة، والتقاليد غير التقاليد، والرجال مشغولون، والمرأة هي التي تنشئ الأولاد على عقيدتها ولغتها ومفاهيمها وتقاليدها. ولهذا وجدنا من المسلمين من تكثلك، وإن بقي في اسمه ولقبه ما يشير إلى أصله، مثل كارلوس منعم، الذي انتخب رئيسا للجمهورية في الأرجنتين وأصله مسلم سوري. ثم كان الجيل الثاني، أفضل حالا مما قبله، فبقي متمسكا بعقيدة الإسلام. وإن لم يكن دائما متمسكا بمثله وأخلاقياته وسلوكياته. ثم جاءت الصحوة الإسلامية المعاصرة، فردت المسلمين في كل مكان إلى الاستمساك بدينهم، والاعتصام بحبل الله جميعا، والالتزام بالإسلام عقيدة وعملا، وشعورا وسلوكا. وقد أصبح منهم وفيهم الدعاة المرشدون الذين يمسكونهم على الصراط المستقيم، ويجنبونهم الوقوع في المهالك. ويرشدونهم إلى التجمع على دينهم، وإنشاء المؤسسات الدينية والتربوية والاجتماعية، التي تحفظ عليهم هويتهم.

وفاة الشيخ عبد الله الأنصاري

في ١٣ من شهر ربيع الأول سنة ١٤١٠هـ الموافق ١٥/١٠/١٩٨٩م وافانا بالدوحة نبأ ذرفت له الأعين، وحزنت له القلوب، ولم نملك إلا أن نقول ما علمناه القرآن في استقبال مصائب لدينا: «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» (البقرة: ١٥٦).

إنه نبأ وفاة الأخ الحبيب، والصديق الكريم، العالم الجليل، والمربي النبيل، والداعية الكبير، والمجاهد الغيور، الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، الذي جاءه أجله، وهو يعالج في لندن، بعد أن اغتسل وتطهر، وقال لمن حوله: مرحبا بلقاء ربي! ونقل جثمانه إلى الدوحة، وصلى عليه الألوف من أبناء قطر، وممن يقيمون على أرضها. الذين ودعوه بقلوب مكلومة، وألسنة تتضرع إلى الله بالدعاء له أن يغفر له ويرحمه، ويسكنه الفردوس الأعلى، ويتقبله في الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا.

عرفت الشيخ عبد الله منذ أول يوم تسلمت فيه عملي في وزارة معارف قطر مديرا للمعهد الديني الثانوي في ٤ ربيع الآخر ١٤٨١هـ الموافق ١٥ سبتمبر ١٩٦١م، حيث كان الشيخ أول من زارني في مكتبي، وأنعم وأكرم به من زائر. لقد دخل علي، فوجدت رجلا بشوش الوجه، باسم الثغر، عذب الحديث، سمح النفس، تستريح نفسك إذا نظرت إليه، وينشرح صدرك إذا تحدثت إليه، وتحس بأنه رجل من أهل الصدق والإخلاص، هذا هو انطباعي عنه من أول لقاء. والكتاب يقرأ من عنوانه كما يقولون.

لقد بادرني بالعناق، وقدم إلي نفسه، وقال: أخوك عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، أحد طلبة العلم في قطر، ومدير مدرسة صلاح الدين الأيوبي. نحن هنا أهلك، وقطر بلدك، وكلنا في خدمتك، وقد أحببناك قبل أن نراك، وازددنا لك حبا بعد لقائك. وقد رددت على تحية الشيخ بمثلها أو بأحسن منها، وبادلته عاطفة بعاطفة، وقلت له: أنا مستبشر بأنك أول زائر لي في مكتبي، وهذا يبشر بالخير.. ثم ودعت الشيخ مشكورا، بعد أن دعاني إلى أن أزوره في منزله، وألاّ أتردد في طلب أي شيء أحتاج إليه.

ومن ذلك اليوم بدأت علاقتي بالشيخ عبد الله واستمرت، ولم تزدها الأيام إلا قوة على قوة، فالشيخ كنز من الفضائل وخصال الخير، يكتشفها فيه كل من عرفه واقترب منه، وكلما زاد منه قربا، ازداد له حبا، وهو ما لمسته بنفسي ولمسه غيري. وإني لأدعو الله تعالى أن يظلنا ببركة هذا الحب في الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

أول زيارة للشيخ في مجلسه:

وما هي إلا أيام قليلة حتى زرت الشيخ عبد الله في بيته بين المغرب والعشاء، أعني بيته القديم الذي كان قريبا من مسجد الشيخ غانم، وكان مجلسه مجلسا عربيا، نجلس فيه على الأرض المفروشة متكئين على الوسائد، وكان مجلس الشيخ يتميز بأنه مجلس ومكتبة في الوقت ذاته، ففي جدرانه الأربعة حُفرت مكتبات في أصل البناية هُيئت تهيئة حسنة، ومُلئت رفوفها بالكتب المصنفة على العلوم الشرعية، واللغوية، والأدبية، من التفسير، وعلوم القرآن، والحديث وعلومه، والفقه على مختلف مذاهبه، والعقيدة، والتاريخ، والنحو، والصرف، والأدب، والبلاغة.

ومن حسن الطالع أني حين زرت الشيخ وجدته يقرأ مع بعض جلسائه في بعض كتب الحديث، فطلب مني الشيخ أن أعلق على الحديث الذي قرئ، ففتح الله عليّ، وقلت كلاما مرتجلا بغير إعداد ولا ترتيب، وكان الشيخ يهتز طربا كلما سمعني أشرح وأفصّل، فدلني هذا على إخلاص الرجل وتجرده، فإن بعض ذوي النفوس المريضة لا يسره أن يظهر عالم غيره، بل ينغص ذلك عليه ويسوؤه، وجاءت صلاة العشاء، فأبى الشيخ إلا أن يقدمني للإمامة، فزاده ذلك عندي رفعة وعلوا.

توثق العلاقات مع الشيخ:

وتوثقت العلاقات بيني وبين الشيخ، وتعددت الزيارات واللقاءات والجلسات العلمية، والندوات القرآنية، التي كان الشيخ يعقدها مساء كل خميس في المسجد المجاور له، وكان يحرص أن أختتمها بدرس أو خواطر قرآنية كلما حضرت، وكلما أقام ندوة أو احتفالا بمناسبة من المناسبات حرص على أن أكون في مقدمة المتحدثين.

سلفيّ سمح على منهاج النبوة: كان الشيخ الأنصاري شعلة من النشاط والحركة والغيرة الدينية، وكان رضياً محببا إلى كل من عرفه من الناس، وكان سرُّ ذلك يرجع إلى سماحة نفسه، وسعة صدره، وحسن خلقه، ورقة طبعه، فهو رجل سهل سمح، موطأ الأكناف، كريم النفس، مبسوط اليد، يألف ويُؤلف، يُحبُّ ويُحَبُّ، يرحم الصغير، ويوقر الكبير، ويقري الضيف، ويبذل للمحتاج، ويعين على نوائب الدهر، تقوم حياته على المياسرة لا المعاسرة، والتسهيل لا التعقيد، والتسامح لا التعصب، والمرونة لا الجمود، ظهر هذا في علمه وفقهه، كما ظهر في تعامله وسلوكه. فهو يقتبس من المنهج النبوي: «يسروا ولا تسعروا، وبشروا ولا تنفروا» كما اقتبس من الخلق النبوي: أنه ما خير بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً ، ومن خلق السماحة لدى الشيخ أنه كان قريبا من الذين يعملون معه، ما كانوا يشعرون أنهم مع رئيس يستعلي عليهم، بل مع أبٍ يحنو عليهم، ولا غرو أن استمر الذين عملوا معه سنين بل عقودا، لم يتغير عليهم، ولم يتغيروا عليه.